



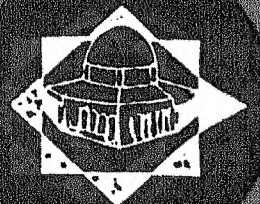
مركز الآثار والتراث الفلسطيني

دراسات في تاريخ وآثار فلسطين

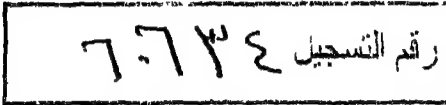
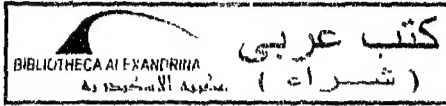
وقائع الندوة العالمية الاولى للآثار الفلسطينية

المجلد الرابع

المحرر العلمي الدكتور شوقي شعث
مدير مركز الآثار والتراث الفلسطيني



مركز الآثار والقراءة الفلسطيني



دراسات في تاريخ وآثار فلسطين

وقائع الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية

المجلد الرابع

المحرر العلمي : الدكتور شوقي شعث

مدير مركز الآثار و التراث الفلسطيني



جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى - 2001 م

الأوائل للنشر والتوزيع والخدمات المطبعية

دمشق - ص.ب: 3397 (أو) 10181

تلفاكس 2248255

اشرف على التصميم و الطباعة د. سامي برقاي

دراسات في تاريخ و آثار فلسطين المجلد الرابع

المحتوى :

- كلمة المحرر ٥
- د. شوقي شعث
- ١- العصر الحجري القديم حتى نهاية العصر البرونزي القديم ٩
- د. معاوية ابراهيم و د. زيدان كفاقي
- ٢- آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث ١٨٥
- د. محمد خير ياسين و مصطفى سليمان
- ٣- فلسطين في العصور العربية الاسلامية ٢٠١
- د. شاكر مصطفى
- ٤- النقود العربية الاسلامية ٢٧١
- د. محمد أبو الفرج العش
- ٥- الفنون الاسلامية المبكرة في فلسطين ٣٧٧
- د. صفوان خلف التل
- ٦- الأسواق والخانات في فلسطين في العهود الاسلامية ٤٣٥
- د. عبد العزيز محمود

تقديم

هذا هو المجلد الرابع في سلسلة دراسات في تاريخ وآثار فلسطين فقد ظهرت المجلدات الثلاث الأولى في مطلع الثمانينات وضمت البحوث العلمية التي قدمت في الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية التي عقدت في جامعة حلب. لقد قامت جامعة حلب بطباعة المجلدات الثلاث التي أشرت إليها المراجع العلمية في شتى أقطار المعمورة وتشجيعاً من هؤلاء وأولئك قمنا بتوجيه سام من سلطات البلاد العليا في سوريا. وقد لاقت تلك المطبوعات استحسان بإعداد المجلد الرابع من هذه السلسلة ونتمنى أن تستمر هذه السلسلة مستقبلاً في الصدور تكميماً للفائدة المرجوة منها.

البحوث المنشورة في المجلد الرابع هي في الأصل بحوث أعدها الباحثون المشاركون بناء على طلب من المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وبالتعاون مع دائرة الثقافة والإعلام الفلسطينية لتكون في كتاب بمجلدين تحت عنوان "الآثار الفلسطينية" وكان محرر ذلك الكتاب المشروع هو المحرر العلمي لهذا الكتاب إلا أن بعض الباحثين الذين كلفوا لم يتمكنوا من إرسال بحوثهم إلا أصحاب البحوث التي تنشر في هذا المجلد ونظراً للظروف التي أحاطت بالظروف المعقدة التي تعيشها المنطقة فقد أهمل كتاب الآثار الفلسطينية وطلعت على السطح الأوليات حسب ترتيب المسؤولين عن الشؤون الثقافية في المنظمة العربية وفي القيادة الفلسطينية وبعد قرابة خمسة عشر عاماً رُوي نشر هذه الأبحاث الهامة التي عالجت كثيراً من الموضوعات التي لم يتطرق إليها أحد، جاء التفكير في طبعها كي يطلع عليها الباحثون والدارسون العرب فأعيد النظر في البحوث ووجدت أنها مناسبة للنشر، بل من الضروري أن تنشر ورغبة في طباعة جميع البحوث التي أعدت لكتاب الآثار الفلسطينية بالتعاون مع

المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم وقد كتبت اليها طالبا إن كانت هناك بحوث لديها غير البحوث المتوفرة لدي، ولكنني لم أتلّق جوابا حتى الآن . وانطلاقا من ضرورة نشر تلك الدراسات والتزاما بما وُعد به الباحثون من أن هذه البحوث لا بد وأن تنشر، جاءت الرغبة في نشرها وطباعتها. وهكذا كان الالتزام بنشرها ضرورة ثقافية وضرورة وطنية والتزاما بما وعدنا به الباحثون.

يضم هذا المجلد ستة بحوث تتراوح ما بين الطويل والقصير إلا أنها جميعا تسد فراعا كبيرا في الدراسات التاريخية والأثرية الفلسطينية تصدى لكتابتها باحثون مشهورون من الوطن العربي يأتي في طليعتهم: المرحوم الدكتور شاكر مصطفى المؤرخ العربي السوري الذي رافق القضية الفلسطينية وقدم لها الكثير إبان عمله الجامعي وعمله في السلك السياسي السوري ثم في جامعة الكويت، وظل حتى آخر حياته حريصا على الإسهام في كتابة ودراسة تاريخ فلسطين بشكل خاص وتاريخ الأمة العربية بشكل خاص. ومنهم المرحوم الدكتور محمد أبو الفرج العشي الأثري السوري المتخصص في النقود العربية الإسلامية ، شارك في الندوة العالمية للآثار الفلسطينية ثم تأتي مشاركته هذه بمقالة طويلة حول النقود العربية المضروبة بفلسطين مبينا فيها أهمية فلسطين الاقتصادية والسياسية والتي تجدها في مراكز سك النقود بفلسطين. ومنهم الدكتور صفوان التل الباحث الأردني المتخصص في الفنون الإسلامية وقد شارك بدراسة جادة حول الفنون المبكرة بفلسطين ومنهم عدد لا بأس به من الباحثين الأردنيين ذوي الأصول الفلسطينية وهم متخصصون في دراساتهم وبحوثهم في فلسطين وأكثرهم بل ربما جميعا ممن كان يعمل في سلك التدريس الجامعي والبحث العلمي.

مثل هؤلاء الباحثين لا يمكن أن يغض المرء الطرف عن بحوثهم سيما وأنها جاءت لتعالج طرفا من القضية الثقافية الفلسطينية، ونحن لازلنا مقصرين في هذا الباب، إذا تذكرنا أن صراعنا مع العدو الصهيوني هو في ماهيته صراع ثقافي أبدي لا يمكن لاتفاقية أو اتفاقات جاءت من هذا الطرف أو ذاك، ان توقف ذلك الصراع، إنه متأصل في جذورها التاريخية وفي عقيدتنا وفي ثقافتنا فلا يمكن لأحد كائنا من كان أن يلغي هذا الصراع أو أن يخفف منه فهو مستقر في وجدان الناس يورثونه لابنائهم جيلا بعد جيل.

إن الثقافة العربية قوية ولا خوف عليها، إلا أنه من الضروري أن تؤصل هذه الثقافة من وقت لآخر، وما كتبنا هذا الذي نقدمه اليوم إلى القارئ إلا وسيلة من وسائل التأصيل الذي تحتاجه خاصة ما يرتبط بالصراع مع العدو الصهيوني الذي لا يترك مناسبة إلا ويحاول تشويه التاريخ العربي الإسلامي، بل حاول تشويه القرآن الكريم وفشل أيضا، وعاد ليجد لنفسه مكانا في التاريخ بعيدا عن الصراع إلا أنه لم ينجح.

ترتكز الصهيونية على ظاهرة القوة التي تتباهى بها وهي ولا شك ليست قوة ذاتية إنما قوة مستوردة ولا يمكن لمثل هذه القوة أن تصمد مع الزمن وهي بمقاييس التاريخ قوة زائلة لا محالة، إن هذا الكلام هو ما يقوله التاريخ، وحكم التاريخ قوة لا تقهر.

من هنا جاء إيماننا الراسخ بتراثنا وتاريخنا وثقافتنا.

كم كنت أتمنى أن يتبنى مثل هذا الكتاب مؤسسة أو مركز رسمي أو شبه رسمي، إلا أن هذا غائب في الوقت الحاضر لأسباب عدة ولعل الأيام المقبلة تسمح بإصدار مثل هذه الدراسات.

أعود لأقول إن هذا الجهد المتواضع الذي بذلناه لابد أن يجد القبول لدى جمهورنا العربي

والله ولي التوفيق.

المحرر العلمي

د. شوقي شعث

العصر الحجري القديم حتى نهاية العصر البرونزي القديم

د. معاوية ابراهيم

د. زيدان كفافي

تسمية فلسطين

أقدم الأسماء التي تنطبق على الأرض الفلسطينية ووردت بوضوح في المصادر التاريخية "أرض كنعان" كما جاء ذلك في مسلة ادرمي ملك الالاخ (تل عطشانة) من منتصف القرن الخامس عشر ق.م. وأقدم ذكر لهذه التسمية في المصادر المسمارية من نوزي يعود إلى نفس الفترة تقريباً، وهذه التسمية (Kinavna أو Kinavvi) تقارب الصيغة التي وردت كثيراً في رسائل تل العمارنة (Aharoni 1967, 61).

غالباً ما يكون أصل كلمة فلسطين "فلسطين" التي ترد في السجلات الآشورية من أيام الملك الآشوري أدد نيزاري الثالث (حوالي ٨٠٠ ق.م)، إذ يذكر هذا الملك على مسئلته أنه في السنة الخامسة لحكمه أخضعت قواته فلسطين (Palastu) وأجبرت أهلها على دفع الضريبة. وفي سنة ٧٣٤ ق.م جعل تجلات بيلاسر الثالث "أرض فلسطين" هدفاً له، وتورد تسمية مشابهة "أرض الفلسطينيين" في العهد القديم. ويبدو من الروايات الآشورية أن المنطقة كانت تضم مجموعة من الدول الفلسطينية التي كان أشهرها الدولة الساحلية حول مدينة أسدود العاصمة. كما كانت هذه الدول تتحالف فيما بينها خاصة عندما كان يقع عليها هجوم خارجي، ويرد في أحد النصوص الذي يتضمن اتفاقية بين الملك الآشوري اسرحدون وبعل ملك صور ذكر اسم "أرض الفلسطينيين" بجانب "أرض آشور". على أية حال يستنتج من النصوص المختلفة على أن المقصود من هذا المصطلح الساحل الفلسطيني، إلا أنه في غالب الأحيان قصد به كامل الأرض الفلسطينية الممتدة بين سيناء جنوباً وغور الأردن شرقاً.

ترتكز صيغة التسمية عند هيرودوت (HERODOT) على أسس آرامية "بالستين" وتجد عنده أحياناً أنه مكان يطلق على الجزء الجنوبي من سوريا اسم "سوريا الفلسطينية" بجوار فينيقيا وحتى حدود مصر. واستعمل هذه التسمية المؤرخون الرومان من أمثال أغارثارشيدس (AGARTHARCHIDES) وسترابو (STRABO) وديودور (DIODOR). ويشير بعض هؤلاء إلى المنطقة الجبلية من فلسطين على أنها "يوديا" اعتماداً على النص لبعض التوراتي ولدى تفسيرهم حوادث التوراة أو استشهادهم بها مثل "أدوميا" للجنوب من فلسطين

و"يودا" للمنطقة الجبلية الجنوبية و"سمرتيس" لمنطقة سبسطية والجليل لشمالى فلسطين وبيريا لشرقى الأردن (NOTH 1971, 294-308).

أصبح اسم فلسطين فى العهد الرومانى ينطبق على جميع الأرض المقدسة وغدا مصطلحاً رسمياً منذ عهد هديران. انتشر استعمال الاسم فى الكنيسة المسيحية على نطاق واسع وكان يشار إليه دائماً فى تقارير الحجاج المسيحيين. أما فى العهد الإسلامى فقد كانت فلسطين جزءاً من بلاد الشام ويقول الإمام البغدادى فى معجم البلدان (الجزء الرابع ٢٧٤-٢٧٥) بأن فلسطين "هى آخر كور الشام من ناحية مصر، قصبتها البيت المقدس، ومن مشهور مدنها عسقلان والرملة وغزة وأرسوف وقيسارية ونابلس وعمان ويافا وبيت جبرين، وقيل فى تحديدها: إنها أول أجناد الشام من ناحية الغرب، وطولها للراكب مسافة ثلاثة أيام، أولها رفح من ناحية مصر وآخرها اللجون من ناحية الغور وعرضها من يافا إلى أريحا نحو ثلاثة أيام أيضاً وزغر ديار قوم لوط، وجبال الشراة إلى أيلة كله مضموم إلى جند فلسطين وغير ذلك..".

وكان لفلسطين منزلة خاصة فى نفوس العرب والمسلمين إذ قال ابن الكلبي فى قوله تعالى:

{يا قوم ادخلوا الأرض المقدسة التى كتب الله لكم}، هى أرض فلسطين، وفى قوله تعالى: {الأرض التى باركنا فيها للعالمين}، قال هى فلسطين.

مقدمة فى جغرافية فلسطين التاريخية

فلسطين فى مفهومنا الحالى هى المنطقة الواقعة ما بين نهر الأردن شرقاً والبحر الأبيض المتوسط غرباً والبحر الأحمر وسيناء جنوباً ولبنان وسوريا شمالاً. لكن وفى فترات سابقة يبدو أن هذه الحدود الجغرافية كانت تختلف من فترة لأخرى فمثلاً نرى أن المنطقة الواقعة حول بحيرة طبرية وسهل مرج ابن عامر كانت خارجة عن نطاق الحدود الحالية لفلسطين (REICKE AND ROST 1966: 1366; HENNESSY 1967:1).

لقد لعب موقع فلسطين المتوسط ما بين القارات الثلاث آسيا وأفريقيا وأوروبلدوراً كبيراً، خاصة وأنها تعتبر المدخل الرئيسى لهذه القارات كما أنها حلقة الوصل ما بينها بشكل عام وما بين مصر والمناطق الآسيوية بشكل خاص. لذلك نرى أنها كانت وما تزال موضع تأثير وتأثير خاصة وأنها كانت تتصل بالبلاد الأجنبية عن طريق التجارة أحياناً والغزوات أحياناً أخرى. كذلك يستطيع الباحث أن يستنبط بأن تاريخ هذه المنطقة

كان مرتبطاً معظم الأوقات مع القوى الكبرى (مصر وبلاد الرافدين) المحيطة بها. ومثال ذلك أن فلسطين خلال فترة العصر البرونزي المتأخر (١٥٥٠ - ١٢٠٠ ق.م) كانت خاضعة للنموذج المصري كغيرها من المناطق السورية، يؤيد هذا القول رسائل تل العمارنة في الفترة نفسها.

كما يجب أن نذكر هنا أيضاً أن الصلات التجارية ما بين فلسطين ومنطقة الأناضول تعود إلى أقدم العصور، والدليل على ذلك أنه عثر في مدينة أريحا وأثناء الحفريات التي أجرتها كاثلين كنيون وفي طبقات العصر الحجري الحديث، ما قبل الفخار، على عدد من الأدوات المصنوعة من حجر السبع (الأوبسيديان) المستورد من هذه البلاد مقابل تصدير الملح والقار (de vaux 1966:7).

يمكن للنظر لخارطة فلسطين أن يقسمها طولياً إلى عدة أقسام جغرافية تبدأ بالساحل والسهل الساحلي الفلسطيني ومنطقة السفلة ومن ثم سلسلة الجبال الداخلية، ثم منطقة وادي الأردن الممتدة على ضفتي نهر الأردن شرقاً وغرباً والتي هي جزء من حفرة الانهدام السورية الممتدة من سهل العمق شمالاً عبر وادي الأردن والبحر الميت ووادي عربة، والتي تستمر داخل البحر الأحمر. ويطل على هذا الوادي من الناحية الشرقية سلسلة من الجبال والتي تمتد من جبل الدروز في الشمال يتبعه سلسلة جبال عجلون فجبال البلقاء، ومن ثم جبال الشراة إلى الشرق من هذه السلسلة والتي يتخللها مجموعة الأنهار (اليرموك والزرقاء) والأودية (مثل وادي العرب، وادي زقلاب، وادي كفرنجة، وادي المرجب ووادي الحسا) وتلي هذه السلسلة منطقة الصحراء الأردنية (Smith 1896: 49; Aharoni 1967: 19-33).

يجادل هنسي (Hennessy) بأنه لم يكن في فلسطين خلال فترة الألف الثالث ق.م موانئ طبيعية رئيسة هامة ويعزز ذلك إلى أن الساحل الفلسطيني يتصل بسلسلة الجبال الداخلية من جهة وبعض الأنهار من جهة أخرى (Hennessy 1967:1). لكن هذا لا يعني أنه لم يكن هناك موانئ قطعاً، فعلى سبيل المثال القصة المصرية والتي تعود إلى هذه الفترة والمسماة قصة "أخذ يافا" "Taking Joppa" (Pritchard).

يختلف السهل الساحلي الفلسطيني في عرضه من منطقة لأخرى، فبينما يبلغ في المنطقة التي تطل منها جبال الكرمل على البحر الأبيض المتوسط حوالي (٢٠٠) ياردة نرى أنه يتسع عند غزة وعسقلان ليتراوح ما بين ٢٠ - ٣٠ ميلاً. ومع أن هذه المنطقة تعاني من الانجرافات والمستنقعات في بعض المناطق إلا أنها تعتبر من المناطق الخصبة والصالحة للزراعة وتعتبر المصدر الرئيس لإنتاج الحنطة في البلاد.

ويمكن تقسيم السهل الساحلي الفلسطيني إلى ثلاث مناطق جغرافية هي: أولاً شريط ضيق على شكل مثلث في الشمال ويحده من الشمال جبال الكرمل ومن الجنوب نهر الزرقاء (خمار ٢٤: ١٩٦٩). ثانياً سهل سارونا المعروف باسم "سهل شارون" (خمار ١٩٦٩: ١٢٩، Relcke, Band L. Rost 1966; 1673) والذي يمتد بين نهر الزرقاء شمالاً ونهر روبين جنوبي يافا جنوباً. وثالثاً السهل الساحلي الفلسطيني والذي يمتد جنوباً إلى وادي غزة.

يقسم سهل مرج بن عامر سلسلة الجبال الداخلية إلى قسمين فيما نجد أنه يربط بين منطقتي غور الأردن والبحر الأبيض المتوسط.

وسهل مرج بن عامر هي تسمية أطلقت على مجموعة من السهول تحت اسم واحد. هذه السهول تفصل بينها مجموعة من الهضاب الجبلية. فعلى بعد تسعة أميال من البحر وبالقرب من تل القسيس (Tell el Kesis) نجد أن جبال الجليل تقترب من جبال الكرمل تاركة فقط المجال بينهما لنهر المقطع للجريان. وعلى مسافة ثمانية أو تسعة أميال إلى الشرق من هذه المنطقة وبالقرب من اللجون التي ربما تكون موقع "مجدو" القديم (Smith 1896:380) تمتد سلسلة هضاب من الشمال إلى الجنوب، وهنا يتابع نهر المقطع جريانه. وعلى بعد ٢٤ ميلاً من الساحل نجد أن هناك انحداراً يتجه ناحية الشرق والذي يفصل ما بين سهل مرج بن عامر ووادي ضيق ينحدر باتجاه نهر الأردن.

تتخذ منطقة سهل مرج بن عامر شكل مثلث وتتكون من ثلاثة أجزاء هي سهل عكا والسهول الداخلية والمنطقة المطلة على الأردن. تمتد قاعدة هذا المثلث الجنوبية حوالي (٢٠ ميلاً) من تل القسيس على سفح جبال الكرمل غرباً إلى جنين شرقاً. أما الجهة الشمالية فتمتد ما بين مرتفعات الناصرة ومنطقة التقاء هذه المرتفعات وجبل الطور، أما الجهة الشرقية فتمتد ما بين جبل الطور وجنين. وهذه الجهة تختلف عن غيرها بأنها محاطة بالهضاب لكنها تحتوي على ثلاثة انكسارات طبيعية تتجه نحو الشرق واحد يمتد ما بين جبل الطور وجبل الضاحي على شكل ممر ضيق يستمر حتى يصل نهر الأردن. وآخر يمتد ما بين جبل "فقوعة Gilboa" وجبل "الضاحي Moreh" وهو عبارة عن واد طويل ما بين نهر الأردن وبيسان. وأخيراً انكسار آخر يمتد بين جبل "فقوعة" والهضاب المحيطة بجنين لكنه لا يصل لنهر الأردن هنا. وترتفع المنطقة الوسطى لسهل مرج بن عامر حوالي ٢٠٠ قدم فوق سطح البحر، لكن وبالقرب من بيسان أي كلما اتجهنا شرقاً نجد أن الحال يختلف إذ أنه ينخفض حوالي ٤٠٠ قدم تحت سطح البحر.

تعتبر سلسلة الجبال الداخلية امتداداً لسلسلة جبال لبنان وتنتهي هذه السلسلة بجبال الخليل حيث نرى أنها بعدها تتكون من مجموعة من التلال الصغيرة حتى تصل إلى خليج العقبة مروراً بصحراء النقب. ويتراوح ارتفاعها في منطقة جنوبي الخليل ما بين ٢٠٠٠ — ٣٠٠٠ قدم. تتكون هذه السلسلة من جبال الجليل التي تقف عند سهل مرج ابن عامر ثم تبرز مرة أخرى مكونة جبال الكرمل ثم جبال نابلس والقدس والخليل. يتخلل هذه الجبال مجموعة من الأودية والمرتات التي غالباً ما كانت تستعمل للطرق التجارية بالإضافة إلى عدد كبير من الكهوف (Anati 1963:30; Hennessey 1967:3).

ابتداءً من منطقة الخليل تبدأ سلسلة الجبال بالانخفاض مشكلة تلالاً صغيرة مبتدئة من وادي الخليل شمالاً حتى وادي السبع جنوباً والذي يتجه غرباً حتى البحر الأبيض المتوسط. هذه التلال الصغيرة تقف عند بلدة الظاهرية، والتي تعتبر الحد الفاصل بين المنطقة الجبلية وصحراء النقب. وتعرف كلمة النقب على أنها تعني الجنوب (Smith 1896: 278)، لكن ترجمتها الحرفية تعني المنطقة الجافة (Aharoni 1967:23).

إلى الجنوب من بحر السبع وقبل الوصول للمنطقة الصحراوية نجد أن هنالك منطقة جبلية تمتد حوالي ٦٠ ميلاً إلى الشرق والغرب. وتتوفر في هذه المنطقة إمكانية الاستقرار والزراعة ولكن هذا يعتمد كلياً على كمية نزول الأمطار والتي تختلف من سنة لأخرى. فبعد سقوط الأمطار مباشرة تظهر الأعشاب وإن كانت بشكل ضعيف. لكن هذه الأعشاب تكون نادرة جداً في فصل الصيف (Smith 1896: 280; Aharoni 1967:24). كذلك من الواجب ذكره هنا أن منطقة بحر السبع الصحراوية تحوي مجموعة من الينابيع يبلغ عددها سبعة على الأقل.

هناك واديان رئيسان في منطقة النقب هما وادي الشريعة ووادي الشلالة يلتقيان قرب البحر المتوسط. حول هذين الواديين تقع مجموعة مهمة من المواقع الأثرية أهمها تل الشريعة وتل أبو هريرة وتل الفارعة الجنوبي (شاروهين) وتل حمة.

من أهم الطرق المعروفة في منطقة صحراء النقب الطريق الرئيسي من بيتين Bethel إلى الخليل وبحر السبع والتي تستمر عبر الجبال الغربية، ومن ثم تتفرع بعدها لعدة أفرع صغيرة منها الطريق التي تنحرف جنوباً متوجهة إلى العقبة والجزيرة العربية والطريق الموصلة إلى سيناء.

تنحدر سلسلة الجبال عند جبهتها الشرقية حيث تطل على منطقة غور الأردن الممتد ما بين بحيرة طبرية في الشمال والبحر الميت في الجنوب ويبلغ طوله ٦٥ ميلاً (١٠٣ — ١٠٥ كم) ويختلف عرضه من منطقة لأخرى، فبينما نرى أن عرضه يبلغ ما بين ٣ — ٤

ميلاً في المنطقة الواقعة جنوبي بحيرة طبرية نجد أنه يصل إلى حوالي ١٣ أو ١٤ ميلاً عند أريحا وبيسان. وتعتبر هذه المنطقة من المناطق الزراعية الخصبة في فلسطين. وهي جزء من حفرة الانهدام السورية، والتي تبدأ بسهل العمق في شمالي سوريا شمالاً حتى البحر الأحمر جنوباً مارة بوادي عربية أيضاً.

تقع منطقة غور الأردن بكاملها تحت مستوى سطح البحر، وتعتبر أكثر منطقة في العالم انخفاضاً، إذ تنخفض حوالي ٣٩٤ م عن سطح البحر (Perrot 1968: 307-312). يجري داخل هذه المنطقة نهر الأردن الذي يمتاز بكثرة تعاريجيه، وسرعة انحداره مما جعله غير ملائم للملاحة (Abel 1967:80). وقد اتفق العلماء على تقسيم منطقة غور الأردن إلى ثلاث مناطق جغرافية تبدأ بالمنطقة المنبسطة أمام سلسلة الجبال المعروفة باسم "الغور" والتي يتراوح عرضها ما بين ٣-٥ كم في الشمال لتتسع حتى تبلغ ما بين ١٠-١٣ كم في الجنوب. تلي هذه المنطقة منطقة الكثار التي تتكون من هضاب منخفضة تفصل ما بين منطقة الغور عن المنطقة الثالثة والمسماة "الزور" وهي منطقة الوادي الذي يجري فيه نهر الأردن (Smith 1896:47; Abel 1967:80; Blankenhorn 1914: 83-84). بعد هذا تستمر حفرة الانهدام عبر البحر الميت ووادي عربية مارة بالبحر الأحمر.

وفي الجهة الشرقية لغور الأردن تجري مجموعة من الأنهار والوديان التي تزود نهر الأردن بالمياه، وبعض هذه الوديان، لا تجري في فصل الصيف من هذه الأنهار اليرموك ونهر الزرقاء، ومن الوديان: وادي العرب، وزقلاب، والجرم، وشعيب وحسبان (Smith 1896:49; Abel 1967: Carets IX & X). وفي هذه الجهة من الوادي وفي علم ١٩٦٠ شقت قناة غور الأردن الشرقية التي تروي هذه المنطقة.

إلى الشرق من غور الأردن والبحر الميت ووادي عربية تمتد سلسلة من الجبال المرتفعة أهمها: جبال عجلون، والبلقاء، وتسير هذه السلسلة جنوباً مكونة جبال الشراه حتى تصل إلى خليج العقبة. ثم إلى الشرق من هذه السلسلة تمتد صحراء بلاد الشام التي من ضمنها الصحراء الأردنية.

يعتبر مناخ فلسطين مثل مناخ بقية المناطق الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط، إذ أنه يكون حاراً جافاً صيفاً، تختلف فيه نسبة الرطوبة من منطقة لأخرى ودافئ بعض الشيء في الشتاء. وقد تتساقط الثلوج في بعض الأحيان خاصة فوق قمم المرتفعات الجبلية.

ويتراوح معدل درجات الحرارة في فصل الصيف في مناطق حيفا وتل أبيب ما بين ٢٦ و ٢٧ درجة مئوية، بينما متوسط درجات الحرارة في هذه المدن في فصل الشتاء

حوالي ١٤ درجة مئوية. ولوقوع مثل هذه المواقع على الساحل نرى أن نسبة الرطوبة في جميع أوقات السنة تكون عالية نسبياً وتبلغ ذروتها خلال أشهر الصيف، يبدأ سقوط الأمطار في فلسطين والأردن عادة في الفترة الواقعة ما بين شهري تشرين الثاني وكانون الثاني، ويبلغ متوسط هطول الأمطار في حيفا حوالي ٥٩٠ ملم، بينما في تل أبيب ٥٢٠ ملم، وتتناقص هذه الكمية كلما سرنا باتجاه الجنوب. أما في المناطق الجبلية فلا يختلف الحال كثيراً عنه في المناطق الساحلية، فنرى أن متوسط معدل درجات الحرارة في فصل الشتاء في مدينة القدس يبلغ ٨ درجات مئوية بينما يبلغ في شهر آب حوالي ٢٣ درجة مئوية، كذلك بلغت نسبة سقوط الأمطار في هذه المدينة حوالي ٦٠٠ ملم. أما نسبة الرطوبة في الأماكن المرتفعة أقل بنسبة ١٠-١٥% عنها في الأماكن الساحلية. ولهذا نرى أن السكن في الأماكن المرتفعة في فلسطين أيام الصيف أفضل منها في المناطق الساحلية.

لكن الأحوال في منطقة الأغوار تختلف كثيراً عنها في المناطق الأخرى إذ يبلغ المعدل الوسطي لدرجات الحرارة في منطقة طبرية في الشتاء حوالي ١٢،٥ درجة مئوية بينما ترتفع إلى حوالي ٣٠،٥ درجة مئوية في فصل الصيف. أما في المنطقة الجنوبية لهذا الغور فترتفع درجة الحرارة في فصل الصيف لحوالي ٤٥ درجة مئوية، وخاصة في منطقة أريحا وهذا يعود إلى أنها أكثر انخفاضاً عن سطح البحر، ولهذا يكون الجو جافاً جداً صيفاً في منطقة الأغوار (Smith 1896:61; Reicke & Rost 1966; 1368-1369).

بالنسبة للموارد المائية في فلسطين فهي تعتمد بشكل واضح على النواحي المناخية والجيولوجية وطبيعة البلاد الجغرافية. فهناك الكثير من الأنهار والوديان في المنطقة الشرقية لغور الأردن وكذلك الغربية. لكن عدد الأنهار الدائمة الجريان محدود جداً (المقطع، إبراهيم)، ويلاحظ الإنسان أن نسبة المياه في هذه الأنهار تنخفض خاصة في أوقات الصيف الحارة، وعندما تكون الأمطار شحيحة. كذلك هنالك مجموعة من الأودية، أو الأنهار الصغيرة التي تروي سهل مرج ابن عامر، مثل نهر العوجاء، ونهر روبين، والدالية.

أما النهر الرئيسي في فلسطين وكما هو الحال في الأردن، فهو نهر الأردن، الذي ينبع من جبل الشيخ ويتوجه جنوباً ماراً ببحيرة الحولة (التي قامت السلطات الإسرائيلية بتجفيفها)، وبحيرة طبرية، ويواصل جريانه عبر غور الأردن حتى يصب في البحر الميت. ويغذي هذا النهر مجموعة من الأنهار والأودية من الناحية الشرقية (أنظر أعلاه)، ووادي الفارعة، والمالح من الناحية الغربية. وبما أن الجبال التي تحيط هذه الأنهار والوديان تتكون من صخور صلبة جداً، لذا نرى أن مجرى النهر أو الوادي يكون عميقاً جداً.

تعتمد الثروة النباتية أكثر ما تعتمد على سقوط الأمطار، لذا يستطيع الإنسان في فصل الربيع مشاهدة ورود بيرة مثل شقائق النعمان والرنجس وغيرها من الأعشاب، كذلك نرى أن اشجار الدفلى تجم منطقة وادي الأردن، وكما هو الحال في المناطق الواقعة حول البحر المتوسط فإننا نرى أن اشجار الزيتون والتين والبرتقال هي أهم الأشجار المثمرة في فلسطين. كما أن هناك أشجار الخروب والرمان والمشمش والخوخ والتوت واللوز، ويستطيع المرء أن يشاهد أشجار النخيل والموز في المناطق الساحلية والأغوار، أما الأشجار الحرجية فتتركز في مناطق الجبال المرتفعة، ومن هذه الأشجار البلوط والصنوبر والبطم.

أما بالنسبة للحبوب فإننا نرى أن القمح والشعير هما المحصولان الرئيسيان بالإضافة إلى محاصيل الفاصولياء، والعدس، والقرع، والبطيخ، والخيار، والبصل، والخس وغيرها. بالإضافة إلى محاصيل تجارية مثل التبغ والقطن.

(Smith 1896: 76ff; Reicke and Rost 1966:1370).

مقدمة في تاريخ البحث وتفسير الآثار الفلسطينية

جرت العادة عند استعراض تاريخ البحث في الآثار الفلسطينية أن تسرد النشاطات الميدانية كأعمال المسح والحفريات الأثرية والتقارير الصادرة بشيء من الإعجاب، وإذا ما تعرضت النتائج لنقاش فإنه غالباً ما ينحصر في تأريخ أثر أو طبقة أو إعادة هذا وذلك إلى حضارة أو أصول معينة، إلا أنه قلما تطرق الباحثون إلى الظروف والدوافع والأسس التي قامت عليها ومن أجلها هذه الأعمال.

إننا نعتقد أن النتائج المترتبة على النشاطات الميدانية والدراسات النظرية مرتبطة ارتباطاً وثيقاً بالأهداف والدوافع. وفي الحقيقة فإن الأخيرة هي التي دفعت الأعداد الكبيرة من الأفراد والمؤسسات للقيام بأعمالهم الأثرية ودراساتهم التاريخية. لذا نحاول هنا أن نستعرض بشكل سريع الجوانب الرئيسة المتعلقة بهذا الموضوع مع الإشارة إلى الظروف السياسية والاجتماعية التي كانت سائدة في المنطقة العربية بشكل عام والمنطقة الفلسطينية بشكل خاص.

المؤرخون والجغرافيون منذ العهد الهلنستي وحتى البيزنطي:

تعتبر الكتب (The Histories) التي تركها المؤرخ اليوناني هيرودوت (Herodotus) مل من أقدم لدينا من كتب التاريخ (منتصف القرن الخامس ق.م). يصف هيرودوت في كتابه

المناطق التي زارها والشعوب التي سكنتها مع عاداتهم وتقاليدهم. وقد شملت رحلاته أفريقيا والهند والبحر الأحمر وضمنها أسماء المدن والمواقع الساحلية. أما المعلومات المتعلقة ببلاد الشام وفينيقيا وفلسطين نجدتها مبعثرة، ويركز المؤرخ الهلنستي الوثائق المعروفة ببرديات زنون على علاقة الامبراطورية الفارسية بفينيقيا. ولدنا من العهد (Zenon Papyri) من منتصف القرن الثالث ق.م، التي تعتبر من الوثائق التاريخية الهامة عن الأوضاع الداخلية في فلسطين والأردن. بما في ذلك الحياة الزراعية والاقتصادية والاجتماعية. يلي ذلك تواريخ بوليبيوس (Polybius Histories) من حوالي ٢٠٨-١٢٦ ق.م. وكتب ثيودور الصقلي (٨٠-٢٠ ق.م) ويتحدث كلاهما عن الحوادث السياسية المتعلقة ببلاد الشام وفلسطين، والكتب من رقم ٥ وحتى ١٦ لبوليبيوس مفيد للغاية، إذ أن المؤرخ كان على معرفة شخصية بعدد من حكام بلاد الشام.

ومن المؤرخين الرومان: سترابو (Strabo) الذي ترك مجموعة من الكتب (٦٣-٢١ م) عن جغرافية الامبراطورية الرومانية في عهد أغسطس، وكتابه السادس عشر يبحث في آسيا وبلاد ما بين النهرين وبلاد الشام والجزيرة العربية ويتطرق إلى السكان والأماكن والإنتاج والعادات بالإضافة إلى ممالك بلاد الشام. بما في ذلك الأنباط. وهناك مرجع آخر (حوالي ٧٩ م) لصاحبه بليني الكبير (Pliny the elder) الذي خصص فصلاً من كتابه الخامس في التاريخ الطبيعي عن سوريا وفلسطين ويصف فيه الفنون والعلوم والصناعات في المنطقة كجزء من العالم اليوناني والروماني. وقد ترك لنا كلاوديوس بتلومي (Claudius Ptolemy) أقدم أطلس من منتصف القرن الثاني الميلادي متضمناً خرائط وأسماء الأماكن في سوريا وفلسطين وبعض المعلومات عنها. وزودنا سوتونيوس (Suetonius) من بداية القرن الثاني وكاسيوس ديو (Cassius Dio) معلومات تاريخية عن فلسطين، وبشكل خاص في عهد كاليغولا (Caligula) وتراجان (Trajan)، وهادريان (Hadrian)، بما في ذلك قوائم الأقاليم والحكام.

وتركت لنا عدداً من السجلات والمصادر البيزنطية من أهمها: يوسيبوس (Eusebius) وهو أسقف قيصرية الفلسطينية (Caesarea Maritima)، وتعتبر كتبه من أهم المصادر عن فلسطين من عهد قسطنطين الكبير، ومن هذه الكتب "تاريخ الكنيسة" (History of the church) الذي يتضمن تفاصيل عن المعابد والكنائس المسيحية، وألف كتاب "الجغرافيا" (Dnomaistikon) وكتاب "حياة قسطنطين". ونشير هنا إلى إميانوس مارتشيلونوس (Ammianus Marcellinus) الإيطالي من القرن الأول حتى القرن الرابع الميلادي وضمنه معلومات هامة عن فلسطين. وهناك كتب لجورجيوس كيربوس

(Georgios Kyprios) بعنوان "وصف العالم الروماني" يبين فيه قوائم مدن وأقاليم بلاد الشام وفلسطين قبيل الفتح العربي الإسلامي.

الجغرافيون والرحالة العرب

تعتبر بعض الكتب والتقارير من المصادر الهامة التي تركها لنا الجغرافيون والرحالة العرب في العهد الإسلامي من المصادر الهامة للتعرف على معالم فلسطين وطوبوغرافيتها ومدنها وقراها، وتناولت بعض هذه المصادر النواحي الاقتصادية والاجتماعية والسكانية والديموغرافية لبلاد الشام وفلسطين بشكل خاص.

فقد تطرق الاصطخري (مسالك الممالك ١٩٦٧، ٥٥-٦٨) إلى طبوغرافية فلسطين ومعالمها الأثرية البارزة وتعرض إلى أجناد بلاد الشام وحدودها، كما وعلل تسمية بعض الأماكن والتضاريس فالغور سمي كذلك لأنه غائر بين جبلين، وأنه يمتد من بحيرة طبرية شمالاً وحتى مدينة أيلة (العقبة) على البحر الأحمر جنوباً مروراً بـغور الصافي ووادي عربة. وقام برسم خارطة بين فيها المدن الرئيسية والجبال والأنهار والبحيرات.

وذكر البلاذري (فتوح البلدان، ١٩٧٨) أسماء المواقع والمدن الشامية دون إعطائها وصفاً جغرافياً، من هذه المدن: حلب وحماه وحمص وطرابلس ودمشق وبيروت وصيدا وصور وعكا ويافا والرملة والقدس وطبرية وعمان والكرك والشوبك وأيلة وفحل وبيسان وجرش وبيت راس وجدارا (أم قيس) وقيسارية وغزة. وقام ابن الفقيه (كتاب البلدان، ١٩٦٧، ١٧١) بوصف معالم بعض المدن الرئيسية من مساجد وغيرها مثل المسجد الأموي في دمشق والمسجد الأقصى في بيت المقدس وتعرض إلى أسلوب بنائها وما تضمنته من نقوش وزخارف فنية متميزة.

قد يكون المقدسي (أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٩٦٧، ١٥١-١٩٢) خير من كتب في طبوغرافية فلسطين من الجغرافيين العرب، فذكر المدن والقرى والمعالم الأثرية والتضاريس وضمن كتابه وصفاً منهجياً للمشاهد والمزارات والقباب والكهوف... إلخ، واعتمد على زيارته الهادفة وقام بقياسات لبعض المعالم الأثرية بنفسه.

ومن المصادر التي يجدر الإشارة إليها كتاب صورة الأرض لابن حوقل (ليدن ١٩٦٧) حيث أورد معلومات عن بلاد الشام مدعمة بالمخططات والخرائط الجغرافية لمختلف المناطق بما في ذلك تلك الواقعة على الساحل السوري الفلسطيني.

الحجاج والرحالة

جذبت فلسطين أنظار الحجاج المسيحيين — بشكل خاص الأوروبيين منهم — الذين وفدوا إليها، ورجعوا إلى بلادهم، فدونوا ملاحظاتهم، أو تقاريرهم التي هي أشبه ما تكون بملذكريات عن الأماكن المقدسة التي زاروها (Donner 1979)، إلا أن الاهتمام بالمخلفات والمعلم الأثري في فلسطين — خاصة تلك المعلم والمواقع الدينية — قد بدأ يحتل دوراً ملحوظاً منذ العصور الوسطى ومع نهاية الحروب الصليبية التي دفعت عدداً من المهتمين ورجال الدين للتحرك إلى البلاد المقدسة وزيارة محطاتها الدينية. ومع أن تقارير هؤلاء قد جاءت بأسلوب جاف يطغى عليه التعصب الديني، إلا أن بعضها لا يخلو من معلومات وحقائق كنتلك التي قدمها السويسري فيليكس شميت (Felix Schmidt) الذي زار فلسطين بين سنة ١٤٨٠-١٤٨٣، وكذلك الفيزيائي الألماني ليونهارد راوخ فولف (Leonhard Rauchwolf) الذي زارها سنة ١٥٧٥، ووصف طبيعة تضاريس المنطقة، وضمن تقريره تصنيفاً مفيداً للنباتات والأشجار التي كانت تنمو على الأرض الفلسطينية. وهناك تقارير مزودة برسومات للمخلفات المعمارية قام بها كل من البلجيكي يوهان زولارت (Johan Zuallart) والهولندي يوهان فان كوتفيك (Johan van Kootwyck) في نهاية القرن السادس عشر.

نلاحظ بشكل عام ازدياد الاهتمام في المنطقة في القرنين السابع عشر والثامن عشر حيث كتبت معظم التقارير الموجودة لدينا من قبل دارسي اللاهوت المتعصبين الذين انتقدهم الهولندي اديان ريلاند (Adrian Reland) في مؤلفه الهام — فلسطين مصورة من خلال معالمها القديمة — (Palaestina ex Monumentis veteribus illustrata) والذي صدر عام ١٧٠٩. وأصبحنا نجد وصفاً أكثر موضوعية في النصف الأول من القرن التاسع عشر، خاصة لتلك المعلم الكلاسيكية وما بعدها، ومن الذين يستحق ذكرهم في هذه الفترة الألماني أولرش ياسبر سيitzen (Ulrich Jasper Seetzen) (١٨٠٠) والسويسري يوهان لودفيج بوركهاردت (Johan Ludwig Burckhardt) (١٨٠١-١٨١٢) اللذان سجلا للغرب إعادة اكتشاف عدد من المدن التاريخية الهامة في شرقي الأردن من بينها عمان وجرش والبتراء. وهناك جهد واضح في تسجيل أسماء المواقع الفلسطينية التي قام بها إدوارد روبنسون (Edward Robinson) ورفيقه الي سميث (Eli Smith) الذي كان يتقن اللغة العربية. ومع أنهما لم يمكنا أكثر من خمسة شهور سنة ١٨٣٨ ومن ثم ١٨٥٢ إلا أن إنتاجهما يشكل أساساً هاماً للدراسة طوبوغرافية فلسطين مع ذكر مفصل لأسماء المواقع كما أخذها عن سكانها العرب الأصليون (Moorey 1981,20).

تأسيس الجمعيات الأثرية والتوراتية ونشاطاتها

شهد النصف الثاني من القرن التاسع عشر تحولاً واضحاً في البحث عن الآثار الفلسطينية، إذ أصبح العمل الأثري موجهاً من قبل جمعيات ومؤسسات غربية أنشئت لهذه الغاية. لقد أخذت هذه الجمعيات من التوراة منطلقاً لدراساتها وأعمالها الميدانية، كما تضمن بعضها أهدافاً ذات طابع سياسي عسكري. أولى هذه الجمعيات صندوق استكشاف فلسطين (Palestine exploration fund) التي تأسست عام ١٨٦٥ "بهدف البحث في الآثار والجغرافيا والجيولوجيا والتاريخ الطبيعي لفلسطين". وعندما صدر أول عدد من المجلة الدورية للصندوق عام ١٨٦٥ ظهر على غلافها "جمعية من أجل البحث الدقيق والمنظم في الآثار والطبوغرافيا والجيولوجيا والجغرافية الطبيعية والتاريخ الطبيعي وعادات وتقاليده الأرض المقدسة لغاية التوضيح التوراتي" (de vaux 1970,67). بعد مضي خمس سنوات على تأسيس الصندوق البريطاني، تأسست عام ١٨٧٠ جمعية أميركية (Palestine exploration Society) التي لم تشبع رغبة مؤسسيها أهداف الجمعية البريطانية وإنما تعنتها "لتوضيح الكتاب المقدس والدفاع عنه" وتضمن برنامجها نداء: "إلى الضمير الديني مسيحياً كان أم يهودياً من أجل البرهنة على صحة الكتاب المقدس" (Palestine exploration Society, first statment 1871) وشهدت نفس السنة ١٨٧٠ إنشاء جمعية بريطانية أخرى (Society of biblical archaeology) ووضعت من أهدافها "البحث في الآثار والتسلسل الزمني والتاريخ القديم والحديث لبلاد آشور والجزيرة العربية ومصر وفلسطين وغيرها من المناطق التوراتية، وصرح رئيس لها وهو صاموئيل بيرش (Samuel Birch) بأن "هدفها الآثار وليس اللاهوت ولكنها ستحقق للاهوت هدفاً هاماً" (de vaux 1970,67-68). وتأسس على غرار هذه الجمعيات جمعيات غربية أخرى أهمها المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية والأثرية التي أسسها الدومينيكان عام ١٨٩٠، وأنشأ الألمان جمعيتين: الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية عام ١٨٩٧ (Deutsch Orient Gesellschaft) والجمعية الألمانية للأبحاث الفلسطينية عام ١٨٧٧.

باستثناء الجمعية الأمريكية للأبحاث الفلسطينية التي لم تعمر طويلاً وحل محلها عام ١٩٠٠ المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في القدس، فقد تركز النشاط الأثري في فلسطين من خلال الجمعيات الآتفة الذكر وما يترتب على هذه الأعمال من نتائج أصبح مقروناً بما ورد ذكره في الكتاب المقدس وغدت حلقة التسلسل الزمني تتركز على المعطيات والحوادث التوراتية. وحتى أن المصطلحات للفتحات الزمنية أصبحت في الغالب مستمدة من التراث. وحاول أصحاب هذه المدارس الربط بين المواقع الأثرية وتلك التي

ورد ذكرها في التوراة، وكثيراً ما عرفوا هذه المواقع باسماء توراتية دون وجود دليل واضح واضح على تبرير هذه التسميات، وما يترتب عليها من تفسيرات. فعرفوا على سبيل المثال تل السلطان على أنه أريحا التوراتية (Jericho)، وتل المتسلم على أنه مجدو (Megiddo) وتل أبو شوشة بالقرب من تل الجزر على أنه جيزر (Gezer) وتل سيلون بأنه شيلو (Shiloh) وتل الدوير بأنه لخيش (Lachish)، وتل القدح بأنه حلتصور (Hazor)، والتل بأنه عي (Ai)، وبيتين بأنه (Bethel) الخ...

وقد نشأ عن هذا الأسلوب في البحث الكثير من التشويش والمغالطات التي لا يسهل التخلص منها حتى الآن. وركز الباحثون في أعمالهم الميدانية ودراساتهم على الفترات الزمنية التي اعتقدوا بأن لها علاقة بالتوراة، ولم يولوا اهتمامهم للفترات السابقة واللاحقة حتى أصبحت حلقة التسلسل التاريخي لعنصر في كثير من الأحيان على (إسرائيلي ١، إسرائيلي ٢، وإسرائيلي ٣) وهكذا.

لقد كانت جمعية (أو صندوق) استكشاف فلسطين أكبر هذه الجمعيات في الميدان وأكثرها نشاطاً. ويبدو أن لهذه الجمعية أهدافاً أخرى بالإضافة إلى العامل التوراتي، إذ أخذت توفد مهندسين من الضباط العسكريين للقيام بأعمال المسح والتنقيب في فلسطين. مع أن المهام الملقاة على عاتق هؤلاء لم تكن ذات غايات علمية خالصة ولو بدا عليه ذلك في بعض الأحيان، إلا أن المعلومات التي دونوها تخدم الآثاريين والعسكريين في آن واحد. من هؤلاء الضباط تشارلز وارن (Charles Warren) الذي بدأ عمله في القدس عام ١٨٦٧ وكانه يقوم بحفر خنادق عسكرية (Moorey 1981, 21) واستخدم مثل هذا الأسلوب أثناء الحفريات التي أجراها في تل السلطان (أريحا القديمة).

وفي عام ١٨٦٨ قامت مجموعة من سلاح الهندسة الملكية بإشراف ولسون بإعداد مخطط لمدينة القدس بمقياس إنش للميل الواحد. وفي الفترة ما بين ١٨٧١-١٨٧٧ أشرف كل من الضباطين كوندلر (C.R. Conder) وكيتشنر (H.H. Kitchener) على عمليات مسح منظمة كان من أهم نتائجها إصدار أول أطلس مضبوط لفلسطين (Map of Western Palestine). يضم هذا الأطلس ستاً وعشرين لوحة، ويتضمن تفاصيل طبوغرافية وسكانية وزراعية، بالإضافة إلى أسماء المدن والقرى والمواقع الأثرية. والجدير بالذكر أن المواقع هنا مثبتة بأسمائها العربية قبل أن يدخل عليها التحريف والتغيير الذين طرأ فيما بعد. يرافق هذا الأطلس مجموعة مجلدات تتضمن وصفاً مختصراً للمواقع وخاصة الأثرية منها. وفي الحقيقة فإنه لا غنى عن هذا الأطلس وما يرافقه من نصوص في الدراسات الأثرية والتاريخية والسكانية والجغرافية بالرغم من تم إنجازها من خرائط وأعمال بعد صدوره.

في عام ١٨٩٠ أوفدت جمعية صندوق استكشاف فلسطين واحدا يعتبر من أبرز من عمل في الآثار الفلسطينية وهو السير فلنדרز بيتري (Flinders Petrie)، وبدأ عمله في تل الحسي في جنوبي فلسطين وكان قبل ذلك قد اكتسب خبرة في التنقيب أثناء عمله في مصر. تمثل أعمال بيتري في تل الحسي أولى المحاولات لفصل الطبقات السكنية في موقع مرت عليه مراحل متعددة ومتعاقبة. كما أوجد تصنيفا سريعا للمكتشفات الأثرية من أواني فخارية وأدوات معدنية وحلي وأختام وتعاويذ وحاول تأريخها من خلال تصنيفها إلى مجموعات ومقارنتها بمكتشفات مصرية.

اتسمت نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين بإنشاء عدد آخر من الجمعيات والمدارس التي تعنى بالتوراة والآثار الفلسطينية في آن واحد، فتأسست في عام ١٨٩٢ المدرسة الفرنسية للدراسات التوراتية والتوراة (L'Ecole pratique d'Etudes Biblique) ومركزها القدس، وما زالت تصدر مجلة دورية (Revue Biblique)، كما أنشأ الألمان جمعيتين، واحدة تعنى بالأبحاث الفلسطينية (Deutscher Verein zur Erforschung Palastinas) وبالاتفاق معها أنشأت الكنيسة البروتستانتية عام ١٩٠٢ المعهد البروتستانتي الألماني للدراسات التاريخية في الأرض المقدسة في مدينة القدس (Deutsches Evangelisches Institut für Altertumswissenschaft Zeitschrift des deutschen Palastina-Vereins). وصدر عنهما منذ البداية حولية تعرف باسم (Zeitschrift des deutschen Palastina-Vereins). أما الجمعية الثانية فهي الجمعية الألمانية للدراسات الشرقية (Deutsche Orient-Gesellschaft) التي تأسست عام ١٨٩٨ برعاية القيصر الألماني وأخذت تنظم بعثات تنقيب لمختلف المناطق الشرقية بما في ذلك فلسطين. ففي الفترة ما بين ١٩٠١-١٩٠٤ أوكلت هذه الجمعية مهمة التنقيب في عدد من المواقع الأثرية إلى الباحث التوراتي ارنست سيلين (Ernst Sellin) الذي أشرف على التنقيب بمفرده، أو بالاشتراك مع شوماخر (Schumacher) في تل تعنك وتل المتسلم، كلاهما في مرج ابن عامر. رغم العثور على عدد من المكتشفات الهامة في الموقعين إلا أن منهج العمل السذي اتبع في التنقيب عنهما لم يكن يعتمد على أسس علمية. أما الحفريات التي أجراها سيلين في أريحا بمساعدة المهندس الألماني كارل فاتسنجر (Carl Watzinger) في الفترة ما بين ١٩٠٧-١٩٠٩ تعتبر نقطة تحول في تاريخ البحث والتنقيب عن الآثار الفلسطينية. فظهرت نتائج التنقيب التي نشرت عام ١٩١٣ في مجلد خاص متضمنا وثائق بالصور والرسومات والمخططات وتفسيرات تفوق غالبية ما يعاصرها من أعمال ميدانية ودراسات (Sellin, Watzinger 1913).

في الوقت الذي كانت فيه التنقيبات الألمانية قام ستيوارت مكالستر (Stewart Macalister) بحفرياته في تل أبو شوشة (Gezer) بإشراف فردي وبدعم من صندوق استكشاف فلسطين. وطريقة مكالستر في التنقيب اشبه بعمل المقاولين، ففي ثماني سنوات (١٩٠٢-١٩٠٩) كشف عن أكثر من نصف الموقع حتى الصخر الطبيعي بالإضافة إلى ٢٥ مدفناً مستخدماً بذلك عدداً كبيراً من العمال المحليين. ونستنتج من المطبوعات الرئيسية الثلاث (GEZER I,II,III) أن عملية التوثيق لم تكن مضبوطة وقد أغفل طبقات رئيسية في الموقع، كما استعان برسومات وصور كثيرة لا تمت في كثير من الأحيان إلى الطبقات التي وجدت فيها. كما استعمل المنقب مصطلحات غير مبررة مثل "ما قبل الساميين" و"الساميين" عند تصنيفه للمكتشفات، وقسم اللقى التي نسبها للساميين إلى "سامي أول" و"سامي ثان" و"سامي ثالث" و"سامي رابع" (Semitic I-IV). والجدير بالذكر أن الجدول الزمني الذي اتبعه مكالستر وبليس (F.J. Bliss) في حفريتهما في جنوبي فلسطين، وهي تل صندحنه، وتل الصافي، وتل زكريا، وتل جديدة، حتى عام ١٩٠٢ مبني على المعطيات التوراتية، وليس له علاقة بالشواهد الأثرية في هذه المواقع، ويظهر على النحو التالي:

عصر ما قبل الإسرائيليين المبكر حتى ١٥٠٠ ق.م
عصر ما قبل الإسرائيليين المتأخر ١٥٠٠-٨٠٠ ق.م
المرحلة اليهودية ٨٠٠ - ٣٠٠ ق.م
المرحلة السلوقية ابتداء من ٣٠٠ ق.م

استعمل الألمان سيلين وفاتسنجر خاصة في حفريات تل السلطان مصطلحات مماثلة أساسها التوراة: كنعاني، وإسرائيلي، ويهودي، ويهودي متأخر. اختلط الأمر على هؤلاء جميعاً حتى أن بعض مكتشفات الألف الثالث والثاني ق.م نسبت إلى "الإسرائيليين" وأخرى من الألفين الثالث والثاني ق.م أطلق عليها مصطلح "يهودي" و"يهودي متأخر".

مع أن بعثة جامعة هارفرد في سبسطية (١٩٠٨-١٩١٠) بإشراف راينزر (G.A. Reisner) المختص بالآثار المصرية بالاشتراك مع فشر (C.S. Fisher) لم تستطع التخلص من مصطلحات الجدول الزمني التوراتي، إلا أن عملهما تميز بأمرين رئيسيين جديدين في حقل الآثار الفلسطينية هما: أولاً أن الحملات التنقيبية لا بد وأن تضم تخصصات مختلفة تناسب وحجم الموقع وطبيعته، وثانياً أن الأساس في التنقيب هو تمييز وتوثيق التغيرات والمعالم المعمارية مع رسمها وتصويرها بشكل دقيق وإعدادها للنشر (Reisner 1924).

كانت مدينة القدس باستمرار محط أنظار الدارسين التوراتيين والطامعين في الكنوز الأثرية إلا أن كثرة المباني التاريخية في المدينة وخيبة الأمل التي أصابت الكثيرين منذ أن عمل فيها الكابتن الإنجليزي ورن عام ١٨٦٧ بسبب صعوبة ربط آثارها بالحوادث التوراتية أدى إلى فترة انقطاع عن التنقيب فيها. ويظهر أن السلطات العثمانية كانت حذرة من منح تصاريح للكشف عن المعالم المدفونة في المدينة حتى عام ١٩٠٩. في هذه السنة تمكن الكابتن الإنجليزي باركر من الحصول على تصريح للعمل جنوبي منطقة الحرم الشريف، إلا أنه خدع المسؤولين الأتراك وأخذ ينقب ليلاً في منطقة الحرم نفسه إلى أن اكتشفت السلطات أمره وتمكن من الهرب قبل صدور الحكم ضده (Albright 1974, 33).

في هذه الأثناء كانت المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية قد تأسست في القدس من قبل عدد من الجامعات ومعاهد اللاهوت الأميركية وعمل تشارلز توري (Charles C. Torrey) أول مدير لها عام ١٩٠٠ ولم تزاو هذه المدرسة نشاطها الميداني إلا بعد الحرب العالمية الأولى.

فترة ما بين الحربين العالميتين ودور الصهيونية في الآثار الفلسطينية

لم تكن الفترة التي تلت عام ١٩٠٠ بما في ذلك سنوات الحرب العالمية الأولى حافلة بالنشاط الثري في فلسطين. أدت هذه الحرب إلى تراجع الامبراطورية العثمانية ووقوع فلسطين تحت السيطرة البريطانية التي أصبحت تقرر السياسة الثقافية في المنطقة بما في ذلك النشاطات الأثرية فيها. وفي عام ١٩٢٠ أنشأ المندوب السامي البريطاني هربرت صموئيل (Herbert Samuel) دائرة للآثار الفلسطينية بإدارة جون جارستانغ (John Garstang) من جامعة ليفربول الذي اكتسب خبرة في التنقيب قبل ذلك في مصر والحبشة وشمال سوريا. رحب العاملون في الآثار من البلدان الغربية باحتلال الانجليز لفلسطين ووجدوا من السلطة الجديدة جوا يساعدهم على تحقيق أهدافهم.

كان الانجليز قبل ذلك قد قطعوا للحركة الصهيونية وعد بلفور عام ١٩١٧ واستغل الصهيونية هذه الفرصة، وأخذوا يرسلون من أعضاء الحركة وممن يتعاطف معها إلى فلسطين لتوجيه المفهوم التاريخي بما يتفق وأهدافها التي منها تأسيس دولة من اليهود دون غيرهم، كما اتخذت الحركة الصهيونية من بعض الحقول العلمية وخاصة الآثار، واجهة تستر من ورائها. كما أرادت من الآثار تبرير ما أسماه الصهيونية بالحق التاريخي المزعوم لليهود في فلسطين.

لم تكن الأهداف الصهيونية لتتعارض مع الدراسات التوراتية بأسلوبها التقليدي، وعلى العكس من ذلك فقد وجد الصهاينة الموفدون ترحيبا حارا من قبل دارسي التوراة من أمثال وليم أولبرايت الذي كان يرأس المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في القدس منذ عام ١٩١٩ وحتى عام ١٩٣٦، لقد رأى أولبرايت لزما عليه توجيه المهتمين بالآثار من الصهاينة وأخذ يوزع عليهم واجبات محددة الأمر الذي لا يخفيه أولبرايت نفسه (Albright 1970, 58-60). ولا غرابة في أن يصدر الصهاينة فيما بعد مجلدا خاصا تخليدا للذكرى وليم أولبرايت يتضمن تقديمًا "لن يجد اليهود والإسرائيليون صديقا مثل ما وجدوا في وليم أولبرايت" (El 9, Albright volume). يضاف إلى ذلك أن المجال أصبح مهينا للنشاط الصهيوني بعد الاحتلال البريطاني، بما ينسجم ووعد بلفور.

من أبرز الآثاريين الصهاينة الذين قدموا إلى فلسطين بعيد الاحتلال البريطاني جوزيف كلاوزنر (Joseph Klausner) والعيزر بن يهودا (Eliezer Ben Yahuda) من أصل بولندي الذي قطع دراسته للطب وذهب إلى فلسطين وأصدر فيها جريدة باللغة العبرية لعدة سنوات بالإضافة إلى اهتماماته الأثرية. وأول حفريات يهودية أجراها ناحوم سلوش (Nahum Slouch) في موقع إلى الجنوب من طبرية اعتقد أنه يحتوي على كنيس يهودي. كان الصهاينة السابق ذكرهم يفتقرون إلى أي تدريب على الآثار والتنقيب عنها، وإنما اقتصرت وظيفتهم على جلب الاهتمام لما أسموه بالآثار اليهودية دون غيرها. كما أرسلت الحركة الصهيونية العيزر ليا سوكنيك (Eliezer Lipa Sukenik) لدراسة الآثار الكلاسيكية في برلين وجاء إلى فلسطين عام ١٩٢٢ وبدأ عمله الميداني بحفر عدد من المدافن بالقرب من القدس والتحق ببعض الدورات والمساقات الأثرية في المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية، ومن ثم أصبح محاضرا في الجامعة العبرية، فأستاذًا إلى أن أصبح رئيسا لدائرة الآثار اليهودية في الجامعة نفسها. وقد دفع سوكنيك ابنه ييغائيل يادين الذي غير اسمه لدراسة الآثار، وكان ييغائيل هذا أول رئيس لهيئة أركان الجيش الإسرائيلي، إلى أن أصبح استادا للآثار في الجامعة العبرية، وأشرف على عدد كبير من التنقيبات الأثرية، وأعلى منصب شغله نائب لرئيس الوزراء الإسرائيلي. وبعد ذلك جاء بنجامين مازار (Benjamin Mazar) الذي لجأ إلى فلسطين عام ١٩٢٨ بعد أن حصل على الدكتوراه في التاريخ من جامعة جيسن (Giessen) الألمانية وشارك مع أولبرايت في حفريات تل بيب مرسيم ويعتبره أولبرايت من الذين أسسوا ما أسماه بالآثار الإسرائيلية (Albright 1970, 60) ومن هؤلاء أيضا شموئيل ييفسين (Shemuel Yeivin) الذي أصبح فيما بعد أول مدير لدائرة الآثار الإسرائيلية، ومؤسسًا لمتحف الآثار

الإسرائيلي بعد أن غدا متحف الآثار الفلسطيني في الجزء الشرقي من القدس. ومن الصهاينة البارزين من الجنسية الأميركية نلسون غلوك (Nelson Glueck) الذي حصل على الدكتوراه من جامعة يينا (JENA) الألمانية. التحق غلوك عام ١٩٢٨ بحفريات أولبرايت في تل بيت مرسيم، وبدأ مسوحات واسعة النطاق منذ عام ١٩٣٢ في شرقي الأردن التي عرف من خلالها. تدرب غلوك على أولبرايت وأصبح يتجول في المناطق المختلفة حاملا التوراة في يده محاولا تفسير وتأريخ المواقع التي يتعرف عليها من خلال العهد القديم. كما قام بحفريات في خربة التتور وتل الخليفة بالقرب من خليج العقبة. بعد تجزئة فلسطين عام ١٩٤٨ كشف غلوك عن هويته، وانتقل إلى الجنوب من فلسطين لإجراء دراسات سطحية في منطقة النقب (Wright 1970, 28-31).

والجدير بالذكر أنه تأسس لدائرة الآثار الفلسطينية منذ إنشائها عام ١٩٢٠ مجلس ضم عددا من الصهاينة وأنصارهم بمن فيهم وليم أولبرايت وجوزيف كلاوزنر وكان الأخير ممثلا لمصالح اليهود. ولم يكن بين أعضاء المجلس من يمثل المصالح العربية أو حتى يرعى شؤون الآثار العربية الإسلامية في فلسطين. وتأسس في نفس الوقت تقريبا دائرة للآثار الأردنية بإدارة إنجليزية أيضا.

زادت النشاطات الأثرية بعد الحرب العالمية الأولى بشكل ملحوظ. ومع أن علماء اللاهوت يسيطرون على العمل الميداني في فلسطين، إلا أنه ظهرت التيارات الناقدة أو المناهضة لأسلوب التوراتيين التقليديين في العمل، لا يتسع المجال هنا لسرد جميع الأعمال والدراسات الميدانية أو تصنيفها، لذا سنعرض أهم النشاطات، وأهميتها في تاريخ البحث الذي نحن بصدد.

كانت القدس محط أنظار المنقبين، وكلما انتهت بعثة من التنقيب فيها زاولت بعثة أخرى حتى الحرب العالمية الثانية. ففي عام ١٩٢٣-١٩٢٤ أشرف فيل (R. Well) على الحفر في الهضبة الجنوبية الشرقية من المدينة، وعمل في الوقت نفسه (١٩٢٣-١٩٢٥) في السفح الشرقي من الهضبة كل من ماكليستر (R.A.S. Macalister) ودانكن (J.G. Duncan). ونقب في السفح الغربي منها (١٩٢٧-١٩٢٨) كروفوت (J.W. Crowfoot) وفتسجيرالد (G.M. Fitzgerald) بينما تركزت حفريات سوكينك (E.L. Sukenik) وماير (L.A. Mayer) في الفترة ما بين ١٩٢٥-١٩٢٧ ومن ثم عام ١٩٤٠ في الجزء الشمالي خراج سور المدينة القديمة بحثا عن الأسوار "التوراتية". أما هاملتون (R.W. Hamilton) فقد كشف عام ١٩٣٠ ومن ثم ١٩٣٧-١٩٣٨ عن أجزاء من المنطقة الممتدة لمحاذاة السور الشمالي الحالي عند باب العمود وإلى الشرق منه. وأشرف جونز (C.N. Johns) على

حفريات القلعة في الفترة ما بين ١٩٣٤-١٩٤٠. ويظهر أن أعمال التنقيب في القدس قد توقفت لمدة تزيد عن عشرين عاما إلى أن واصلتها ١٩٦٢-١٩٦٧ كاتلين كنيون (K. Kenyon) بالاشتراك مع رولاند ديفو (R. de Vaux) في الهضبة الجنوبية الشرقية فوق منطقة عين سلوان، وفي المرستان، وحي الأرمن، وباب العمود. ومنذ الاحتلال الإسرائيلي عام ١٩٦٧ والحفريات تجري على قدم وساق وباستمرار في مناطق متعددة من المدينة للكشف عن المخلفات الأثرية التي يحاول الإسرائيليون ربطها بالتوراة، خاصة بعد أن عجزت بعثات التنقيب السابقة من إظهار ما يطمعون فيه. ومن هذه الحفريات تلك التي قام بها مازار (B. Mazar) وعميران (A. Amiran) وإيتان (E. Eitan) وكذلك أفيجاد (N. Avigad) وإفي يونا (M. Avi-Yonah)، وباحت (D. Bahat)، وبروشي (M. Broshi)، وغيرهم. ومع أن حفريات المحتلين شملت مناطق مختلفة إلا أن تركيزهم كان حول منطقة الحرم الشريف مما استفز مشاعر المسلمين والعلماء والمؤسسات المعنية بالتراث الإنساني، خاصة وأن بعض هذه الحفريات غير المشروعة كانت تتطلب إزالة آثار عربية إسلامية وغيرها أو تهديدها بالسقوط.

لقد كانت حفريات عسقلان (١٩٢٠-١٠٢١) أولى أعمال التنقيب البريطاني بعد الحرب العالمية الأولى والتي أشرف عليها جارسستانغ (J. Garstang) وفيثيان آدمز (Phythian - Adams). كشفت هذه الحفريات عن مخلفات هامة في الألف الثاني وحتى العصور العربية الإسلامية، وتميز الموقع بوجود مكتشفات فلسطينية (Philistine) من النصف الثاني للألف الثاني قبل الميلاد (Garstang 1921; Garstang 1922; Phythian-Adams 1923).

في عام ١٩٢٧ عاد فلنדרز بيتري للعمل في فلسطين بعد غياب طويل وقام بالتنقيب عن عدد من المواقع الجنوبية من فلسطين مثل تل العجول بالقرب من غزة وتل الفارعة الجنوبي وتل الجمة. ولقد كان من بين محاولات بيتري إيجاد العلاقات المصرية بفلسطين عبر قرون طويلة. (Petrie 1928; Petrie ١٩٣٠).

واتجهت بعثة بريطانية أخرى لمواصلة أعمال التنقيب (١٩٢٩-١٩٣٦) في أريحا (تل السلطان) بإشراف جارسستانغ (Garstang 1948). وكشفت هذه الحفريات معلومات جديدة وهامة بالنسبة للمراحل السكنية القديمة ابتداء من العصر الحجري الحديث، إلا أن غموضا اكتنف تسلسل الطبقات في الموقع وخاصة بما يتعلق بالمراحل المتأخرة ابتداء من العصر البرونزي المتأخر وحتى أواخر العصر الحديدي. هذا وقد اتضحت أمور كثيرة من خلال الحفريات المنظمة التي أشرفت عليها كاتلين كنيون في سنوات ١٩٥٢-١٩٥٨.

وأجرت بعثة بريطانية أخرى حفريات (١٩٣٢-١٩٣٨) في موقع تل الدوير (Lachish) في منتصف الطريق تقريبا بين غزة والقدس، بإشراف ستاركي (J.L. Starkey) الذي اغتيل عام ١٩٣٨ قبل الانتهاء من أعمال التنقيب، وقام بعد ذلك عدد من المشاركين بالعمل بنشر النتائج في أربع مجلدات (Lachish I-IV). وبقي العمل الميداني بعيدا عن الموقع إلى أن تابعه (١٩٦٦-١٩٦٨) أهاروني (Y. Aharoni)، ومن بعده منذ عام ١٩٧٣ أوسشكين (D. Ussishkin).

وهناك بعثة بريطانية أميركية شاركت فيها الجامعة العبرية في موقع سبسطية (SAMARIA) إلى الشمال الغربي من نابلس لتواصل العمل الذي بدأته جامعة هارفارد (١٩٠٨-١٩١٠). استمر عمل البعثة بمساعدة كاثلين كنيون (K. Kenyon) وسوكينك (E.L. Sukenik) كممثل عن الجامعة العبرية. وفي عام ١٩٦٨ واصل بازل هنسي (B. Hennessy) العمل في الموقع نيابة عن المدرسة البريطانية للآثار في القدس.

وجهت المؤسسات والجامعات الأميركية اهتماما أكبر بعد الحرب العالمية الأولى، وأصبحت تنظم بعثات لتعمل على نطاق أوسع كما هو الحال في المواقع التالية:

١ — حفريات جامعة بنسلفانيا في بيسان: تمثل هذه أحد حملات التنقيب الرئيسية في فلسطين تقوم بها جامعة أميركية، وقد أشرف على إدارتها فيشر (C.S. Fisher) في السنين الأولى (١٩٢١-١٩٢٣)، وتعاقب عليها روي (A. Rowe) يساعده فيتسجيرالد (G. Fitzgerald) في الفترة ما بين ١٩٢٥-١٩٢٨، وواصل فيتسجيرالد الإشراف عليها على نطاق أضيق في سنوات ١٩٣٠ - ١٩٣١ و ١٩٣٣. وكشف الحفريات عن ثمان عشرة طبقة في التل الرئيسي بالإضافة إلى عدد من المدافن. تمثل هذه مراحل سكنية تمتد من العصر الحجري الحديث وحتى المرحلة الصليبية.

٢ — حفريات جامعة شيكاغو في تل المتسلم (مجدو): نظم هذه البعثة جيمس هنري برستيد (J.H. Breasted) من معهد الدراسات الشرقية التابع لجامعة شيكاغو الأميركية. وقومت على أسس مختلفة عن حملات التنقيب الأميركية الأخرى. جاءت هذه البعثة من منطلقات تتفق ومفهوم برستيد المناهض للمفاهيم والأهداف التوراتية التي كانت سائدة في ذلك الوقت. لقد أكد القائمون على البعثة على ضرورة تتبع الطبقات في المواقع ودراسة كل طبقة بعد توثيق جميع التغيرات فيها. استمر عمل البعثة (١٩٢٥-١٩٣٩) بإشراف فيشر (C.S. Fisher) وجاي (P.L.O. Guy) وتوقفت بسبب الحرب العالمية الثانية. وبالرغم من العديد من الملاحظات فإن المطبوعات والتقارير الصادرة عن معهد الدراسات الشرقية منسجمة مع منهج وأسلوب متطورين في العمل الميداني في فلسطين. كما تدلنا هذه

النتائج على طريقة أكثر موضوعية في توثيق المكتشفات ومعالجة جميع المراحل الزمنية التي نشرت عن الموقع، وحسبما أبرزتها الحفريات سواء بسواء، إلا أن هذه الطريقة الأميركية اقتصر على بعثة جامعة شيكاغو، ولم يتعداها إلى البعثات من جامعات أميركية أخرى.

٣ — حفريات المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في تل بيت مرسيم: يلتصق اسم وليم أولبرايت (W.F. Albright) بحفريات تل بيت مرسيم إلى الجنوب الغربي من الخليل التي استمرت تحت إشرافه لأربعة مواسم بين سنوات ١٩٢٦-١٩٣٢. كان أولبرايت قبل ذلك قد تدرب على الحفر في ادر وباب الذراع بالقرب من الكرك، ورغم أنه كان واسع الاطلاع على اللغات القديمة وتصنيف الفخار، إلا أن منهجه في العمل وتفسيره للمكتشفات ومنطلقاته التوراتية قد تعرضت لنقد شديد. لم تتضمن تقاريره عن حفريات تل بيت مرسيم رسماً مقطوعياً يبين فيه تسلسل الطبقات في منطقة أو مربع معين، كما يبدو واضحاً أن أولبرايت يحاول تفسير الطبقات من خلال المعلومات والحوادث التوراتية، ولا يعتمد هذا التفسير على الشواهد والمتغيرات الأثرية نفسها. والخطأ الرئيسي عند أولبرايت كان محاولاته المستمرة تفسير الحوادث التوراتية والبرهنة على صحتها من خلال الآثار.

٤ — حفريات المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في تل النصبة: في الوقت الذي كانت فيه حفريات تل بيت مرسيم استمرت حفريات تل النصبة شمالي القدس (١٩٢٦-١٩٣٥) بإشراف ماكون (C.C. Macown) الذي اتبع أسلوب أولبرايت التوراتي في التنقيب.

واصلت المدرسة الأميركية للأبحاث الشرقية في القدس أعمال التنقيب في عدد من المواقع الأثرية حيث اعتقد دارسو التوراة أن لها علاقة بالمواقع التوراتية. من هذه المواقع: خربة الطيبة (Beth-Zur) على طريق القدس - الخليل حيث بدأ العمل عام ١٩٣١ بإشراف سلرز (O.R. Sallers) ووليم أولبرايت (W.F. Albright) وواصل سلرز التنقيب في الموقع عام ١٩٥٧. كما بدأ أولبرايت التنقيب في بيتين (Bethel) سنة ١٩٣٤ وبعد ذلك أجرى كيلسو (J.L. Kelso) ثلاثة مواسم في سنوات ١٩٥٤، ١٩٥٧، ١٩٦٠. وفي الوقت الذي أجرى فيه نلسون غلوك (Nelson Glueck) مسوحاته الأثرية لشوقي الأردن (١٩٣٣-١٩٤٦) أشرف على حفريات المعبد النبطي في خربة التنور في وادي الحسنا وأخرى في تل الخليفة (Ezion - Gobar) في الفترة ما بين ١٩٣٧-١٩٤٠. يسيطر على هذه الأعمال الميدانية أسلوب ومنهج التوراتيين خاصة المتعصبين منهم من أمثال وليم أولبرايت وتلامذته.

ويتبين من النشاطات الأثرية المبينة أعلاه أن غالبية الأعمال الميدانية قد أجريت من قبل بعثات بريطانية وأميركية، إلا أن بعض هذه الأعمال أنجزتها بعثات تمثل جنسيات أخرى. من بين هذه البعثات بعثة المعهد التوراتي بروما (Pontifical Biblical Institute) في موقع تليلات الغسول في الزاوية الشمالية الشرقية من البحر الميت بإشراف مالون (A. Mallon) وكوبل (R. Kocppel) ونوفيل (R. Neuville). اكتسبت الحفريات في تليلات الغسول (١٩٢٩-١٩٣٨) أهمية خاصة بسبب طبيعة المكتشفات الأثرية التي تم العثور عليها، وتبين فيما بعد أنها تسبق حضارة العصر البرونزي القديم وقد أمكن اتباعها إلى العصر الحجري النحاسي وأصبحت مكتشفات معاصرة في كثير من الأحيان تنسب إلى حضار غسول. وفي عام ١٩٦٠ واصل المعهد التوراتي المذكور عمله لموسم واحد بإشراف الأب نورث (R. North). وعمل فيه بازل هنسي (B. Hennessy) لعدة مواسم (١٩٦٧-١٩٧٨) نيابة عن المدرسة البريطانية للآثار في القدس ومن ثم جامعة سديني الأسترالية.

في عام ١٩٣٢ عادت بعثة ألمانية لمواصلة العمل في تل بلاطة (Sichem) بإشراف سيلين (E. Sellin) وشتيكافيه (H. Steckaweh) وفلتر (G. Welter)، ولم يسفر عمل هذه البعثة عن نتائج هامة بسبب خلاف حاد بين المشرفين عليها. وبقيت أمور كثيرة غامضة في الموقع إلى أن قامت بعثة أميركية بتنظيم بعثة (١٩٥٦-١٩٦٩) على نطاق واسع بإشراف أرنست رايت (G.E. wright) ومن ثم (١٩٧٢-١٩٧٣) بإشراف وليم ديفر (W.G. Dever).

مع أن الفرنسيين كانوا قد ركزوا نشاطهم الأثري في شمالي سوريا خلال فترة ما بين الحربين إلا أنهم نظموا حملة للكشف عن آثار التل (AI) بالقرب من دير دهبان بإشراف السيدة جودت ماركوت - كراوزه (Judith Marquet- Krauze) إلا أن العمل توقف بعد ثلاثة مواسم (١٩٣٣-١٩٣٥) بسبب وفاة المشرفة. وبعد ذلك بفترة طويلة (١٩٦٤) تم تنظيم بعثة أميركية - بريطانية بإشراف جوزيف كلاواي (J. Callaway) الذي جاء نتائج أعماله متقاربة مع تلك التي حصلت عليها ماركوت - كراوزه من حيث تمييز الطبقات الرئيسة وتتابعها في الموقع.

مفاهيم جديدة في البحث والتنقيب عن الآثار

ظهر من بين أصحاب المدرسة التوراتية تيار ناقد ممثل في علماء التوراة الألمان أمثال البرشت ألت (Albrecht Alt) ومارتن نوث (Martin Noth) الذين حذروا من الربط بسين

الآثار والتوراة باي ثمن وأن الموضوع أكثر تعقيدا مما تصوره التوراتيون الأميركان وخاصة أولئك الممثلين في وليم أولبرايت وأتباعه (Noth 1971, 3-16). واتبع مثل هذا المنهج الأب الفرنسي رواند ديفو (de vauX 1970, 64-78) الذي صرح بأنه «لا يمكن فهم الآثار للبرهنة على صحة التوراة، وأن لكل من الآثار والتوراة منهجا مختلفا في البحث عن الآخر». ومه أن هانك فرانكن الهولندي جاء من خلفية دينية تورانية إلا أنه غدا من كبار نقاد الآثاريين التوراتيين، وأعلن أنه لا يجوز المزج بين الآثار وأعمال التنقيب من جهة، والتفسير التوراتي من جهة أخرى (Franken 1970).

بالإضافة إلى بعثة جامعة شيكاغو في تل المتسلم التي ورد ذكرها، هنالك ظاهرة جديدة لدى الآثاريين الانجليز برزت منذ أن تم تأسيس معهد الآثار التابع لجامعة لندن والذي كان يرأسه جوردن تشايلد (Gordon Childe) الذي رفض مثل هذا الأسلوب التقليدي في البحث، وأكد على أهمية البحث عن الآثار على أساس المادية التاريخية كمنطلق للتطور الحضاري، وضرورة تكريس جميع الوسائل العلمية للكشف عن الآثار ومعالجتها من خلال وظيفتها وإطاراتها العام المرتبط بطبيعة المجتمع الذي وجدت فيه. وقد أثر جوردن تشايلد على عدد من تلاميذه مثل كاتلين كنيون (Kathleen Kenyon) لاتباع مثل هذه الطريقة المتقدمة في البحث الأثري، وكان للأخيرة نشاط بارز في حقل الآثار الفلسطينية يتميز عن من عاصرها في دقة الحفر، ورغم أن تطلعاتها في الآثار بقيت في إطار التفكير المثالي إلا أن تحذيرها من الوقوع في خطأ الربط بين الحفريات الأثرية والحوادث التوراتية له أهميته وتأثيره على عدد من تلامذة كنيون الذين ما زالوا يعملون في هذا المجال.

بقاء المنهج التوراتي غالبا وأهمال الآثار العربية الإسلامية

بعد هذا الاستعراض السريع يتوجب القول أن الأسلوب التقليدي في البحث والتنقيب بقي مسيطرا، رغم دخول عناصر جديدة كان لها تأثيرها على تغيير بعض مفاهيم التطور الاجتماعي والتاريخي، مضافا إليها وسائل التنقيب الحديثة وتراكم المكتشفات الأثرية التي أرغمت العديد من العاملين في الآثار الفلسطينية والشرقية القديمة على إلقاء ضوء جديد على حلقة التسلسل التاريخي، إذ أصبح من غير الممكن التمسك بالتقسيمات الحضارية التي أرادها أصحاب المدرسة التوراتية، وأصبح هنالك اهتمام نسبي بالعصور التي سبقت النصف الأول من الألف الثاني ق.م ابتداء من العصور الحجرية، إلا أن المؤسسات والجمعيات التقليدية ظلت تحتكر البحث والتنقيب إلى حد بعيد، وظلت

تربي أجيالا تسير على الطريقة القديمة وأصبحت المواقع التي عاصرت فترات ما قبل التاريخ وحتى العصور البرونزية تعاني من قبل هؤلاء. وكثيرا ما قاست هذه المخلفات الحضارية من تفسيرات خاطئة، إذ كثيرا ما أحرقت محاولات للربط بينها وبين ما أسمى بالفترة التوراتية، خاصة بعد أن غدا حقل الآثار الفلسطيني مفتوحا على مصراعيه أمام المنظمات الصهيونية، وأخذت تخطط بشكل منظم لخلق صورة تاريخية تتفق وأهدافها العدوانية والعنصرية، والتي أصبحت تعمل مع المؤسسات الغربية لتحقيق ما تريده. ولم تحظ المخلفات الحضارية العربية باهتمام يذكر. أما زحف هذه المنظمات والذي مما لا شك فيه أنها كانت تهدف إلى خداع الرأي العام العالمي بضعف أو حتى عدم تواجد أسس للحضارة العربية في فلسطين، فكثيرا ما أخفيت مخلفاتها في تقارير المنقبين أو أنها ذكرت على هامش هذه التقارير. ولسوء حظ هذه الحضارة أنه لم توجد طوال هذه الحقبة الطويلة مؤسسة عربية واحدة ترعى شؤون الآثار العربية في فلسطين، حتى السجلات والتقارير تكاد تخلو من أسماء عربية تهم بهذا الأمر. رغم أننا لسنا من أنصار ممارسة تاريخ الأجداد، إلا أنه للموضوعية يتوجب القول أن جو البحث الأثري كان قاسيا جدا على الحضارة العربية ومهيئا، بل مركزا لخدمة غايات دينية وعسكرية أولا، ومن ثم أهداف سياسية صهيونية استعمارية تم التخطيط لها بحنكة وعلى نطاق واسع.

النشاط الأثري بعد الاحتلال الصهيوني لعام ١٩٤٨

وما أن جاءت سنة ١٩٤٨ بانسحاب قوات الانتداب البريطاني عن المنطقة التي خلقت فيها إسرائيل ضمن الحدود التي سبقت عدوان ١٩٦٧ حتى أنشئت دائرة الآثار الإسرائيلية، ومعها العديد من المعاهد الجامعية والجمعيات التاريخية والأثرية التي أخذت على عاتقها القيام بالنشاط الأثري والتاريخي بشكل أوسع ضمن الإطار الثقافي للنظام الاستيطاني العنصري الجديد الذي أصبح بمقدوره انتقاء المعاهد والمؤسسات الغربية التي تسير موازية لهذا التيار، وأخذت تفرض على البعثات الأثرية التي تستغني الآن عن تعدادها أسلوب التنقيب والتأجيل المترتبة عليه.

ومما يلفت النظر أن جميع المواقع الأثرية في فلسطين أخذت تحمل أسماء عربية لإبعاد الصبغة العربية عنها لتربط بالتاريخ الإسرائيلي. وأصبح كل موقع تقريبا يمثل بطولات وأجداد أو محنة لليهود من أجل تقوية الروح العنصرية وجلب المزيد من المهاجرين من ناحية ومحاولة كسب عواطف الرأي العام الغربي من ناحية أخرى. فلا عجب إذا قيل بأن الآثار كما تفهمها الصهيونية مدرجة في إسرائيل ضمن مادة ما يسمى بالتربية الوطنية.

إن نظرة سريعة على تقارير الحفريات والمكتشفات الإسرائيلية، وكذلك المطبوعات الأثرية العامة تسترعي الانتباه بأن نتائج الحفريات التي أجريت في المواقع القديمة تظـهر تحت مقالات وملاحظات قصيرة، خاصة إذا ما قورنت بالمواقع المصنفة تحت اسم "توراتي" والتي يجري نشرها بشكل مبالغ فيه وبلغات متعددة، وبصورة أوضح فإن الغالبية العظمى من هذه المطبوعات التي تضاهي بجودة طباعتها وصورها، وأسلوب نشرها المطبوعات الغربية، تظهر وكأنها تربط تاريخ أجداد اليهود بأهداف الحركة الصهيونية والكيان الإسرائيلي وغدا أسلوب البحث الأثري يتضمن بوضوح النوايا العدوانية لإسرائيل، وتبرير سياسة التوسع الصهيوني بحجة إنقاذ الآثار اليهودية التي لا يستطيع أحد تحديد المنطقة التي تتواجد فيها.

بهذا النهج المتطرف في الآثار وخلطها بالسياسة الصهيونية والحياة اليومية في إسرائيل، يستحيل على الإنسان أن يطلع على تقرير أثري دون أن يكون منسوجا بالدعاية والفلسفة الصهيونية التي تقف سدا أمام الناشئين من الأثريين العاملين لدى إسرائيل ويرفضون المفهوم الصهيوني في كتابة التاريخ.

ومن الناحية الأخرى لم يكن بين العرب إلا قلة قليلة تهتم بالآثار الفلسطينية وظلت دائرة الآثار في الجزء المتبقي من فلسطين، الذي انضم إلى شرقي الأردن بعيد تأسيس الكيان الصهيوني في أيدي الانجليز الذين استمروا في مقاومة الوطنية ولم يكن حتى نهاية الخمسينات من الفلسطينيين والأردنيين إلا بضعة أشخاص يستطيعون ممارسة البحث والتنقيب الأثري، وفي ظل إدارة الآثار الانجليزية ظل الآثاريون الغربيون التقليديون وخاصة التوراتيون منهم، هم الذين يقومون بأعمال التنقيب والبحث حتى في الجزء غير المحتل من فلسطين وكثيرا ما كانت تقاريرهم ونتائج حفرياتهم مغرضة ومعادية للعرب.

إعداد الكوادر ومرافق البحث الأثري في الأردن

بقيت دائرة الآثار الأردنية التي تأسست عام ١٩٢٣ تدار من قبل الانجليز وعلى رأسها لانكستر هاردنج (Lanckester Harding) حتى عام ١٩٥٦. ولم يكن في خطة هذه الدائرة إعداد كفاءات وطنية متخصصة في الآثار، وكانت نشاطاتها حكرا على الأجانب. وفي عام ١٩٥٦ تولى سعيد الدرة إدارة الآثار كأول مدير أردني لها يساعده الدكتور عوني الدجاني الذي تسلم إدارتها لعشر سنوات منذ عام ١٩٥٨. لقد أدرك عوني الدجاني ومساعدته محمود العابدي ضرورة تدريب كفاءات عربية وساهما في إيفاد عدد من الشبان

المهتمين بالآثار في بعثات دراسية إلى معاهد متخصصة في أوروبا وأميركا الشمالية. وعاد هؤلاء للعمل في دائرة الآثار أو في قسم الآثار في الجامعة الأردنية وقاموا بعدد من الأبحاث والدراسات الميدانية. منذ وفاة عوني الدجاني عام ١٩٦٨ أصبح عدنان الحديدي عام ١٩٧٧ أول مدير عام للآثار متخصص في هذا الحقل بعد أن تولى هذه الإدارة عدد من غير المتخصصين. ومن الذين انضموا إلى دائرة الآثار بعد أن ألفوها دراستهم: معاوية ابراهيم (١٩٧٠) الذي انضم فيما بعد إلى جامعة اليرموك ليدرس الآثار القديمة فيها مع عدد من الزملاء منهم سعد أيوب وزيدان كفاقي، وغيرهم من جنسيات أميركية وروبرت جوردن وجاري رولفسون وسكوت رولستون. وكان قبل ذلك بوقت طويل، أي منذ تأسيس الجامعة الأردنية عام ١٩٦٢ قد أنشئ قسم للتاريخ والآثار برئاسة عبد الكريم غرايبة، ومن ثم أصبح قسم الآثار مستقلاً التحق به عدنان الحديدي ومحمود أبو طسالب وعاصم البرغوثي، وخير ياسين، وصفوان التل، ونبيل خيري، وعبد الجليل عمرو، ولطفي خليل، وصبري عبادي، كما انضم إلى دائرة الآثار فوزي زيادين، وغازي بيشة وزاهدة صفر وعدد من ذوي الاختصاص الفنيين. لقد أصبح بمقدور هذه المؤسسات الوطنية القيام بأعمال التنقيب والدراسات وغدا المجال مفتوحاً أمام المهتمين من الطلبة لدراسة الآثار في كل من عمان واربد.

وتجدر الإشارة هنا بأنه تم افتتاح مركز للآثار الفلسطينية عام ١٩٨٢ في دمشق يديره شوقي شعث، وبدأ هذا المركز عدداً من النشاطات بما في ذلك إنشاء مكتبة متخصصة، وإصدار المطبوعات والنشرات المتعلقة بالآثار الفلسطينية، وكذلك اشتتافة الندوات والمحاضرات. وكانت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، قد عقدت عام ١٩٨٠ الندوة العالمية الأولى للآثار الفلسطينية في حلب بالاشتراك مع منظمة التحرير الفلسطينية وجامعة حلب. كما أعدت دائرة الآثار الأردنية مؤتمري آثار وتلويخ الأردن عقد الأول عام ١٩٨٠ في أكسفورد، وتناول موضوعات مختلفة منذ أقدم العصور حتى العهد العثماني، بينما عقد الثاني عام ١٩٨٣ في عمان وله موضع محدد في الآثار والبيئة.

بعد الاحتلال الصهيوني للضفة الغربية والأراضي العربية الأخرى قامت بعض مراكز الآثار الأجنبية المقيمة في القدس بفتح فروع لها في عمان مثل: المركز الأميركي للأبحاث الشرقية — القدس، وكذلك المدرسة البريطانية للآثار والمعهد الألماني البروتستانتي للأراضي المقدسة. كما فتحت مراكز أو معاهد صغيرة تتبع كلا م فرنسا وإيطاليا وبلجيكا. والغرض الرئيسي لهذه المراكز تسهيل الدراسات والأعمال الميدانية الأثرية التي تقوم بها هذه البلدان، مع أن المؤسسات الوطنية

أصبحت تقوم بأعمال ميدانية ودراسات أخرى تتعلق بالنقوش والفن القديم، إلا أن نشاط المراكز الأجنبية والمؤسسات أو الجامعات التي تدعمها بقي غالباً.

العصور الحجرية في فلسطين

تعتبر مرحلة العصور الحجرية أطول مرحلة مر بها الإنسان، إذ تبدأ منذ بدأ الإنسان الأول يصنع أدواته الحجرية التي عثر على أقدمها في منطقة أولدفان (Oldwan) في شرق أفريقيا ووجد أنها تعود إلى حوالي ما قبل المليون سنة (Bar-Yousef 1980:105) وتنتهي بمعرفة الإنسان للكتابة، وكان ذلك في الألف الرابع قبل الميلاد.

في دراستنا لعصور ما قبل التاريخ نعتمد في جزء كبير منها على الدراسات الجيولوجية. فقد استطاع الجيولوجيون التعرف على عدة أزمنة جيولوجية هي الإوسين والأوليكوسين والميوسين والبلايوسين والبلايستوسين وأخيرًا الهولوسين، وهي التي تمثل الفترة التي نعيش فيها. هذه الفترات تضمنت عصورًا جليدية هي جنس "Guens" ومندل "Mindel" ورس "Ress" وفيرم "Wurm" تخللتها فترات دافئة تدعى بالمطيرة "Pluvial" "Period".

إن الاهتمام بدراسة مخلفات إنسان ما قبل التاريخ قد بدأت في بداية هذا القرن ومن قبل علماء الآثار الأوروبيون والأمريكيون. لكن الدراسة الفعلية لهذه المخلفات لم تتم بشكل علمي وجيد إلا في الفترة الواقعة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية وكانت على يد مجموعة من الأشخاص أمثال (D. Gerrod) و R. Neuville و A. Rust و M. Stokells وآخرون. وقد وضع لنا هؤلاء من خلال حفرياتهم ومسوحاتهم الأثرية إطارًا لدراسة فترات ما قبل التاريخ.

كذلك فإننا غالبًا ما نستعمل نفس الطرق والأساليب في تصنيف الأدوات والاصطلاحات والتسميات التي استعملوها في أبحاثهم الأثرية في أوروبا أثناء دراستنا لمخلفات هذا الإنسان الأول في بلاد المشرق. فعلى سبيل المثال نجد أن اصطلاح "Palaeolithic" قد أطلق على الأدوات الصوانية الصغيرة التي تعود لفترة البلايستوسين، واسم "Mesolithic" على الأدوات الصوانية الصغيرة الحجم المصنوعة في فترة الهولوسين.

وأخيراً اصطلاح "Neolithic" والذي أطلق على الأدوات الصوانية في مرحلة الهولوسين أيضاً، سواء أكان ذلك في مرحلة ما قبل اكتشاف الفخار أو بعده، علماً أن توصل إلى معرفة صناعة الأدوات الفخارية في منتصف هذه الفترة.

وكما ذكرنا أعلاه فقد اعتبرنا أن التوصل إلى معرفة الكتابة في الألف الرابع قبل الميلاد في كل من بلاد الرافدين ومصر هو الحد الفاصل ما بين فترتين مختلفتين هما ما قبل التاريخ والفترات التاريخية. وبما أن حديثنا هنا ستركز على فترات ما قبل التاريخ فإننا سنبدأ بالحديث عن المرحلة الأولى للإنسان الأول، والتي كان فيها إنساناً صياداً وجامعاً للقوت.

العصر الحجري القديم "PALAEOLITHIC" (١,٥٠٠,٠٠٠ - ٨,٠٠٠ ق.م)

يصعب علينا حتى الآن ذكر رقم دقيق لأقدم مكتشفات هذا العصر رغم التطور الملحوظ الذي تشهده دراسة مكتشفات ما قبل التاريخ لنلقي أضواء جديدة على حياة إنسان العصر الحجري القديم، إذ أن المادة التي يتعامل معها الدارسون محدودة للغاية وذات طبيعة خاصة. إن أهم ما يميز هذه الفترة الطويلة من حياة الإنسان أنه عاش متنقلاً جامعاً لقوته الضروري لإبقائه على قيد الحياة. بقي هذا الإنسان في غالب الأمر بعيداً عن الأمن ويعيش بلا وقاء مع أنه لجأ أحياناً إلى الكهوف الصخرية ليلي نفسه فيها وأوضح مثال على هذا هو كهوف جبل الكرمل في فلسطين.

وعلى الرغم من التجانس النسبي في المكتشفات طوال هذا العصر فإن العاملين في الآثار وعلماء ما قبل التاريخ يحاولون وضع تسلسل زمني من خلال أنماط الحيلة البدائية واللقى الصوانية، وبقايا العظام الحيوانية والبشرية. ويبدو أن السبب الرئيس لوجود هذه الكميات الكبيرة من الأدوات مرجعه إلى تراكمها في ترسبات البحار والأنهار والتي، بالإضافة إلى هذه الأدوات، حوت بقايا نباتية وحيوانية. ويعتمد العلماء في تأريخ مكتشفاتهم من أدوات العصر الحجري القديم على التطور البيئي الذي طرأ على الأدوات الصوانية وعلى طريقة الكربون المشع (C14) الذي يمكن تطبيقه على المواد العضوية مثل النباتات والعظام. أما أحدث طريقة استخدمت لتأريخ آثار ما قبل التاريخ فهي طريقة بوتاسيوم أركون (K/Ar) والتي تمتاز بقدرتها على التأريخ حتى ولو كان بملايين السنين، في حين أن طريقة

الكربون المشع لا تستطيع أن تسجل تاريخاً يزيد على ثمانين ألف سنة مضت
(National Geographic Magazine 1961: 546-592).

وعلى هذا الأساس فلقد استطاع علماء الآثار وما قبل التاريخ تقسيم فترة العصر
الحجري القديم إلى أربع مراحل متعاقبة هي:

١ — العصر الحجري القديم المرحلة الأولى "الأسفل" (Lower Palaeolithic).
حوالي ١,٥٠٠,٠٠٠ — ١٠٠,٠٠٠ ق.م.

٢ — العصر الحجري القديم المرحلة الثانية "الأوسط" (Middle Palaeolithic).
حوالي ١٠٠,٠٠٠ — ٤٠,٠٠٠ ق.م.

٣ — العصر الحجري القديم المرحلة الثالثة "الأعلى" (upper - Palaeolithic).
حوالي ٤٠,٠٠٠ — ١٧,٠٠٠ ق.م.

٤ — العصر الحجري القديم المرحلة الأخيرة (Epi-palaeolithic).
حوالي ١٧,٠٠٠ — ٨,٠٠٠ ق.م.

العصر الحجري القديم المرحلة الأولى (Lower Palaeolithic):

عثر على معظم المخلفات التي تعود إلى هذه الفترة في منطقة حفرة الانهدام الآفرو —
آسيوية، والتي تبدأ من سهل العمق بشمالي سوريا مارة في سهل البقاع وغور الأردن
ووادي عربة ثم البحر الأحمر إلى أفريقيا. إن التكوين الجيولوجي لمنطقة حفرة الانهدام
جعل من العسير علينا العثور على مواقع محفوظة بحالة جيدة، وتعود لفترة البلايستوسين
الأسفل والأوسط. فعلى سبيل المثال نجد أن معظم المنطقة السفلى لوادي الأردن مغطاة
ببقايا نباتية وحيوانية تعود في أصولها لبحيرة البلايستوسين الأعلى، والتي تشكلت في تلك
الفترة والمعروفة باسم اللسان (Yousef 1980:105-Bar). بل وأكثر من هذا فإن معظم
المناطق الواقعة على السهل الساحلي الفلسطيني وهي المكان المناسب للإنسان الصياد،
والجامع للقتل، مطمورة ولا يمكن الوصول إليها إلا بأعمال حفريات عميقة. كذلك
فإن تغير شكل وطبيعة الأرض والتآكلات الناتجة عن حركات فحائية كالتبراكين
والزلازل قد لعبت دوراً كبيراً ومهماً في إخفاء أو تدمير المواقع الأثرية والتي تعود إلى فترة
البلايستوسين الأسفل والأوسط. وإن العثور على العديد من الفؤوس الحجرية أو
الأدوات الأشولية فوق سطح الأرض أو في الوديان أو الأنهر إن دلت على شيء فإنما

تدل على العدد الكبير من المخلفات الأثرية المطموسة والتي تعود إلى هذه الفترة. ونادرا ما نجد مخلفات أثرية تعود لفترة البلايستوسين الأسفل في موقعها الأصلية نتيجة للعوامل السابق ذكرها. لكن إمكانية العثور على مثل هذه المواقع واردة في مناطق السهل الساحلي السوري والفلسطيني وعلى أنهار العاصي، والكبير، والليطاني، وفي وادي الأردن. وبينما نرى أن منطقة وادي الأردن كانت مكونة في الغالب من بحيرات نجد أنها كانت في المناطق الأخرى عبارة عن وديان نهريّة متكونة من تجمعات رسوبية.

عند إمكانية الحصول على مخلفات أثرية كالأدوات الصوانية والعظام تعود في تاريخها إلى فترة العصر الحجري القديم المرحلة الأولى (الأسفل) من مواقع أثرية حفرت بشكل منتظم، أو بمعنى آخر جاءت الطبقات السكنية متتابعة بشكل منتظم حينها وضع تسلسل زمني لهذه الفترة في منطقة فلسطين والأردن.

أما الأدوات التي كانت تستعمل بشكل كبير خلال المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم (الأسفل) فهي الأدوات الصوانية البيضوية الشكل والمشذبة الوجهين (Bifaces)، والفؤوس الحجرية اليدوية. ومن خلال دراسة أشكال هذه الأدوات من قبل علماء ما قبل التاريخ استطاعوا تمييز أربعة أوجه لفترة العصر الحجري القديم وهي التي ذكرناها أعلاه.

لقد كشفت لنا الحفريات الأثرية عن عدد من المواقع التي تنسب إلى فترة العصر الحجري القديم "المرحلة الأولى" "الأسفل" في منطقة سوريا ولبنان وفلسطين والأردن. ونذكر هنا مواقع ست مارخو (Sitt Markho) وبيرزين (Berzine) على نهر الكبير واللطامنة (Latamne) وجوب جنين II (Joub Jannine II) ومعيان باروخ (Maayan Baruch) وجسر بنات يعقوب وعقرون (Evron) ومغارة الطابون وحولون (Holon) وأم قطفة والعبدية وتل أبو الخس (Bar - Yousef 1980-109 - 114).

بالنسبة لموقع أبو الخس فقد اكتشف حديثا في وادي الحمة إلى الشمال من موقع طبقة فحل في الجهة الشرقية لغور الأردن (Villiers 1980, 1982). ويبدو أن الموقع قد زاره مجموعة من الناس الصيادين والجامعي القوت خلال المرحلتين الأولى والثانية للعصر الحجري القديم. وأما الأدوات الصوانية التي عثر عليها في هذا الموقع فقد وصفت على أنها آشولية مبكرة ذات شكل بيضوي وتتكون في الغالب من الفؤوس اليدوية والفؤوس والمهارس وبعض الشظايا الرؤية الصنع وتأتي أهمية هذا الموقع بأنه يمثل وجود الإنسان الأول في المرحلة الأولى من العصر الحجري القديم في الأردن.

ويعتبر موقع العبيدية في الجزء الشمالي لغور الأردن في فلسطين أهم المواقع التي ذكرناها آنفاً بل وأشملها لهذا نقدم فيما يلي عرضاً وافياً لهذا الموقع:

العبيدية:

اكتشف هذا الموقع في عام ١٩٥٩ عن طريق الصدفة وذلك عندما كانت إحدى الجرافات تقوم بعملية حفر في شمالي وادي الأردن. ومن ثم أجريت أعمال حفر باشتراك بيكار (Picard) وبيدا (Balda) وبار — يوسف (Bar - Yousef) وتخرنوف (Tchernov) (Bar - Yousef 1978: 1216). ويقع هذا الموقع الذي ينخفض حوالي ٢٥٠ متر عن سطح البحر إلى الجنوب من بحيرة طبرية.

أجريت الحفريات في ثلاثة أماكن متباعدة في نفس الموقع. ولقد استطاع العلماء إرجاع المخلفات الإنسانية من هذه الأماكن إلى مجموعتين مختلفتين الأولى تعود إلى ما قبل الفترة الاييفلية والثانية إلى الفترة الاييفلية (Bar - Yousef 1978: 1214). إن التكوين الجيولوجي لهذا الموقع كون صعوبة أمام المنقبين خاصة وإن الطبقات المكتشفة عثر عليها داخل مياه بحيرة، لكن وفي فترة البلايستوسين الأوسط جاءت مغطاة ومتجمدة ومتصدعة. وربما يكون هذا ناتجاً عن عوامل طبيعية، وذلك للملاحظة أن هذه الطبقات جاءت مختلفة في سمكها (Bar - Yousef 1980: 107).

إن دراسة الطبقات الرسوبية للموقع دلت على أن معظم الآثار متداخلة بين فترتين للبحيرة. وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على اختلاف في المناخ. على أية حال، لا يمكننا إيضاح أي صلة مباشرة لتسلسل الحوادث اعتماداً على عمق مركز البحر والرواسب والشواطئ، لكن غنى المخلفات العظمية (Fauna) والتي جمعت من الطبقات الأثرية، مكنت العلماء من وضع دراسة مقارنة مع مخلفات مشابهة عثر عليها في مناطق مختلفة من أوروبا. إن أهمية المخلفات العظمية للعبيدية راجعة لكونها تمثل حلقة وصل ما بين المخلفات العظمية لفترة البلايستوسين الأوسط والأعلى، خاصة عظام الحيوانات القارضة.

إن المنطقة المحيطة بموقع العبيدية تتضمن منطقة جبلية مغطاة بغابات بحر أوسطية مع مناطق صخرية، كما أن هناك واد يكون مع الترسبات الطينية شبه دلتا داخل بحيرة وشواطئ حصوية، وكذلك مناطق رعوية عند أسفل الوادي. إن العثور على بقايا عظمية تعود لحيوانات برية وقارضة في الغابات يشير إلى أن المناخ كان أكثر رطوبة وأقل دفئاً في منطقة غور الأردن عما هو عليه الآن.

أمكن تمييز نوعين من الأدوات الحجرية التي اكتشفت في هذا الموقع. في النوع الأول جاءت الأدوات المصنوعة من حصى شواطئ البحار والبحيرات، وفي الثاني مصنوعة من حصى الوديان. ولقد بلغ مجموع الطبقات التي احتوت على أدوات حجرية حوالي ٦٢ طبقة حفر منها بشكل منتظم (دقيق) ١٢ طبقة فقط والتي زودتنا بمجموعة كبيرة من أشكال الأدوات الحجرية. هذه الأدوات جاءت مصنوعة من مواد مختلفة فالنفارم (Choppers) كانت مصنوعة من الصوان وحجارة الرمي (حجارة كروية الشكل) (Spheroids) جاءت من الحجر الجيري بينما الأدوات المشذبة على الوجهين (Bifaces) والفؤوس اليدوية كانت مصنوعة من البازلت، مع العلم أن بعضها كان مصنوعاً من الحجر الجيري. وهناك تشابه كبير في طريقة صنع هذه الأدوات والتي عثر عليها في طبقات مختلفة حيث أنها جاءت مصنوعة بواسطة الطرق المباشرة (Percussion) (- Bar Yousef 1980: 107).

كشفت لنا الدراسة العددية للأدوات المكتشفة في العبيدية عن أربع مجموعات، المجموعة الأولى والأقدم تضم فقط مفارم وحجارة رمي كروية الشكل ولا تضم أدوات مشذبة على الوجهين (no bifaces). في المجموعة الثانية والتي كونت ١٠% من مجموع الأدوات كانت كلها أدوات مشذبة على الوجهين. في المجموعة الثالثة عثر فقط على أدوات مشذبة على الوجهين (Bifaces) ومفارم ولم يعثر على حجارة رمي. ولوحظ تناقص عدد الأدوات المشذبة على الوجهين في المجموعة الرابعة (Bar - Yousef 1980: 109).

أما المخلفات الحيوانية التي أمكن التعرف عليها في العبيدية فقد ضمت فقاريات مائية والأصداف، والأسماك، وزواحف أخرى، ومن ثم الطيور، والزرافة، والفيلة، أما البقايا العظمية الإنسانية فكانت عبارة عن ثلاث قطع عظمية سميكة جداً، وسنين، وربما تكون أحدث في تاريخها من العظام الأخرى المنتقطة في نفس الموقع.

العصر الحجري القديم "المرحلة الثانية" "Middle Palaeolithic"

أطلق اسم المرحلة الثانية للعصر الحجري القديم على الأدوات الصوانية المصنوعة في نهاية الفترة الآشولية، وما قبل المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم Upper Palaeolithic، وهي تضم الأدوات المستيرية والأدوات المعاصرة لهذه الأدوات وخاصة المستيرية تميزت بالصناعة اللافالوازية Levallois Technique، والتي بدأت في نهاية المرحلة الأولى للعصر الحجري القديم Lower Palaeolithic، وأصبحت عامة بل ومسيطر عليها في هذه

المرحلة. ومن أهم الأدوات التي استعملت في هذه المرحلة هي المكاشط والأدوات المديبة (Perrot 1968; Bar - Yousef 1980: 112).

لقد تم حتى الآن العثور على أكثر من خمسين موقعا في المنطقة الواقعة ما بين تدمر في سوريا وجبال لبنان في الشمال وبين جبال الكرمل وصحراء النقب في الجنوب. لكن، وعلى أية حال، فإن المواقع التي يمكن الاستفادة من دراستها والاعتماد عليها للتاريخ فهي تلك المواقع التي لها علاقة مباشرة مع تغييرات سطح البحر بالإضافة إلى الكهوف ذات الطبقات الرسوبية التي تحوي بعض حبوب اللقاح (Horowitz 1979).

وبعد دراسة شاملة للمواقع الأثرية التي تعود لهذه المرحلة، بدا لعلماء ما قبل التاريخ والآثار أن الطقس اختلف، وأن فترة من الأحوال الجوية الباردة والرطوبة قد بدأت في منطقة المشرق في الفترة الانتقالية من المرحلة الأولى إلى المرحلة الثانية في فترة العصر الحجري القديم، وتمثل هذا في مغارة الطابون في فلسطين. وفي هذا الموقع بالذات جلمت الأدوات المكتشفة تمثل حلقة وصل ما بين أدوات الفترة الآشولية (خاصة المكتشفة في يبرود)، والأدوات المستيرية، ومثل هذه الأدوات استمرت صنعها في مواقع مختلفة، وإلى هذه الفترة المبكرة تعود المرحلة المستيرية في النقب (Marks 1976: 383ff) ومواقع أبو سيف وكهف القفزة في فلسطين.

وقد أشارت تواريخ الكربون المشع (C14) التي تم الحصول عليها من بعض المواقع إلى أن التاريخ المقبول لهذه المرحلة يجب أن يكون، وعلى أية حال من الأحوال يعود إلى ما قبل التاريخ ٥٠,٠٠٠ سنة منذ الآن. وأن مرحلة البلايستوسين الأعلى كان يسودها طقس جاف بشكل عام، كما تخللها انجرافات، وظهر هذا بشكل واضح في كهوف الطابون، وقفزة والشقبة. ودعمت هذه النظرية أيضا بعد العثور على بقايا حيوانات ثديية في عدد من الكهوف، وأكبر دليل على هذا العثور على العديد من عظام الأيل الأسمر (Fallow deer) في كهف الطابون، والذي يمكن تفسيره على أنه نتيجة لاستعمال المكان كمصيدة للحيوانات (Jellinek et al 1973; 151-185) شواهد تثبت هذا أيضا أنه خلال فترة الانتقال من بداية المرحلة المستيرية إلى نهاية هذه المرحلة اختفت عناصر معينة من الحيوانات الصغيرة خاصة الفقاريات وبدأت أنواع حديثة وجديدة في الظهور.

هذه الملاحظات القليلة بالإضافة إلى تراكم طبقات من الحجر الجيري في الوديان وترسبات هذه الوديان الغنية، وتكوين بحيرة اللسان التي كانت تغطي في الغالب كل سطح منطقة غور الأردن زودتنا بفكرة عن تغيير البيئة في الفترة المستيرية، وعن الإنسان الذي عاش خلال هذه المرحلة. أما السؤال عن ماهية هذا الإنسان فقد استطعنا

الإجابة عليها من خلال المكتشفات الآدمية التي عثر عليها في كهوف قصار عقيل، وكبارا، والطابون، والعامود، ومقبرتان في مغارة السخول وقفزة. ولقد استطاع العلماء التعرف على إنسان نياندرتال وأشكال الإنسان الحالي، وأخرى انتقالية ما بين النوعين بين أجزاء الهياكل العظمية التي وجدت. ولقد ربط العلماء ما بين مجموعة من الهياكل العظمية التي عثر عليها في الطابون، وكبارا والعامود مع أخرى من شانيدر في جبال زاغروس وهي تمثل الأقدم بينما تلك التي عثر عليها في قفزة والسخول تمثل النوع الأحدث. ولقد تميز إنسان نياندرتال من كهوف السخول وقفزة بأنه شديد الشبه بالإنسان الحالي أكثر من أية بقعة أخرى في العالم. وعلى هذا الأساس فإن هذا يقودنا للقول بأن الإنسان الحالي كان ظهوره لأول مرة في هذه المنطقة من العالم.

يبدو أن الإنسان توصل إلى معرفة عادة الدفن في الفترة المoustيرية حيث عثر في مغارة السخول في فلسطين على مدفن منتظم، علما أن هناك مثالا أفضل، ألا وهو مغارة قفزة، حيث تم العثور على مدفن لشخصين أحدهما بالغ، والثاني طفل، يبلغ عمره حوالي الست سنوات. وفي مدفن آخر تم العثور على شخص يبلغ عمره حوالي ١٣ عاما ملقى على ظهره ويده موضعتان بشكل مثني على الصدر فوقهما قرن وعل. وفي منطقة المدافن في كهف قفزة تم العثور على أصداف من البحر المتوسط وقشر بيض نعام (Bar) (Yousef 1980: 113).

لقد عثر على بقايا لإنسان الفترة المoustيرية في مناطق مختلفة وبكثافة مختلفة، فمثلا جاءت مخلفات هذا الإنسان في منطقة القدس والخليل مثل تلك التي من وادي العامود أفقر من مخلفات الإنسان الذي سكن الكهوف الواقعة على طول الساحل اللبناني ومنطقة جبل الكرمل. لكن وحتى في هذه المواقع الغنية، نجد أن الإنسان استقر هناك لوقت قصير كما هو الحال في مغارة الطابون (Tabun C) وفي طيرة الكرمل، وفي الطبقات السكونية الأولى في كهف قفزة.

من المواقع المهمة، والتي تم اكتشافها حديثا في الأردن، موقع وادي الحمة يبعد حوالي ١ كم إلى الشمال من موقع أبو الخس شمالي طبة فحل. الأدوات التي عثر عليها تضمنت أدوات لافالوازية الصنعة، ومجموعة من الـ Cores بشكل قرص وأدوات مدببة وشفرات ورقائق صوانية. بالإضافة إلى هذا الموقع تم العثور على مواقع أخرى مختلفة في وادي الحمة تعود إلى المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم وهذا مما يشير بأن هذا الوادي كان أحد المراكز المهمة في هذه المرحلة (Villiers 1982).

طبقا للدراسات الأولية التي أجراها كل من جارود ونيوفيل ورست فإن الأدوات المستيرية وصفت وحلت حسب طريقتين، الطريقة الأولى وتمثل الأفكار التي طرحها Bordes في محاولته لتصنيف الأدوات الصوانية المستيرية المكتشفة في غربي أوروبا وذلك حسب أشكالها. وقد أدخلت هذه الطريقة إلى المشرق بواسطة "سكنر" و"بيروت" (Perrot 1968; Skinner 1965). الطريقة الثانية وهي تتبع الانطباع الأول لجارود ونيوفيل في محاولة لدراسة الفترة المستيرية بشكل حقيقي وفعلي وهذا الرأي دعمه كل من كوبلاند Copeland وجلنك Jellinek. وأخيرا طريقة مختلفة تماما عن الطريقتين السابقتين قدمت لنا من خلال العمل الذي قدمه لنا Binford حاول فيها تحليل المجموعات المستيرية على أساس أنها تمثل نشاطات موسمية من خلال مجموعة من الناس المتنقلين والذين كانوا يشتغلون في الصيد (Bar - Yousef 1980:114).

واعتمادا على الطريقة الأولى المذكورة أعلاه فإنه يمكن تقسيم الأدوات الصوانية المستيرية، وحسب تقسيم بودريان Bordian، والذي اعتمد فيه على تقنية الأشكال (طريقة صناعة الأدوات) إلى عدة أشكال، وكل شكل من هذه الأشكال يمتاز بملامح عديدة مختلفة، أما طريقة Skinner فتضم ثلاث مجموعات مختلفة هي: البيرودية، والآشولية، والتي هي أحد الأوجه البيرودية، وأخيرا مجموعة من مجموعة من هذه المجموعات الأربع الأخيرة كانت تتميز عن الأخرى من حيث الشكل المحلي للأدوات، وهذه المواقع هي أبو سيف والطابون وبيروت وعرق الأحمر. أما تقسيم بيروت Perrot للأدوات فهو يتبع طريقة Bordian حيث ضمت مجموعاته: الأدوات المستيرية على الطراز الآشولي، ثم المستيرية المتمثلة في الأدوات اللافالوازية والمستيرية المكونة من أدوات مدببة ومستطيلة (طراز أبو سيف)، ومن ثم المستيرية الأصلية وأخيرا المستيرية (Denticulated المستننة Mousterian).

هناك نموذج آخر اقترح من قبل كوبلاند Copland في تقسيم الأدوات الصوانية التي تعود إلى المرحلة الثانية من العصر الحجري القديم، واعتمدت فيها تسلسل الطبقات السكنية في مغارة الطابون. حيث لاحظت جارود Garrod اختلافا واضحا بين هذه الطبقات. فالطبقة "D" وهي الطبقة الأقدم كانت متميزة بأدوات مدببة الرأس ومستطيلة الشكل وبشفرات مصنوعة بطريقة اللافالوا، الطبقة "B" والتي تمثلت فيها الشظايا "Flakes" البيضاء الشكل والمكاشط وأما الطبقة "B" فقد تميزت بالقليل من أدوات اللافالواز المدببة Lavallots - Points. لكن كوبلاند Copeland لاحظت هنا المشاكل الموجودة في التقسيم من حيث أننا لا نستطيع أن نربط ما بين مغارة الطابون، وبقية

المواقع إلا من حيث الملامح المميزة للأدوات الصوانية. وعلى أية حال، فقد ذكرت بأنها عثرت في لبنان على بعض المواقع حيث جاءت فيها صناعة "الطابون" معاصرة للطابون "B" (Bar - Yousef 1982:114).

أما جلنك (Jelinek) فقد عالج هذه المسألة من زاوية مختلفة (Jelinek et al 1973: 151-183) حيث قام بقياس الأدوات المكونة من الرقائق والشفرات الصوانية *Flakes/ blades* والتي كونت الأدوار الرئيسة المشدبة. كذلك استطاع أن يحسب نسب العرض/ السمك (حيث أخذ القياس من منتصف كل قطعة). وباستعمال المعدل الوسطي للأدوات في كل طبقة من طبقات الطابون وجد أن النسبة تأخذ بالارتفاع ابتداء من الفترة الآشولية وإلى نهاية المستيرية. والخلاصة الأولية التي خرج بها هي أنه وفي وقت من الأوقات حصل تغيير في تقنية صناعة الأدوات المستيرية.

العصر الحجري القديم "المرحلة الثالثة" "Upper Palaeolithic"

بعد الدراسة التي أجريت خلال العقدين الماضيين حول هذه المرحلة تبين لنا أن نماذج المجموعات والصناعات هي أكثر تعقيدا عما اعتقد في السابق.

وأكثر من هذا فإن قلة التواريخ المعطاة بواسطة الكربون المشع، وندرة الشواهد على حصول التقلبات الجوية، علما أنها كانت واضحة أثناء حصوها، وفوق كل هذا الأشكال العديدة للأدوات الصوانية خلال المجموعات الصغيرة التي نشرها علماء ما قبل التاريخ، جعل من الصعب جدا علينا وضع إطار لتصنيف هذه الأدوات.

لقد ظهرت عدة مشاكل حول الأحوال التي كانت سائدة خلال هذه الفترة، ونذكر منها هنا: كيف كانت الأحوال المناخية خلال المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم، أي في المرحلة التي تقع تقريبا ما بين ٤٠,٠٠٠ - ١٧,٠٠٠ ق.م؟ وهل كانت هناك فترة انتقالية في تقنية الأدوات في الفترة الواقعة ما بين الأدوات المستيرية وأدوات هذه المرحلة؟ وكم هي عدد الطرق التقنية التي يمكن تمييزها في الشرق الأوسط وما هي الصفات الرئيسية لهذه التقنيات؟ وهل باستطاعتنا التعرف على أوجه إقليمية بين المجموعات المتوفرة لدينا على أساس طريقة صناعة الأدوات الصوانية؟ أو ما هي الأشياء المعروفة — غير الأدوات الصوانية — حول هذه المرحلة؟

بالنسبة للسؤال الأول فإن الشواهد على التقلبات الجوية تعتبر قليلة. لكن وعلى الرغم من هذا، فإن كثرة عدد المواقع التي تعود إلى هذه المرحلة يستطيع الإنسان من

خلالها تكوين فكرة ما. الفترة الانتقالية ما بين نهاية الفترة المستيرية وبداية المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم كانت على الأغلب فترة باردة وجافة، وقد تبعها في حوالي ٣٢,٠٠٠ ق.م موجة رطبة، حيث تم العثور على عدد من المواقع في صحراء النقب وشمال سيناء تمثل هذا. لكن وفي حوالي ٢٠,٠٠٠ ق.م أصبحت الأحوال الجوية أكثر جفافاً، واستمرت على هذه الحالة حتى حوالي ١٢,٥٠٠ ق.م حين بدأت الأحوال الجوية بالتحسن. على جميع الأحوال فإنه وبمقارنة المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم بالمرحلة الثانية (المستيرية) من هذه الفترة نجد أنها كانت أكثر جفافاً وبرودة (Bar - Yousef 1980:115).

إن الانتقال من الفترة المستيرية إلى بداية المرحلة الثالثة من العصر الحجري في صناعة الأدوات الصوانية يبدو هذه الأيام أقل مثاراً للجدل عنه في الوقت السابق خاصة بعد أن تم العثور على بقايا الإنسان العاقل *Homo Sapiens* في الطبقات المستيرية في كهف القفزة، وفي موقع "بوكر تخطيط" *Boker Tachtit* في فلسطين، وفي المواقع اللبنانية التي تميزت بصناعة الشفرات والرقائق الصوانية (Marks 1977). لكن الجواب على السؤال المطروح هو: من هو الإنسان الذي صنع هذه الأدوات؟ لم يلق الإجابة حتى الآن، علماً أن الإنسان العاقل كان موجوداً في بلاد الشرق الأوسط في ذلك الوقت. إن صناعة الأدوات بطريقة اللافالوا التقليدية كانت متمثلة على الرقائق *Flakes* الأدوات المدببة *Points* والشفرات الصوانية في المواقع اللبنانية، بينما استعملت في صناعة الأدوات المدببة في موقع بوكر تخطيط *Boker Tachtit* في فلسطين. وهذا الموقع الأخير يعطي أمثلة جيدة على صناعة كل من الشفرات الصوانية *blades* التي تعود للمرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم، والأدوات المدببة المصنوعة من نفس خامة هذه الشفرات *blades cores* (Marks 1977). أما من ناحية التواريخ التي حصلت عليها من هذا الموقع فلا تزال مثاراً للجدل من حيث أنها تعتبر أقدم من ٤٠,٠٠٠ ق.م وتقع ضمن مجموعة من تواريخ الفترة المستيرية أي المرحلة الثانية للعصر الحجري القديم.

لكن أهميتها ناتجة من أننا نستطيع الربط بشكل عام ما بين الأدوات الصوانية في كل من فلسطين ولبنان والتي تتكون من الرقائق *flakes*، وشفرات *blades* ذات حافة مكونة بواسطة ضربة عكسية *transversal blow*، وهذه الأدوات كانت معاصرة لبعضها البعض. تقع جميع المواقع اللبنانية التي تعود إلى هذه المرحلة في منطقة لا تتجاوز البضعة كيلومترات مما يشير إلى بداية حضارة إقليمية متنوعة في منطقة الشرق الأوسط. ومن المواقع التي لا يزال يدور حولها الجدل في فلسطين كهف أميرة *Emireh Cave*، خاصة وأن

مثل هذا الموقع يظهر تشابها مع المواقع اللبنانية من حيث العثور على كثير من الرقائق بشكل أكثر من الشفرات والتي تظهر الصنعة اللافالوائية. ولقد تم العثور على أدوات كهف الأميرة في الأصل ضمن هذه الصناعة المتأخرة لمرحلة العصر الحجري القديم الثانية، ولهذا فقدت أهميتها كدليل يعتمد عليه.

إن المجموعات المذكورة آنفا قدمت لنا طريقتين صناعيتين مختلفتين في صناعة الأدوات الصوانية التي ظهرت في المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم. الطريقة الأولى تتمثل في تفوق إنتاج الرقائق أكثر من الشفرات. وقد جاءت الشفرات الصوانية تحمل صفات تختلف عن بعضها البعض في الغالب، وفي عدد من المجموعات التي عثر عليها جاءت سميكة نسبيا. ومن الأدوات غير المشغولة (الغفل) استطاع الإنسان الأول أن يصنع المكاشط اليدوية والمناقيش *burins*. مثل هذه الأدوات الصوانية تم العثور عليها داخل كهوف مثل قصار عقيل وعرق الأحمر وكذلك في العراء. ومن خلال التغير الذي طرأ على أنواع وأشكال هذه المجموعات أصبح باستطاعتنا التمييز ما بين الطبقات والأماكن وحتى ما بين المراحل الزمنية. ومن هذه المجموعات التي صنعت على هذا الفرار تلك التي عثر عليها في مواقع قصار عقيل (*Kear Akil Phase A,BI*)، وعرق الأحمر الطبقات *f-d* وبعض المواقع المختلفة في العراء *open-air sites* في فلسطين في النقب مثل سيدي دفشون *Sde Divshon* وعركوف *Arkov* (Marks 1977). المراحل النهائية لفترة العصر الحجري القديم المرحلة الثالثة تمثلت في مواقع بوكر (*Boker be layer*) و (*Boker C*) "يورخان لحوالي ٢٢,٠٠٠ ق.م" ومجموعات أخرى جمعت تحت اسم العتليتية *Aditian* أو *Upper Palaeolithic phase IV* ما بين بداية المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم (حوالي قبل ٤٠,٠٠٠ - ٤٣,٠٠٠ ق.م) ونهاية المرحلة المتمثلة في موقع عين عكف (*Ein Aqev*) (تورخ لحوالي ١٥,٠٠٠ ق.م) كان هناك كثير من أشكال الأدوات الصوانية والتي ربما تكشف الدراسات المستقبلية عنها.

وهنا يستطيع الدارس أن يسجل ملاحظة هامة ألا وهي أنه خلال المجموعات المختلفة والمذكورة أعلاه كانت هنالك طريقتان مختلفتان في صناعة الأدوات الصوانية. الأولى وهي الرئيسية، فقد كانت إنتاج الرقائق *flakes production*، بينما الثانية هي صناعة الشفرات الجيدة وذات الحجم المتوسط والتي استعملت في صناعة الأدوات المدببة في مغارة الواد *El-Wad point*. وهذه الأدوات المدببة كانت مصنوعة بواسطة أنواع مختلفة من التشذيب *retouch*.

كما ذكرنا أعلاه فإن الطريقة الثانية لصناعة أدوات هذه المرحلة كانت تتركز في إنتاج الشفرات والشفرات الصغيرة **blades/ bladeslets** وقد تم العثور على مثلها بين الأدوات المكتشفة في مغارة القفزة وبالتحديد في الطبقات E/D والمورخنة إلى حوالي ٣٧,٠٠٠ — ٣٠,٠٠٠ ق.م وموقع بوكر "أ" **Boker A** (مؤرخ بواسطة الكربون المشع لأكثر من ٣١,٠٠٠ ق.م وربما يكون حوالي ٣٧,٠٠٠ ق.م). بالإضافة إلى هذه التواريخ فإن هنالك الكثير من التواريخ التي حصلنا عليها من مواقع مختلفة في شمالي سيناء وفي صحراء النقب **Marks 1977; and phillips 1977 Bar - Yousef**. إن كثرة عدد الشفرات زاد في عدد الأدوات المدببة. كما هو الحال في العديد من الشفرات الصغيرة المشدبة. كذلك ظهرت هناك أدوات أخرى مثل المكاشط اليدوية والمناقيش **burins** ولكن بأعداد أقل من الشفرات. وبما أن صناعة الشفرات كان هي السائدة في هذه المرحلة فإن هذا يقودنا إلى القول بأن صناعة مثل هذه الأدوات في الفترة اللاحقة وهي الـ **Epi - Palaeolithic** مستمدة أو مأخوذة من هذه الصناعة.

هناك تقليد أو طراز آخر في صناعة الأدوات الصوانية المنسوبة إلى هذه المرحلة ويمكن اعتباره كوحدة مستقلة خلال الطراز أو الطريقة الأولى ويعرف باسم الصناعة الأورجينية "ب" **Levantine Auragnacian B** (— **Besancon; Copeland & Hours 1975**). وهذه تتميز بصناعة المكاشط التي لها رأس بشكل غير منتظم **carinated**. والشفرات الأورجينية بالإضافة إلى مجموعة فقيرة من الأدوات العظيمة وكل هذه الأدوات تشابه أدوات الفترة الأورجينية في فرنسا. أما المواقع التي ظهرت فيها مثل هذه الأدوات فجاءت موزعة في المنطقة الواقعة ما بين وادي السبع جنوبا وسلسلة جبال لبنان شمالا ويبرود في سوريا شرقا. وتبعاً لتواريخ الكربون المشع **C14** والتي حصلنا عليها من قصار عقيل **Ksar Akil** وغيره من المواقع تؤرخ هذه الصناعة وبشكل تقريبي للفترة الواقعة ما بين ٣٢,٠٠٠ — ٢٦,٠٠٠ ق.م. ومن ميزاتنا أيضاً أن الأدوات المدببة المنسوبة إلى مغارة الواد ظهرت بشكل كثيف في أولى مراحل الصناعة الأورجينية ثم تناقصت بالتدريج.

وبغض النظر عن معرفتنا الجيدة بالأدوات الصوانية التي ظهرت في هذه المرحلة، فإننا لا زلنا نجهل الكثير عن النواحي الأخرى من حياة الإنسان الذي عاش في هذه المرحلة. حتى أن التابع الزمني الطويل لموقع قصار عقيل لم يزودنا بكثير من الأمور التي تساعدنا في تأريخ هذه المرحلة. كذلك جاءت الأدوات العظمية قليلة العدد، وكانت مدببة إما برأس واحد أو برأسين، وظهرت هذه الأدوات بشكل رئيس في مواقع قصار عقيل ويبرود والواد. وكذلك تم العثور على بلاطة حجرية مع مدقتها والتي كانت تستعمل

للطحن في كهف القفزة، كما عثر على واحدة أخرى مماثلة في موقع عين عكف Ein Aqev، وكذلك تم العثور في مغارة القفزة على مجتمعتين مكسرتين لا نزال لا نعرف عنهما أي شيء، كما وجد مدفن في موقع وادي عين جف Nahal Ein Gev I (Arensburg 1977:294).

وبالنسبة لمساحة المواقع الأثرية والتي تعود إلى هذه الفترة فقد أشارت الدراسة للمخلفات التي عثر عليها في بعض المواقع إلى أن مساحة الموقع قد تبلغ حوالي ٢٠٠ متر مربع أو أقل. وفي كثير من الكهوف التي لوحظ فيها آثار سكنية لهذا الإنسان مثل الواد وكبارا وغيرها أن مساحة محدودة جدا من الموقع قد احتوت على بقايا إنسانية، أو بمعنى آخر تشير إلى سكنى الإنسان الأول.

والتوزيع الجغرافي للمواقع التي تعود إلى هذه المرحلة يشير إلى أن المواقع الأثرية قد غطت الشرق الأوسط بكاملها عدا بعض الاستثناءات. فمثلا لا توجد مواقع فوق التلال التي ترتفع أكثر من ١٠٠٠ متر فوق سطح البحر. ويبدو أن المواقع التي عثر عليها في النقب وسيناء قد تمثلت بما فترات مختلفة، وهذا ناتج عن تحسن المناخ. ونفس القول يمكن أن ينطبق على مواقع جبال القدس والخليل المطلة على البحر الميت، ولكن لم يظهر لنا أي موقع أنه قد سكن بشكل مستمر لفترات طويلة إلا موقع قصار عقيل.

البقايا الحيوانية المتمثلة في هذه الفترة والتي عثر عليها في مواقع مختلفة من سوريا وفلسطين أظهرت لنا كثرة الحيوانات الثديية على غيرها من الحيوانات الأخرى خاصة المصطادة على عكس ما كان يعتقد سابقا. ففي منطقة لبنان نجد أن الأيل الأسمر والـ roe deer (نوع من الأيائل) والوعل الشائعة، لكن فلسطين وغور الأردن نجد أن الأيسل السمر والغزال بالإضافة إلى الحيوانات البقرية هي الأكثر استعمالا، وشيء مهم لا بد من ذكره هنا وهو أن غياب البقايا النباتية جعل من الصعب جدا على الدارسين إعطاء فكرة عن مصادر الغذاء النباتية الأولية في هذه المرحلة.

وأخيرا، وباختصار فإنه يظهر لنا أن التحركات البسيطة لمجموعات الإنسان الأول والذي كان لا يزال صيادا وجامعا للقتل قد كونت أساسا لوحداث اجتماعية خلال هذه المرحلة. لكن هذه الوحدات الاجتماعية المختلفة قد احتفظت بطرق الصناعات التقليدية التي كانت مستعملة منذ آلاف السنين السابقة.

نهاية العصر الحجري القديم (المرحلة الرابعة) Epi Palaeolithic

ظهر اسم Epi Palaeolithic للوجود خلال الخمس عشرة عاما المنصرمة لتصبح محورا رئيسيا لأبحاث علماء ما قبل التاريخ في بلاد الشرق الأوسط. وقد عرفت في السابق

باسم العصر الحجري المتوسط **Mesolithic (Clark 1980)** وتمثل المرحلة بداية التغير في البيئة إلى الأحوال التي نعيشها حالياً. ونتج عن هذا قلة في المصادر الحيوانية والنباتية مما حدى بالإنسان أن يتجمع في مجموعات في مستوطنات صغيرة المساحة. ولقد تم الكشف عن العديد من المواقع والمجموعات الأثرية التي تعود إلى هذه المرحلة، وسواء أكان ذلك بطريقة عفوية أم ضمن مشاريع أثرية فقد تم دراسة هذه المكتشفات والتي زودتنا بفكرة عن حياة إنسان هذه المرحلة.

ونتيجة لزيادة البقايا الملتقطة من مخلفات هذه الفترة فإن نظرنا إليها قد اختلفت عن السابق من حيث تقديرنا لأهميتها وعلاقتها مع المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث. ونتيجة لذلك فقد غيرت هذه الفكرة عن إنسان عصور ما قبل التاريخ الذي كان يوصف دائماً بأنه ساكن كهوف، وانتقل إلى مواقع العراء في نهاية البلايستوسين. هذا التفسير لسكنى الإنسان الأول مأخوذ عن الأبحاث التي أجريت في القرن التاسع عشر في منطقة أوروبا الغربية حيث جاءت معظم مواقع العصر الحجري القديم متمثلة في كهوف ومآوي صخرية. لكننا استطعنا وبشكل عام أن نحصل من مثل هذه المواقع على تسلسل للطبقات السكنية وأن نكون فكرة عن التسلسل الحضاري. مثل هذه الحالة تكون مفيدة بشكل خاص في حالة عدم وجود تواريخ مؤكدة مثل تلك المعطاة بواسطة الكربون المشع على سبيل المثال، لهذا نعتمد في تأريخنا على دراسة مقارنة للأدوات التي حصلنا عليها من خلال الطبقات السكنية. وفي خلال هذا القرن ركز العلماء أبحاثهم خاصة في كل من أوروبا وأفريقيا على المواقع المكشوفة في العراء أكثر من مواقع الكهوف وخرجوا بنتيجة هي أن السكنى في الكهوف والمغاور الجبلية جاءت أقل من بقية المواقع السكنية الأخرى (Bar - Yousef 1980:118). إن الاستعمال المكثف لطريقة التأريخ الراديومتريّة "Radiometric Dating" خلال السنوات الأخيرة جعل بالإمكان وضع جدول زمني خاصة للمواقع المكشوفة في العراء في عدد من الأقاليم وشجعت على عمل دراسة لمناطق الشرق الأوسط المماثلة. ويلاحظ المتتبع لنتائج هذه الدراسات توفر العديد من تواريخ الكربون المشع للمرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم (Bar - Yousef, phillips 1977).

لقد صنفّت المواقع المنسوبة إلى المرحلة الرابعة والأخيرة من العصر الحجري القديم Epi - Palaeolithic في المشرق حسب ما احتوته من أدوات صوانية والتي غالباً ما تكونت من الشفرات الصغيرة جداً "Bladelets" والتي تطورت إلى أدوات صغيرة جداً

"Microlithic" وبأشكال مختلفة. لكن مثل هذا التصنيف أصبح في هذه الأيام أقل أهمية عما كان عليه في أوقات سابقة. والسبب مرجعه إلى أن هناك أدوات تعود إلى هذه المرحلة مشابهة في طريقة صنعها لأدوات ظهرت في فترات أقدم (Bar - Yousef 1980:119). إن بداية المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم في بلاد الشرق الأوسط تمثلت في مجموعة الأدوات المكتشفة في كهف كبارا في جبال الكرمل في فلسطين. وأقدم تاريخ حصلنا عليه لفترة كبارا حوالي ١٧,٠٠٠ ق.م، ولكنه من الممكن إضافة بعض آلاف السنين إلى هذا التاريخ وذلك إذا ما أخذنا بعين الاعتبار التابع السكاني لبعض المواقع المكتشفة في الشرق الأوسط مثل وادي الفلاح في فلسطين، وقصار عقيل في لبنان (Besancon; Copeland and Hours 1975-77; noy; Legge and Higgs 1973).

إن الأحوال المناخية خلال فترة كبارا (١٧,٠٠٠ - ١٢,٥٠٠ ق.م) كانت بلردة وجافة في الجزء الشمالي من الشرق الأوسط وباردة ورطبة في النصف الجنوبي لهذه المنطقة. ويبدو أن المناطق الصحراوية كان أيضا باردة وجافة. مثل هذا التقرير كان يعتمد على شواهد لدراسة البقايا النباتية ورواسب الوديان (Bar - Yousef; Goldberg and Leveson 1974).

وبعد إجراء العديد من المسوحات الأثرية في منطقة الشرق الأوسط بشكل عام وفلسطين والأردن بشكل خاص استطعنا تكوين فكرة جيدة عن التوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التي تعود إلى هذه المرحلة. فجاءت المواقع نادرة الوجود في مناطق النقب وشمالي سيناء وقليلة جدا في الواحات.

واعتمادا على العديد من مجاميع الأدوات المتوفرة لنا والتي تعود لفترة كبارا يستطيع الدارس أن يقسمها إلى فترات فرعية ومناطق إقليمية مختلفة. وأقرب مثال على هذا هو توزيع الشفرات المدببة ذات القاعدة المكسورة أو المشدبة والتي عثر عليها في منطقة الأردن وفي جنوبي سوريا (Bar - Yousef 1980:119). وهذا يشير إلى احتمال وجود دلائل سكنية تعود لفترات ما قبل التاريخ في منطقة رسمت حدودها مجموعات الإنسان الأول الذي كان صيادا وجامعا للقتات. إن إمكانية التعرف على وحدات أو مجموعات سكانية أصغر تبدو واضحة في المناطق الجغرافية التي تضم مجموعة صغيرة جدا من الأدوات أو وجود مجموعة من هذه الأدوات خلال منطقة تتراوح ما بين ٣٠-٤٠ كم. ويمكن التعرف على مثل هذه المجموعات في مناطق السهل الساحلي الفلسطيني وفي سلسلة الجبال اللبنانية.

لقد ظهر في هذه المرحلة ابتكار جديد وهو استعمال الأجران والمدقات كأدوات. وهذه الأدوات جاءت مصنوعة من الحجر البازلتي أو الحجر الكلسي وكانت مصحوبة في بعض الأحيان بأدوات طحن. إن ظهور مثل هذه الأدوات يدل على تغير في تطور التقنية في الحصول على الأغذية النباتية وربما يكون هذا هو طحن الحبوب البرية. إن التعرف على الأغذية النباتية في هذه المرحلة لا يزال غير واضح، وذلك لأننا لم نعثر في موقع كبارا على بقايا نباتية كافية تعطينا فكرة عن هذا الأمر. كذلك فإن العثور على حبوب قمح مهجنة في موقع وادي الفلاح لا يعتبر دلالة كافية لمثل هذا الموضوع، وذلك للعثور على هذه الحبوب في طبقات سكنية مختلفة من هذا الموقع (Noy; Legge and Higgs 1973).

إن العثور على قليل من بقايا الحيوانات البحرية الرخوية مبشرة في موقع كبارا يشير إلى الصلة ما بين هذا الموقع وشواطئ البحر المتوسط. لكن انتقال مثل هذه الأشياء إلى مثل هذه المناطق كان محدودا جدا كما هو الحال في المرحلة السابقة. يستدل على التقلبات المناخية في الفترة الواقعة ما بين ١٢,٥٠٠ - ٨,٠٠٠ ق.م من بقايا حبوب اللقاح النباتية والترسبات مدعومة بالتوزيع الجغرافي للمواقع الأثرية التي تعود إلى هذه المرحلة. ويصنف عدد من هذه المواقع على أنه يعود لفترة "Geometric Kebaran A" خاصة تلك الواقعة في الصحراء والبعيدة عن مصادر المياه الدائمة. وتمتد مثل هذه المواقع داخل شبه جزيرة سيناء حتى قناة السويس. ولقد سميت إحدى مجموعات الأدوات الصوانية المعاصرة لهذه الفترة باسم الموشابية "Moshabian"، واعتمادا على تقنية أشكال هذه الأدوات فقد اعتبرت بأن أصولها مستمدة من شمالي أفريقيا. ولقد أشارت التقنيات الحديثة والتي جرت مؤخرا في منطقة شمالي سيناء والنقب بأن أشكال الأدوات الصغيرة جدا، وكذلك الاستعمال المكثف لتقنية المنقاش الصغير "Microburin" هما دليلان على المؤثرات الأجنبية في صناعة أدوات المشرق. جاءت المواقع التي ضمت أدوات موشابية موزعة حتى سفوح الجبال الواقعة غربي البحر الميت وحتى حدود البحر المتوسط (Bar - Yousef and Phillips 1977).

وبعبارة أخرى فإن الأدوات المنسوبة إلى فترة (Geometric Kebaran A) نجد أنها قد صنعت ولو بشكل جزئي بطريقة الكبارا العادية وذلك بإنتاج الشفرات الصغيرة وقليلة العرض. وعلى أية حال سواء أكانت هذه هي المرحلة الأخيرة للكبارا أو أنها تمثل صناعة تخص منطقة معينة لا تمت إلى هذه المرحلة فإنه كان هناك انتقال إلى صناعة الشفرات الصغيرة الأكثر عرضا. إن الأشكال الكاملة التي حصلنا عليها لهذه الشفرات الصغيرة

bladellates جاءت بشكل شبه منحرف وكانت إما قليلة العرض (٤-٧ ملم) أو عرضة (٧-١٠ ملم). ولقد جاء استعمال الـ **microburin** بشكل قليل في معظم المجموعات التي حصلنا عليها.

خلال عمليات الحفر الأثرية في مغارة الواد تم التعرف على أربع مراحل سكنية تعود للمرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم (**Upper Palaeolithic**) فوق طبقات المرحلة الثانية من نفس العصر وتحت طبقات أطلقت عليها جارود اسم العصر الحجري القديم الوسيط (**Mesolithic** ١٠,٠٠٠-٨,٠٠٠ ق.م) (**Garrod and Bate 1973**). هذه الطبقات العليا سميت "بالناطوفية" نسبة إلى وادي الناطوف غربي القدس حيث كشف عن معالم هذه الحضارة ولأول مرة في كهف شقبة الذي يقع في هذا الوادي (**Garrod and Bate 1942**).

تعتبر الفترة الناطوفية الخطوة الأولى للمجتمعات الزراعية في منطقة الشرق الأوسط. ولا زال بعض العلماء يطلق عليها اسم العصر الحجري الوسيط (**Mesolithic**)، وتعتبر على أنها تشكل مرحلة انتقالية ما بين مرحلة العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث، أو بعبارة أخرى ما بين حياة التنقل والتجوال حيث كان الإنسان صيادا وجامعا للفقوت، وحياة شبه مستقرة حيث أصبح الإنسان منتجا للفقوت. وربما يكون سبب هذا التغير ناتجا عن تغير في الأحوال المناخية والتي أصبحت أكثر ملاءمة لاستقرار هذا الإنسان. ولقد أظهرت الأدوات الصوانية الناطوفية بعض ملامح أدوات فترة الكباراء، ومثال ذلك الشفرات والمنقاش واستعمال قرن الوعل والعظام في صناعة الأدوات (**Clark 1980:25**). وتميزت الأدوات الصوانية الناطوفية بأنها جاءت في معظمها صغيرة الحجم ذات حد مستقيم وهلالية الشكل من الخلف وحتى الآن لم يعرف أصل هذه الصناعة، لكن وعلى أية حال يبدو لنا أنها كانت مستوحاة من حضارة سكان فلسطين الأصليين والتي امتدت من أواسط لبنان وسوريا شمالا وحتى مدينة حلوان في مصر جنوبا. وعلى هذا الأساس فإنه بإمكاننا اعتبار الحضارة الناطوفية حضارة محلية استمدت جذورها من المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم (**Clark 1980:28**). ومن الممكن العثور على العديد من مواقع هذه الفترة داخل فلسطين. وجاءت معظم الشواهد التي تعود للفترة الناطوفية من كهوف علما أن هذه الكهوف سكنت على فترات متقطعة. وعلى هذا الأساس فإننا لا نستطيع التوقع بأن نثر على طبقات سكنية ناطوفية ثابتة أو ليس من الضورة. يمكن أن تكون هذه الطبقات تقع مباشرة فوق طبقات المرحلة الثالثة من العصر الحجري القديم، ولكن في كهف شقبة وكما ذكرنا أعلاه فقد جاءت الطبقات الناطوفية فوق

طبقات المرحلة الثانية للعصر الحجري القديم مباشرة بينما في مغارة الواد جاءت فوق طبقات المرحلة الثالثة للعصر الحجري القديم. وحتى في مغارة كبارا فإننا لم نجد أية إشارة تدلنا على وجود بقايا ناطوفية تعلو طبقات العصر الحجري القديم للمرحلة الثالثة والتي سميت بالكبارا. ولكن الحفريات الحديثة في موقع وادي الفلاح على السهل الساحلي الفلسطيني إلى الشمال من كهف المغارة أشارت إلى وجود نموذج سابق لصناعة الأدوات الصغيرة الحجم التي تنسب إلى الفترة الناطوفية (Noy, Legga and Higgs 1973).

إن تواريخ الكربون المشع التي حصلنا عليها من طبقات فترة الكبار في موقع وادي الفلاح هي (Layer IX, UCLA - 1776c: 18250 ± 320 BP) ومن موقع راكيفت (Rakefet I. 6856: 18910 ± 300 BP). وهذا مما يشير بأن هذه الفترة بدأت في فلسطين في حوالي ١٧,٠٠٠ ق.م. كذلك أشارت بعض تواريخ الكربون المشع الأخرى التي حصلنا عليها من موقع وادي الفلاح إلى أن هذه الفترة كانت مزدهرة في حوالي ١٤,٠٠٠ ق.م أي قبل بداية الفترة الناطوفية في حوالي ١٠,٠٠٠ ق.م (CLARK 1980:28).

أما بالنسبة للمساكن الناطوفية فقد جاءت دائرية الشكل بقطر يتراوح بين ٩-٤ متر كما هو الحال في موقع عين الملاحه شمالي بحيرة الحولة (PERROT 1966c, 1969). كما أنه تم العثور على آثار لحفر صغيرة ربما كانت تستعمل لوضع الأعمدة التي ترفع السقوف. ولقد وجدت مخلفات تعود للفترة الناطوفية في مناطق مختلفة من فلسطين والأردن وسوريا بالإضافة للمواقع التي ذكرناها آنفا نذكر هنا على سبيل المثال للذكر لا للمناقشة أريحا والبيضا والمريبط وغيرها الكثير.

وهكذا نكون أنهينا الحديث عن حياة الإنسان الأولى والتي كان بها إنسانا بدائيا يلتقط قوته اليومي التقاطا وعاش معظم وقته في الكهوف، علما أن بعض المواقع المكشوفة قد تم العثور عليها. بعد هذا نتقل إلى الحديث عن مرحلة أخرى من حياة هذا الإنسان والتي كانت الدرجة الأولى على سلم استقرار هذا الإنسان، مرحلة المجتمعات الزراعية.

بداية المجتمعات الزراعية

"العصر الحجري الحديث"

أصبحت هذه الفترة محط أنظار علماء ما قبل التاريخ منذ أن حاول بريدوود Braiwood الكشف عن ماهية حضارة المجتمعات المتقدمة والتي أطلق عليها اسم العصر الحجري الحديث (Braidwood 1972, Singh 1974, Mellart 1975, Cunvin 1978, Kafafi 1982).

يقسم علماء الآثار هذه الفترة إلى عدة مراحل مختلفة، وبعد حصولنا على المزيد من التواريخ المعطاة بواسطة الكربون المشع أصبح باستطاعتنا تكوين فكرة وافية عن هذه المراحل المبكرة في تاريخ الإنسان. هذه المراحل تختلف العلماء في تسميتها، بينما نجد أن كاثلين كنيون وهي التي نقت في مدينة أريحا في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٢ — ١٩٥٩ واعتمادا على الاختلاف في الطرز المعمارية تقسم المرحلة المبكرة والتي تسمى فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار إلى فترتين أ وب. المرحلة الأولى تتمثل في الأبنية دائرية الشكل وأما المرحلة الثانية فتتمثل في الأبنية المنتظمة الشكل سواء أكانت مربعة أم مستطيلة. أما الفترة اللاحقة والتي ظهر فيها استعمال الفخار فتقسمها أيضا إلى قسمين أ وب، وذلك تبعا لاختلاف أنواع الفخار وماهيته (Kenyon 1953) كذلك نجد أن Pere Buzy والذي قام بمسح أثري في منطقة وادي الطاحونة والتي تبعد حوالي ٣ كم إلى الجنوب من مدينة بيت لحم، قد أطلق على الأدوات الصوانية الملتقطة اسم "الطاحونية". هذه التسمية استعمال من قبل بعض علماء ما قبل التاريخ أمثال Neuville في وصفه للأدوات الصوانية المكتشفة في الطبقات العليا في موقع الخيام (Neuville 1934) وجارستنج Garstang عند تحدّثه عن فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (PPNB) في أريحا. لكن G. Echegaray والذي أعاد حفرة موقع الخيام في عام ١٩٦٢ نجد أنه قد قبل اسم

الطاحونية للأدوات المكتشفة في الطبقات العليا في هذا الموقع بينما نجد أنه استعمل اسم "الخيامية" للفترة التي أطلق عليها Neuville اسم Natufian IV (Echegaray 1966).

كذلك نجد أن Payne قد اقترح اسم "السلطانية SULTANIAN للأدوات المكتشفة في طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار B (PPNB) في أريحا لبيان أهمية هذه المرحلة في هذا الموقع (Payne 1976: 134)، وكذلك أطلق اسم "الظبيانية Dhobanian" على الأدوات المكتشفة في موقع وادي ظبي في شرق الأردن (- Waechter and Seton 1974: 174) نجد أيضا أن ألبرايت Albright قد أطلق اسم الحضارة الريحانية Jerichoan على الأدوات المكتشفة في الطبقة التاسعة IX في أريحا والحضارة اليرموكية على الأدوات المكتشفة في الطبقة الثامنة لنفس الموقع (Albright 1971:49)، إن اسم الحضارة اليرموكية كان قد أطلق في السابق على الأدوات المكتشفة في موقع شعار هجولان على نهر اليرموك (Stekelis 1950 51:19; 1972:36). وقد اعتبر ستكلس Stekelis الطبقة الثامنة في أريحا بأنها تعود إلى فترة العصر الحجري النحاسي Chalcolithic واعتبر الحضارة اليرموكية معاصرة للطبقة التاسعة في أريحا (Stekelis 1972: 43,44).

وأكثر من هذا، فإننا نجد أن التقسيمات الجغرافية قد أخذها بعض العلماء بعين الاعتبار حين أطلقوا التسميات على حضارة العصر الحجري الحديث، فمثلا نجد أن اسم "حضر الساحل في العصر الحجري الحديث Coastal Neolithic" قد أطلقت على صناعة الأدوات المكتشفة على سواحل البحر المتوسط وشمال فلسطين (Anati 1963: 269; de Vaux 1966:16).

ومن العلماء الذين اهتموا بدراسة هذه المرحلة من حياة البشرية هو A.M.T. Moore والذي أطلق في بداية الأمر اسم العصر الحجري الحديث المبكر على حضارة الـ PPNA والـ PPNB والطبقات ٦-٣ في المنحطة، واسم العصر الحجري الحديث المتأخر على الفترة التي ظهرت فيها صناعة الفخار في كل من أريحا والطبقة ٢ في المنحطة واليرموكية (Moore 1973:36). ومن ثم فقد قسم الحضارة الأخيرة إلى مرحلتين الأولى والتي تضم أريحا والطبقة التاسعة IX واللد، وتلييلات البطاشي الطبقة الرابعة ووادي ربه وتل الدويسر ومجدو الطبقة عشرون XX وبيسان وكفار جلعادي Kfar Glladi وهجوشيريم Hagocherim. وهذه المرحلة تقابل في نظره الأدوات المكتشفة في عين النفيخ وتل أرض التليلي وتل النبعة الفوار الواقعة في سهل البقاع في لبنان (Copeland and Wescombe 1965, 1966; Moore 1973:56). وفي مواقع تل الرماد الطبقة الثالثة وفي جبيل Byblos في سوريا.

وتتميزت المرحلة الثانية من العصر الحجري الحديث المتأخر بتطور في العمارة وبتغير أشكال الأدوات الفخارية. وتقابل هذه المرحلة الأدوات المكتشفة في أريحا الطبقة الثامنة وفي تل الفارعة الشمالي الطبقة الأولى، وفي المربعات وفي وادي غزة موقع "د، د" وفي بيسان في الحفر السكنية وفي الطبقة الثامنة عشر التي تعلو هذه الحفر وفي شعار هجولان والمنحطة طبقة ٢ب 2B، وفي مجدو والحميدية الطبقة الثالثة، وفي هتسوريا Hazoria (Moore 1973: 57-63).

ولكننا، وفي وقت متأخر نجد أن Moore قد غير رأيه في هذه التسميات حيث أطلق اسم العصر الحجري الأول والثاني والثالث والرابع (Moore 1978) العصر الحجري الحديث الأول ويتمثل في المرحلة الأخيرة من العصر الحجري القديم Epi-Palaeolithic، والفترة الانتقالية ما بين هذه المرحلة وبداية المجتمعات الزراعية، وفترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار في أريحا (Moore 1978:159). المرحلة الثانية من العصر الحجري الحديث وتتمثل في حضارة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار في أريحا وفي المنحطة الطبقات ٦-٣، وفي حضارة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار B وفي البيضا (Moore 1978:150). وتضم المرحلة الثالثة الأدوات التي ظهرت في أريحا الطبقة التاسعة IV وفي تليلات البطاشي الطبقة الرابعة، وتل المتسلم الطبقة عشرون XX والمنحطة طبقة 2B وفي شعار هجولان (Moore 1978: 359-380). وأخيرا المرحلة الرابعة والتي تمثلت في الأدوات المكتشفة في أريحا الطبقة الثامنة والمربعات وتل الفارعة الشمالي والمنحطة الطبقة 2A والشيخ علي في الطبقات IA,BC وفي وادي ربة وتليلات الغسول وتل السعيدية الغربي في شرقي الأردن (Moore 1978: 453-460).

أما رايت G.E. WRIGHT فقد كان له رأي آخر في تصنيف الطبقة الثامنة في أريحا والتي يعتبرها معظم علماء الآثار بأنها تمثل المرحلة الأخيرة من فترة العصر الحجري الحديث، حيث أنه اعتبرها تعود إلى فترة العصر الحجري النحاسي Chalcolithic وحلول ربطها بالطبقة "د، د" في سهل العمق بشمال سوريا (Wright 1951:53). كما نجد أنه أطلق اسم الحضارة الطاحونية والريحاوية على الفترة الواقعة ما بين ٨٠٠٠ - ٥٠٠٠ ق.م، واسم العصر الحجري النحاسي المبكر Early Chalcolithic على الفترة الواقعة ما بين ٥٠٠٠ - ٣٥٠٠ ق.م (Wright 1961: 78-79).

من العلماء الذين اهتموا أيضا بدراسة فلسطين في فترة ما قبل التاريخ العالم الفرنسي R. de Vaux والذي قال بأن الفترة الانتقالية ما بين الفترة الناطوفية وبداية العصر الحجري الحديث (PPNA) يمكن ملؤها بواسطة الفترة المسماة Proto-Neolithic وهذه تمثلت في

أريحا ووادي الفلاح، لكنه ذكر بأنه كانت هناك فجوة ما بين فترات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار والفخاري وأضاف بأن بعض مواقع العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار لم تسكن ثانية في فترة العصر الحجري الحديث الفخاري (de Vaux 1978: 33036). لكن بناء على الحفريات التي جرت مؤخرا فإننا لا نوافق de Vaux على وجود هذه الفجوة الواسعة وذلك اعتمادا على ما ذكرته Kirkbride من خلال حفريتها في موقع عين أبو نخيلة في منطقة وادي رم في الأردن والتي ذكرت بأن الأدوات المكتشفة من هذا الموقع من الممكن اعتبارها حلقة الوصل ما بين فترة ما قبل الفخار والفخار (Kirkbride 1978: 9)، علما بأن ديانا كيربرايد كانت قد وافقت de Vaux على هذا الاقتراح في البداية واعتبرت أن هذا مرده إلى تغييرات مناخية (Kirkbride 1971: 282).

كما ذكرنا آنفا فإن مرحلة العصر الحجري الحديث قد تبعثها فترة استطاع الإنسلان فيها التوصل إلى استعمال الأدوات الفخارية في استعماله اليومي. هذه المرحلة الأخيرة يمكننا أن نطلق عليها اسم العصر الحجري الحديث المتأخر وهذه المرحلة تمثلت في الفخار الأسود المصقول DFBW والفخار المشابه للفخار الذي ظهر في أريحا في الطبقات ٩ و ٨. إن الفخار الأسود المصقول والذي يعتبر البداية الأولى للفخار ظهر في مناطق مختلفة في سوريا ولبنان وجنوبي الأناضول أما في فلسطين فقد ظهر في مواقع المنحطة طبقة ٢ (Perrot 1964)، وفي الشيخ علي II (Praisnits 1960a: 120)، وتيلات البطاشي IV (Lechevallier and Dolfus) (Kaplan 1966: 272) (Kaplan 1958a: 83)، وكفار جلعادي (Kaplan 1966: 272) (Kaplan 1958a: 83)، وفي تل الترمس (Perrot 1963b: 559)، وتل أبو زريق "Hazorea" (Perrot 1963b: 559) (Anati 1972) وقد جاءت الأواني الفخارية المصنوعة من هذا النوع من الفخار مصنوعة بواسطة اليد ومحروقة بشكل جيد.

وفي نظرنا فإنه بالإمكان تقسيم فترة العصر الحجري الحديث الفخاري إلى فترتين: الفترة الأولى وتضم تحتها أريحا الطبقة التاسعة PNA، والحضارة اليرموكية، أما الفترة الثانية فتحتوي أريحا الطبقة الثامنة PNB، والأدوات المشابهة التي ظهرت في موقع عروبة في الأردن (Mallaart 1956) وفي المنحطة الطبقة....

ختاما للحديث عن التسلسل التاريخي لفترة العصر الحجري الحديث في فلسطين فإنه بإمكاننا أن نميز مرحلتين مختلفتين. المرحلة المبكرة والتي تميزت ببداية بسيطة للزراعة وهذه كانت مرتبطة بأن الإنسان كان لا يزال يعتمد أيضا في حياته على الصيد وعلى جمع قوته. والمرحلة المتأخرة والتي تميزت باستعمال الأواني الفخارية وباقتصاد زراعي حيث

أصبح الإنسان منتجا للقوت بشكل فعلي وأفضل من المرحلة السابقة. وفيما يلي نحاول أن نفرّد موضوعا لكل فترة من هاتين الفترتين:

مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر:

تضم هذه المرحلة الفترات التي أطلق عليها علماء ما قبل التاريخ اسم PPNA, PPNB, Proto, Neolithic، أما فترة الانتقال فقد أطلقت عليها كنيون Proto - Neolithic فقد اعتبرناها هنا جزءا من هذه المرحلة، وذلك بناء على البقايا النباتية التي تم العثور عليها في الطبقات التي تعود إلى هذه الفترة في أريحا (Kenyon 1980: 99, 1981:18, 175<220). وقد اعتبرت الأدوات الصوانية والتي تعود لهذه الفترة الانتقالية على أنها تطوّر للأدوات الصوانية الناطوفية، وأنها تميزت برؤوس السهام bifacials, notched arrow-heads (Kirkbride 1960d: 115).

أما البقايا الحيوانية المصطادة والتي عثر عليها في فلسطين وتعود إلى هذه المرحلة، فكانت تتكون من عظام الغزال والماشية والخنزير والثعلب (Clutton - Brock 1969: 337-345). وبناء على هذا الأساس فإنه يبدو أن حياة الإنسان في فلسطين في هذه المرحلة لم تكن تختلف عنها في المرحلة السابقة حيث عاش الإنسان صيادا وجامعا للقوت.

وبالإضافة إلى أريحا فقد عثر على بقايا تعود إلى هذه الفترة في موقع وادي الفلاح على الساحل الفلسطيني (Noy, Legge and Higgs 1973).

العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ):

في مدينة أريحا وفوق بقايا الطبقة الانتقالية ما بين الفترة الناطوفية والعصر الحجري الحديث استطاعت المنقبة أن تميز بيوتا دائرية الشكل مبنية بواسطة طوب ترابي ذو شكل أفقي — محدب Plano-Convex. ويظهر من الجدران المتبقية والتي لوحظ أنها تميل إلى الداخل قليلا إلى أن سقف هذه البيوت ربما تكون مقببة، كما تم العثور على درجات تقود إلى داخل البيوت التي كانت مبنية تحت مستوى سطح الأرض. كذلك تم العثور في الجهة الغربية للموقع على جدار يبلغ عرضه ١،٥ متر وبلغ ارتفاع الأجزاء المتبقية من هذا الجدار حوالي ٣،٩٠ متر في الجهة الداخلية لهذا الجدار بني برج يبلغ ارتفاعه ٨،٥ متر، وبداخله درجات تقود من أسفله إلى أعلاه، ولقد بررت كنيون بناء مثل هذا البرج لأغراض دفاعية (Kenyon 1958:69, 195, 1956a: 6-7).

بيوت دائرية أو إهليلجية الشكل عثر عليها أيضا في مواقع مختلفة من فلسطين مثل عين الملاح (الفترة الناطوفية) (Perrot 1966c: 437-460). وفي وادي الفلاح والتي تبعد حوالي ١٠ كم إلى الجنوب من حيفا (Stekelis and Yisraelli 1963:5). كذلك لوحظ هذا الطراز من المساكن في تل المريط (Van Loon 1968: 266; Cauvin 1972:106; 1974:48). وفي تل الأسود (De Contenson 1977:40) في سوريا.

أدوات صوانية تنسب إلى هذه المرحلة وجدت في مواقع وادي الفلاح والخيام وجلجال Gilgal ونحال — لافان موقع ١٠٨ "Nahal Lavan Site 108" في فلسطين. هذه الأدوات تميزت بـ *notched arrow-heads* و *burin* ومثاقب *borers* مشذبة على الوجهين وإزميل *chisels* وفؤوس *adzes* وشفرات مناجل *sickle-blades* وشفرات صوانية، بعض الفؤوس الصوانية تميزت بـ *transverse flaking* وعثر على مثلها في موقع وادي الفلاح (Noy, Legge and Higgs 1973: 79-81).

ومع العلم أنه قد تم العثور على بقايا بذور شعير *hordeum distichum* وقمح *triticum dicoccum* وتين "figus" في طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) في أريحا (Hopf 1966: 355-360)، إلا أنه يبدو أن الصيد كان لا يزال يلعب دورا كبيرا في حياة الإنسان في هذه الفترة. ويبدو أن الحيوان الذي كان يصطاد ويؤكل بكثرة في هذه المرحلة هو الغزال والدليل على هذا البقايا العظمية التي عثر عليها في أريحا ووادي الفلاح (Zeuner 1955:70; Noy, Legge and Higgs 1973: 90-91). كذلك تم العثور في موقع وادي الفلاح على بقايا بذور عدس "Vicia" (Noy, Legge and Higgs 1973: 92).

ذكر R. de Vaux بأنه خلال هذه الفترة كان هناك صلات تجارية بين فلسطين وبلاد أخرى حيث تم العثور على عدد من الأدوات المصنوعة من مادة الأوبسديان *Obsiden* والذي تصدره بلاد الأناضول. وأضاف R. de Vaux بأن أريحا ربما صدرت "minerals" المعادن من منطقة البحر الميت مثل الملح والقار والسلفور *sulphur* (de Vaux 1966:7).

وهكذا نخلص إلى أن الإنسان في هذه المرحلة كان يعتمد في حياته اليومية على الصيد بالإضافة إلى زراعة بعض الحبوب مثل القمح والشعير والعدس. لكنه لم يتوصل في هذه الفترة إلى تربية الحيوانات. كذلك فإنه كانت هناك صلات تجارية بين فلسطين وأواسط بلاد الأناضول.

أما خلاف المواقع الفلسطينية فقد تم العثور على بعض المواقع في الأردن والتي من المحتمل إرجاعها إلى هذه الفترة نذكر منها جبل عويند (Uweinid 6A, 6B) والحراثة IV في

منطقة الأزرق (Garrard and Price 1977: 118-120) وربما أيضا في وادي اليابس في منطقة غور الأردن (Kirkbride 1956).

ولا يعرف حتى الآن بالضبط فيما إذا كانت هذه الفترة قد انتهت في مدينة أريحا عن طريق عوامل طبيعية كالزلازل أو على يد قادمين جدد، لكن كنيون ذكرت بأنه هناك فجوة في موقع أريحا في الفترة الواقعة ما بين هذه الفترة (PPNA) والفترة اللاحقة (PPNB) (Kenyon 1956:73; 1981: 269).

العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) (PPNB):

بعد أن حجر موقع أريحا في نهاية العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (أ) نرى أنه قد أعيد سكناه مرة ثانية، وربما يكون هذا على يد جماعة جدد! وقد تميزت أدوات هذه الفترة باختلافها عن أدوات المرحلة السابقة من عدة نواح فنرى أن الأدوات الصوانية قد تميزت بشفرات رقيقة طويلة نسييا (Kirkbride 1960d: 117). كذلك الأمر من الناحية المعمارية حيث جاءت البيوت مبنية بشكل منتظم وغالبا ما تكون مربعة ومبنية من الطوب الترابي المنبسط، ويظهر على هذا الطوب آثار أصابع الصلنع (Kenyon 1956:72; 1981:11, 270). ومن ناحية أخرى فقد جاءت الجدران والأرضيات مقصورة وأحيانا مغطاة بطبقة من الدهان الأحمر اللون (Garstang 1937:69; Kenyon 1981:11, 175). وفي موقع أريحا بالذات عثرت كنيون على غرفة مستطيلة الشكل تبلغ أبعادها ٤×٦ متر وأرضية هذه الغرفة مغطاة بطبقة من القصارة المصقولة ربما تكون معبدا (Kenyon 1954:51).

أما من الناحية الاقتصادية فيبدو أن الإنسان كان لا يزال يعتمد بعض الشيء في حياته اليومية على الصيد إلى جانب الزراعة، وفي موقع أريحا ظهرت أولى بوادر الحيوانات المدجنة مثل الماعز والكلب والوعل إلى جانب الحيوانات غير الأليفة (الخنزير، الماشية) (Z. renue ١٩٥٥: ٧٠-٧٥; ١٩٥٨: ٥٢-٥٥). وفي موقع البيضا الذي يبعد حوالي ١٥ كم إلى الشمال الشرقي من البتراء في جنوب الأردن فقد لوحظ أن الإنسان في هذا المكان كان يعتمد على زراعة المحاصيل ورعي المواشي بالإضافة إلى الصيد في معيشته اليومية (Kirkbride 1966a: 207) وفي الطبقة الثالثة التي تعود إلى نهاية الـ PPNB في موقع المنحطة في شمالي فلسطين تم العثور على بقايا حيوانية تمثل ماشية وماعز وأغنام وخنازير (Perrot and Tzori 1977: 871). وأما في سوريا وفي موقع تل أبو هريرة

بالذات فيبدو أن الغزال هو الذي كان يستعمل بكثرة في غذاء الإنسان اليومي بالإضافة إلى الأغنام والماعز والماشية والخننازير (Legge 1975:75).

أما النباتات التي كان يزرعها الإنسان الأول في فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار B فكانت متنوعة أيضا فقد تم العثور في مدينة أريحا على بذور شعير (tow-row hulled barely) وقمح emmer و einkorn وبازلأء وعلس ونبات علفي (hopf 1969:355). بالإضافة إلى هذا فقد تم التعرف في موقع البيضا على بقايا بذور الفستق والبسوط (Halbaeck 1966:61-66; Kirkbride 1966:69). مثل هذه المزروعات وجدت أيضا كانت تزرع أيضا في تل الرماد والمريبط في سوريا (De Contenson 1966c: 154; 1971: 278; Lerol - Gourhan 1974:443 van Zeit 1970: 167-169; van Loon 1966a: 216; 1968:280).

وقد جاءت معظم الأدوات مصنوعة من مادة الأوبسديان في أريحا في فلسطين كما هو الحال في موقع تل الرماد الطبقات I-II من بلاد الأناضول ومن الشفتلك Ciftlik، بينما جاء بعضها الآخر والذي عثر عليها في الطبقة الخامسة في البيضا في الأردن وبقصرص في سوريا وغمروت داغ Nemrut Dag بالقرب من بحيرة فان Lake Van.

أما من ناحية الأجران وأدوات الطحن فقد كانت غالبا ما تتكون من مادة البازلت، وتميزت بأنه كان لها double - saddle وبدون حافة، كذلك كانت هناك بالإضافة للأجران مدقات ومهارس مصنوعة من حجر الغرانيت كما هو الحال في موقع البيضا في الأردن (Kirkbride 1966: 32-35). من مميزات فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار هو استعمال أواني مصنوعة من العجينة البيضاء اللون Wihte Ware هذه العجينة كانت تتركب من الحجر الجيري أو الجبس بالإضافة إلى الرماد وقد تميزت هذه الأدوات بأن جاءت في الغالب كبيرة الحجم وكانت جدران الإناء سميكة جدا، وكانت سطوح الأنية غالبا ما تكون مصقولة. مثل هذه الأدوات عثر عليها في موقع المنحطة في فلسطين (Perrot 1966a:53).

في موقع عين غزال في الأردن (غير منشورة) وفي مواقع تل الرماد والطبقات الثانية والثالثة (Van Liere and de Contenson 1963:180) وفي رأس شجرة الطبقات VA و VB (de Contenson 1977: 46) وفي تل سو كاس ٨٢-٨٤ (Rile and Thrane 1974:10, 83) وفي جيبيل بيلوس (Cauvin 1968: 41) هذه المواقع جميعها في سوريا أما في لبنان فقد عثر على أواني تعود لهذه المرحلة في مواقع تل النبعة الفسوار (Copeland 1960:90) وفي صيدح Saaydeh (Hours 1969:39) وفي لبوة Labweh الطبقات الثانية والثالثة (Kirkbride 1969c:49).

في عام ١٩٣٥ تم العثور على مجموعتين من التماثيل الصغيرة في أريحا، وقد ذكر بأتهما يعودان إلى فترة العصر الحجري الحديث الفخساري (Garstang 1935:166) بينما تعتقد كنيون بأنهما يجب أن يورخا إلى فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (Kenyon 1960:91). وقد كانت كل مجموعة تمثل رجل وامرأة وطفل، وقد جاء شعر الرأس واللحية مرسومة بأشرطة من الدهان بينما العيون مستعاضة بصدفتين صغيرتين، وذكر de Vaux بأن هذه المجموعة لها صفة دينية وتمثل كل واحد منها إله وآله وإله طفل (de Vaux 1960:10).

وبشكل عام فإن الناس في فترة الـ PPNB قد عبدوا أو قدسوا أسلافهم حيث عثر على مجموعة من الجماجم المفصولة عن الهياكل العظمية في أريحا وتعود إلى هذه الفترة. العيون جاءت مستعاضة بالأصداف البحرية وعضلات الوجه استعوض عنها بطبقة من القصارة، وإحدى هذه الجماجم مرسوم عليها رسوما تمثل الشارب (Kenyon 1957a: 59-64). والهياكل العظمية التي تخص هذه الجماجم جاءت مدفونة تحت أرضيات البيوت. وهذه العادة وهي تقديس الأسلاف، ربما تكون استمرارية للفترة السابقة حيث عثر على مجموعة من الجماجم مفصولة عن الهياكل العظمية في فترة الـ PPNA في أريحا (Kenyon 1956: 75). مثل هذه العادة وجد أنها مورست في هذه الفترة ليس فقط في فلسطين وإنما في مناطق مختلفة من سوريا والأردن (تل الرماد، والبيضا، عين غزال).

كذلك يبدو أن الأحوال الجوية قد تحسنت في هذه الفترة عن الفترة السابقة (Crown 1972) وهذا مما سبب في زيادة الاستقرار وانتشار المواقع الأثرية التي تعود إلى هذه الفترة في منطقة البحر المتوسط من هشارل في جنوب الأناضول شمالا وحتى كلوة في شمال الجزيرة العربية، ومن المواقع المهمة التي تمثلت بها هذه المرحلة موقع أبو غوش بالقرب من القدس حيث عثر هناك على بيوت مستطيلة الشكل مبنية بواسطة الحجارة وبأرضيات مقصورة مشابهة للأرضيات التي تعود إلى هذه المرحلة وعثر عليها في أريحا (Lechevallier 1978). بالإضافة إلى هذا فإنه كان هناك أيضا تشابه بين الأدوات الصوانية التي تم العثور عليها في أريحا مع الأدوات التي عثر عليها في أبو غوش علما بأنه في الموقع الأخير لم يعثر على فؤوس ومحارف صوانية، إلا أن التشابه كان حاصلا في رؤوس السهام وشفرات المناجل وفي المدقات والأجران والأدوات المصنوعة من مادة الأوبسديان.

ويبدو أن الإنسان الذي عاش في موقع أبي غوش في هذه المرحلة قد اعتمد كثيرا في معيشته على أكل لحوم الماشية والماعز بالإضافة إلى الغزلان والثعالب والخنازير البرية كذلك تم التعرف على عظام تعود إلى السلاحف والقطط البرية (Perrot 1975:4).

ومن هنا يمكن القول إن حياة السكان في "أبو غوش" في هذه الفترة كانت تعتمد على الصيد بجانب الزراعة. كما ذكرنا أعلاه فإن موقع أبو غوش يمكن اعتباره أن يكون معاصرا لموقع أريحا في فترة الـ PPNB (1952a: 1-4; 1967b: 267; 1968a: 265; 1969a: 423; 1975:4; Lechevallier 1970a: 223; 1971: 227; 1071a: 407; 1972: 400; 1970: 145). بيوت مستطيلة الشكل وبأرضيات مقصورة تم التعرف عليها أيضا في مواقع مختلفة من فلسطين منها موقع وادي الفلاح والذي عثر فيه أيضا على أدوات صوانية مختلفة وأدوات طحن تعود إلى فترة الـ PPNB (Stekelis & Yisraely 1963: 2ff). أما في موقع المنحطة الذي يبعد حوالي ١٥ كم إلى الجنوب من بحيرة طبرية فقد تم العثور على مثل هذه البيوت في الطبقات ٦-٣ وجاءت صناعة الصوان أيضا مشابهة لتلك التي عثر عليها في أريحا وأبو غوش (1963a; 1963d; 1964a; 1965a; Perrot 1963a; 1963d; 1964a; 1965a; 1965b; 1967; 1967a; 1967c; 1968a; Perrot and Tsory 1964; 1977).

بالإضافة إلى المواقع التي ذكرناها أعلاه فإن هناك العديد من المواقع الأخرى التي تم التعرف عليها في فلسطين وتعود إلى هذه المرحلة ونذكر منها الشيخ علي (Prausnitz 1963: 61-63; 1970: 160ff; 1975: 61-63; 1960a: 120; 1960b: 389-390; 1959; 179) وعين أم الفوس (Tzori 1958: 46) وبيسامون (Lechevallier and Perrot 1973: 108; Ferembach and Lechevallier 1973: 233; 1969: 116-117; Le Burn 1966: 271-272) وفي عين هشومر (Lechevallier and Dolivus 1973a: 17) وفي الخيام (Echegaray 1966) والحמידية (Tzori 1958:45; Kaplan 1965: 543-544) وكفار جلعادي (Kaplan 1966: 273; Lechevallier and Dolivus 1973a:19) وغيرها الكثير.

كذلك يستطيع الإنسان الربط بين الإنسان الذي عاش في فلسطين في هذه الفترة وفي المواقع المختلفة من منطقة سوريا من حيث عادة تقديس الأسلاف ومن ناحية الطيز المعمارية المستعملة في الأبنية. هذه الأمور يستطيع الباحث أن يلاحظها في موقع تل الرماد الطبقتين الأولى والثانية (Van Lier and de Contenson 1966: 154; 1967: 228-229; 1969: 27; 1966: 31-34; 1970; 1971; 1974; 1977; 44-45; Prausnitz 1970b: 156-158; Hooljer 1966: 194-195; van Zelt and S.Bottama 1966; de Contenson and van Leire 1966a; Ferembach 1969; F. Leonard and de Contenson 1973; and Lerol - Gourhan 1974:448). وفي الشيخ حسان (Cauvin 1977) والكوم (Dornemann 1966: 68) وبقرص (van Liere and de Contenson 1963: 182; Hooljer 1966 de Contenson and van Liere) Lerol - Gourhan 1974: 448; de Contenson 1975a: 17-22 and (1966c: 187) وفي غريفة

Moore) وفي تل أبو هريرة (1977:45 Shaeffer 1939; 1962; 153; and Perrot 1977: 45 وفي الطبقة الثانية في موقع تل أسود (de Contenson 1971: 79; Cauvin, M. Claire 1974a; 1974b, and de Contenson 1977:44).

وكذلك في موقع المريط (van Loon 1966: 215-216, 1966b: 216; 1968: 266-269,) Skenner 1968; van Zelt 1970; Cauvin M. Claire 1974; 1974a; Stroeder - Yadid 1974; and Lerlo - gourhan 1974). وجميع هذه المواقع عثر عليها في سوريا.

أما في شرقي الأردن فيعتبر موقع البيضا والذي يبعد حوالي ١٥ كم إلى الشمال الشرقي من مدينة البتراء يمثل أهم المواقع التي تعود إلى فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار PPNB، حيث استطاعت كيركبرايد أن تعطينا صورة واضحة لإنسان هذه الفترة في هذا الموقع من خلال حفرياتها التي أجرتها في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٨-١٩٦٧ (Kirkbride 1960b; 1960c; 1960d; 1962a; 1962b; 1963, 1964, 1966a, 1966b,) ١٩٦٧ (1967a, 1966a, 1967a, 1967b, 1968a, 1968b).

كذلك استطاعت المنقبة أن تميز في هذا الموقع والذي يغطي مساحة ٥ كم مربع فترتين مختلفتين. الأولى تعود إلى الفترة الناطوفية حيث تم العثور على مواقد للنار وعظام حيوانات وقطع صوانية ترجع إلى هذه الفترة. أما في الفترة الثانية وهي الـ PPNB فقد تمكنت من تمييز ست طبقات سكنية. حيث عثرت في الطبقة السادسة وهي أقدم طبقة تعود إلى هذه المرحلة على بيوت شبه دائرية الشكل واستعملت الحجارة والقضبان الخشبية في عملية البناء وكانت مجاورة لبعضها البعض على شكل ما يشبه خلية النحل. أما في الطبقة الخامسة فجاءت البيوت مبنية أيضاً بشكل دائري ولكن كان كل بيت يقف وحده، وفي الطبقة الرابعة جاءت البيوت مستطيلة الشكل بزوايا دائرية. لكن الحال اختلفت أيضاً في الطبقات الثانية والثالثة حيث عثر على أبنية تتكون من ممر ضيق أطواله ١×٨ متر وبني على جانبيه غرف مختلفة الأحجام أطوال الغرفة الواحدة ١.٥×١ متر. وجاءت بعض البيوت مبنية على مستوى سطح الأرض، وعلى هذا الأساس بنيت درجتان تؤديان إلى داخل الغرف أما الطبقة الأولى فقد عثر فيها على بقايا تعود للفترة النبطية (Kirkbride 1977a: 201; 1967:10).

مرحلة العصر الحجري الحديث المتأخرة:

تميزت هذه الفترة بمعرفة الإنسان الأول لمادة الفخار واستعمالها في صناعة أدواته اليومية، ففي مدينة جبيل (بيبلوس) في لبنان وفوق طبقات العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب) تم اكتشاف نوع من الفخار الأسود المصقول (Dark (Mellaart 1975:68 Faced Burnished Ware وهذا النوع من الفخار اكتشف في مواقع مختلفة من فلسطين ذكرناها آنفاً.

وفي نهاية مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر وبداية التأخر يبدو أن فلسطين كغيرها من مناطق البحر المتوسط قد تعرضت لتغيرات مناخية، حيث رأينا أنه في منطقة الأردن قد تراجعت مناطق السكن في نهاية المرحلة المبكرة من العصر الحجري الحديث من المناطق المعروفة بالصحراء الأردنية الآن إلى المناطق الجبلية ومنطقة وادي الأردن. لكن ما يجب ذكره هنا أن بعض المواقع قد عثر عليها في الصحراء الأردنية وتعود إلى PPNB لكنها ربما تكون قد استعملت كمخيمات أو مناطق غير دائمة للسكن وأن بعض المجتمعات تحولت إلى رعوية وتربي الموشى ومن أهم هذه المواقع موقع في وادي رم اسمه عين أبو نخيلة (Kirkbride 1980).

وقد اعتمد الناس في هذه المرحلة في معيشتهم على زراعة المحاصيل الزراعية وتربية الحيوانات المستأنسة. ولقد ذكر بأنه أخذت في هذه الفترة القرى الزراعية في التوسع (Mellaart 1975: 277) ويبدو أن التجارة في هذه المرحلة لم تلعب دوراً كبيراً كما كان عليه الحال في السابق علماً أن بعض الأدوات الصوانية ربما تكون خاماتها قد استوردت من مناطق أخرى لم تحدد بالضبط بعد (Mellaart 1975: 229).

ومن خلال دراستنا للمخلفات الإنسانية المكتشفة في فلسطين والتي تعود بتاريخها إلى هذه المرحلة أمكننا تقسيمها إلى قسمين فرعيين. القسم الأول والذي نسميه العصر الحجري الحديث المتأخر الأول وهذا يتمثل في الحضارة اليرموكية التي استمدت أصولها من مواقع مختلفة من غور الأردن وفي أريحا الطبقة التاسعة أي المرحلة الأولى التي استعمل فيها الفخار في هذا الموقع وفي المنحطة الطبقة ٢ ب (2B). أما العصر الحجري الحديث المتأخر الثاني فيتمثل في أريحا الطبقة الثامنة والمنحطة الطبقة ١٢ (2A1) ومواقع فلسطينية أخرى. وفيما يلي نلقي الضوء على كل فترة على حدة.

العصر الحجري الحديث المتأخر الأول:

في موقع أريحا تبع سكان مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر (ب) أناس عرفوا بصناعة الأدوات الفخارية. هذه الأدوات تميزت بأنها كانت مدهونة بزخارف حمراء اللون

ومصقولة وقد اتفق على أنها تمثل البداية في صناعة الفخار (Kenyon 1957a: 81). وهذا النوع من الفخار عثر عليه في أريحا في حفر كانت مقطوعة في الطبقات العليا من المرحلة السابقة. أما في بقية فلسطين فقد تم العثور على مثل هذا النوع من الفخار في المنحطة الطبقة (٢ب) (Perrot and Zori 1977: 872) وفي الطبقة الرابعة في موقع تليلات البطاشي (Kaplan 1958a: 83) وفي جفعات هابرسا (Noy 1977: 290) Givat he- Parsa. ولقد أظهرت هذه المواقع جميعها على أن الإنسان في هذه الفترة استعمل الحفر للسكن.

ولقد ذكرت كنيون أنه ليس من الممكن معرفة ما إذا كانت أريحا قد هجرت لبعض الوقت قبل بداية العصر الحجري الحديث المتأخر أم أن الموقع قد دمر بواسطة قادمين جدد (Kenyon 1957a: 81). وبينما نجد أن de Vaux يعتقد بأن صناعة الفخار قد دخلت إلى أريحا عن طريق قادمين جدد (de Vaux 1966: 13). نجد أن Mellaart يجادل بأن هذه الجماعة قد أتت من الاتجاه الشمالي الشرقي لفلسطين (Mellaart 1975: 238). على أية حال، فإن كنيون قد ذكرت بأنه كان هناك فجوة سكانية واسعة في أريحا في الفترة الواقعة ما بين نهاية مرحلة العصر الحجري الحديث المبكر وبداية المتأخر، وهذا الشيء غير متمثل في جميع المواقع السورية — الفلسطينية.

في فلسطين يبدو لنا أن الحضارة اليرموكية تمثل المرحلة الأولى في صناعة الفخار. واسم اليرموكية كان قد أطلق من قبل M. Stekells على الأدوات المكتشفة في موقع شعار — هجولان عند مصب نهر اليرموك في وادي الأردن. والذي اعتبر هذه الأدوات أقدم في تاريخها من الأدوات الفخارية التي اكتشفت في الطبقات التاسعة والثامنة في أريحا (Stekells 1950-15, 1953a, 1972)، وهذا ما تثبت صحته مقارنة مع ما ظهر في المنحطة إلى الجنوب من بيسان. حيث استطاع Perrot في هذا الموقع الأخير التعرف على طبقتين مختلفتين تعودان لحضارة العصر الحجري الحديث المتأخر هما (٢أ و ٢ب). واعتبر الطبقة ٢ب (2B2) هي الأقدم والتي تضمنت أدوات مماثلة لما عثر عليه في شعار هجولان، وأما الطبقة ٢ب (2B1) فقد اعتبرت مماثلة للطبقة التاسعة في أريحا IX/PNA. وذكر بأن الطبقة ٢أ (2A) احتوت مواد مماثلة لأريحا الطبقة الثامنة VIII/ PNB ووادي ربه. ولقد جاءت جميع الأدوات المكتشفة في شعار هجولان من طبقة واحدة مكونة تراب رمادي (Stekells 1950-51, Prausnitz 1970: 150).

ولقد تميزت الحضارة اليرموكية بفخار محزز ومزخرفة بالزخرفة المسماة زخارف عظام ظهر السمكة herring-bone. وثمانيل صغيرة محفورة على الحصص (Stekells 1952)

وبأدوات صوانية مختلفة الأشكال منها المناكيش والأزاميل والمخارز وشفرات المناجل التي كانت أسنانها بارزة بشكل كبير (Deeply serrated sickle- blades). وبندرة رؤوس السهام (Stekelis 1950- 51, 4:8, Noy 1975: 128-130).

واعتماداً على تسلسل الطبقات في موقع المنحطة فإنه يمكننا أن نعتبر أن الفخار الذي ظهر في الطبقة التاسعة (IX/ PNA) في أريحا يمثل المرحلة الثانية لفخار شعار هجولان. ولقد ذكرت Kirkbride بأن أريحا IX معاصرة للعمق A/ Early B (Kirkbride 1971: 285)، وهذا ما لا نوافقه، وعدم الموافقة هذه نابعة من أن الفترة A/ Early B في موقع العمق في شمالي سوريا قد حوت نوعاً من الفخار والمسمى DFBW والذي هو أقدم من أريحا IX ولم يظهر في هذا الموقع أيضاً. على أية حال، فإن فخار الطبقة التاسعة في أريحا تتميز بالأشكال البسيطة مثل الصحون والجرار البيضوية الشكل وبأن العجينة كانت مخلوطة بالقش. أما الزخارف فكانت مدهونة باللون الأحمر على بطانة لونها كريمي وبأشكال مثلثات أو خطوط بسيطة أو بشكل زقزاق (Droop 1935: 169-171, Ben Dor 1936: 77-92).

أما الإنسان فقد اعتمد في حياته اليومية على صيد الأسماك والحيوانات وتربية قطعان الماشية والزراعة على درجة أفضل من الفترات السابقة. بالإضافة إلى المواقع المذكورة أعلاه فقد اكتشفت مواقع أخرى في الأردن تعود إلى هذه الفترة نذكر منها الذراع في جنوب الأردن (Bennett 1980: 30-39) وفي الأزرق وعويند (٩) والخرانة (٢) (Garrard and Price 1977: 114, 116, 120).

العصر الحجري الحديث المتأخر الثاني:

خلال الأدوات الفخارية المكتشفة في أريحا وتعود إلى فترة العصر الحجري الحديث استطاعت كنيون تمييز نوعين من الفخار وعثر عليهما معا في حفر استعملت للسكن. النوع الأول الذي سمي (أ) PNA ويقابل الطبقة التاسعة التي اكتشفتها Garstang في نفس الموقع والنوع الثاني (ب) PNB والذي يماثل الطبقة الثامنة (Kenyon 1957a: 85). ويجادل العديد من علماء الآثار بأن فخار PNA جاء مختلطاً مع PNB في أريحا، وبناءً على هذا نجد أنهم يفضلون اعتبارهما يعودان لفترة واحدة (de Vaux 1966:17). لكننا، واعتماداً على الحفريات التي أجريت في موقع المنحطة حيث عثر على كل من النوعين السابقين في طبقة منفصلة عن الأخرى فإننا نفضل اعتبارهما يعودان لفترتين مختلفتين متتاليتين.

أما المباني التي عثر عليها في الطبقة الثامنة BNP في أريحا فقد وجد أنها مبنية بواسطة الطوب الترابي، وبشكل مسمى depahs -nub يختلف عن الطوب الذي استعمل في الفترات السابقة واللاحقة. وجاءت الطوبة الواحدة ذات مقطع دائري الشكل بقاعدة مبسطة وبسطح منحنٍ، وموضوعة فوق ملاط طيني ومبنية فوق جدار تأسيسي مبني من صف واحد من الحجارة (Kenyon 1957a: 86).

وقد تميزت هذه الفترة بتطور كبير في صناعة الأدوات الفخارية والصوانية. حيث تميزت الأدوات الفخارية بزخارف محفورة حلت محل الزخارف المرسومة على بطانة من الكرم، والعجينة جاءت أكثر صلابة وأفضل حرقاً من الفترة السابقة. أما استعمال القش في العجينة فقد جاء في الفترة السابقة. وبالإضافة إلى هذا فقد ظهرت أشكال جديدة للآنية نذكر منها على سبيل المثال الجرار ذات الحافة على شكل قوس bow-rim jars بأيدي على شكل حلقة واسعة تصبح عريضة عند اتصالها سواء بالبدن أو بالعنق. ولقد اقتصر عملية الصقل على الأدوات الصغيرة (Kenyon 1957a: 85).

بالإضافة إلى أريحا فقد ظهرت هناك العديد من المواقع التي تعود إلى هذه الفترة منها تل المتسلم (Loud 1948: 59-60) ويسان (Fitzgerald 1934: 13ff, 1935: 6-8 de Vaux) والشيوخ علي (Pruanitz 1975: 63) وبلاطة (Toomba and Wright 1961: 11ff) وتل الفارعة (557-592: 1961, 541-584, 1955: 544-580, 1948: 394-433, 1974: de Vaux). ولقد ظهرت أيضاً مواقع في الأردن تعود إلى نهاية العصر الحجري الحديث المتأخر، منها غروبة Ghruhba، وتل الشونة الشمالي، وتل أبو هابيل (Mellaart 1956, 1962. and de Contenson 1960).

العصر الحجري النحاسي

لم تكن مرحلة الانتقال من العصر الحجري الأخير إلى هذا العصر حاسمة من حيث التغيير في أنماط المعيشة ووسائل الإنتاج، إلا أن العاملين في الآثار لجأوا إلى الفصل بين العصرين من خلال تغيرات في بعض المكتشفات كالأواني الفخارية والأدوات الصوانية والعظمية، وكما يستنتج من التسمية فإن تصنيع النحاس قد دخل في حياة سكان المنطقة، غير أن الأدوات النحاسية لم تظهر إلا في أواخر هذا العصر وبكميات قليلة وبقيت الأدوات الحجرية والصوانية وكذلك الفخارية هي الغالبة في الاستعمال (de Vaux). وتتواجد مواقع هذا العصر المعروفة لدينا حول الوديان والأنهار ومصادر المياه الأخرى وفي المناطق الخصبة أو مناطق أخرى سهل على السكان استغلالها وجلب المياه إليها.

ويبدو واضحاً زيادة عدد السكان والمواقع السكانية في هذه المرحلة، بالرغم من استمرار نمط المجتمعات القروية الزراعية التي بدأت على شكل قرى صغيرة تطورت بالتدرج دون تخطيط مسبق وذلك على غرار العديد من المجتمعات القروية الزراعية في فلسطين خلال هذا العصر المتجانسة، إذ أثرت في كل منها عوامل بيئية ومقومات اقتصادية متنوعة.

أولى هذه المواقع التي أمكن التعرف عليها وأوضحها هو موقع تليلات الغسول على الزاوية الشمالية الشرقية للبحر الميت حتى أن هذه الفترة كانت وما تزال تنسب إلى الموقع لتعرف باسم حضارة غسول (Ghassul Culture)، مع أنه تبين فيما بعد أن هذه الحضارة انتشاًراً واسعاً يغطي غور الأردن بأكمله، ومرج ابن عامر والساحل الفلسطيني، وفي الجنوب بئر السبع ووادي غزة، وفي الشرق المناطق الجبلية إلى أن تتصل بالمنخفضات باتجاه الصحراء.

لقد كشفت أعمال المسح والتنقيب عن عدد كبير من مواقع العصر الحجري النحاسي في مناطق فلسطين المختلفة. وتدلنا المكتشفات الأثرية أن لكل منطقة مميزات متنوعة تختلف عن الأخرى رغم التشابه في كثير من عناصرها. يعزى هذا الاختلاف في كثير من الأحيان إلى العوامل البيئية بشكل رئيسي. وعوامل البيئة هذه تتنوع في مناطق أكثر من غيرها مما كان لها أثر على حياة السكان في كل منطقة.

فسكان المنطقة الشمالية أعادوا سكنى مواقع العصر الحجري الأخير التي غالباً ما تواجدت في مناطق زراعية، بينما نجد المواقع الجنوبية في منطقة شبه جافة قريبة من الصحراء، ولا بد من البحث عن الأسباب الحقيقية والمقومات الاقتصادية لوجودها. هناك عدد كبير من المواقع الشمالية التي تدل على استقرار السكان أكثر مما هو الحال في الجنوب، ففي بعض المواقع الشمالية استعمل السكان الحجر والطوب في بناء مساكنهم وتنوعت أدواتهم وأوانيهم الفخارية لتنسجم مع إنتاجهم مع الزراعة التقليدية، مع أنه لبعض هذه المكتشفات صبغة دينية أو فنية تطورت بعض المواقع الشمالية مع نهاية الألف الرابع ق.م لتشكيل بداية مرحلة التمدن في فلسطين. بينما نجد عدداً من المواقع في الجنوب قد اقتصر وجودها على مرحلة معينة من العصر الحجري النحاسي وهجرت بعد ذلك.

وبالرغم من التباين في طبيعة هذه المواقع ومكتشفاتها فإنها تمثل بلا شك ترابطاً حضارياً، وهناك احتمال كبير على أن بعض المواقع الرئيسة قد نشأت بالتعاقب. وقد يعزى هذا التباين إلى اختصاص السكان في كل موقع أو مركز حضاري بصناعات معينة لها علاقة بتوافر هذه المواقع التي أجريت فيها دراسات وأعمال ميدانية.

تليلات الغسول ووادي الأردن

يتكون هذا الموقع من مجموعة من التلال الصغيرة والمنخفضة الواقعة في وادي الأردن إلى الشمال الشرقي للبحر الميت. وتعود أهمية هذا الموقع إلى مكتشفاته الأثرية المتنوعة والتي تميز العصر الحجري النحاسي (٤٥٠٠ - ٣٢٠٠ ق.م)، والجدير بالذكر أن مكتشفات هذا الموقع صبغت الفترة الزمنية المشار إليها حتى أصبحت تعرف أو تستبدل بالحضارة الغسولية (Ghassulian Culture). وأول من أدرك أهمية تليلات الغسول هو مالون (A. Malon) الذي قاد حملة تنقيب بالاشتراك مع كوبل (R. Koppel) من المعهد البابوي للتوراتي بروما في الفترة ما بين ١٩٢٩ و ١٩٣٨، وقد أرسل المعهد نفسه عام ١٩٦٠ الأب نورث (R. North) لمواصلة العمل الميداني في الموقع. وفي فترة متأخرة (١٩٦٧ - ١٩٧٨) قام بازل هنسي بالإشراف على حفريات تليلات الغسول نيابة عن المدرسة البريطانية للأثار وجامعة سدنبي الأسترالية.

أمكن من خلال الحفريات المبكرة تمييز أربع مراحل أو طبقات رئيسية (Phases I-IV) تمثل حضارة واحدة عرفت بحضارة غسول وفيما بعد بحضارة غسول / بئر السبع. أما بازل هنسي فقد تمكن من تمييز تسع مراحل سكنية رئيسية يعود أقدمها إلى العصر الحجري الأخير لما قبل صناعة الفخار.

تشير مخلفات الموقع بأنها تمثل مجتمعاً من مجتمعات القرى الزراعية التي انتشرت في فلسطين وغيرها من مناطق الشرق القديم، إذ لم تكن مستوطنة تليلات الغسول كغيرها من المواقع الفلسطينية المعاصرة محاطة بسور دفاعي كما هو الحال في عصر دويلات المدن اللاحقة في الألف الثالث ق.م.

كشفت الحفريات عن مجموعات من البيوت المتجانسة مستطيلة الشكل مبنية من الحجارة والطوب الطيني أما سقوفها فكانت من القصب والطين. أرضيات البيوت مرصوفة أو مقصورة ولغالبية البيوت ساحة مسورة كانت تستعمل للطبخ والخزين وسائر الحياة اليومية بدليل وجود مواقد وحفر للخزين فيها. ووجد في حفر الخزين قمح وذرة وتمر وبذور الزيتون. وكشفت الحفريات الأخيرة عن غرفة كبيرة ومستطيلة الشكل يعتقد بأنها كانت معبداً.

وأبرز مكتشفات تليلات الغسول بضع أدوات نحاسية تعتبر من أقدم ما عثر عليه من معدن مصنع إلى الآن، وهذا ما يبرر تسمية هذه الفترة بالعصر الحجري النحاسي، ووجد على جدران البيوت طبقات من اللوحات الجدارية (Frescos) المزخرفة بألوان مختلفة تتضمن أشكالاً هندسية ونجوماً وصوراً وأقنعة وأشكالاً أخرى ميثولوجية وخرافية،

ولبعض الأشكال صبغة واقعية مثل صورة لطير له ذيل طويل، وهناك مشهد ديني يتضمن معبودا جالسا وأمامه أشخاص واقفين يقدمون له الطاعة والولاء.

كان سكان تليلات الغسول يدفنون موتاهم، وبخاصة الأطفال، في جرار فخارية وجدت ضمن المنطقة السكنية وبعضها تحت مصاطب البيوت.

أما المكتشفات الأخرى فتضم أعدادا كبيرة من الأدوات الصوانية كالقؤوس ورؤوس السهام والسكاكين والمناشير والمثاقب، وهناك العديد من الأواني البازلتية كالصحون العميقة والمزهريات التي تركز على قواعد يتخللها فتحات، ويكثر وجود الأواني والأدوات البازلتية التي كانت تستعمل للجرش والطحن. تشمل المكتشفات رؤوس الدبسات الحجرية والرخامية التي استعملت لأغراض عسكرية ودينية، ومن بينها أيضا المغازل بأعداد كبيرة ووزنات النسيج كدليل على هذه الصناعة.

أما تنوع الأواني الفخارية التي صنع معظمها على العجلة البدائية البطيئة فيظهر أنها تتعلق باستعمالات السكان وإنتاجهم الزراعي وكذلك بوظيفة جزء من الموقع كمركز ديني. من هذه الأواني جرار كبيرة للخبز والمزهريات المرتكزة على قواعد كمثلاثتها من البازلت والأواني المدببة وأخرى للتعليق تشبه ممخضة اللبن. العديد من الأواني مزخرف بصفوف من النقاط المحفورة وأفاريز ملصقة مضغوطة بواسطة أصابع اليد واستعملت على الكثير منها زخارف بالألوان البيضاء والبنية المائلة إلى الأحمر بأشكال هندسية بسيطة.

المراجع

- A. Mallon, R. Koppel, Preliminary Reports in Biblica (1930- 1938);
- A. Mallon, R. Neuville, Teleilat Ghassul I, Rome, 1934;
- R. Koppel, H. Senes, J.W. Murphy, G.S. Mallon, Ghassul II, Rome, 1940;
- W.F. Albright, Recent Progress In the Late Prehistory of Palestine, Bulletin of the American Schools of Oriental Research 42, 1931, 14f;
- W.F. Albright, the Chalcolithic Age in Palestine, Bulletin of the American Schools of Oriental Research 48, 1932, 10ff,
- R. North, Ghassul 1960 Excavation Report, Rome 1961, B. Hennessy, Levant I, 1969; 1-24.

مع أن موقع تليلات الغسول تحتل حتى الآن مكان الصدارة في التعريف على معالم حضارة العصر الحجري النحاسي، إلا أن مواقع هذا العصر في وادي الأردن كثيرة وقد يضاهاى بعضها تليلات الغسول من حيث الحجم، وفي الحقيقة فإن منطقة وادي الأردن تعتبر أكثر مناطق فلسطين كثافة في مواقع مجتمعات القرى الزراعية التي تعود غالبيتها إلى الألفين الخامس والرابع ق.م، كما دلت المسوحات الأثرية والتنقيبات المحدودة في هذه المنطقة.

وتمتد غالبية المواقع المشار إليها حول مصادر المياه كالسيول والينابيع والوديان الممتدة بين بحيرة طبرية شمالاً والبحر الميت جنوباً مثل وادي الكفرين ووادي نمرين ووادي الزرقاء ووادي راجب ووادي كفرنجة ووادي الياض، ووادي العرب، ووادي اليرموك (Ibrahim and others 1976). من أهم هذه المواقع تل غنام وتل عفّاش وغربة على وادي نمرين، تل أم حماد الشرقي والرويجة وذراع الحصيني على وادي الزرقاء، تل السعيدية وتل القلايا على وادي كفرنجة وكذلك تل أبو حامد إلى الشمال منه، تل أبو هبيل إلى الجنوب من وادي الياض وتل الري وتل الشونة على وادي العرب والباقورة بالقرب من مصب نهر اليرموك في وادي الأردن. تم تأسيس الجزء الأكبر من هذه المواقع في العصر الحجري النحاسي أو الحجري الأخير مع الأخذ بعين الاعتبار صعوبة تمييز حد فاصل بين الفترتين من خلال المكتشفات السطحية، كما اقتصر استعمال عدد منها في هذه المرحلة إذ لم تكن مثل هذه المواقع ذات طابع استراتيجي فلم تعد صالحة لأغراض دفاعية وتحصينية كمواقع العصر البرونزي القديم.

ويبدو واضحاً من طبيعة المواقع السكنية وارتباطها بمصادر المياه بأن سكان وادي الأردن إلى الشمال من البحر الميت كانوا مزارعين بينما يرتبط وجود مواقع العصر الحجري النحاسي والبرونزي القديم في وادي عرب إلى الجنوب من البحر الميت بمصادر النحاس واستخراجه كما هو الحال في خربة أفدان وقينان وأخرى كثيرة على الامتداد الغربي لوادي عرب (Rothenberg 1972, 24-26).

بئر السبع والمواقع الجنوبية

هناك ثلاثة مواقع هامة بالقرب من بئر السبع وتبع حضارة واحدة ضمن العصر الحجري النحاسي، وهي خربة البيطار (Horvat Betar)، وبئر الصفدي، وتل أبو مطهر. وهذه المواقع الثلاث متشابهة، وتقع ضمن فترة متأخرة من تليلات الغسول (النصف الثاني للألف الرابع ق.م)، إلا أنها تنتظم معها في إطار حضاري واحد. وقد اعتمد

الاقتصاد المحلي لهذه المواقع على زراعة القمح والشعير، وكذلك حياة الرعي والاستغلال الجزئي للنحاس بالإضافة إلى التجارة مع المناطق المجاورة (Perrot 1979, 156-158).

أجريت تنقيبات في المواقع المشار إليها (١٩٥١-١٩٦٠) من قبل بعثة الآثار الفرنسية بإشراف جان بيرو (J. Perrot) الذي تمكن من تمييز ثلاث مراحل سكنية متعاقبة تقع جميعها ضمن الألف الرابع ق.م اعتمادا على عينات تم فحصها بواسطة الإشعاع الكربوني (١٤) وكذلك مقارنتها بمكتشفات من مواقع فلسطينية ومصرية من فترة ما قبل عهد الأسرات.

أقدم هذه المراحل ممثلة من خلال مباني تحت الأرض تتضمن غرفا مستطيلة الشكل متوسط أطوالها ٣×٧ متر ولكنه يصل طول بعضها حوالي ١٠ متر. يمكن الوصول إلى الغرف بواسطة مدخل رأسي أو جانبي وترتبط فيما بينها من خلال ممرات ضيقة. يؤدي المدخل في العادة إلى ساحة حيث وجد فوقها موائد الطبخ وأماكن الخزين. ووجد في أرضيات الغرف حفر للخزين تتسع من الأسفل وتضيق باتجاه الأعلى. ولم تعمر مثل هذه المرافق السكنية طويلا، ويظهر أنها هجرت فجأة، إذ وجد فوق بعض الأرضيات أدوات وأواني في وضعها الأصلي.

ويمثل المرحلة السكنية الثانية غرف دائرية أو مخروطية بنيت من الطوب الجفف فوق أساسات من الحجارة، أما السقوف فتتكون من لوحات خشبية متعارضة ومغطاة بطبقة طينية.

وبقي الموقع مهجورا بعد المرحلة الثانية لفترة يصعب تحديدها تماما، غير أنه تبع ذلك مرحلة ثالثة وأخيرة تم إنشاؤها فوق منازل المرحلة الثانية من الطوب الجفف فوق طبقات من الحصى. وتأخذ الغرف هنا شكلا مستطيلا بأطوال مختلفة إلا أن بعضها تميز بكبير الحجم إذ يبلغ طول الغرفة الواحدة حوالي ١٥ متر. كما وجدت أبنية يتألف كل واحد منها من عشر غرف تصطف حول فناء كبير.

هناك دلائل واضحة على تصنيع المعدن في مواقع بئر السبع حيث وجدت أدوات وأفران لصهر النحاس الذي غالبا ما تم جلبه من المنحدرات باتجاه وادي عربة. من بين المكتشفات النحاسية فؤوس ومخارز وأزاميل وهراوات بالإضافة إلى بعض أدوات الزينة، رغم ذلك فقد بقيت الأدوات الصوانية أكثر استعمالا مع أنها أقل تنوعا من المواقع التي تم العثور عليها في الشمال ومواقع غور الأردن.

تضمنت الأدوات الصوانية مكاشط وأدوات للقطع ومثاقب وأزاميل وبعض رؤوس سهام وشفرات وفؤوس. كما وجدت أواني وأدوات حجرية أخرى كالبازلت والهيمايتيت التي استعملت للصقل والدق، وصنعت رؤوس المرافات من الحجر العادي. غالبية الأواني الفخارية صناعة يدوية مع أنه يظهر أن بعض الأشكال البسيطة كالصحون مداراة على العجلة. غالبا ما يكون الفخار باهت اللون ويسهل كسره نتيجة لخلطه بالرمل. من الجرار التي يكثر وجودها نوه بفوهة كبيرة وبدون رقبة (hole-mouth) ونجدها في بعض الأحيان مزينة بطبعات الأصابع على حافة الجرة. وتتضمن الزخارف على الفخار أشرطة من الطلاء الأحمر أما على الحافة أو على جسم الإناء. وهناك نوع متميز من الفخار الأبيض أو البيجي يظهر على شكل مزهرية برقبة قصيرة وجسم منتفخ حوله سلسلة من المقابض على شكل آذان.

أهم ما يميز اللقى في مواقع بئر السبع (خاصة في بئر الصفدي) عد من التماثيل (الدمى) الآدمية من العاج تمثل رجالا ونساء. تعتبر هذه التماثيل من أقدم العاجيات المصنعة في الشرق القديم وتمثل تطورا ملحوظا في هذه الصناعة. والجدير بالذكر أنه وجد في بئر الصفدي مصنع للحلي والدمى العاجية والعظمية، مما يدل على أن هذه المكتشفات صنعت محليا وبشكل مستقل عن الحضارات الشرقية القديمة المجاورة.

امتدت حضارة بئر السبع لتشمل الجزء الأكبر من شمالي النقب ابتداء من مواقع وادي غزة في الغرب وتل عرار في الشرق. يبدو أن غالبية مواقع العصر الحجري النحاسي في هذه المنطقة لم تعمر أكثر من مائة سنة، وحتى أن العديد منها لم يسكن إلا لفترات موسمية، وكأنها ترتبط بحياة الرعي والصيد أكثر من كونها مجتمعات زراعية متطورة (de Vaux 1966, 31).

يرتبط بهذه الحضارة عدد آخر من المواقع من أهمها الكهوف الصخرية التي استعملت للسكن كما هو الحال في كهوف أم قطفة وأم قلعة وعرق الأحمر إلى الجنوب الشرقي من بيت لحم. ويبدو واضحا أن سكان الكهوف كانوا يعيشون جنبا إلى جنب مع أصحاب القرى الزراعية. هناك عدد آخر من الكهوف المماثلة على امتداد الأودية غربي البحر الميت بما في ذلك وادي سدر ووادي حيرا ووادي سيال.

وجدت مثل هذه الكهوف السكنية أيضا في جرف قمران والمربعات على الشاطئ الغربي للبحر الميت حيث وجدت أدوات صوانية وأمثلة فخارية تماثل تلك التي وجدت في حضارة غسول — بئر السبع. ووجد في أحد كهوف وادي محرس (Nahal Mishmar)

أواني فخارية ولقى أخرى متنوعة من الجلد والقماش و سلال القش ومئات اللقى النحاسية المختلفة ورؤوس الهراوات من الهيماتيت وبعض الأشكال العاجية والتعاضيد.

لم تشهد منطقة الكهوف الصخرية إلى الغرب من البحر الميت نشاطا سكانيا ملحوظا كذلك الذي عاشته في العصر الحجري النحاسي، وهنالك ما يدل على أنهم مارسوا طقوسا دينية معينة، إذ وجد معبد من بين مجموعة أبنية فوق مصطبة في منطقة عين جدي إلى الجنوب من المربعات. ويتضمن المعبد ساحة كبيرة يتصل بها بناء رئيسي في الجهة الشمالية، وآخر أصغر حجما في الجانب الشرقي، وللمعبد مدخلان يقابل كل منهما نبع. ويقع المدخل الرئيسي في الجهة الشمالية ويضم غرفة صغيرة مستطيلة الشكل، ومدخلين متقابلين ومقعد يحيط بها من الداخل.

الساحل الفلسطيني

استمر ظهور بعض أنواع الفخار النيوليثي خاصة من النوع المحرز الأحمر المصقول في مواقع الساحل الفلسطيني من العصر الحجري النحاسي. من الصعب اعتبار المكتشفات من المواقع السكنية الساحلية وحدة مستقلة عن غيرها من مواطن حضارة العصر الحجري النحاسي في فلسطين، إذ تعتبر اللقى الفخارية والصوانية التي وجدت في كل من خربة الشيخ ميسر (Meser) ومواقع مختلفة في ضواحي يافا وتل أبيب مشاهدة لحضارة غسول — بئر السبع (32, 1966 de Vaux) كما لا تتميز المخلفات المعمارية القليلة التي تم الكشف عنها حتى الآن عن بقايا معمارية أخرى في الغسول، إلا من خلال الوظيفة ومواد البناء الميسرة. الأثر المعماري الرئيسي الذي عثر عليه في خربة الشيخ ميسر من العصر الحجري النحاسي (Stratum III) عبارة عن بناء مستطيل الشكل أطواله ١٣ × ٦ متر وله مدخل من الجانب العريض يؤدي إلى غرفة كبيرة تتصل بأخرى أصغر حجما (Dothan 1957, 2170228). حتى أن هذا البناء يشبه في شكله الخارجي المعبد الذي كشف عنه بازل هنسي في موقع تليلات الغسول.

إلا أنه من الواضح أن سكان الساحل الفلسطيني مارسوا عادات دفن تختلف عن المواقع الجنوبية والشرقية — أي المرتبطة بتليلات الغسول وبئر السبع. بينما نجد في تليلات الغسول مدافن فردية داخل جرار فخارية — غالبيتها لأطفال، فقد وجدت في المواقع الساحلية مدافن جماعية داخل توابيت أو صناديق من الصلصال المحف على شكل بيوت، ووجدت الصناديق في عدد من المواقع (الخضيرة وياوزر وابن براق) على شكل مجموعات داخل كهوف كبيرة تم قطعها في الصخر الطبيعي أو الترسبات الرملية. وللكهوف مدخل

رأسية ويحيط بها من الداخل مصطبة مرصوفة بالحجارة حيث كانت توضع عليها التوابيت الفخارية، (Ory 1946; Perrot 1961; Sukenik 1937) وهذه الصناديق متنوعة ويكاد كل واحد منها يختلف عن الآخر، ولكنها تكون على الأغلب مستطيلة عند القاعدة، ويتخللها فوهة مربعة من الجانب الضيق تتسع لإدخال جمجمة إنسان. وللصناديق سقف قوسي مخروطي. تحمل هذه الصناديق من الخارج زخارف ورسومات هندسية متنوعة، وغالبا ما يتخللها من الأمام صورة وجه إنسان أو شكل حيواني، ويحمل بعضها زخرفة بارزة لقرون حيوانات وأفاعي، غالبيتها منبسطة عند القاعدة إلا أن لبعضها أرجل صغيرة.

وتتضمن الزخرفة الملونة خطوطا متوازية أو مثلثات، وتدل بعض الأمثلة الزخرفية على عناصر معمارية كسقف من الخشب أو أغصان النخيل.

وقد وجدت العظام داخل توابيت الدفن غير كاملة وتتبع شخصا أو أكثر، والواضح أنه تم وضع العظام في الصناديق بعد مرحلة متأخرة من الوفاة، وقد تم حرقها أحيانا ووجد الرماد موضوعا مع العظام.

تدل هذه المكتشفات على تطور واضح في عادات الدفن والمعتقدات الدينية المرتبطة بها والتي تكاد تكون محصورة حتى الآن في الساحل الفلسطيني، مع أنه وجد بعض الأمثلة المشابهة لهذه الصناديق في كهوف أم قطفة وأبو اصبع خارج المنطقة السليمانية (de Vaux 1966, 33).

ويدور نقاش طويل حول أصل المجموعات البشرية التي تنسب إليها صناديق الدفن المشار إليها. يعتقد البعض بأنهم جاؤوا من شرقي الأناضول إذ يتميزوا بجمجمة عريضة وأنف طويل وشعر غزير (Mellaart 1966, 22-23) بينما يرجح الأب ديفو بأنهم ممن مارسوا حياة البداوة وسكنوا منطقة النقب، ولجأوا بقطعانهم للمنطقة الساحلية، وأبقوا مدافنهم فيها (de Vaux 1966, 33).

المنطقة الشمالية

تشكل مواقع المنطقة الشمالية في العصر الحجري النحاسي حلقة وصل بين جنوبي فلسطين وشمال سوريا. وتتركز المواقع الشمالية في مرج ابن عامر وحول مدينة نابلس وشمال وادي الأردن، وقد كشف النقب عن العديد من مواقع هذا العصر كما هو الحال في تل المتسلم، بيسان، تل الشونة الشمالي، إلا أن الموقع الذي أجريت فيه أعمال ميدانية واسعة النطاق هو تل الفارعة على بعد ١١ كم إلى الغرب من نابلس بإشراف الأب ديفو. وتمكن المنقبون من تمييز طبقتين رئيسيتين في تل الفارعة وظهرت فيهما مكتشفات

تشابه جزئياً مع اللقى التي كشف عنها في كل من تليلات الغسول وبئر السبع. ورغم ذلك فإن ديفو يعتقد بأن التطور الذي حصل في المنطقة الشمالية جاء متميزاً ومختلفاً عنه في المناطق الأخرى (de Vaux 1966, 34). ومن بين المكتشفات التي أظهرتها البعثة الفرنسية أدوات صوانية وأخرى بازلتية وأواني فخارية لونها فاتح. والأواني الفخارية هنا مصنوعة يدوياً وحرقتها غير مستكمل بالإضافة إلى أن العديد منها مزين بواسطة أفاريز من الصلصال مضافة على السطح الخارجي للإناء. وغالباً ما تكون هذه الأفاريز مزخرفة من خلال حروز أو بصمات أصابع الصانع.

الهضاب الشرقية

دلت الدراسات السطحية وأعمال المسح الأثرية على وجود عدد كبير من المواقع الأثرية التي تعود للعصر الحجري النحاسي. تمتد هذه المواقع من وادي اليرموك شمالاً وحتى خليج العقبة جنوباً، إلا أن المواقع التي أجريت فيها تنقيبات حتى الآن قليلة للغاية. وتجدر الإشارة هنا إلى موقع سحاب إلى الجنوب الشرقي من عمان حيث أجرت دائرة الآثار وجامعة اليرموك الأردنيتين حفريات تبين من خلالها أن الموقع وجد أكبر اتساع له في العصر الحجري النحاسي. وقد تم الكشف عن عدد من البيوت أو الوحدات السكنية المبنية من الحجر، ووجد معها أرضيات مقصورة، وعدد كبير من حفر التخزين التي وجد في بعضها كميات من القمح والشعير. أحد هذه الوحدات السكنية عبارة عن مجموعة من الغرف تصطف حول ساحة مقصورة يتخللها حفر كبيرة للتخزين غالباً ما كانت لأغراض جماعية، وأرضيات بعض الغرف مقطوعة جزئياً في التربة الطبيعية لتظهر على شكل مصطبة مرتفعة. ومن بين ما كشف عنه عدد من الكهوف الصخرية التي استعملت لأغراض السكن في العصر الحجري النحاسي. ويتصل بالكهوف جدران من الحجر تم بناؤها أمام المدخل الجانبي للكهف، ووجد في بعض الكهوف أرضيات متعاقبة مما يدل على أنها استعملت لفترات متقطعة. وتدل اللقى التي وجدت في الكهوف والبيوت السكنية على علاقة واضحة بحضارة غسول — بئر السبع، وتضم هذه اللقى أدوات صوانية وأواني فخارية متنوعة وأخرى بازلتية (Ibrahim 1972, 23; 1974. 55-61; 1975, 69-). (82)

بقي أن نذكر الأنصاب الحجرية المعروفة بالدولن (dolmens) والتي هي عبارة عن بلاطات صوانية كبيرة على جانبيها فوق مصاطب وسقفت بواسطة بلاطة مائلة تخرج عن أطراف البلاطات الجانبية ويحيط بها في العادة ساحة دائرية مرصوفة. تظهر الدولن

أحياناً على شكل صفوف متصلة ضمن ساحة واحدة. وتنتشر على شكل حقول أو مجموعات وتتركز بشكل رئيس فوق الهضاب المطلة على وادي الأردن، إلا أن غالبيتها تتواجد على الهضاب الشرقية بالقرب من كفر يوبا ودامية ووادي حسيبان والعظيمة وناعور. ولم يتمكن الدارسون بعد من معرفة تاريخ دقيق أو وظيفة محددة لهذه الأنصب مع أنها كثيراً ما تنسب للألفين الخامس والرابع ق.م، وتشير بعض الأمثلة إلى أنها استعملت كمدافن. ومن المحتمل أن أصحاب الدولن كانوا يمارسون حياة غير مستقرة، أو أنهم كانوا من الرعاة الذين أرادوا إبراز مدافنهم على شكل صروح (de Vaux 1966: 42-43).

(ظهور دويلات المدن)

العصر البرونزي القديم (٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)

المرحلة الأولى: (٣٢٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م)

شهدت منطقة الشرق القديم بما في ذلك فلسطين مع نهاية الألف الرابع ق.م تغييرا حاسما في النواحي الاجتماعية والاقتصادية والمعمارية. وأكثر ما يميز هذه المرحلة في فلسطين ظهور أعداد كبيرة من المدافن المقطوعة في الصخر (Shaft tombs) تنسب إلى جماعات وضعت نهاية لحضارة العصر الحجري النحاسي أو حضار غسول - بئر السبع، ولم يكشف إلى الآن عن مواقع سكنية تتناسب والعدد الكبير لهذه المدافن، وإذ ما وجدت مثل هذه المواقع فإنها غالبا ما تكون أقرب إلى معسكرات أو مواقع مؤقتة أو موسمية منها إلى مواطن استقرار دائمة على غرار مجتمعات القرى الزراعية المتطورة التي تميز الألفين الخامس والرابع ق.م في فلسطين.

تظهر هذه المدافن في فلسطين لأول مرة وتنتشر على نطاق واسع، كما واستعملت لأغراض الدفن الجماعي ليصل عدد الهياكل العظمية في المدفن الواحد أحيانا إلى بضعة مئات مما يدل على أنها تغطي مرحلة استعمال طويلة. ومع أن بعض الكهوف الصخرية الطبيعية استعملت لأغراض الدفن إلا أن الغالبية العظمى للمدافن التي تم العثور عليها مقطوعة في الصخر أو التربة الطبيعية ويتفرع عن مداخلها الرأسية غرف (تجاويف) جانبية تتراوح من غرفة واحدة إلى أربع غرف. وجد مع الهياكل العظمية في كل غرفة عدد كبير من اللقى أو المرفقات الجنائزية بشكل رئيس أواني فخارية وبازلتية، وبعض الأدوات البرونزية.

واختلف العاملون في الآثار الفلسطينية في تفسير هذه المرحلة الانتقالية، وأطلقوا عليها مصطلحات وتسميات مختلفة تبعاً لمفاهيمهم في تفسير المكتشفات أو للشواهد التي ظهرت في المواقع التي أشرفوا على التنقيب فيها. لذا نسبها الأب رولاند ديفو إلى مرحلة متأخرة من العصر الحجري النحاسي (Late Chalcolithic) اعتماداً على حفرياته في تل الفارعة بالقرب من نابلس (de Vaux 1966, 36-42) وجاءت كاثلين كنيون بمصطلح "ما قبل التمدن" (Proto-Urban) نتيجة لحفرياتها في تل السلطان (Kenyon 1960, 4-10) وتبعها هنسي (Hennessy 1967, 6-18) وأنلطي (Anati 1963, 343-374)، وكلاوي (Callaway 1964). واعتبر الكثيرون هذه المدافن وما وجد فيها من مكتشفات بالإضافة إلى الطبقات السكنية المعاصرة على أنها مرحلة مبكرة من العصر البرونزي القديم (Wright 1958, 37-45; Amiran 1970, 83-96; Lapp 1970, 101). كما وقع خلاف في تصنيف المكتشفات، وفي أصل أصحاب المدافن، إلا أنه من الواضح أن نوعين جديدين من الفخار قد ظهرا، أحدهما في شمالي فلسطين والوسط، خاصة في منطقة مرج ابن عامر من النوع الرمادي المصقول، والآخر في الجنوب من النوع الأحمر المصقول أحياناً. وقد نسبت كنيون وغيرها كل نوع إلى مجموعة بشرية جاءت إلى فلسطين في أواخر الألف الرابع ق.م من جهات مختلفة، وغالباً ما تكون من الشرق والشمال (Kenyon 1970, 84-100)، ويعتقد بعض الباحثين أن أشكالاً فخارية معينة قد تطورت من تلك التي كانت معروفة في العصر الحجري النحاسي (Hennessy 1967, 46-47).

وعلى الرغم من الغموض الذي يكتنف الطبقات السكنية التي تمثل هذه المرحلة إلا أنه أمكن تمييزها في عدد من المواقع مثل تل المتسلم (Levels XX-XIX)، وبيسان (Levels XVII-XVI)، والنفولة، وتل أبو زريق، وتل الأساور، وخربة الشيخ ميسر (Levels II-I)، وخربة الكرك، وتل أبو حماد الشرقي، وتل أبو العلايق، وأريحا، وباب الذراع، وتل الفارعة الشمالي، وياوزر والتل (عي)، وتل الدوير (de Vaux 1966, 36-42).

تبدو عادات الدفن في هذه المرحلة غريبة، ولقد أشرنا سابقاً إلى أن جميع القبور مقطوعة في الصخر، واستعملت لأغراض الدفن الجماعي، إلا أنه لم يعثر بالضرورة على جميع أجزاء الهياكل العظمية، كما وجدت بعض العظام مرتبة حول غرف الدفن من الداخل وجد البعض الآخر في الوسط. والجدير بالذكر أن عدداً من الهياكل العظمية التي وجدت في أريحا كانت قد حُرقت قبل وضعها داخل القبور. وتدلنا بعض مجموعات المدافن على أنها قطعت في الصخر من قبل مجموعة متخصصة في حفرها وهيئتها، كما ويظهر بأن الأواني الفخارية التي يتكرر وجودها بكثرة قد صنعت خصيصاً في مصانع

مركزية لتوضع مع الموتى. ومن المحتمل أيضا أن بعض حقول المدافن الكبيرة كتلك التي وجدت في تل المتسلم وتل الفارعة وأريحا وباب الذراع وغيرها قد استعملت لمناسقات أوسع من المواقع المحيطة بالمدافن.

تشير الدراسات المقارنة التي أجريت حتى الآن على وجود علاقات وطيدة بين فلسطين والمناطق المجاورة في نهاية الألف الرابع ق.م. وقد ظهر العديد من المكتشفات المتشابهة (الفخارية والأختام الأسطوانية ورؤوس المهرات كمثرية الشكل) في كل من فلسطين ومصر، حتى أن بعض الجرار الفخارية غالبا ما تم تصديرها إلى مصر، أو أنها تقليد للصناعة الفلسطينية. كما وجدت أقرب الأمثلة للفخار الفلسطيني من النوع الرمادي المصقول في أواسط وشرقي الأناضول، وكذلك في مواقع الساحل السوري مثل طرطوس وطبارا الأكراد. وظهر ما يشبه هذا الفخار في عدد من مواقع بلاد ما بين النهرين من مرحلة الوركاء.

ويبدو أن سكان فلسطين أخذوا في تزايد مستمر، وأصبحوا يطورون في مواقعهم السكنية تدريجيا حتى أصبحت مدنا محصنة ذات طابع مستقل يصنع المرحلة الثانية من العصر البرونزي القديم.

المرحلة الثانية (٣٠٠٠ - ٢٧٠٠ ق.م.)

تتميز المرحلة الثانية من العصر البرونزي القديم بتأسيس العديد من المدن المسورة التي يعود الفضل في إنشائها إلى أصحاب المدافن ذات المداخل الرأسية. ويلاحظ انتشار المدن المحصنة هذه في جميع المناطق الفلسطينية بما في ذلك المنطقة الساحلية ومرج ابن عامر وسلسلة الجبال الغربية ووادي الأردن والهضاب الشرقية في الأردن وحتى موقع جلوة في الصحراء. كما وأصبح تأسيس المدن ومرافقها الدفاعية والعامة والسكنية يفرض شيئا من التخطيط المسبق، وغدت المدن الرئيسة تمثل وحدات سياسية مستقلة أشبه بدويلات المدن التي يتبع لها عدد من القرى الزراعية. ويحتل عدد من هذه المدن هضابا استراتيجية، ولكنها ليست بالضرورة فوق المرتفعات الجبلية العالية.

ومن أهم هذه المواقع: تل المتسلم وتل تعنك وبيسان والعفولة في مرج ابن عامر، وتل الفارعة بالقرب من نابلس، خربة الكرك (Belt Yarah) على بحيرة طبرية، وأريحا وتل أم حماد الشرقي وغيرها من مواقع وادي الأردن، وباب الذراع في منطقة اللسان شرقي البحر الميت، وكذلك التل (عي) وتل النصبة والقدس في الوسط، وتل الدوير (Lachish) وعراد (Arad) وتل أبو شوشة (Gazer) وتل بيت مرسيم في الجنوب، ورأس العين وخربة

الشيخ ميسر (Meser) وتل الشيخ أحمد العريني (Gath) بالقرب من الساحل الفلسطيني. وهناك موقع جأوة في الصحراء على بعد حوالي ٧,٥ كم إلى الشرق من المفرق حيث أظهرت الحفريات أسوار مدينة فوق مرتفع طبيعي.

وتتميز هذه المرحلة باستعمال عجلة الفخار على نطاق واسع واهتدى سكان فلسطين إلى خلط النحاس بنسبة معينة من القصدير فأنتجوا أدوات برونزية متعددة الأشكال والوظائف.

المرحلة الثالثة (٢٧٠٠ - ٢٣٠٠ ق.م)

لم تشهد هذه المرحلة تغيراً حاسماً في الإنتاج أو العمارة، وكثيراً ما استمر سكنى المواقع سالفه الذكر مع بعض التغيرات أو الإضافات على مرافقها المعمارية، مع أن بعض المواقع قد هجرت تماماً مع بداية هذه المرحلة. وأكثر ما يميزها فخار من النوع المعروف بفخار خربة الكرك نسبة إلى الموقع الذي أمكن التعرف فيه على هذا النوع لأول مرة، إلا أنه ظهر فيما بعد أنه له انتشاراً واسعاً يضم المواقع التالية: تل الشونة وتل المتسلم والعفولة وتل تعنك وأريحا وبيت ساحور والتل وتل أبو شوشة (Gezer) وتل الحسي ورأس العين وخربة الطبايق (رأس الناقورة).

هذا النوع من الفخار مصنوع يدوياً من طينة خشنة مخلوطة ببعض الكسر الحجرية والتبن، ويغطي جسم الإناء من الخارج قشرة مصقولة لامعة ويتخللها أحياناً زخارف بارزة أو أحاديدي، أما لوها بين بني فاتح إلى أحمر — بني أو أسود، وأحياناً خليط بين هذه الألوان نتيجة لكيفية حرق الأواني.

وتتنوع أشكال الأواني ولكن الشكل الغالب هو الصحن العميق بأحجام مختلفة الذي يظهر أحياناً في بعض المواقع دون غيره، كما يتصل ببعض الأواني يد واحدة بين الحافة والكتف.

ومن الواضح أن هذا النوع من الفخار لا يتصل مباشرة بالصناعة التقليدية للفخار في فلسطين، وقد أمكن تتبع مصدره حتى شرق وأواسط الأناضول مروراً بمواقع أو مناطق ساحلية شمالية وأخرى داخلية مثل سهل العمق وحماة ونهر العاصي (Hennessy 1967, 75). وقد رأى البعض أن وجود هذا الفخار كان نتيجة لهجرة أو هجوم بشري من الشمال (Amiran 1952, 89-103)، في الوقت الذي لم يرافقه ظهور فخار خربة الكرك تغير واضح أو تدمير للمدن والمواقع الفلسطينية الأمر الذي دفع هنسي وغيره إلى اعتبار وجود

هذا الفخار عن طريق التجارة أو من خلال فئات صغيرة جاءت من الأناضول إلى شمالي سوريا وفلسطين (Hennessy 1967, 74-76).

العمارة في المرحلتين الثانية والثالثة:

أ - المساكن:

لقد كانت مادة البناء الرئيسية في المدن والقرى الفلسطينية من الطوب الجفف على أرضية من الحجارة الملساء، مع أن الحجارة غير المهندمة استعملت في عدد من المواقع. وغالبا ما كانت أرضيات البيوت من التراب أو الحور المرصوص وكانت الأرضيات المرصوفة قليلة أو أنها محصورة في ساحات البيوت التي كانت تضم مرافق الطبخ والخزين. وقد خزن أصحاب هذه البيوت حبوبهم في جرار كبيرة التي كثيرا ما وضعت داخل حفر. واستعان السكان في هذه الفترة بالأخشاب لتشكيل المادة الرئيسية في سقف البيوت والتي كانت تدعم بأعمدة من الخشب أيضا، وأوضح الأمثلة على ذلك تلك التي وجدت في تل الفارعة والتل (عي) وعراد وباب الذراع.

وكثيرا ما كانت البيوت مؤلفة من غرفة واحدة وقد أضيفت غرف أخرى تبعا لحاجة السكان وإمكاناتهم، وهنالك منازل للأغنياء مؤلفة من غرفتين أو أكثر كذلك التي وجدت في بيسان وتل الفارعة.

ب - المعابد والمباني العامة:

احتوت كل مدينة من مدن العصر البرونزي القديم في العادة معبدا أو أكثر، وقد ظهر ذلك خاصة في المواقع التي تم الكشف عن أجزاء واسعة منها كما هو الحال في التل (عي) الذي عثر فيه على معبد أعيد بناؤه ثلاث مرات أو أنها بُنيت على ثلاث مراحل أبرزها المرحلة الثالثة حيث يتألف المعبد من ثلاث غرف. أحد هذه الغرف عبارة عن قاعة أطوالها ٦×٨,٥ متر، ووجد فيها مقعد من التراب المرصوص على جانبيين من جدرانها الداخلية. وعثر على هذا المقعد أواني التقديمات ذات طابع ديني. وتضم هذه التقديمات جرار كبيرة مغروسة في الأرض، بالإضافة إلى حجرتين مربعتي الشكل. كما وجد في غرفة أخرى مذبح (Altar) وغرفة مقدسة (Cella)، وفوق المذبح صينية ضمت أواني فخارية ورخامية وصحنا من الغرانيت صناعة مصرية وقطعا أخرى تتعلق بالطقوس الدينية. بنيت جدران المعبد هذا من الحجارة تغطيها طبقة من القصارة.

كما كشفت حفريات تل الفارعة عن معبد صغير من المرحلة الأولى يتكون من جزئين: الغرفة المقدسة لها مدخل من الجهة الشرقية وتضم مذبحاً وطاولة تقدمات، وصحناً مقدساً. وقد أعيد استعمال هذا المعبد في مرحلة لاحقة وبطل استعمالها لأغراض دينية.

كذلك تم العثور في الطبقة السابعة في أريحا (المرحلة الأولى أ) على معبد، وهو عبارة عن غرفة تبلغ أبعادها حوالي ٢٥،٢٥ × ٢،٥٠ متر، يحيط بجدران هذا المعبد عند الطرف الشمالي — الغربي دكة مرتفعة تشكل منصة، وأما المدخل فيوجد في الحائط الشمالي الطويل. وقد جاءت الجدران والأرضيات مقصورة بشكل جيد، ويفصل ما بين غرفة هذا المعبد والبيوت المجاورة جدران قوية. وقد عثر على معابد مشابهة لهذا المعبد في بلاد الرافدين، وسوريا (de Vaux 1966: 16).

كشفت الحفريات في موقع تل المتسلم، وفي الطبقة السابعة عشرة أو السادسة عشرة عن كومة من الحجارة بشكل إهليلجي نوعاً ما، ويصعد إليها بواسطة درج. وربما كانت تستعمل كمذبح حيث تم العثور على عدد كبير من العظام الحيوانية والأواني في هذا المكان وهذا مما يدل على أنها كانت تستعمل كمكان لتقديم القرابين. وهذا النوع من الأماكن المرتفعة كان معروفاً بل شائعاً في البلاد الكنعانية.

ومن أشهر المعابد التي عثر عليها في فلسطين، إلى مرحلة العصر البرونزي القديم الثالث ذلك الذي تم العثور عليه في موقع التل (عي). وقد جاءت الملتقطات الفخارية من هذا المعبد مشابهة لتلك التي عثر عليها في قبر في أريحا وبيسان الطبقة XII وتعود إلى المرحلة الثالثة من العصر البرونزي القديم (Hennessy 1967: 25).

المدافن:

تبقى المدافن الشاهد الرئيسي على الفترة الزمنية التي تسبق عصر دويلات المدن، وقد وجدت غالباً في مواقع سكنية تطورت إلى مدن محصنة كما هو الحال في تل المتسلم، أريحا، بيسان، تل الفارعة وباب الذراع. وقد تم قطع هذه المدافن في الصخر الطبيعي على شكل كهف أو بئر. ويتضمن المدفن في العادة عدداً من الغرف الجانبية تتفرع عن المدخل الرئيسي. واستعملت جميع الأمثلة المعروفة لدينا لأغراض الدفن الجماعي، إذ يصل عدد الهياكل العظمية في المدفن الواحد إلى العشرات أو المئات، الأمر الذي يدعو إلى الاعتقاد بأنها تغطي فترة زمنية قصيرة قد تصل إلى ٢٠٠ — ٣٠٠ سنة.

لا شك بأن المدافن ذات المداخل الرأسية تمثل شيئا جديدا في عادات الدفن لم تكن معروفة من قبل، ويعزو بعضهم هذه الظاهرة الجديدة إلى مهاجرين جدد أدخلوا عادات دفن مغايرة لما كان سائدا في العصور السابقة، ويرى هؤلاء أن المرفقات الجنائزية، وبشكل خاص الأواني الفخارية ذات اللونين الأحمر والأسود المصقولين، وكذلك الفخار الملون من إنتاج القادمين (Kenyon 1960, Lapp 1970: 101-131)، بينما يعتقد ديفو أن هذا التطور كان محليا واعتبره استمرارا لحضارة غسول — بشر السبع (de Vaux 1970). وجدت مدافن هذا النوع في مختلف المواقع الفلسطينية خارج المواقع السكنية، وهي متجانسة إلى حد كبير من حيث شكلها ومحتوياتها، لذا نورد هنا وصفا مختصرا للمدافن التي تم الكشف عنها في موقع باب الذراع في منطقة اللسان شرقي البحر الميت.

استطاع المنقبون تمييز أربعة أنواع رئيسية من المدافن في باب الذراع. يمثل كل نوع مرحلة زمنية لتغطي مجموعها مراحل العصر البرونزي القديم، أي في أواخر الألف الرابع حتى نهاية الألف الثالث ق.م (Lapp 1960, 1968, 1970; Ibrahim 1972; Rast and Shaub 1978; Ortner 1980, 1982; Frohlich and Ortner 1982).

النوع الأول والأقدم (Shaft Tombs):

وهو عبارة عن تجويف عمودي مقطوع في الصخر يزيد عمقه على المترين وقد يصل إلى أربعة أمتار. يتسع في الأسفل ويتفرع عنه تجويف آخر أو أكثر. واستعملت التجاويف أو الغرف الجانبية لأغراض الدفن. والمدخل بيضوي أو أسطواناني الشكل تقريبا، وأحكم أغلاقه بتراب كلسي من نفس الصخر الذي قطع فيه القبر، وفي حالات أخرى تم تغطية المدخل بلوحة حجرية كبيرة تم وضعها بدقة تحت الفوهة بقليل، أما مداخل التجاويف الجانبية فقد أغلقت بواسطة بلاطات حجرية يتخللها أحيانا حجارة أصغر حجما، ووجد خلف كل مدخل درجة تؤدي إلى أرضية الغرف الجانبية.

والجدير بالذكر أن البعثة التي تنقب في باب الذراع منذ عام ١٩٦٥ قد كشفت عن عشرات بل مئات المدافن من هذا النوع، ويظهر أن غالبيتها بقيت بعيدة عن أيدي العابثين واللصوص.

محتويات المدافن:

غالبا ما احتوى المدفن الواحد على كوم من العظام لعشرات الموتى أقيمت على أرضية من الرمل الناعم أو الحصى، الكبيرة منها مرتبة بالتوازي والصغيرة دون انتظام

ووضعت الجماجم على حدة. تمثل الجماجم رجالا ونساء وأطفالا مصطحين بأعداد كبيرة من الأواني الفخارية، وكثيرا ما وجد وعاء أو وعاءان من البازلت، وكذلك هراوة من الرخام أو البازلت، وظهرت في بعض المدافن دمي من الطين أو الفخار وأساور وأسلحة برونزية. وتعد الأواني الفخارية التي استخرجت من مدافن باب الذراع بعشرات الآلاف تتضمن أصنافا محدودة تم صنعها على ما يبدو في مصانع مركزية، ويظهر أنها صنعت خصيصا لأغراض الدفن ولم يسبق أن استعملت لأغراض أخرى.

ما زالت المدافن ذات المداخل الرأسية ومحتوياتها هي مصدر معلوماتنا الرئيسية عن نهاية العصر الحجري النحاسي وبداية العصر البرونزي القديم. أما بالنسبة للمواقع السكنية المعاصرة لها فقلها تكاد تقتصر على ما هو أشبه بالمعسكرات كما هو الحال في باب الذراع (Lapp 1966, 1970)، أريحا (Kenyon 1957: 93-102; Hennessy 1067)، تلول أبو العلايق بالقرب من أريحا (Prichard 1058; 14ff)، خربة الكرك على بحيرة طبرية (Malsler and Stekelis 1952: 16ff). قد يشكل موقع جاوه الذي يقع على بعد حوالي ١٤٠ كم إلى الشمال الشرقي من عمان، استثناء حيث عثر المنقب سفند هيلمز على مدينة محصنة يعيدها إلى مرحلة المدافن ذات المداخل الرأسية (Hemle 1981).

النوع الثاني: المدافن القبية

هناك عدد قليل من مدافن باب الذراع التي تلي النوع الأول زمنيا وقد تشكل حلقة وصل بين المدافن ذات المداخل الرأسية والمدافن المستطيلة. تم بناء هذا النوع من الطوب على شكل قبة، يستدير في الأسفل ويضيق باتجاه الأعلى وله مدخل ضيق نسبيا يحيط به بلاطتان حجريتان يعلوهما بلاطة ثالثة. يسبق المدخل باحة صغيرة مسورة ومرصوفة بالحجارة. مادة البناء والمدخل مع الباحة المرتبطة به تشبه إلى حد كبير الوضع في مدافن النوع الثالث (المدافن المستطيلة). يعيد المنقبون تاريخ هذا النوع إلى مرحلة مبكرة من العصر البرونزي القديم — أي مستهل الألف الثالث ق.م.

النوع الثالث (Chamel House):

وهو عبارة عن غرفة مستطيلة الشكل جدرانها مبنية من الطوب على طبقة من الحجارة غير المنتظمة. وتبلغ أطوال المدافن المتوسطة الحجم ١١,٥٠ × ٥,٥٠ متر، بينما كشف عن مدفن أطواله ١٥,٥٠ × ٧,٨٠ متر ليشكل أكبر مدفن في الموقع حتى الآن،

يتخلل المدفن مدخل منطقة وسطية للجانب العريض للغرفة كما هو الحال في المنازل والمعابد الكنعانية. ويصطف على جانبي المدخل بلاطتان حجريتان يعلوهما لوحة أخرى، بينما أغلق المدخل بواسطة بلاطة أو أكثر من نفس النوع. ويوصل المدخل بأرضية الغرفة درجة أو درجتان. ووجدت غالبية المدافن مرصوفة بالحصى، وهناك دلائل واضحة على أنه سقف بواسطة لوحات خشبية يعرض الغرف شوهة حريق شمل عددا من هذه المدافن، ومن المحتمل أن الحريق قد تسبب من المهاجمين للمنطقة ودمروا المدينة المحصنة الواقعة إلى الشمال من منطقة المدافن.

وتتضمن موجودات هذه المدافن أكوام من العظام بلغ ارتفاعها أحيانا أكثر من المتر. وبعض هذه الأكوام كانت مصنفة حسب أحجام العظام، فيظهر أن العظام الكبيرة قد وضعت على جانب والصغيرة على جانب آخر، والجماجم منفصلة عنها، وكذلك حال الأواني الفخارية التابعة لها، إلا أنه يجب القول أنه عثر على هذه الأكوام أحيانا بشكل يخالف هذا التصنيف.

ويستدل من الكيفية التي وجدت فيها محتويات المدفن وأنواع الأواني الفخارية بأن هذا النوع من المدافن استعمل لفترة طويلة قد تصل إلى مئات السنين لتغطي مرحلتين رئيسيتين من مراحل العصر البرونزي القديم (Early Bronze Age II-III). وتتضمن الأدوات الفخارية تنوعا أكثر من المدافن الأقدم، فمنها ما هو مصقول ومغطى بقشرة رقيقة ملساء أو مطلي بأشكال هندسية، وألصق على جوانب العديد منها أياد مختلفة الأشكال والأحجام بشكل أفقي. وهناك عدد وافر من الأواني المعروفة بأباريق أيدوس مصرية الأصل. والجدير بالذكر أن الأواني الفخارية التي وجدت في هذه المدافن مدارة على العجلة وتشبه إلى حد كبير ما يعثر عليه في المدن والمواقع السكنية المعاصرة لها، كما عثر بداخل المدافن على لوحات ودبسات من الحجر ومجموعات من الخزف وبعضها من الذهب، وكذلك أسلحة تضم فؤوسا وخناجر طويلة. ومن بين المكتشفات بقايا من القماش والخشب شمله الحريق.

ويتصل بالمدخل من الخارج باحة مستطيلة مرصوفة بالحجارة ويحيط بها جدار منخفض من الطوب، يعتبر باب الذراع من أهم المواقع في فلسطين والأردن من عصر دويلات المدن للألف الثالث قبل الميلاد، والتي تلت المواقع ذات المدافن الرأسية كما تقدم المدافن المستطيلة أمثلة ليس لها مقارنات مباشرة في المنطقة. وبالرغم من انتشار المدن على نطاق واسع فإن المدافن التي تم الكشف عنها حتى الآن قليلة نسبيا. الأمثلة المعروفة لدينا من الألف الثالث قبل الميلاد توجد خارج المدن أو المناطق السكنية، وغالبا ما دفن سكان

المنطقة موتاهم في كهوف أو غرف صخرية وجدت على جوانب الهضاب والمرتفات. فوهات هذه المدافن على مستوى أرضياتها تقريبا بخلاف المدافن ذات المداخل الرأسية. أما غرف الدفن فكانت إما لعائلة أو لمجموعة بشرية تم دفنها عبر مرحلة طويلة، وقد وضعت الجثث تبعا لنظام معين بحيث يترك مكان لوفيات جدد. لم نستطع التعرف تماما على الكيفية التي دفن فيها الموتى بسبب الدمار الذي أصاب غالبيتها، إلا أن بعض الأمثلة التي تشير بأنها وضعت على جانبها، كان لها وضع قرفصائي، أي بثني الركبتين وضمم اليدين أمام الوجه. وهناك أمثلة تدل على حرق الموتى قبل دفنهم، كما هو الحال في حربة الكرك على بحيرة طبرية، وفي بعض مدافن باب الذراع المستطيلة. ووجدت بعض هذه المدافن في أريحا وتل الجزر في الجنوب من فلسطين (Kenyon 1980: 52ff: 8-11; de Vaux 1966: 17-19).

النوع الرابع (Calm Tombs):

عبارة عن حفرة عامودية محفورة في الصخر يتفرع عنها غرفة جانبية أو أكثر (صفحة ١٥٥). وجد في الغرفة هيكل عظمي واحد بصحبه بضعة أواني فخارية صنعت باليد عدا العنق الذي تظهر عليه آثار العجلة، وغالبا وضع فوق الفوهة كوم من الحجارة. لم يعثر في باب الذراع حتى الآن إلا على عدد قليل من هذا النوع إلا أنه ينتشر في عشرات المواقع الفلسطينية الأردنية، ويمتد وجود هذه المدافن حتى شمالي سوريا. وعلى أي حال تختلف هذه المدافن مع موجوداتها عن الأنواع سالفة الذكر.

ووجدت مثل هذه المدافن في العديد من المواقع في الأردن حول مدينة عمان (جبل التاج، المدينة الرياضية، المشيرفة، أم الرجوم، المدينة الطيبة). وكذلك في تل الحصن بالقرب من إربد، وفي مزرانة وعين سامية والجيب وحيلة العمود وبيت ساحور في منطقة القدس، وخربة كوفين وبيسان وتل المتسلم في مرج ابن عامر وتل العجول بالقرب من غزة وتل بيت مرسيم وغيرها. وقد اسهب بول لاب في دراسة هذا النوع من المدافن عند استعراضه لمدافن ظهر مزرانة (Lapp 30-85)، كما قامت كاتلين كنيون بتصنيف المدافن التي كشفت عنها في أريحا إلى سبعة أنواع تبعا لشكلها وطبيعتها المكتشفات التي وجدت بداخلها (Kenyon 1965; 1971: 11-17).

ومع أن النقاش يطول حول ماهية هذه المدافن، إلا أن هناك إجماع على أنها تعود لأواخر الألف الثالث ومستهل الألف الثاني قبل الميلاد لتشكل الشاهد الرئيسي على المرحلة الانتقالية ما بين العصرين البرونزي القديم والمتوسط، إذ أن المواقع السكنية

المعاصرة للمدافن قليلة جدا. وغالبا ما كان أصحاب هذه المدافن من جماعات أشبه بالرحل يعيشون في معسكرات أو مواقع زراعية بسيطة للغاية، لم تكن المرحلة الانتقالية التي تعيشها لتقتصر على جنوبي سوريا، وإنما شملت معظم بلاد الشرق بما في ذلك مصر وبلاد الرافدين. وهناك اعتقاد بأن المجموعات القبلية وراء هذا التحول هي نفسها التي ترد في سجلات السومريين والبابليين القدماء وعرفوا السومرية باسم (مرتو) والبابلية باسم (أمورو) (Kenyon 1966: 6ff).

نهاية العصر البرونزي القديم

ومرحلة الانتقال للعصر البرونزي المتوسط (٢٣٠٠ - ٢٠٠٠ ق.م):

يكتنف نهاية العصر البرونزي القديم الكثير من الغموض مما جعل العاملين في الآثار الفلسطينية يختلفون في طبيعة هذه الفترة ومميزاتها وحتى إنسابها إلى فترة زمنية محددة، فبينما نسبها وليم رايت وروланд ديفو إلى مرحلة رابعة من العصر البرونزي القديم (Wright 1937, 51-52. deVaux 1966, 8) اتبعتها كنيون إلى مرحلة انتقالية ما بين العصرين البرونزي القديم والمتوسط (Kenyon 1960, 135-161) أما أميران وأولبرايت وغيرهما فقد اعتقدوا بأنها تمثل مرحلة مبكرة من العصر البرونزي المتوسط (Amiran 1969, 60 79ff; Albright 1961, 60)، ولجأ بول لاب إلى تقسيمها لمرحتين ضمن المرحلة الانتقالية بين العصرين البرونزي القديم والمتوسط (Intermediate Bronze I,II) لدى معالجته لمدافن ظهر مرزبانة (Lapp 1966, 86-116) وقدم فيما بعد اقتراحا مختلفا بعض الشيء عن اقتراحه الأول في ضوء حفرياته في باب الذراع بحيث أطلق على الجزء الأقدم من هذه المرحلة اصطلاح "العصر البرونزي القديم الرابع" (EBIV) والجزء المتأخر منها لبداية العصر البرونزي المتوسط (Lapp 1970, 114-115, 124).

مع أن النقاش حول هذا الموضوع معقد ويطول البحث فيه ولم يصل إلى نهايته بعد، إلا أن الواضح بأن نهاية الألف الثالث قبل الميلاد تشهد تحولا جذريا في النواحي السياسية والدينية والمعمارية والتجارية، ليس فقط في فلسطين وإنما في أنحاء مختلفة من الشرق القديم. والشاهد الرئيسي على هذه المرحلة قد استخرج حتى الآن من المدافن التي وجدت بأعداد كبيرة في فلسطين والأردن، ولم يعثر بالمقابل على مواقع سكنية تتناسب والعدد الضخم من المدافن الفردية. وإذا ما وجدت مثل هذه المواقع السكنية فإنها غالبا ما تكون

أشبه بالمعسكرات أو قرى زراعية صغيرة وبسيطة، خاصة إذا ما قورنت بالمدن المحصنة التي انتشرت على نطاق واسع في المرحلتين الثانية والثالثة من العصر البرونزي القديم. وجدت مثل هذه المدافن في عشرات المواقع الفلسطينية الأردنية كما هو الحال في تل العجول بالقرب من غزة (Kenyon 1956 b) وتل الدوير (Tufnell 1958) وعين سامية وظهر مرزبانة (Lapp 1966) والجيب (Pritchard 1962, 153) وخربة كوفين (Smith 1962) وتل المتسلم (Guy 1938) وأريحا (Kenyon 1960 d, 180-262)، ويتوالى ظهور مثل هذه المدافن في العديد من مواقع غور الأردن مثل تل اكتنو وتل أم حماد الشرقي وسيل الحمة وحتى تل القدح إلى الشمال من طبرية. كما امتد انتشار مقابر المرحلة الانتقالية لتظهر باب الذراع في منطقة اللسان شرقي البحر الميت (Lapp 1970)، وكشفت الحفريات في السنوات الأخيرة عن أعداد منها في مواقع مختلفة داخل وحول مدينة عمان (Zayadine 1978)، وقبل ذلك في موقع الحصن بالقرب من إربد (Harding 1953).

وتتميز مدافن هذه المرحلة أنها استعملت لأفراد بخلاف الأنواع الأخرى التي سبقتها من العصر البرونزي القديم، وقد تم قطعها في الصخر أو الأرض الطبيعية، ولها في العادة مدخل رأسي يتفرع عنه تجاويف و غرف جانبية، ويكون المدخل أحيانا كما هو الحال في مدافن تل المتسلم. صنف كاتلين كنيون المدافن التي عثرت عليها في أريحا إلى سبعة أنواع تبعا لحجمها، وشكلها وطبيعة المكتشفات التي وجدت بداخلها كالأواني الفخارية والمعدنية والحلي، وقادها هذا التصنيف إلى الاعتقاد بأن أصحاب هذه المدافن يمثلون مجموعات قبلية من أصول واحدة (Kenyon 1985; 1971: 11-17). أما أميران فقد قسمت الأواني الفخارية التي ظهرت في مثل هذه المدافن إلى ثلاث عائلات أو مجموعات تبعا لتسلسل زمني وتوزيع جغرافي، وحاولت إيجاد علاقة مباشرة مع مقارنات وجدت في شمالي سوريا وما بين النهرين (Amiran 1960).

وتكاد تكون لمرفقات الجنائزية بداخل المدافن متجانسة إلى حد كبير، إذ غالبا ما يضم المدفن الواحد بضعة أواني فخارية، وأحيانا بعض الأسلحة البرونزية، وفي حالات قليلة ضمت بعض الحلي من الخرز والبرونز، أما الهيكل العظمي فقد وجد في الغالب بوضع قرفصائي وليس له اتجاه معين.

وغالبا ما كان أصحاب هذه المدافن من جماعات أشبه بالرحل جاءت إلى فلسطين على شكل موجات متلاحقة، ولم تكن شواهد المرحلة الانتقالية لتقتصر على جنوبي سوريا، وإنما شملت معظم بلاد الشرق القديم بما في ذلك مصر وبلاد الرافدين. وهناك اعتقاد بأن المجموعات القبلية التي يعتقد بأنها وراء هذا التحول هي نفسها التي ترد في

سجلات السومريين والبابليين القدماء، وعرفوا بالسومرية باسم "مرتو" والبابلية القديمة باسم "أمورو" (Kenyon 1966: 6ff).

ويبدو أن هذه الجماعات أخذت بالاستقرار التدريجي لتؤسس فيما بعد عددا من المواقع السكنية والمدن المحصنة من العصر البرونزي الوسيط في فلسطين وشمال سوريا، في الوقت الذي اعتبر هؤلاء مسؤولين عن تأسيس الامبراطورية البابلية القديمة في بلاد ما بين النهرين.

الصناعة والتجارة:

إن تطور حياة المدينة زاد في الحركة العمرانية التي تدل على نمو سكاني، وارتفاع مستوى المعيشة، وتقدم ملحوظ في نظام الزراعة مثل الحبوب والزيتون واللوز (Tufnell 1958: 72)، وقد تم العثور في معظم المواقع التي جرت فيها أعمال الحفر أدوات للزينة مصنعة محليا، أو مستوردة، مثال ذلك الخرز والعظام والأحجار الكريمة، وبعض القطع الذهبية (Maca- ostra 1912).

وهناك أمثلة قليلة من الأختام الأسطوانية التي ظهرت في بعض المواقع الفلسطينية مثل تل المتسلم وأريحا وأماكن أخرى وتشابه في أسلوبها أختام عصر جمدت نصر وعصر السلالات المبكر في بلاد الرافدين (Ben- Tor 1978; Sellin and Watsinger 1913).

ومن الصناعات التي كانت معروفة في السابق واستمرت خلال هذه المرحلة، ولكن بشكل أفضل هي صناعة الفخار. فقد أصبحت صناعة الأدوات الفخارية بواسطة الدولاب منشرة على نطاق واسع، وكذلك أصبحت مادة الفخار معدة على أسس أفضل بخلط مادة الصلصال بكسر من الحور والكوارتز. وقد مكنت التحسينات صانعي الفخار من إعطاء أشكال متنوعة أكثر انتظاما من العصور السابقة (de Vaux 1948: 551; 1955: 558; 1961: 582).

وكذلك أصبح في هذه الفترة النحاس والبرونز ينتج على نطاق واسع حيث استخرجت أعداد كبيرة من الأدوات البرونزية في العديد من المواقع مثل كفار مناش الذي يقع ما بين حيفا وتل أبيب حيث وجد فيه (٣٥) قطعة معدنية ضمت خناجر ورؤوس حراب وفؤوس وسكاكين ومنشارا (Hestarin and Todmor 1963). اكتشف أيضا مجموعات معدنية مشابهة في موقع تل الحسي (Bless 1894) وأريحا (Kenyon 1955).

وتل الفارعة (de Vaux 1948: 555) وتل الجزر قرب أبو شوشة (Macalister 1912) وتل الدوير (Tufnell 1958).

وبالإضافة إلى هذه الأدوات المختلفة فقد استمرت صناعة الأدوات الصوانية في هذه المرحلة، ولكن بطريقة أسهل، حيث عثر على مجموعة من من الأدوات في مواقع مختلفة والتي جاءت بعض أشكالها استمرارية للتي كانت معروفة في السابق مثل الفؤوس والمكاشط ورؤوس السهام والشفرات، أما الأدوات العظمية فقد تكونت في الغالب من الأبر والمخارز.

لقد أدى التقدم في الزراعة والصناعة إلى زيادة الرخاء الاقتصادي كما هو ظاهر في تطور الحياة المدنية. فأصبح من الضروري قيام علاقات اقتصادية ما بين المدن المختلفة والبلدان الأجنبية الأخرى، فعلى سبيل المثال كان زيت الزيتون ينتج لسد الحاجة المحلية، وبعضه كان يصدر إلى مصر، وأصبح يحسب حساب تخزين هذه المنتجات في البناء والتنظيم حيث أصبحت تبنى المخازن الكبيرة لحفظها (Malsler and Stekells 1952: 223).

المرحلة الانتقالية من العصر البرونزي القديم إلى العصر البرونزي المتوسط (EBIV - MBI):

لم يستطع علماء الآثار تحديد نهاية العصر البرونزي القديم بشكل دقيق والسبب يعود إلى أنه لم يظهر أي موقع من المواقع الرئيسية التي تعود إلى هذه المرحلة استمرارية واضحة في الطبقات السكنية. فعلى سبيل المثال نجد أنه في موقع التل (عمي) ظهر هنالك انقطاع مفاجئ في السكنى في نهاية المرحلة الثالثة من العصر البرونزي القديم (EBIII) كذلك الحال في مواقع تل الفارعة ورأس العين. علما بأنه في مواقع تل المتسلم وبيسان وأريحا استطاع المنقبون أن يميزوا شواهد استمرارية ما بين العصر البرونزي القديم والمتوسط علما أنها جاءت فقيرة.

وحقن نستطيع أن نميز مرحلة رابعة للعصر البرونزي القديم نجد أنه من الضروري القيام بأعمال تنقيب في بعض المواقع التي سكنت في هذه المرحلة، علما أن مواقع أخرى مثل تل بيت مرسيم وعين شمس وبيتين وباب الذراع وأدر وأريحا وتل المتسلم قد أظهرت مخلفات تعود إلى هذه المرحلة. على أية حال فإن المرحلة الرابعة للعصر البرونزي القديم إنما تمثل مرحلة انتقالية ما بين هذه المرحلة وبداية العصر البرونزي الوسيط (Wright 1937).

أريحا (تل عين السلطان):

تقع مدينة أريحا في منطقة وادي الأردن وتبعد حوالي ١٠ كم إلى الشمال من البحر الميت، كما أنها تنخفض حوالي ٢٥٠ متر عن سطح البحر، وتعتبر أكثر المناطق انخفاضاً في العالم، وتزود المدينة بالمياه بواسطة نبع عين السلطان ونبع عين ديوك Ein-dug والذي يبعد حوالي ٣ كم إلى الشمال الغربي للمدينة. ويرتفع تل عين السلطان حوالي ٢١،٥ متر عن المنطقة المحيطة بها، ويغطي مساحة قدرها ٤ هكتار.

أولى التنقيبات الأثرية في هذا الموقع أجرتها جمعية اكتشاف فلسطين بإشراف ضابط إنجليزي اسمه Warren الذي لم يستطع العثور على أي شيء مهم خلال هذه التنقيبات. ولذا قامت بعثة ألمانية في الفترة الواقعة ما بين ١٩٠٧ — ١٩٠٩ بإشراف كل من E. Sellin و C. Watzinger بالتنقيب مرة أخرى في هذا المكان، حيث كشفت التنقيبات هذه المرة عن بقايا عمائرية وغيرها تعود إلى العصر البرونزي المبكر والمتوسط. وجاءت نتائج التنقيبات مقبولة إلى حد ما، علماً بأنه وفي ذلك الوقت لم يكن هنالك تسلسل زمني مقبول من جميع علماء الآثار. لكن وفي فترة لاحقة وبعد أن ازداد الاهتمام بالآثار وأصبح العلماء على دراية أفضل من السابق قامت بعثة أثرية بإشراف J. Garstang وفي الفترة الواقعة ما بين ١٩٣٠ — ١٩٣٦ بالتنقيب مرة أخرى في هذا الموقع، لكن، ومع هذا، وجدنا أن التواريخ المعطاة لفترة العصور البرونزية جاءت خاطئة حيث لم يكن هناك أي شيء يعود إلى العصر البرونزي المتأخر عكس ما ذكره Garstang. وأهم ما كشفه لنا هذا المنقب كان الوصول إلى طبقات العصر الحجري الحديث وخاصة مرحلة ما قبل الفخار. لكن أهم التنقيبات التي أجريت في هذا الموقع، بل وأفضلها كانت تلك التي قامت بها المدرسة البريطانية للآثار في القدس في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٢ — ١٩٥٨ بإشراف K. Kenyon.

وكما ذكرنا أعلاه، فإن أقدم البقايا الإنسانية التي عثر عليها في أريحا تعود إلى الفترة الناطقية ومن ثم تم العثور على بقايا تعود إلى فترة العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار أو الفخار (حوالي ٨٠٠٠ — ٤٥٠٠ ق.م)، وبعد هذه الفترة يبدو أن الموقع قد هجر حتى قدوم جماعة جديدة من الناس الذين سكنوا الموقع مرة أخرى وكان هذا في نهاية الألف الرابع ق.م، وقد جلبوا معهم أشكالاً فخارية جديدة، وقد أطلقت كنيون على هذه الفترة اسم Proto-Urban، لكن دراسة عملية وشاملة وواقية لهذه الفترة لم تتم علماً أنه تم العثور على العديد من القبور المقطوعة في الصخر والتي لم يكشف إلا على بقايا سكنية قليلة معاصرة لها.

وقد عثر في هذه القبور الجماعية على عدد من الأدوات الفخارية والجثث الإنسانية، لكنه كان من الصعب جدا محاولة إعطاء فكرة أو تفسير لهذه الأمور، وذلك لأن أسطح هذه القبور والـ Shaft كانت إما مفقودة أو متآكلة. على هذا الأساس نجد أن القبور استعملت لعدة مرات لكننا، واعتمادا على الشواهد الحالية، لا نستطيع أن نطلق حكما سواء أكانت هذه القبور يخص كل قبر جماعي منها لعائلة معينة أم كانت لعامة الناس، ولقد جاءت نهاية العصر البرونزي المبكر في أريحا بشكل مفاجئ، حيث أظهرت المرحلة البنائية الأخيرة للجدار بالمدينة بأنه دمر من جراء حريق هائل. وجاءت بنايات المرحلة التالية لهذه الفترة وبواسطة لبن طيني مخضر اللون. على أية حال هذه البيوت لم تأت بشكل مباشر فوق طبقات العصر البرونزي المبكر، وذلك لأنه تم العثور على طبقة فاصلة بين الطبقتين، وتحتوي على عدد من قطع الفخار بأشكال جديدة وربما تكون هذه مرتبطة بقادمين جدد، والذين كانوا من المحتمل يسكنون الخيام بدلا عن البيوت، وقد أطلق على هذه الطبقة الفاصلة وعلى محتوياتها اسم EB IV-MBI، على اعتبار أنها تمثل مرحلة اتصال ما بين فترتي نهاية العصر البرونزي المبكر وبداية العصر البرونزي المتوسط. وهؤلاء القادمون الجدد ربما كانوا بداءة ورعاة. وحتى عندما بدأوا ببناء منازل لهم نجد أنها جاءت بسيطة جدا، ولم يعثر على أي جدار يحيط بالمدينة في هذه الفترة. وقد ظهرت سمات البداوة والقبلية من خلال عادات دفنهم. فقد كان الإنسان يدفن بشكل فردي في قبر منفصل، وهذا ملمح يميز هذه الفترة عن الفترات السابقة واللاحقة. لكن ضمن هذا الملمح العام كان هنالك اختلافات متميزة جعل المنقبة تصنفها إلى سبعة مجموعات مختلفة. وجاء هذا التمييز اعتمادا على الاختلاف في موضع الجثة وحالة الجسم ومن ثم شكل وحجم القبر والحفرة العمودية (Shaft) وطراز التقدّمات الجنائزية. وربما تمثل هذه الاختلافات عادات دفن مختلفة لمجموعات بشرية منفصلة. لكنه كان هناك صفة مشتركة تظهر في عدد من المدافن من حيث العناية بالمدفن والدفن في قبر عميق واسع وبهيكل عظمية متآكلة وغير كاملة على الأغلب. وهذا يمكن أن يكون شاهدا على طريقة حياة بدوية، والتي يظهر فيها أنه عند موت أحد الأشخاص أثناء الهجرات الموسمية يعاد إحضارهم إلى أحد المدافن عند عودة القبيلة إلى أحد الأماكن المعروفة لديهم.

ويبدو أن سكان فترة EB IV-MBI كانوا منتشرين بشكل كبير في فلسطين ومع العلم بأن الأدوات والعادات في الدفن كانت تختلف من مكان لآخر لكن هذا يؤكد الطبيعة القبلية لهؤلاء الناس. كذلك عثر على بقايا تعود إلى هذه الفترة في سوريا مما تشير إلى ظهور الأموريون وانتشارهم في سوريا. والذين تذكرهم المصادر السومرية التي تعود إلى

زمن سرحون الأكادي (٣٢٧١ — ٢٣١٦ ق.م) والأسرة الثالثة في أور (٢١١٣ — ٢٠٠٤ ق.م)، وهؤلاء الأموريون هم المسؤولون عن تدمير مدينة جيبيل (بييلوس)، وبعد هذا كون الأموريون عنصراً هاماً للعناصر السكانية في فلسطين والأردن في النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد.

ومن الملاحظ أيضاً في أريحا أنه كان هناك تغيير مفاجئ ما بين نهاية فترة (EBIV) وبداية العصر البرونزي المتوسط. وهذا التغيير كان في عادة الدفن والأدوات والأسلحة والأدوات الفخارية والتي تعتبر بداية مرحلة جديدة أطلق عليها اسم العصر البرونزي المتوسط.

المراجع

- C. Warren, in Conder- Kitchener, SWP 3, 224 ff.
 E. Sellin and C. Watzinger, Jericho, Leipzig, 1913.
 J. Garstang, AAA 19 (1932), 3-22, 35-54; 20 (1933), 3-42; 21 (1934), 99-136; 22 (1935), 143-68; 23 (1936), 67-76.
 I. Ben - dor, Ibid., 77-90.
 G.M. Fitzgerald, London, 1948.
 K.M. Kenyon, PEQ (1951), 101-38; (1952), 62-82; (1953), 81-96; (1954), 45-63; (1955), 108-17; (1956), 67-82; (1960), 33-113, idem, Excavations at Jericho I, The Tombs Excavated in 1952- 1954, London, 1960; 2,... 1955- 1958, London, 1965.
 F. E. Zeuner, PRQ (1954), 67-82,
 K.M. Kenyon, Digging Up Jericho, London, 1957.
 F.E. Zeuner, PEQ (1958), 52-55.
 D. Kirkbride, PEQ (1960), 114-19.
 M. Avi- Yonah, The Jews of Palestine, Oxford, 1962, passim; Idem, The Holy land, Grand Rapids, Michigan , 1962,
 Passim. G. Alon, A History of the Jews in the Land of Israel 2, Tel Aviv, 1955/56, 261 ff. (Hebrew).
 A. Schalit, Koenig Herodes, Berlin, 1969 (includes bibliography). Schuerer, GJV 2, 3-4, 380n. 67, 382.
 L. Mowry, BA 15 (1952), 33f. Conder- Kitchener, SWP 2, 224-25. C. Watzinger- E. Sellin- A. Noldeke, MDOG, 41 (1909), 30 ff.
 E. Sellin- C. Watzinger, Jericho, Leipzig, 1913, 12, n. 1, 88-92.
 J.L. Kelso- D. C. Baramki, Excavations at New Testament Jericho and Khirbat en- Nitla (= AASOR 29/30 (1955)).
 J.B. Pritchard, The Excavations at Herodian Jericho, 1951 (= AASOR 23/33 (1958)).
 R. de Vaux, RB 66 (1959), 155-58. K.M. Kenyon, Antiquity 33 (1959), 231-34.
 C.H. Kraeling, AJA 64 (1960), 302-03.
 D.C. Baramki, QDAP 6 (1938), 73-77.
 M. Avi- Yonah, Rabinowitz Bulletin 3 (1960), 35.
 D.C. Baramki, QDAP 5 (1936), 82-86.
 J.L. Kelso- D.C. Baramki, AASOR 29/30 (1955),
 Passim. Y. Tsafrir, Qadmoniot 7 (1974), 24-26 (Hebrew).
 E. Netzer, Ibid., 27-36; Idem, IEJ 23 (1973), 260 (both Hebrew).

عراد:

تقع عراد في منطقة النقب الفلسطينية إذ تبعد حوالي ٣٠ كم شمال شرقي بئر السبع. وهذا الموقع عبارة عن تلة صغيرة ترتفع بشكل واضح بين تلال منطقة النقب. وبما أن المكان يفتقد إلى المصادر المائية كالينابيع والأنهار فهو يعتمد على مياه الجمع.

بدأ الموسم الأول للحفريات الأثرية في هذا الموقع في عام ١٩٦٢، وكان ذلك بإشراف كل من R. Amiran و A. Aharoni. أما الموسم الثاني والذي كان في عام ١٩٦٣ فكان بإشراف Y. Aharoni، بمساعدة M. Kochavi. وبعد الموسم الثالث أي في عام ١٩٦٤ أصبحت الحفريات الأثرية تجري سنوياً هنا، ولكن في منطقتين مختلفتين الأولى وهي منطقة التل ويشرف عليها Y. Aharoni، والثانية منطقة مدينة العصر البرونزي المبكر، وهي المنطقة المنخفضة من التل وتشرف عليها A. Amiran، واستمرت الحفريات حتى عام ١٩٧١.

وتم الحفر في موقع مدينة العصر البرونزي المبكر على ستة مواسم متتالية تم العثور في أثنائها على نظام لتوريد المدينة بالمياه، وعلى نظام للتحصينات مبنية بشكل جيد، وعلى أماكن سكنى خاصة وعامة ومعبد. ولقد بلغ سمك الجدار الذي يحيط بالمدينة حوالي ٢،٤ — ٢،٣ متر، بينما بلغ محيطه حوالي ١٢٠٠ متر. ويبدو أن طوبوغرافية الموقع والتي من الواضح أنها تسهل عملية جلب المياه لتخزينه في مركز المدينة هي التي ساعدت على اختيار هذا المكان وجعله مناسباً للاستقرار، والدليل على هذا الملام هو وجود منطقة منخفضة واسعة على شكل صحن ربما كانت تستعمل لمكان لتجميع المياه.

استطاع المنقبون في موقع مدينة العصر البرونزي أن يتعرفوا على أربعة مراحل زمنية. أقدمها المرحلة IV الرابعة والتي تمثل بداية السكنى في هذه المدينة (EBI)، ويبدو أن الناس سكنوا في ذلك الوقت داخل كهوف. ويبدو أن المدينة بلغت أوج عظمتها وازدهارها أيام المرحلتين الثالثة والثانية، وقد أشارت الدلائل الأثرية أنه ربما قد كانت نهاية هاتين المرحلتين بواسطة هجوم تعرضتا له من قبل مهاجمين. ولكنه كان من الواضح وتبعاً للتتابع الزمني أن الأربعة مراحل جاءت متتالية دون أية فجوة زمنية، وبدون أي تغير عرقي لسكان المدينة خلال هذه المدة.

ويشير نظام التحصينات على دراية في تخطيط المدن، وعلى مجتمع منظم، وعلى عمارة عسكرية متميزة. فقد جاءت أساسات الجدار المحيط بالمدينة مبنية على الصخر، وهذا الجدار مزود بمجموعة من الأبراج الشبه دائرية الشكل، والمبنية من الحجارة يبعد

الواحد منها عن الآخر مسافة تتراوح بين ٢٠ — ٢٥ متراً. هذه الأبراج جاءت متشابهة في الحجم ولها ممرات يستطيع الإنسان بواسطتها الدخول إلى داخل المدينة.

أما بالنسبة للبيوت السكنية فقد جاءت ملاحظها العمائرية مميزة لفترة العصر البرونزي المبكر الثاني بشكل عام. أحد نماذج البيوت التي عثر عليها كان متشابهاً في المراحل السكنية الثالثة والثانية والأولى، وتميز المنزل في عراده بمساحته الواسعة، ويتكون من غرفة رئيسية، وغرفة إضافية أخرى ربما استعملت للتخزين أو كمطبخ بالإضافة إلى ساحة. وجاءت أبعاد الغرفة الواحدة تتراوح ما بين ٧،٣٠ متر في ٥،١ متر إلى ٤،٣ × ٣،٣ متر. وفتحة المدخل الرئيسي (الباب) كانت دائماً في الجهة العريضة ولها درجات تقود إلى داخل الغرفة، إذ كانت أرضية المنازل تحت مستوى الشارع أو الساحة. وكان السقف بلا شك مستوياً وكان يدعم بواسطة القضبان الخشبية. ويبدو أنه لم يكن هنالك منافذ أو شبائيك لمثل هذه البيوت. ولقد تم العثور داخل البيوت على أواني فخارية، وأدوات للطحن، وأجران، وأدوات نحاسية، وصوانية، وعظمية، وخرز.

من أهم المباني العمائرية التي عثر عليها في هذا الموقع هو المعبد المسمى بالمعبد التوأم Twine-Tomb، والذي يتكون من مساحة واسعة عليها بناء ضخم يضم قاعتين واسعتين يفصل بينهما حائط قليل الارتفاع، ويفتحان على ساحة، وكلاهما يقابل الشرق حيث كان المدخل من هذه الناحية. ولقد كان المعبد الذي بني في الجهة الشمالية قد أقيم في المرحلة السكنية الثالثة للموقع لكنه حصل عليها تغيرات في المرحلة الثانية. أما القاعة الجنوبية فقد أضيفت في المرحلة اللاحقة. ويشابه هذا المعبد المعابد التي عثر عليها في تل المتسلم وعين جدي والتل (عي).

أما الأدوات الفخارية التي عثر عليها في عراده تكونت من صحون وأطباق وأسرجة على شكل صحون وأباريق وأباريق صغيرة وفناجين صغيرة الحجم وجرار مختلفة الأحجام. وكان هنالك أواني مدهونة مثل الأباريق الصغيرة والتي عثر على مديشابهها في كل من بيسان وأريحا والتل.

بعد هذا العرض عن مدينة عراده نقول بأن بداية السكنى لهذا الموقع كان في فترة العصر البرونزي المبكر الأول، واستمر خلال الفترة الثانية لهذا العصر، علماً أنه تم العثور على حفر محفورة داخل الأرض حوت قطع فخارية مشابهة للتي عثر عليها في بئر السبع وتليلات الغسول ويعود تاريخها إلى العصر الحجري النحاسي.

المراجع

- Y. Aharoni and Ruth Amiran, Yediot 27 (1963), 217-34 (Hebrew); IEJ 12 (1962), 144-45; RB 70 (1963), 565-66; IEJ 14 (1964), 131-47; Archaeology 17 (1964), 43-53. Ruth Amiran, BASOR 179 (1965), 30-33.
- Y. Yadin, IEJ 15 (1965), 180. B. Mazar, JNES 24 (1965), 297-303.
- Y. Aharoni, IEJ 16 (1966), 1-7; 17 (1967), 233-49. Ruth Amiran, IEJ 16 (1966), 273-74.
- S. Yelvin, *ibid.*, 153-59. Ruth Amiran and Y. Aharoni, Ancient Arad, Catalogue of the Israel Museum, 1967.
- C. Nylander, IEJ 17 (1967), 56-59. Y. Aharoni, BA 31 (1968), 1-32. Ruth Amiran and Elise J. Baumgratel, BASOR 195 (1969), 50-53. Ruth Amiran, In Essays in Honor of Nelson Gluek, Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, ed.
- J. A. Sanders, New York, 1970, 83-100. Y. Aharoni, BASOR 197 (1970), 16-42. Ruth Amiran, IEJ (1972), 86-88.

التل (عي):

يقع تل إلى الشرق من قرية بيتين في محافظة القدس، وتغطي مساحة مقدارها ٢٧،٥ هكتار. ولقد أجريت فيها أولى الحفريات الأثرية في عام ١٩٢٨، وكان ذلك بإشراف J. Garstang والذي لم يقدم لنا الكثير عن هذا الموقع خلال تقريره المكسوف من ثلاث صفحات ملخصة عن هذه الحفريات.

وفي الفترة الواقعة ما بين المواسم ١٩٣٣ — ١٩٣٥ قامت السيدة (Marqet Krause) بالحفر مرة أخرى في هذا الموقع، وركزت أعمالها في المنطقة المرتفعة من التل. وكشفت هذه الحفريات عن بقايا أثرية تعود لفترة العصر البرونزي القديم فيها معبد وقبور وقصر. وكذلك، وفي موسم عام ١٩٣٤ استطاعت المنقبة العثور في الجهة الشرقية من التل على قرية تعود بتاريخها إلى العصر الحديدي. كذلك اكتشفت في عام ١٩٣٥ نظاماً للتحصينات في الجزء الأسفل للموقع وهذه تتكون من بوابة خلفية لها أبراج إهليلجية الشكل. لكن أهم الملاحظات التي قدمت لنا عن مكتشفات هذا الموسم هي ملاحظة أن بيوت العصر الحديدي الأول جاءت مبنية على أنقاض بيوت العصر البرونزي القديم الثالث.

وما بين أعوام ١٩٦٤ — ١٩٧٠ قام J. A. Callaway بالحفر للمرة الثالثة في هذا الموقع، ومواقع أخرى في نفس المنطقة مثل خربة حيان، وخربة خضرية، وخربة Raddana، حيث لوحظ أنها تعود للفتريات الرومانية والبيزنطية.

نتيجة لهذه الحفريات جميعها استنتج بأن بداية السكنى في هذا الموقع كان في العصر البرونزي القديم الأول (ب) (٣١٠٠ — ٣٠٠ ق.م)، واستمرت دون انقطاع حتى نهاية العصر البرونزي القديم الثالث (ب) أي في حوالي (٢٧٢٠ — ٢٤٠٠ ق.م)، ومن ثم أعيد سكناها في بداية العصر الحديدي.

ففي الفترة الأولى للسكنى (EBI b) في هذا الموقع لوحظ أن الموقع لم يكن محصناً، وقد تم العثور على بقايا بيوت بسيطة، كما أنه لم يعثر على أية بقايا أثرية تعود لما هو أقدم من هذه المرحلة. وكذلك فإن سكان هذه الفترة دفنوا أمواتهم داخل كهوف على المنحدر الشمالي الشرقي للتل حيث كانوا يعيشون. وبعد دراسة الفخار الذي عثر عليه داخل هذه القبور وجد أنه يشابه الفخار الذي عثر عليه كتيون في أريحا وأريخته لفترة سمها Proto-Urban.

وفي الفترة اللاحقة أي في العصر البرونزي القديم (ج) EB1c حوالي (٣٠٠٠ ق.م)، جاءت المدينة محصنة يحيط بها جدار. وقد عرفت هذه المنطقة على أنها المنطقة الصناعية ومكان الاستقرار السكاني في هذا الموقع، كذلم عثر هنا على بوابة. كذلك تم العثور على بناء منتظم الشكل مبني من الحجارة الضخمة والغير مشذبة. وكان هنالك أعمدة حجرية تساعد على رفع السقف، ويبدو أنه قد أعيد بناء واستعمال هذا المبنى في فترة العصر البرونزي المبكر الثالث (أ)، وذكر أنه ربما كان يمثل معبداً. ومن الأشياء العماثرية البلرزة التي وجدت وتعود إلى الـ EB1c أربع بوابات ضخمة جاءت ثلاث منها محصنة بأبراج إهليلجية الشكل بينما كان هناك برج في بوابة القلعة.

الأدوات الفخارية المكتشفة، وتعود بتاريخها إلى EB1c، عثر على ما يشابهها في مواقع أخرى مثل أريحا وتل الفارعة الشمالي وباب الذراع وعراد.

وقد استطاع المنقبون أن يتعرفوا على حريق هائل كان سبب دمار مدينة الـ EB1c، وربما كان سبب هذا مهاجمين أعداء. ولكن مع هذا فقد تم إعادة بناء المدينة مرة ثانية وأطلق على هذه الفترة اسم EB11a العصر القديم الثاني (أ)، وهذه المرحلة كانت معاصرة للمراحل K-II-H في مناطق E-III-IV في أريحا والطبقات III وII في عراد والمراحل ٢ - ٣ في تل الفارعة الشمالي، في هذه الفترة الزمنية أجريت بعض الإضافات على الأبنية الأولى، كذلك نجد أن التحصينات قد وسعت وقويت.

أما الأدوات الفخارية التي عثر عليها، وتعود إلى EB11a فقد تكونت في الغالب من زبادي لها حنية في الجسم وبخافة مطوية للخارج وأباريق برقة طويلة وأيدي تتصل ما بين الرقبة والبدن Loop-handle. مثل هذه الأدوات عثر عليها في مواقع مختلفة مثل تل الفارعة الشمالي وأريحا.

وكما هو الحال في الفترة السابقة نجد أن الموقع دمر هذه المرة أيضاً بواسطة حريق، ولكن السبب كان يختلف عن المرات السابقة حيث ربما يكون السبب هزة أرضية.

وقد وجد أن التدمير كان شاملاً لموقع التل في فترة العصر البرونزي القديم لذا نجد أن الأدوات الفخارية، والأخرى تسمى EB11b. حيث ظهرت أشكال جديدة للأدوات الفخارية مثل الأباريق الصغيرة المعروفة باسم أباريق أيدوس والتي أصولها مصرية حيث تم العثور عليها في بادئ الأمر في سقارة في مصر، وعثر على مثل هذه الأباريق في أريحا في فلسطين، وفي الطبقة "C" في العمق من سوريا. ولقد تم التعرف على آثار حريق كلان السبب في تدمير الموقع في هذه الفترة.

العصر البرونزي القديم الثالث (أ):

تمتد فترة العصر البرونزي المبكر على مدى ثلاثمائة عام من الزمن وتحوي مرحلتين رئيسيتين في أبنيتها وتحصيناتها.

العصر البرونزي القديم (أ) في موقع التل يتميز بكونه مرحلة من البناء والتعمير وكذلك التخريب. ويورخ للفترة الواقعة ما بين ٢٧٠٠ — ٢٥٥٠ قبل الميلاد. فبعد عملية تدمير بيوت وتحصينات المرحلة الثانية (ب) من العصر القديم كان لا بد من إجراء إعادة بناء لهذه العمائر وقد أعيد بناء الجدار المحيط بالمدينة أولاً. كذلك هناك شواهد على مظاهر مصرية في عملية إعادة بناء المدينة، منها بعض الملامح الظاهرة في بناء معبد العصر البرونزي القديم الثالث (أ) والتي تظهر بأنها بنيت بواسطة صناع مصريون وطريقة بناء أحد جدران هذا المعبد بواسطة جدارة مشدبة. كذلك تم العثور على بعض أدوات المرمم المصرية ومثل هذه الآنية يرتبط بالأسرتين الأولى والثانية في مصر. أيضاً ظهر التورط المصري في عملية البناء المعماري لموقع التل في بناء صهريج المياه والذي يعود إلى العصر ويتسع لحوالي ١٠،٨٠٠ متر مكعب من الماء.

لقد تم كشف بوابتين تعودان إلى فترة العصر البرونزي القديم الثالث (أ). حيث وجد أن بوابة العصر البرونزي القديم الثاني قد أغلقت بواسطة سد من الاتيهيرات واستعيض عنها ببناء بوابة جديدة أصغر منها محصنة بواسطة برجين وبنيت فوق قمة هذا السد البوابة الثانية بنيت في جدار المدينة الجنوبي ولم يبق منها ظاهراً إلا الجزء الشرقي بينما لم يعثر على أي آثار قائمة للجزء الغربي.

العصر البرونزي القديم الثالث (ب):

لقد طرأت بعض التغيرات على هذا الموقع خلال المرحلة الانتقالية ما بين الفترة السابقة وهذه الفترة (حوالي ٢٥٥٠ ق.م). وربما تعزى هذه التغيرات إلى تأثيرات خارجية، خاصة من المنطقة الشمالية لبلاد كنعان والمرتبطة بحضارة خربة الكرك عند بحيرة طبرية.

وهناك دلائل على أن المدينة في هذا العصر قد احتلت احتلالاً منها بأن الجدار الواقع غرب البوابة الجنوبية قد دمر تدميراً مع وجود بقايا حريق في التحصينات، من هنا كان لا بد من بناء جدار حديد حول المدينة. وبني هذا الجدار ملاصقاً لجدار المرحلة السابقة لسداً نجد أن عرضه بلغ في بعض الأماكن حوالي ٨ متر. كذلك أغلقت البوابة الجنوبية لكن أعيد بناء البوابة التي كانت تطل على الوادي واستعملت كمدخل فرعي. كذلك أعيد

ترميم المعبد الذي كان موجوداً خلال المرحلة السابقة لكن وفي هذه المرحلة فقد تم ملء
الغرف المحيطة بهذا المعبد بالطم. وفي مثل هذه الحالة فقد توجب على الكاهن والحاكم
أن ينتقلوا إلى مكان آخر.

على أية حال فلقد حل بالمدينة وفي حوالي ٢٤٠٠ قبل الميلاد أي زمن الأسرة
المصرية الخامسة خراب عفيف. لكن هوية هؤلاء المهاجرين الجدد لا تزال غير معروفة
علماً أن الدلائل تشير إلى أن المصريين قد هاجموا هذه المدينة عدة مرات وربما يكونوا هم
الفاعلون أيضاً هذه المرة. ويبدو أن هذه المدينة لم تعمر مرة أخرى بعد هذه الجهة إلا في
العصر الحديدي وربما يكون هذا مرده إلى قدوم الأقوام البدوية في الفترة المسماة بالعصر
البرونزي القديم الرابع.

المراجع

- W.F. Albright, AASOR 4 (1924), 141-49.
S. Yeivin, PEF QST (1934), 189-91.
J. Marquet- Krause, Syria 16 (1935), 325-45; idem, Les fouilles de Ay (et- tell), 1932-35,
Paris, 1949.
M. Noth, PJB 31 (1935), 7-29. L. H. Vaincent, RB 16 (1937), 231-86.
J. M. Grintz, Biblica 42 (1961), 201-16.
J. A. Callaway, Pottery from the Tombs at Ai (et- Tell), London: Colt Archaeological
Institute, Monograph Series, No. 2 (1964); idem, BASOR 178 (1965), 13-40; idem, (With M.
B. Nicol), BASOR 183 (1966), 12-18; idem, JBL 87 (1968), 312-20; idem, BASOR 196 (1969),
2-16; idem, BASOR 198 (1970), 7-31; idem (With R. E. cooley), BASOR 201 (1971), 9-19;
idem (With K. Schoonover), BASOR (in press); idem (With N. E. Eagner), PEQ (in press).
The early Bronze Age Sanctuary at Ai (et - Tell), London , 1972. M. Prausnitz, Annual Report,
Institute of Archaeology, University of London , 1955.
R. Amiran, IEJ 17 (1967), 185-86; 20 (1970), A. Kuschke, and E. Kutach, eds., (1970),
19-22.
Y. Aharoni, IEJ 21 (1971), 130-35.

خربة الكرك:

تقع خربة الكرك على الشاطئ الجنوبي الغربي لبحيرة طبرية وتغطي مساحة مقدارها خمسين هكتاراً وقد أطلق عليها مؤخراً اسم Tel Beth Yarah. ولقد حاول بعض المؤلفون تعريفها على أنها موقع Philoteria الذي بناه بطليموس فيلادلفيوس الثاني، كما حول آخرون ذكرها على أنها موقع سنابري Sannabri الذي ذكره جوزيفوس على أنه نقطة الحدود الشمالية لوادي الأردن والتي كانت مخيماً لجيش الامبراطور فسبسيان.

من خلال المسوحات والحفريات الأثرية التي عملت في هذا الموقع لوحظ أن الفترات الزمنية التي مر بها تبدأ من العصر البرونزي القدم ومن الفترة الهلنستية حتى الإسلامية. ولقد تم العثور على نوع مميز من الفخار في هذا الموقع أطلق عليه أولبرايت اسم فخار خربة الكرك. والملامح الرئيسية لهذا الفخار أنه ذو لون أحمر أو أسود مصقول ومزخرف بواسطة حزوز غائرة أو نافرة. ولقد عثر على هذا النوع من الفخار في مواقع مختلفة من فلسطين وفي شمالي سوريا. وعلى أغلب الظن أن أصول هذا الفخار مستمدة من الأناضول.

لقد قامت جمعيات يهودية بإشراف منقبين صهاينة بالحفر في هذا الموقع. وكانت أولى الحفريات في عام ١٩٤٤ — ١٩٤٥ وقامت بها الجمعية اليهودية لاستكشاف فلسطين بإشراف كل من ب. مازار وموشيه ستكليس وي. دونافسكي. ونقبت هذه البعثة في الجزء الجنوبي من التل. ومن ثم استؤنف العمل مرة أخرى في سنة ١٩٤٥ — ١٩٤٦ وإشراف ستكليس وأفي — يوناح ودونافسكي وتم الحفر في شمال التل بالإضافة إلى جنوبه. ومنذ عام ١٩٤٩ بدأت دائرة الآثار الإسرائيلية الحفر في هذا الموقع تحت إشراف P. L. P. Guy ومن ثم P. Bar-Adon. وقام الأخير بأعمال حفر شاملة في جنوبي التل كما عمل بحسات تجريبية في مناطق مختلفة في وسط وغربي التل وكان ذلك في الفترة الواقعة ما بين (١٩٤٩ — ١٩٥٥) وفي أثناء عمليات الحفر الأخير تم كشف النقاب عن المناطق السكنية وبعض أجزاء من الجدار المحيط بالمدينة. وفي أعوام ١٩٥٢ — ١٩٥٣ و١٩٦٣ — ١٩٦٤ قامت بعثة أمريكية بإشراف معهد الدراسات الشرقية في جامعة شيكاغو وإشراف P. Delougaz وبمساعدة Heland

Cantor بأعمال تنقيب في هذا الموقع وقد تركز العمل على الجزء الشمالي من التل وقليل جداً من الأحيان في الوسط.

تحصينات المدينة:

الجدران المحيطة في المدينة بنيت خلال الحقب المختلفة والتي مر فيها الموقع في الجهات الجنوبية الغربية والجنوبية من التل، بينما كانت بحيرة طبرية من الجهة الشرقية مانعاً طبيعياً. أولى التحصينات التي عثر عليها تنسب إلى العصر البرونزي القديم. ولقد استطاع P. Bar-Adon ست مراحل. ففي الجهة الجنوبية من التل تم اكتشاف جزء من جدار يسمي باتجاه شرق — غرب. ولقد بني هذا الجدار من اللبن الطيني. كذلك تم الكشف عن بوابتين في هذا الجدار وجاءت الأجزاء المحيطة بالأبواب مبنية من الحجارة البازلتية كما هو الحال في بعض الممرات المبنية على شكل درج. على أية حال فلقد تم التعرف على بقايا تحصينات تعود في تاريخها إلى فترات مختلفة من العصر البرونزي القديم، إلى العصر البرونزي المتوسط الأول والفترة الهلنستية.

العصر البرونزي القديم:

في المنطقة الجنوبية من التل تم العثور على بقايا العصر البرونزي القديم تحت طبقات الفترة الهلنستية مع وجود طبقة رقيقة جداً تفصل ما بينهما. ولقد استطاع المنقبون في هذه المنطقة الوصول إلى الطبقة البكر على عمق ٧،٣٠ متر والتعرف على بقايا العصر البرونزي القديم بجميع مراحلها من الأولى وحتى الرابعة وأطلق عليها اسم خربة الكرك.

خربة الكرك I:

يبدو أن السكان الأوائل لهذا الموقع لم يسكنوا الكهوف بل عاشوا داخل حفر مشقوقة يتراوح عمقها ما بين ٥ — ٣،٥ متر وقطرها ما بين ٣ — ٤ متر. وقد وجد بداخل هذه الحفر رماد وكسر فخارية وبقايا عظام حيوانية الكسر الفخارية جاءت ذات لون رمادي ومصقولة.

خربة الكرك II:

تم العثور في هذه المرحلة ولأول مرة في هذا الموقع على ييسوت منتظمة الشكل بجدران من اللبن الطيني. كذلك تم الكشف عن ساحات مبلطة بالحجر البازلي كما هو

الحال في بعض الغرف. ولقد تميز فنحار هذه المرحلة بأنه مصقول وله بطانة Band slip وبجرار ذات فوهات واسعة بأيدي على شكل بروز تلتصق على جانبي البدن.

خربة الكرك III:

في هذه المرحلة جاءت أساسات جدران البيوت مبنية من البازلت ولم يتم العثور على فنحار خربة الكرك في هذه الطبقة وعلى هذا الأساس يمكن إرجاع مرحلة خربة الكرك III إلى مرحلة العصر البرونزي القديم الثاني. معظم مباني المدينة جاءت مبنية من اللبن الطيني. ولقد تم العثور على طبقات لأختام أسطوانية.

خربة الكرك IV:

لقد دامت السكنى في هذه المرحلة أكثر من أي وقت مضى. ولقد تم تمييز أربعة أوجه زمنية مختلفة خلال طبقة بلغ سمكها ٢ متر. وجاءت معظم البيوت مبنية من البازلت علماً أنه وجد بعضها مبني من الطوب الطيني على أساسات من البازلت. كذلك اكتشف بناء تبلغ أبعاده ٨×٧ متر ويتجه من الشمال إلى الجنوب. وبالإضافة إلى الكمية الكبيرة من الأدوات الفخارية التي عثر عليها هنا فقد تم العثور على خمس دمي حيوانية ورموزجين من الفخار لبيوت وجزء من دمية فخارية تمثل أسداً يزأر. كذلك عثر على بعض الأدوات الصوانية تمثل أغلبها سكاكين. أما الفخار الذي عثر عليه في الطبقة الثالثة فيمثل في الغالب فنحار خربة الكرك ولهذا نجد أن هذه الطبقة تعود إلى العصر البرونزي القديم الثالث.

أما في الجهة الجنوبية الشرقية من التل فقد وصل بار — أدون في مربعاته التجريبية الطبقة العذراء واستطاع تمييز ثلاث وعشرين فترة مختلفة مر بها التل وكانت على النحو التالي: أربع فترات تعود لمرحلة العصر البرونزي القديم الأول حيث تم العثور على بيست ربما يكون مقيباً. ثم خمس فترات تعود لمرحلة العصر البرونزي القديم الثاني حيث وجد فيها جدران من اللبن الطيني وشوارع مبلطة ومصارف للمياه. كذلك كان هناك سست فترات تعود للعصر البرونزي القديم الثالث وتضم طبقة حريق. الثلاث فترات الأخيرة كانت تعود لمرحلة العصر البرونزي المتوسط الأول حيث حوت قسداً يعود للعصر البرونزي المتوسط الثاني. كذلك تم التعرف على طبقة تعود للفترة الفارسية.

في الجزء الشمالي من التل تم الكشف عن بناء منتظم الشكل ضخيم وتبلغ أبعاده حوالي ٤٠×٣٠ متر ويؤرخ إلى العصر البرونزي القديم الثالث. ولقد جاء البناء مبني من

الحجارة البازلتية الغير منتظمة الشكل ومدخله الشرقي يطل على بحيرة طبرية. ومن ميزات هذا المبنى أنه تم الكشف عن أربع دوائر مبنية من الحجارة على طول الجدار الجنوبي وثلاث على طول الجدار الغربي واثنان على طول الجدار الشمالي. كما لوحظت دوائر أخرى وبلغ عدد جميع هذه الدوائر اثني عشرة دائرة.

اختصاراً لما ذكرناه أعلاه فإن بداية السكنى في موقع خربة الكرك كانت في العصر البرونزي القديم الأول واستمرت حتى العصر البرونزي المتوسط الثاني لكن التل لم يكن جميعه مأهولاً بالسكان خلال هذه المراحل. وخلال فترات العصر البرونزي رأينا أن هذا المكان قد حصن وبني جدار المدينة وبعد أن هجرت المدينة عمرت مرة أخرى في الفترة الفارسية واستمرت السكنى فيها حتى الآن.

المراجع:

History and identification of the site: L. Mayer, IEJ 2 (1952), 183-87 (includes bibliography). P. Bar- Adon, EI 4(1956), 50-55 (includes bibliography) (Hebrew).

Excavation reports: B. Maisler, M. Stekelis, M Avi- Yonah, IEJ 2 (1952), 165-73, 218-29.; 5 (1955), 273.

P. Delougaz- R. C. Haines, A Byzantine Church of Khirbat Al- Karak, Chicago. 1960.

القفولة:

يقع موقع القفولة الأثري بالقرب من مدينة القفولة الحديثة. ومن الجدير بالذكر أنه لم يبق إلا النذر اليسير من بقايا الموقع القديم وذلك نتيجة لعملية التوسع العمراني الحديثة. وبلغت مساحة هذا الموقع حوالي (١١ هكتاراً) (acres) ويقف التل الحالي بارتفاع (١١) متراً عن سطح المنطقة المحيطة. وقد بدأ سوكنك (E. L. Sukenik) أعمال التنقيب في هذا الموقع في عام ١٩٢٦ واستمرت حفرياته التي تركزت في الجزء الشمالي والأوسط من التل حتى عام ١٩٣١. في أعوام ١٩٥٠ و ١٩٥١ قام كل من بن — دور (Ben-dor) ودوثان (M. Dothan) بأعمال التنقيب في الجزء الجنوبي للموقع.

كشفت الحفريات عن عدد من القبور تعود في عهدها إلى عصور البرونزي القديم والثالث والمتوسط الثاني والهلنستي والروماني. بالإضافة إلى هذا فقد أشارت الحفريات إلى أن أقدم البقايا السكنية في هذا الموقع تعود إلى العصر الحجري النحاسي حيث تم العثور على عدد من القطع الفخارية والصوانية التي تعود إلى هذه المرحلة. أما المرحلة السكنية التالية في هذا الموقع فجاءت تعود لمرحلة العصر البرونزي القديم الأول والثاني والثالث والرابع حيث تم العثور أيضاً على أدوات فخارية تعود لهذه الفترات. كذلك وجدت بقايا سكنية تعود لمراحل العصر البرونزي المتوسط والحديث والحديدي الروماني والبيزنطي والأيوبي والملوكي (Dothan 1973: 36).

نسبت الطبقة التاسعة من التل إلى العصر البرونزي القديم الأول حيث تم العثور على ملققات أثرية وجدران ترتفع إلى حوالي ٣ متر. وجاءت بقايا هذه الفترة فوق بقايا العصر الحجري النحاسي (الطبقة العاشرة) وتحت الطبقة الثامنة والتي جاءت محتوياتها تعود للعصر البرونزي القديم الثالث. ومن بين مكتشفات هذه الطبقة المهمة هي أدوات فخارية من الطراز المعروف باسم فخار خربة الكرك. أما بقايا المرحلة الرابعة للعصر البرونزي القديم فقد وجدت في الطبقة السابعة من التل وتمثلت في بقايا عمائرية وفخارية. جاء يعلو مخلفات هذه المرحلة بقايا تعود لمرحلة العصر البرونزي للمتوسط الأول والتي عثر عليها في الطبقة السادسة.

المراجع:

- E. L. Sukenik, PEQ (1936) 150- 154; idem, JPOS 21 (1948) 1-79.
I. Ben - Dor, Alon 3(1951) 33-34 (Hebrew).
M. Dothan, Atigot 1(1956) 18-63 (Hebrew).

يازور:

يقع موقع يازور على الطريق ما بين يافا القدس حيث تبعد حوالي ٦ كم عن مدينة يافا. ولقد ورد اسم هذا الموقع في النصوص الآشورية من عهد الملك الآشوري سنحاريب. ويعلو قمة هذا التل قلعة صليبية كما تم العثور على بقايا تعود لمرحلة العصر الحجري النحاسي حتى العصور الوسطى أثناء عمليات التنقيب الأثرية التي قام بها كل من أوري (J. Ory) وكيبلان (J. Kaplan) وشابيرا (Y. Shapera) في المقابر. لكن الحفريات على التل قام بها كل من بيروت (J. Perrot) الذي كشف عن مقابر تعود للعصر الحجري النحاسي والمسماة بالمعظم ودوثان (M. Dothan) الذي عثر على مقابر العصر البرونزي والحديدي.

تم اكتشاف بقايا تعود إلى مرحلة العصر البرونزي القديم في أماكن مختلفة من التل. ففي أثناء عمليات التنقيب التي أجرتها دوثان في الفترة الواقعة ما بين ١٩٥٨ و ١٩٦٠ تم العثور في الطبقات السكنية على مخلفات اعتقد بأنها تعود لنهاية العصر الحجري النحاسي وبداية البرونزي القديم في المنطقة (ب). وجاءت هذه المخلفات فوق أنقاض المعظم التي ذكرناها آنفاً. أما خلال الحفريات التي أجراها بن — دور (Ben-Dor) في عام ١٩٧١ فقد تم الكشف عن بعض المدافن التي عثر بداخلها على العديد من الأدوات الفخارية والتي تشابه تلك التي عثر عليها في أريحا وتعود للمرحلة التي أطلقت عليها كنيون اسم (Proto-Urban). (A)

المراجع:

- M. Dothan, BIES 25 (1961), 224- 230 (Hebrew; idem . Atiqot 3 (1961), 181-184; idem, Bull. Soc. d'Anth. 2 (all serie, 1961), 79-82.
J. Perrot, Atiqot 3 (1961), 1-83. A. Ben- Dor, Qadomiot 6 (1973), 48-50 (Hebrew).

تل الشيخ العربي:

يعتبر موقع تل الشيخ العربي من أهم المواقع الأثرية التي عثر عليها على الساحل الفلسطيني. وهي تبعد عن هذا الساحل حوالي ١٩ كم على الطريق الموصلة إلى بيت جبرين، مقابل قرية عراق المنشية. وتغطي مساحة تبلغ حوال ٢٥ هكتاراً، وقد اقترح العديد من علماء الآثار على أن هذا الموقع يمثل مدينة جاث (Gath) الفلسطينية (Yelven 1975:89).

يتكون هذا الموقع من ثلاثة أقسام هي: أولاً الأكروبوليس وهو الجزء العلوي من التل حيث يرتفع ٣٢ متراً عن المنطقة المنبسطة المحيطة به ويغطي مساحة قدرها ١,٦ هكتار. وثانياً المنحدر العلوي والذي يحيط بالأكروبول من ثلاث جهات ويغطي مساحة قدرها ٢٤ هكتاراً ثالثاً المنحدر السفلي الذي يحيط بالأكروبول والمنحدر العلوي وينحدر باتجاه الجنوب.

أثناء الحفريات التي أجريت في الفترة الواقعة ما بين أعوام ١٩٥٦ - ١٩٦١ تم التعرف على بقايا تعود إلى نهاية العصر الحجري النحاسي والعصر البرونزي القديم والحديدي والهلنستي والبيزنطي والإسلامي. ففي المنطقة د "Area D" من الموقع تم حفر مربع بقاسات ٢٠ × ٢٠ متر على الحافة الجنوبية لمنحدر الذي يحيط بالأكروبول حيث اكتشف هناك جدران من اللبن الطيني مع قطع فخارية تعود للعصر البرونزي القديم الثاني والثالث. واستطاع المنقبون تمييز عدة مراحل بنائية تعود إلى هذه الفترات كانت تمثل هذه الجدران أجزاء من بيوت سكنية، وجاءت أرضيات هذا المجمع السكني مرصوفة بالحصى وربما كانت تمثل ساحات مكشوفة. كذلك تم العثور على حفر للتخزين مرصوفة أيضاً بالحصى.

ظهرت بقايا المرحلة السكنية الثانية على عمق (١ متر) تحت سطح الأرض، حيث عثر على بقايا أبنية مدمرة بشكل فظيع مما لم يسمح للمنقبين بالتعرف على مخططات هذه الوحدات البنائية. على أية حال فقد أمكن تمييز خمسة أوجه بنائية فرعية خلال هذه المرحلة الثانية. لكن أهم ما يميز المرحلتين السكيتين الأولى والثانية عبارة عن مبنى ضخم يقع إلى الجنوب من الطريق الذي اكتشف في المرحلة الأولى ويتكون من بيت واسع يتجه شرق - غرب وله ساحة واسعة في الجهة الشرقية. لكن أهم ما يميزه كان عبارة عن بناء دائري الشكل من اللبن الطيني مقام في مركز هذا البناء، ربما كان يخدم كطاولة للتقدمات الجنائزية. ظهر مثل هذه الأبنية في مواقع فلسطينية أخرى مثل تل المتسلم وعين جدي.

جاءت بيوت وطرق المرحلة السكنية الثالثة تختلف اختلافاً كبيراً عن مخططات بيوت المراحل الأولى. حيث كانت تتجه في الغالب باتجاه الشمال الشرقي — الجنوبي الغربي. أما المرحلة السكنية الرابعة فقد عثر على مخلفاتها على عمق حوالي (٥٠ سم) من مخلفات المرحلة الثانية. حيث تم العثور هنا على بعض الأدوات الفخارية التي كان بداخلها بعض البذور كذلك تم التعرف على بقايا حريق. تم الحصول على تاريخ كربون مشع من هذه المرحلة وجاء يعود إلى العصر البرونزي القديم الأول. ضمت مخلفات هذه المرحلة أيضاً بقايا معمارية تكونت من مبنى له ساحة واسعة يحيطها من الجهتين الشمالية الغربية والجنوبية الشرقية مجموعة من الغرف، وأما في الجهة الجنوبية فقد تم العثور على آثار لمعصرة للزيتون.

جاءت بقايا الطبقة الخامسة على عمق (٦٠ سم) من الطبقة الرابعة. حيث تكونت من الفخار المشابه لنوع الفخار المصري على الأغلب. وتميز هذا النوع من الأواني بأنه مغطى ببطانة بيضاء ويكون مصقولاً في بعض الأحيان. وحملت ثلاث كسر فخارية اسم "نارمر" والذي يعرف من قبل بعض علماء الآثار على أنه الفرعون المصري "مينا" مؤسس الأسرة الأولى. ومن أهم ما عثر عليه في الطبقة الخامسة هو بناء عام يمتاز بساحة داخلية مرصوفة بالحصى ويحيط بثلاثة جوانب منها غرف تخزين وتفتح على ساحة خارجية من الجهة الرابعة. وإلى الشمال من هذا البناء كان هناك شارع بني بمحاذاة جهته الشمالية مجموعة من الغرف.

أظهرت مخلفات الطبقة السادسة على أنها جمعت بواسطة أعمال تخريبية. وقد تكونت مخلفات هذه الطبقة الفخارية من ثلاثة أنواع من الفخار هي فخار العصر البرونزي القديم الأول وفخار يعود إلى نهاية العصر الحجري النحاسي والنوع الثالث يختلف عنهما كلياً. وتكونت أشكال هذه الأدوات الفخارية من الكؤوس العميقة والأباريق الصغيرة والمزهريات.

وكما هو الحال في الطبقة السادسة حيث استمر ظهور المبنى العام هنا والذي ظهر في الطبقتين الخامسة والرابعة استمر ظهوره في الطبقة السابعة. فلقد لوحظ الآن سقف هذا المبنى والذي ينسب إلى الطبقة السادسة جاء مرفوعاً على أعمدة خشبية. لكن يبدو أن هذا المبنى كان قد بني لأول مرة زمن الطبقة الثامنة.

كشفت لنا الحفريات التي أجريت في المناطق (K-M) من هذا الموقع على بقايا تعود للعصر الحديدي الأول والثاني وجدران تعود إلى العصر البرونزي القديم الثاني. مثل هذه الجدران تم العثور عليها في المنطقة (L) وجاءت مبنية أيضاً من الطوب الطيني. كذلك

الحال بالنسبة للمنطقة () حيث تم العثور على مخلفات معمارية وفخارية تعود إلى مرحلة العصر البرونزي القلبي الثاني.

المراجع:

S. Yeivin, Eneyclopedia Biblica (Language Academy Publications), VII- VIII, Jerusalem, 1960, 224; idem, IEJ 10 (1960), 193- 203, Pls. 23-24; 11 (1961), 191; idem, RB 67 (1960) 391-94; 69 (1962), 395-97, idem, First Preliminary Report on the Excavations at Tell "Gath" (1956- 58), Jerusalem, 1961.

D. Ferembach, ibid, 19-20, P1s. XI- XII. A. Calsca, Oriens Antiquus 1(1962), 25-29; 2(1963), 45-63.

S. Yeivin, Ibid, 205-13; idem, Fourth World Congress of Jewish Studies I, Jerusalem, 1967, 45-48; idem, JNES 23 (1968) 37-49.

تل الفارعة الشمالي:

يقع موقع تل الفارعة الشمالي بالقرب من وادي تل الفارعة الذي يصب في نهر الأردن وعلى الطريق ما بين نابلس وطوباس يبعد حوالي (١١ كم) إلى الشمال الشرقي من مدينة نابلس. يتركز هذا الموقع فوق تلة صخرية تنحدر باتجاه جنوب غرب وشمال شرق. ويستزود بالمياه بواسطة نبع عين الفارعة ونبع عين دليب.

قام بالحفر الأثري في هذا الموقع المدرسة الفرنسية للآثار في القدس في الفترة الواقعة ما بين عامي (١٩٦٠ — ١٩٦٠) على تسعة مواسم وتحت إشراف العالم الأثري رونالد ديفو. ولقد حاول عدد من الأثريين ربطها بمواقع توراتية عديدة إلا أن معظمهم قد اتفق على أنها موقع ترصة الكنعاني.

استطاع ديفو أن يميز عدداً من الطبقات السكنية تبدأ بالعصر الحجري الحديث المبكر ب (PPNB) وتنتهي بانتهاء العصر الحديدي حيث دمر على يد الآشوريين والآن سوف نلقي الضوء على فترة العصر البرونزي القديم حيث تعطينا الأبنية التي عثر عليها وتعود إلى هذه المرحلة فكرة وافية عن المباني التي سكنها الإنسان في هذا الموقع في ذلك الوقت.

نية مباني العصر البرونزي القديم فوق أنقاض بيوت العصر الحجري النحاسي وجاءت مربعة الشكل ومبنية من الطوب الطيني على أساسات من الحجارة وساعد في رفع سقوفها أعمدة خشبية كما أن لبعضها حنيات داخل الجدران. على أية حال فقد لوحظ هنا أن هذه المباني جاءت مبنية على ست مراحل. كما تم التعرف على مبني يخص مبعداً له ساحة مكشوفة ويتجه نحو الشرق وله مذبح يعود إلى المرحلة الأولى للبناء ودام استعماله حتى نهاية المرحلة الثالثة. تميز تخطيط الموقع بأن البيوت جاءت مبنية على شوارع منتظمة بلغ عرض أحدها المترين، وتم اكتشاف قنوات تحت هذه الشوارع وربما كانت تستعمل لتصريف المياه القذرة. جاءت المدينة في المرحلة الأولى محاطة بجدار مبني من الطوب على ثلاثة مداميك حجرية استخدمت كأساسات وبلغ طوله في الجهة الغربية (١٢٥ متر) وكان يتصل به أبراجاً. أما في الجهة الجنوبية من التل فلم يبن هذا الجدار وذلك لأن الموقع يطل هنا على وادي عين الدليب الذي كان يخدم كنظام دفاعي، بينما عثر على بقايا لهذا الجدار في الجهة الشمالية أيضاً.

خلال المرحلة الثالثة للبناء أعيد بناء هذه التحصينات وحصل أن قدم الجدار الأصلي في طرفه الجنوبي إلى الأمام بعض الشيء. وقد جاء الجدار المحيط بالمدينة مبني من الحجارة فقط وعلى أنقاض جدار المرحلة الثانية. كذلك أضيف في هذه المرحلة جدار تقوية من الحجارة في الجهة الغربية أمام الجدار المبني من الطوب، لهذا نرى أنه جاء عريضاً جداً. وفي أضيق وقت

لاحق (glacis) إلى هذه التحصينات. في نهاية المرحلة الخامسة للبناء نجد أن الجهة الغربية من الجدار قد تهدمت، ولكن وبعد ترميمه بشكل غير جيد نرى أن هنالك بيوت سكنية قد بنيت على أنقاضه. ومن أهم أجزاء هذا الجدار هو البوابة المحصنة والتي ترجع إلى المرحلة البنائية الأولى، حيث كان هنالك ممر يبلغ أقصى عرض له (٤م) وأقله (٥،٢ متر) بين برجين من اللبن الطيني مبنيين على أساسات من الحجارة. وحين العثور على هذه البوابة كانت تقف على ارتفاع (٤م). وبعد خراب هذه البوابة في فترة لاحقة فقد تم بناء بوابة جديدة على أنقاضها وهنا تم إغلاق المدخل حيث تم بناء بوابة جديدة ويوصل إلى هذه البوابة درج خارجي مبني من الطين المرصوص.

من هنا نرى كيف أن موقع تل الفارعة قد انتقل من مجرد مكان عادي للسكنى في مرحلة العصر الحجري النحاسي إلى مدينة محصنة في فترة العصر البرونزي القديم. لكن هذا التطور يبدو أنه لم يكن محلياً وإنما على يد جماعة جدد. بعد هجران الموقع في نهاية العصر البرونزي القديم تم إعادة سكناه في المرحلة الثانية من العصر البرونزي المتوسط.

باب الذراع:

يقع موقع باب الذراع إلى الشرق من منطقة البحر الميت حيث يرتفع حوالي ١٧٠ متر فوق سطح البحر. اكتشف هذا الموقع في عام ١٩٢٤ وذلك خلال عملية المسح الأثري الذي قامت به المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية تحت إشراف وليم أولبرايت والذي قام بأعمال حفر على نطاق ضيق في هذا الموقع. إلا أن نتائج هذه الحفريات لم تنشر إلا بعد مضي عشرين عاماً وذلك لعدم تمكن المنقب من إعطاء تاريخ دقيق للآثار المكتشفة أو على الأقل إرجاعها إلى مرحلة معينة ضمن حلقة التسلسل التاريخي (Albright 1944). حتى بع الانتهاء من العمل بزمن طويل لم يكن بالإمكان تأريخ المكتشفات من لقي وبنائيات إلا أنها نسبت إلى العصر البرونزي القديم بشكل عام دون ملاحظة تطور الأواني الفخارية من حيث صناعتها وأشكالها وأصنافها. ولم تكن مقارنتها مع مكتشفات معاصرة صحيحة تماماً.

بعد ما قام به أولبرايت بقي الموقع بعيداً عن الاهتمام حتى عام ١٩٦٥ حين لاحظ العاملون في الآثار في القدس أوان فخارية في حوزة تجار العاديات وبين أيدي السياح والمواطنين الذين أعادوا مصدرها إلى باب الذراع فأسراعت دائرة الآثار العامة بالتعاون مع المدرسة الأمريكية للأبحاث الشرقية في القدس للقيام بأعمال تنقيب أثري تحت إشراف الدكتور بول لابل لمدة ثلاثة مواسم (١٩٦٥ — ١٩٦٧). وبعد وفاة بول لابل المفاجئة عام ١٩٧٠ تم مواصلة أعمال الحفر تحت إشراف تلميذته والتر راست وتوماس شاوب.

كشفت الحفريات الأخيرة في هذا الموقع النقاب عن مدينة أثرية تعتبر من أهم المواقع الأثرية في الأردن، كما أسهمت الدراسات التي أجريت فيه في حل عدد من المشكلات خاصة في حلقة التسلسل التاريخي بالإضافة إلى إضافة معلومات جديدة عن حياة وتقاليد الناس الذين عاشوا في هذه المنطقة في فترة العصر البرونزي القديم. تركزت أعمال الحفر والاستقصاء الأثري في منطقتين مختلفتين هما المنطقة السكنية والمقبرة، وسنقدم أدناه وصفاً تفصيلياً لكل منهما:

أ — المنطقة السكنية:

بلغت مساحة هذه المنطقة ٤٠ دونماً وجاءت محاطة بنظامين دفاعيين وتعتبر دراستها بشكل دقيق مهمة جداً وذلك لأنها تعطينا فكرة كاملة عن كيفية إنشاء المدن الأولى في منطقة الأردن وفلسطين. ويذكر المنقبون أن أولى بوادر الاستيطان في هذا الموقع كان في حوالي ٣١٠٠ ق.م أي في الفترة المعروفة باسم العصر البرونزي القديم الأول "ب" (EBIb). كما لاحظ المكتشفون أنه وفي بداية العصر البرونزي القديم الثاني بني جدار من الطوب على أساسات من الحجارة وبلغ عرضه ٢,٥ متر، وله أربعة أبراج مربعة الشكل أبعاد البرج الواحد تبلغ ٤×٤ متر. وبعد تدمير المدينة في فترة العصر البرونزي القديم الثاني (EBII) تم في الفترة اللاحقة (EBIII) أي حوالي ٢٧٠٠ قبل الميلاد بناء جدار حجري حول المدينة يبلغ سمكه حوالي ١١ — ١٢ متراً، ويتصل به أبراجاً حيث ظل قائماً حتى نهاية هذه الفترة.

من الأبنية التي عثر عليها هنا كان بناء من اللبن الطيني في الجهة الشمالية الغربية داخل المدينة. كما تم الكشف عن غرفتين يحيط بهما جدار مبني من الطوب الطيني المربع الشكل (Rest and Schaud 1980). وعلى ما يبدو فإن هذه المنطقة الشمالية الغربية كانت جميعها مغطاة بمثل هذه البيوت.

خلال عمليات التنقيب في عام ١٩٧٥ في الجهة الجنوبية الغربية للموقع تم الكشف عن بناءين مستطليي الشكل بني أحدهما فوق الآخر وعلى نفس الشاكلة. وذكر المنقبون أن هذا النوع من الأبنية يخص المعابد، خاصة وأن الأماكن المقدسة في الأزمنة القديمة كان يعاد بناؤها واستعمالها. كذلك كشف النقاب في الساحة الغربية للبناء عن قاعدة حجر إهليلجية الشكل يبلغ قطرها حوالي ٣ متر وبجانبيها بعض الأدوات الصوانية التي استعملت لذبح الحيوانات مما جعل المنقبون يعتقدون أن هذه القاعدة تخص مذبحاً تقدم عليه القرابين (Rest and Schaud 1980). يعطينا هذا البناء فكرة واضحة عن المعابد الكنعانية الأولى والتي بقيت في الاستعمال لقرون طويلة.

ب - المقبرة:

تعتبر مقبرة باب الذراع من أغنى المقابر التي عرفها الشرق القديم حيث بلغت مساحتها ٥٠٠٠ × ١٠٠٠ متر ومن خلال الحفريات التي أجريت فيها قدر عدد القبور بحوالي ٢٠ ألف قبر قد تضم حوالي نصف مليون شخصا وحوالي ٣ ملايين إناء فخاريا. عدد الأدوات المعدنية واللقى الأخرى. استمر استعمال هذه المقبرة فترة زمنية تزيد عن الألف سنة دون انقطاع أي من أواخر الألف الرابع وحتى أواخر الألف الثالث قبل الميلاد حيث يبدأ تاريخ هذا الموقع مع موجات بشرية هاجرت إلى هذه المنطقة في هذا الوقت المبكر.

يلاحظ المتبع لآثار منطقة الأردن وفلسطين والتطور الحضاري فيها أن القادمين الجدد مع بزوغ العصر البرونزي القديم قد استخدموا طريقة جديدة لدفن موتاهم لم نعرفها من قبل وأصبحت مقابرهم ومحتوياتها مع ما يحيط بها من تقاليد دينية أهم مصدر لنا للتعرف على تاريخ فلسطين وأجزاء أخرى من شمالي سوريا في هذه المرحلة التاريخية. وقد أمكن تمييز أربعة أنواع من القبور هي المدافن ذات حفرة عمودية تتصل بغرف الدفن (Shaft Tombs) والمدافن على شكل قبة والمدافن المستطيلة الشكل (Charnel Houses) والمدافن التي بشكل حفرة عمودية مقطوعة في الصخر (Cairn Tombs).

بالنسبة للنوع الأول (Shaft Tombs) فهو عبارة عن حفرة عمودية مقطوعة في الصخر الطري بعمق يبلغ عدة أمتار ويختلف من قبر لآخر وتتسع في قسمها السفلي ويتفرع عنها تجويف أو أكثر تم فيها دفن الموتى. المدخل بيضوي الشكل تقريبا في قسم العلوي ينمط يأخذ شكل مستطيل بزوايا قوسية عند الأسفل. كذلك يوجد لبعض هذه القبور مداخل أسطوانية الشكل بزوايا منحنية. وقد أحكم سد المدخل بتراب عكسي من نفس الصخر الذي فيه القبر وفي حالات أخرى صنع للمدخل غطاء على شكل لوحة حجرية وضعت بدقة تحت الفوهة بقليل. أغلقت مداخل التجاويف الجانبية بواسطة ثلاثة أو أربعة أحجار غي منتظمة الشكل تتخللها حجارة صغيرة الحجم ووجد خلف كل مدخل درجة تؤدي إلى غرفة الدفن (ابراهيم ١٩٧٢).

عثر في داخل كل قبر على كومة عظام لعدة أشخاص ألقيت على أرضية من الرمل الناعم جاءت الكبيرة منها مرتبة بالتوازي والصغيرة دون انتظام. وأما الجماجم فكانت مرتبة بمحاذاة الجدران، وغالبا ما اكتشف بداخل غرف الدفن عدد من الأواني الفخارية بمعدل ٢٠ قطعة لكل غرفة بالإضافة إلى أواني من البازلت وبعض الدمى والصنادل والحصر والسلال والأعمدة الخشبية.

والنوع الثاني وهو المدافن على شكل قبة فقد تم الكشف عن عدد قليل منه ويعتبر هذا النوع بأنه يمثل حلقة وصل ما بين النوع الأول والنوع الثالث. ويعود تاريخه إلى بداية الألف الثالث قبل الميلاد. وجاء المدفن مبني من الطوب على شكل قبة يستدير شكله في الأسفل ويضيق في الأعلى وله مدخل ضيق بعض الشيء يحيط به بلاطتان حجريتان يعلوهما بلاطة ثالثة. أمام المدخل عادة توجد ساحة صغيرة لسوره ومرصوفة بالحجارة.

المدافن المستطيلة الشكل (Charnel Houses) تمثل النوع الثالث لمدافن باب الدراع حيث تكونت من غرفة مستطيلة الشكل جدرانها مبنية من اللبن الطيني على طبقة من الحجارة غير منتظمة الشكل. تختلف أبعاد غرف المدافن من واحد لآخر لكن الأطوال المتوسطة الحجم منها بلغت حوالي ١١,٥٠ × ٥,٥٠ متراً. جاء المدخل إلى هذه الغرف في الجهة الطويلة للغرفة وهذا يذكرنا في المعابد والبيوت الكنعانية، ويغطي جانبيه لوحتان حجريتان ولوحة أخرى أغلق بها. دخل إلى الغرفة التي غالباً ما كانت مرصوفة بالحصى ومسقوفة بألواح خشبية بواسطة درجة أو درجتين. ومن الملاحظ أنه قد أعيد استعمال هذه القبور أكثر من مرة في العصر البرونزي القدام الثاني والثالث.

استطاع المتقبن أن يتعرفوا على آثار حريق شمل عدداً من هذه المقابر ويبدو أن عملية الحرق هذه قد تمت من قبل مهاجرين للمنطقة في النصف الثاني من الألف الثالث قبل الميلاد وأعطى فحص المواد المحروقة تواريخاً ما بين ٢٤٠٠ — ٢٣٠٠ ± ٢٥٠ قبل الميلاد. تم العثور بداخل هذه القبور على أكوام من العظام جاء بعضها محروفاً وعلى أوان فخارية خاصة تلك التي تعرف باسم "أباريق أيدوس" وعلى أسلحة تضم فؤوساً وخناجر وعلى خرز كما تم العثور على بقايا قماش وخشب شمله الحريق.

النوع الرابع والأخير هو المعروف باسم (Cair Tombs) الذي جاء مشابهاً للنوع الأول في أنه محفور بشكل حفرة عمودية داخل الأرض حيث تنتهي هذه الحفرة بتجويف جانبي أو أكثر، لكنه يختلف عن هذا النوع في أن، كل تجويف ضم هيكلًا عظمياً واحداً فقط. وجاءت الحفرة الواحدة مليئة بالحجارة لتشكيل في النهاية كومة فوق سطح الأرض.

يختلف هذا النوع في موجوداته عن الأنواع السابقة، فقد عثر في داخل كل قبر على عدد من الأواني الفخارية المصنوعة بواسطة اليد عدا العنق الذي صنع بواسطة العجلة بالإضافة إلى بعض الأسلحة أحياناً. تنسب هذه الموجودات إلى الجماعات الذين جاؤوا إلى البلاد في أواخر الألف الثالث قبل الميلاد ودمروا المنطقة فيكون قد قضى مع قدومهم على حضارة العصر البرونزي القديم والتي استمرت مدة تزيد على الألف سنة.

لا يوجد لدينا حتى الآن أي دليل على أن موقع باب الدراع قد أعيدت سكناه في فترة العصر البرونزي المتوسط أو بعد ذلك ويبدو أنه هجر كلياً وربما يعود هذا إلى صعوبة تحصينه.

BIBLIOGRAPHY

- Abel, Le. P..M. **Geographie de la Palestine, Tome I. Geographie et Historique.** Paris: Librarie Lecoffre.
- Aharoni, Y. **The Land of the Bible.** A.F. Rainey, Translator. Philadelphia: The Wesminster Press.
- 1967
- Albright, W.W. **Recent Progress in the Late Prehistory of Palestine** BASOR 1931 42:14ff.
- 1932 **The Chalcolithic Age in Palestine.** BASOR 48:10ff.
- 1960 **The Archaeology of Palestine.** Harmondsworth: Penguin Books.
- 1970 **The Phenomenon of Israeli Archaeology, in Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, Essays in Honor of Nelson Glueck, 57-63.**
- 1971 **Some Remarks on the Archaeological Chronology of Palestine Before about 1500 B.C.** In: R.W. Erich, **Chronologies in old World Archaeology**, 2nd Edition. Chicago: The University Chicago Press 45-57.
- Albright, W.F. **The Archaeology of Palestine and the Bible, The American Schools of Oriental Research.** Cambridge: Massachusetts.
- 1974
- Amiran, R. **The Pottery of the Middle Bronze Age I in Palestine.** IEJ 10: 204-225.
- 1960
- 1969 **Ancient Pottery of the Holly Land, from its Beginnings in the Neolithic Period to the End of the Iron Age.** Jerusalem: Massada Press LTD.
- Anati, E. 1963 **Palestine before the Hebrews.** New York: Alfred A. Knopf, Inc.
- 1972 **Stone Age Sites Excavated in Israel** Archaeology 25:2 April:149-150.
- Arensburg, B. **New Upper Palaeolithic remains from Israel.** In Eretz Israel, 13 Stekelis Mem. Vol., ed. B. Arensburg, O. Bar- Yousef, Pp. 208-15. Jersualem: Isr Explor. Soc. 294.
- 1977
- Bar - Yousef, O. **'Uebidiya.** Pp. 1214 -1216 in **Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land**, Vol. IV. edits. M. Avi-Yonah and E. Stern. Jerusalem: Massada Press.
- 1978

- 1980 Prehistory of the Levant. *Ann. Rev. Anthropology*, 9:101-133.
- Bar-YOousef, O. Prehistoric Investigations in Gebel Maghara, Northern Sinai.
and J.L. Phillips *Qedem* 7.
1977
- Ben-Tor, Amon *Cylinder Seals of Third-Millennium Palestine, Bulletin of
1978 the American Schools of Oriental Research Supplement
Series 22: American Schools of Oriental Research.*
- Besancon, J., Tableaux de prehistoire Libanaise.
Copeland L. Hours, *Paleorient* 3:5-46.
F. 1975-1977
- Bliss, J. 1894 *A mound of Many cities of Tell el-Hesi Excavated.* London.
- Braidwood, J. The Early Village in Southestern Asia. *JNES* 32:34-39.
Robert 1973
- Callaway, J.A. Pottery from the Tombs at Ai (et-Tell) London: Colt
1964 Archaeological Institute, Monograph No.2, 1964.
- Cauvin, J. 1968 *Les Outillages Neolithiques de Byblos dt de Ltoral
Libanais. Fouilles de Byblos IV, edit de Maurice Dunand.
Paris*
1972 *Religions neolithiques de Syro- Palestine.* Paris.
Cauvin, J. 1974 *Troisieme Campagne de Fouilles a Tell Mureybet (Syrie) en
1973. Rapport Preliminaire. Annales Archeologiques Arabes
Syriennes* 24:47-51.
- Clack, G. 1980 *Mesolithic Prelude, the Palaeolithic-Neo-lithic Transition in
Old World Prehistory.* Edinburg: University Press.
- Clutton- Brock, J. Carnivore Remains from the Excavations of the Jericho Tell. Pp.
1969 337-345 in the *Domestication and Exploitation of Plants and
Animals*, P.J. Ucko and G.W. Dimbelby (eds.). London:
Duckworth.
- 1971 The Primary Food Animals of hte Jericho Tell, from hte Proto-
Neolithic to the Byxantine Period. *Levant* 3:41-55.
- De Contenson H. Decouvertes recentes dans le domiain du Neolightique en Syrie.
1966 *Syria* 43:153-154.
1977 *Agricultures sedentaires du 8e au 6e millenaire. Archeologia*
106:38-47.

- 1977 Agricultures sedentaires du 8e au 6e millenaire. *Archeologia* 106:38-47.
- Copeland, P.J and Inventory of Stone-age Sites in Lebanon. *Melanges de*
Wescombe, P.J. l'Universite Sanit- Joseph de Beyrouth XLI:23ff.
1965
1966 Invertoy of Stone- age Sites in Lebanon. *Melanges de*
l'Universite Sanit- Joseph de Beyrouth XLIT:1-175.
- de Vaux, R. 1966 Palestine During the Neolithic and Chalcolithic Periods. Pp. 3-43 in Vols. I and II fascile 47 of the *Cambridge Ancient History*. Cambridge, Cambridge University Press.
- de Vaux, R. 1970 On Right and Wrong uses of Archaeology, In, A. Sanders, *Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century*, Essays in Honor of Nelosn Glucke.
- 1978 *The Early History of Israel*. Philadelphia the Westmester Press- Translated by: Daved Smith.
- Donner, Herbert Pilgerfahrt ins Heilige Land, die altesten' Berichte christlicher
1979 Palastinaplguer 4-7 Jahrhundert.
- Dothan, M. 1957 Excavations at Meser, 1956, in *IEJ* 7, 217-228.
1975 'Afula. Pp. 32-36 in *Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy land* Vol. I. London: Oxford University Press.
- Echegaray, G. Excavations en la Terraza de "El-Khiam" (Jordania),
1964 Bibliotheca Prehistorica Hispana, Part I.
1966 Escavations en la Terraza de "El-Kaim" (Jordania).
Bibliotheca Prehistorica Hispana, Part II.
- Franken, H.J. 1970 The Other Side of Jordan, *ADAJ* 15, 5-10.
- Garrard, A.N. and A survey of Prehistoric sites in hte Azraq Basin, eastern Jordan.
Stainly Price N.P. *Paleorient* 3:109-127.
1977
- Garrod, D.A.E and *The Stone Age of Mount Carmel*. Oxford.
Bate, D.M. 1937

- Garstang, J. 1921 Excavation of Ashkalon, 192) -1, **PEFQ st 53**, 12-16, 73-75.
 1922 The Ex-avations at Askalon, **PEFQ st 54**, 112-119.
 1948 **The Story of Jericho.**
- Guy, P.L.O. 1938 **The Story of Jericho**
- Harding, L. 1953 An Early Bronze Age cave st El-Husn . **PEFA VI**: 1-3
- Helbaeck, H. 1966 Pre- Pottery Neolithic Farming of Beidha (A Preliminary Report). **Palestine Exploration Quarterly** : 61 - 66
- Hennessy, B. 1967 **The Foreign Relations of Palentine during the early Bronze Age** . London : Colt Archaeological Institute Publication.
- 1969 Preliminary Report of the First Season of Excavations at Teleilat Ghassul. **Levant** 1:1-25.
- Hestrin, R. and A Hord of Tolls and Weapons from Kfar Monash. **IEJ** 13:
 Tadmor, M. 1963 265ff.
- Hopf, M. 1969 Plant Remains and Early Farming in Jericho. Pp. 355-359 in the **Domestication and Exploitation of Plants and Animals**, eds., P.J. Ucko and G.W. Dimbellby. London: Duckworth.
- Horowitz, A. ed **The Quaternary of Israel**. New- York: Academic. 39ff.
 1979
- Hours, Francis, Saayidet et le Neolithique pre-poterie au liban. **Melanges de l**
 S.J. 1969 **Universite Saint-Joseph de Beyrouth** 45: 31-39.
- Ibrahim, M. 1972 Archaeological Excavations at Sahab, 1972 **ADAJ XVII**: 23-37.
- 1974 Second Season of Excavations at Sahab, 1973. **ADAJ**19.
 1975 Third Seasons of Excavations at Sahab, 1974 **ADAJ** 20
- Jilined, A.J. et al New excavations at the Tabun Cave, Mount Carmel, Israel
 1973 1967-1972;a preliminary Report. **Paleorient** 1:151-183.
- Kafafi, Z. 1982 **The Neolithic of Jordan, (East Bank)**. Un- published ph.D. Thesis submitted to the institut fur Vorderasiatische

Altertumskunde et the Freie Universitat Berlin.

- Kaplan, J. 1958 a Excavation at Teluliot Batashi in the Vale of Sorek. *Eretz Israel* 5: 9ff. (English Summary Pp. 83-84).
 1966 Kefar Gil'adi. *Israel Exploration Journal* 16:27ff.
- Kenyon, K. 1952 Excavation at Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 84:62ff.
 1953 Excavation at Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 85:81ff.
- Kenyon, K. 1954 Excavation at Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 86: 45-64.
 1955 Excavation at Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 87:1 1/48ff.
 1955a A Crescentic Axehead from Jericho and a Group of Weapons from Tell el-Hesi. *Eleventh Annual Report of the Institute of Archaeology, University of London*: Pp. 1ff.
 1956 Excavations at Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 88:67-83.
 1956a Jericho and its setting in Near Eastern History. *Antiquity* XXX: 184-197.
 1956b Tombs of the Intermediate Early Bronze-Middle Bronze Age at Tell 'Ajjul. *ADAJ* 3; 41-55.
 1957 Excavations at Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 89:101-107.
 1957a Digging up Jericho. London.
 1957b Reply to professor Braidwood. *Antiquity* XXXI: 82ff
 1959 Earliest Jericho. *Antiquity* XXXIII:5-19.
 1959b The Neolithic Pottery of Palestine. *Annual of the American School of Oriental Research*: 15-22.
- Kenyon, K. 1959 c Some Observations on the Beginning of the Settlement in the Near East. *Journal of the Royal Anthropological Institute* 89: 35ff.
 1960a Excavations at Jericho, 1957-1958. *Palestine Exploration Quarterly* 92:88-122.
 1960b Archaeology in the Holy Land. London.
 1960c Jericho and the Origins of Agriculture. *Advancement of Science* (July).
 1960d Excavation at Jericho, Vol. I.
 1969 The Origin of the Neolithic. *Advancement of Science*: 144-

- 160.
- 1981 **Excavations at Jericho, Vol. III. The Architecture and Stratigraphy of the Tell, Text, Edit. Thomas A. Holland. London: Published by the British School of Archaeology in Jerusalem.**
- Kirkbride, A.S. and L. Harding 1974 **Hama. Palestine Exploration Quarterly 79: 7-27.**
- Kirkbride, D.V.W. 1956 **A Neolithic Site at Wadi el-Yabis. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 3:56-60.**
- 1958 **Notes on a Survey of Pre-Roman Sites near Jerahs. Bulletin of the Institute of Archaeology London I: 9ff.**
- Kirkbride, D. 1959 **Short Note on Some Hitherto Unrecorded Prehistoric Sites in Transjordan. Palestine Explorations Quarterly 91: 52-54.**
- 1960 a **A Short Account of the Excavations at Petra in 1955-56. Annual of the Department of Antiquities of Jordan: 117-122.**
- 1960b **The Excavation of a Neolithic Village at Seyl Aqlat, Beidha near Petra. Palestine Exploration Quarterly 92: 136-145.**
- 1960 c **Seyl Aqlat, Beidha pres de Petra. Revue/Biblique 67: 235-238.**
- 1960d **A Brief Report on the Pre-Pottery Flint Cultures of Jericho. Palestine Exploration Quarterly 92: 114-119.**
- 1960e **Khirbet Rizqueh, Revue Biblique 67:232-235.**
- 1960f **'Ain Abu Nkheileh. Revue Biblique 67:231-232.**
- 1961 **Ten Thousand Years of Man's Activity Around Petra. Illustrated London News: September 16: 448-451.**
- 1962a **Excavation of the Pre-Pottery Neolithic Village at Seyl Aqlat, Beidha. Annual of the Department of Antiquities of Jordan 6-7: 7-12.**
- 1962b **Seyl Aqlat, Beidha. Revue Biblique 69: 88ff.**
- 1963 **Seyl Aqlat, a Pre-Pottery Neolithic Village Near Petra. Illustrated London News, January 19: 82-84.**
- Kirkbride, D. 1964 **Seyl Aqlat, Beidha. Revue Biblique 71: 246- 250.**
- 1966 **Five Seasons at the Pre-Pottery Neolithic Village of Beidha in Jordan. Palestine Exploration Quarterly 98:8-72.**
- 1966a **Beidha, An Early Neolithic Village Jordan. Archaeology 19: 199-207.**

- 1966b Beidha, 1965 Campaign. *Archaeology* 19: 268-272.
- 1967a Beidha 1965: An interim Report. *Palestine Exploration Quarterly* 99: 5-13.
- 1967b Beidha: An Early Neolithic Village in Jordan. Pp. 9-18 in *Archaeological Discoveries in the Holy Land*, Compiled by The Archaeological Institute of America. New York: Thomas Y. Crowell Company.
- 1968a Beidha 1967: An Interim Report. *Palestine Exploration Quarterly* 100: 90-96.
- 1968b Beidha, :Early Neolithic Village, Life South of the Dead Sea. *Antiquity* XLII: 263-274.
- 1969a Ancient Arabian Ancestor Idols. *Archaeology* 22: 116-121. Figs.; Pp. 188-195.
- 1969b Early Byblos and The Beqa'a. *Melanges de L'Universite Saint - Joseph de Bey- routh* 45: 46-59.
- Kirkbride, D.
1971 A commentary on the pottery Neolithic of Palestine. *Harvard Theological Revue* 64: 281-289. Cambridge: Harvard University Press.
- 1978 The Neolithic in Wadi Rumm: 'Ain Abu Nekheileh. In *Archaeology in the Levant, Essay for Kathleen Kenyon*, edit. by Roger Moorey and Peter Parr. Warminster: Aris & Phillips Ltd.
- Koeppel, R. 1940 *Teleilat Ghassul II, Compt rendu des fouilles de l Institut Biblique Pontifical 1932-1936*. Rome
- Lapp, P. 1960 *The Dahr Mirzabaheh*.
1970 Palestine in the Early Bronze Age. In *the Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century*.
- Lechvallier, M.
1970a Abu Gosh. *IEJ* 20: 222-223.
1971 Abu Gosh. *IEJ* 21: 226-227.
1971a Abu Gosh. *RB* 78: 406-407.
1972 Abu Gosh. *RB* 79: 399-400.
- Lechevallier, M.
and J. Perrot 1973 Eynan and Beisamoun. *Israel Exploration Journal* 23: 107-108.
- Lechevallier, M. and
G. Dollfus 1973a *Nouveaux Sites du Vie Millenaire en Haute- Galilee*. *Eretz Israel* II: 9-22.
Lechevallier, M. et
Abu Gosh et Beisamoun, *Deux Gisments du VIIe Millenaire*

- al. 1978 **avant L'Era Dhretienne en Israel.** Paris: Moeories et Travaux de centre de Recherches Pre-historique.
- Legge, A. J. 1975 **The Fauna of Tell abu Hureyra: Preliminary Analysis.** Pp. 74-75 in A. M. T. M. Moore. **The Excavation of Tell Abu Hureyra in Syria, A Preliminary Report. Proceeding of the Prehistoric Society** 41: 50-57.
- Leroi-Gourhan, A. 1974 **Etudes Palynologique des derniers 1100 ans en Syrie Wemi-desertique.** **Paleproent** 2:443.
- Macalister, R.A. S. 1972 **The Excavations of Gezer, I-III.** London.
- Mallon, A.: R. 1973 **Teleilat el-Ghassul I. Compte rendu des fouilles de L'institut Koppel and R. Biblique Pontifical 1929-1932.** Rome.
- Neuville 1934
- Mailer, B. and M. 1952 **The Excavations at Beth Yerah (Khirbet Kerak).** **IEJ** 2: 165ff, 218ff.
- Marks, A. E. 1976 **Prehistory and Paleoenvirontments in the Central Negev, Israel. Vol. I. The Avdat/Aqev Area.** Dallas: SMU Press.
- 1977 **Prehistory and Paleoenvirontments in the Central Negev, Israel. Vol. II: The Avdat/Aqev Area Part 2 and Har Harif Area.** Dallas: SMU Press. 356ff.
- Mellaart, J. 1956 **The Neolithic Site of Ghrubba. Annual of The Department of Antiquities of Jordan** 3: 24-33
- 1975 **The Neolithic of the Near East, With 164 illustrations.** London: Thomes and Hudson.
- Moore, A.M.T. 1973 **The Late Neolithic in Palestine.** **Levant** V: 36-69.
- 1978 **The Neolithic of the Levant, I and II.** Unpublished Ph.D. Thesis Submitted for the Degree of Doctor of Philosophy. Oxford University, University College.
- Moorey, Roger 1981 **Excavation in Palestine.** Guildford Letter worth Press.
- 1961 **National Geographic Magazine, Vol. 120; No. 4 (1961), Pp. 546-592.**
- Neuville, R. 1934 **Le Prehistorique de Palestine.** **Revue Biblique** XLIII: 250-256.
- North, R. 1961 **Ghassul 1960 Excavation Report.** **Biblica** 14, Rome.
- Noth, Mrtin 1971 **Aufsätze zur Biblischen Landes-und Altertumskunde, Band I (Neukirchener Verlag)**
- 1971 **Grundsatzliches zur geschichtlichen Deutung archaologischer Befunde auf dem Boden Palastineas, in Aufsätze sur**

Biblischen landes-und Altertums- Kunde 1, 3-16.

- Noy, T.: A.T. Recent Excavation at Nahal Oren, Israel. **Proceeding of the prehistoric Society: 75-100**
 Legge, and E.S. Higgs 1973
- Orthmann, W. Burial Customs of the 3rd Millennium B.C in the Euphrates Vall'y-Le Moyen Euphrate Zone de contacts ed d'echanges, Actes du Colloque de Strasloourg 10-12 mars 1977 edit. J.CI. Margueron.
 1977
- Ortner, O.J. 1981 Apreliminary Report on the Human Remains from the Bab edh-Dhra cemetery. In: The Southeastern Dead Sea Plain Expedition. An Inerin Re'prt of the 1977 Season. **AASOR 46:1-5.**
- Ory, J. 1946 A Chalcolithic Necropolis at benei Beraq. **QDAP 12, 43-57.**
- Payne, Joan The Terminology at the Aceramic Neolithic Period in the Levant in Congress Ixe, Colleque III? Deuxieme Colleque sur la Terminologie de la Prehistoire du Proche-Orient "Terminology of Prehistory of the Near East". Direction Fred Wendrof. Nice: Parc Valrose de l ' Universite de Nice. Pp. 131 - 137 in Union International des Science Prehistoriques et Protohistoriques
 Crowfoot 1976
- Perrot, J. 1952a Le Neolithique d' Abu-Gohs: Syria 29: 119ff.
 1952b Tetes de fleches du Natoufien et du tahounien (Palestine). **Bull. Soc. Preh. fr. 49: 443ff.**
- Perrot, J. 1955 The Excavation at Tell Abu- Mater. **Israel Exploration Journal 10: 14-40.**
 1960 Excavations at 'Eynan ('Ein Mattaha). **Israel Exploration Journal 10; 14-22.**
 1961 Une Tombe aossuaires du Ive millenaire a' Azpr Pres de Tel Avev, **Atiqot 3, 1-83.**
 1962a Eynan ('Ain Mallaha). **Revue Biblique 69: 384ff.**
 1962b Palestine-Syria-Cilica. Pp. 147ff. in R.J Braidwood and G.R. Wiley, **Courses Toward Urban Life.** Chicago.
 1963a Munhata. **Revue Biblique 70:560ff.**
 1963b Hazorea, Tell Turmus, ben Shemen. **Revue Biblique 70: 559ff.**
 1963c Review of R. North, Ghassul 1960 Ecavation Report. **Orientalia 32: 104ff.**

- 1963d Horvat Minha (munhata). *Israel Exploration Journal* 13: 138-140.
 1964a Horvat Minha (munhata) et Hahal Tavor (Ouadi Bira). *Israel Exploration Journal* 14:278.
- 1965 Munhata. *Israel Exploration Journal* 15:
 1965b Munhata. *Revue biblique* 72: 539-543.
- Perrot, J. 1966 Beisamoun. *Israel Exploration Journal* 16: 271-272.
 1966a La Troisieme Campagne de Fouilles a Munhata 1964. *Syria XLIII*: 49-63
 1966b Munhata (kh. Mihna). *Israel Exploration Journal* 16: 269-271.
 1966c Le Gisement Natoufien de Mallaha (Eynan) *Israel. L'Anthropologie* 70:5-6, 437-484.
- 1967 La Palestine Prehistoire (on Munhata). *Bible Terre Sainte* 93: 4-16.
 1967a *Bible Terra Sainte* 93:4-17.
 1967b Abu Gosh. *Israel Exploration Journal* 17: 266-267.
 1968 La Prehistoire Palestinienne. Supplement au Dictionnaire de la Bible. Paris.
- 1968a Munhata. *Revue Biblique* 75: 263-264.
 1969 Mallaha: les Debuts de la Vie Sedentaire en Palestine II y a 10,000 ans. *Atomes*
 1969a Abu Gosh. *Revue Biblique* 76: 421-423.
 1969b Le Neolithique du Liban et les recentes decouvertes dans la haute et Moyenne. Vallee du Jordain. *Melanges de l'Universite Saint-Joseph de Neyrouth XLV*: 133-145.
- Perrot, J. 1975 Abu Gosh. *Encyclopedia of Archaeological Excavation in the Holy Land* I-3-5.
 1979 *Syria-Palestine I, from the Origins to the Bronze Age*. Geneva: Nagel Publishers.
- Perrot, J. and N. Horvat Minah (munhatta). *Israel Exploration Journal* 14:108.
 Tsori 1964a Munhata. *Revue Biblique* 71: 391-392.
 1964b Minha, Horvat. *Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land III*. Jerusalem: Massada Press.
 1977
- Petrie, F. 1928 Gerar, London.
 1930 Beth- Pelet I. London.

- Phythian- Adams, W.J. 1923 Reports on the Stratification of Askhalon, PEFQ st 55, 60-84.
- Prausnitz, M.W. 1955 Alumoth (Kh. Sheikh Ali) *Israel Exploration Journal* 5: 271.
- 1957 Alumoth. *Israel Exploration Journal* 7: 263-264.
- 1959 The First Agriculture Settlements in the Galilee. *Israel Exploration Journal* 9: 166ff.
- 1960a Tell 'Ele (Kh. Sheikh 'Ale). *Israel Exploration Journal* 10: 119ff.
- Prausnitz, M.W. 1960b Tell 'Aly (Kh. Sheikh 'Ale). *Revue Biblique* 67: 389ff.
- 1969 The Excavations at Kabri. *Eretz Israel* 9: 137 "English Summary".
- 1970 Excavations in the Site Hertzeliyah, 1969 Mitekufat Haeven 10:11-16 (Hebrew); 16. English Summary).
- 1970a A Neolithic Hele-mouth Jar. *Atiqot* 6:9.
- 1970b From Hunter to Farmer and Trader. *Studies in the Lithic Industries of Israel and Adjacent Countries (From the Mesolithic to the Chalcolithic Age)*. Jerusalem: Sivan Press LTD.
- 1975 'Ali Tel. Pp. 61-65 in Vol. I of *Encyclopedia of Archaeological Excavations in Holy Land*. ed. M. Avi-Yonah London: Oxford University Press.
- Pritchard, J. 1962 *Gibeon Where the Sun Stood Still*. Princeton.
- 1963 *The Bronze Age Cemetery at Gibeon*.
- 1969 *Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament*, 3rd Edition with Supplement. Princeton, Princeton University Press.
- Reicke, B. and L. Rost 1966 *Biblich- Historisches Handwörterbuch, Landeskunde, Geschichte, Religion, Kultur, Literatur*. Göttingen: Vandenhoeck & Ruprecht.
- Reisner, G.A. 1924 *Harvard Excavations at Samaria 1908-9*.
- Riis, P.J. and Henrik Thrane 1974 *Sukas III, the Neolithic Periods*. København: Publications of Carlsberg Expedition to Phoenicia 3.
- Rothenberg, Beno 1972 *Timna, Valley of the Biblical Copper Mines*.

- Schaeffer, C.F.A. 1931 Les fouilles de minet el-Beidha et de Ras Shamra, deuxieme campagne (printemps 1930) Syria 12: 1-14.
1933 Syria 14, 109 ff.
1934 Syria 15, 123.
- Singh, P. 1976 Neolithic Cultures of Western Asia. London: Seminar Press.
- Skinner, J. 1965 The Flake Industries of Southwest Asia: A Typological Study. Ph. D. Thesis. Columbia University, Ny. Ann. Arbor: University Microfilms : Pp. 283ff.
- Smith, G.A. 1896 The Historical Geography of the Holy Land, Especially in Relation to the History of Israel, and of the Early Church , with six Maps, London: Hodder and Stoughton.
- Smith, R. 1962 Excavations in the Cemetery at Khirbet Kufin, Palestine. London.
- Stekelis, M. 1950-1951 A New Neolithic Industry: The Yarmukian of Palestine. Israel Exploration Journal: 1-20.
- Stekelis, M. and Yisraeli 1963 Excavations at Nahal Oren, Preliminary Report. Israel Exploration Journal 13: 1-12.
- Stekelis, M. 1972 The Yarmukian Culture, Jerusalem: Magness Press.
- Sukenik, E. 1937 A Chalcolithic Necropolis at Hederah, in JPOS 17.
- Tufnell, O. 1958 Lachish IV, The Bronze Age. Oxford.
- Van Liere, J. W. and H. De Contenson 1963 A Note on Five Early Neolithic Sites in Inland Syria. Annales Archaeologiques de Syria 13: 174-209.
- Van Loon, M. 1966 First Results of the 1965 Excavations at Mureybet Near Meskene. Annels Archeologiques Arabes Syriennes 16.2: 211-217.
1966a Mureybat: An Early Village in Inland Syria. Archaeology 19: 215-216.
1968 The Oriental Excavations at Mureybet, Syria, Preliminary Report on the 1965 Campaign Part 1. Journal of Near Eastern

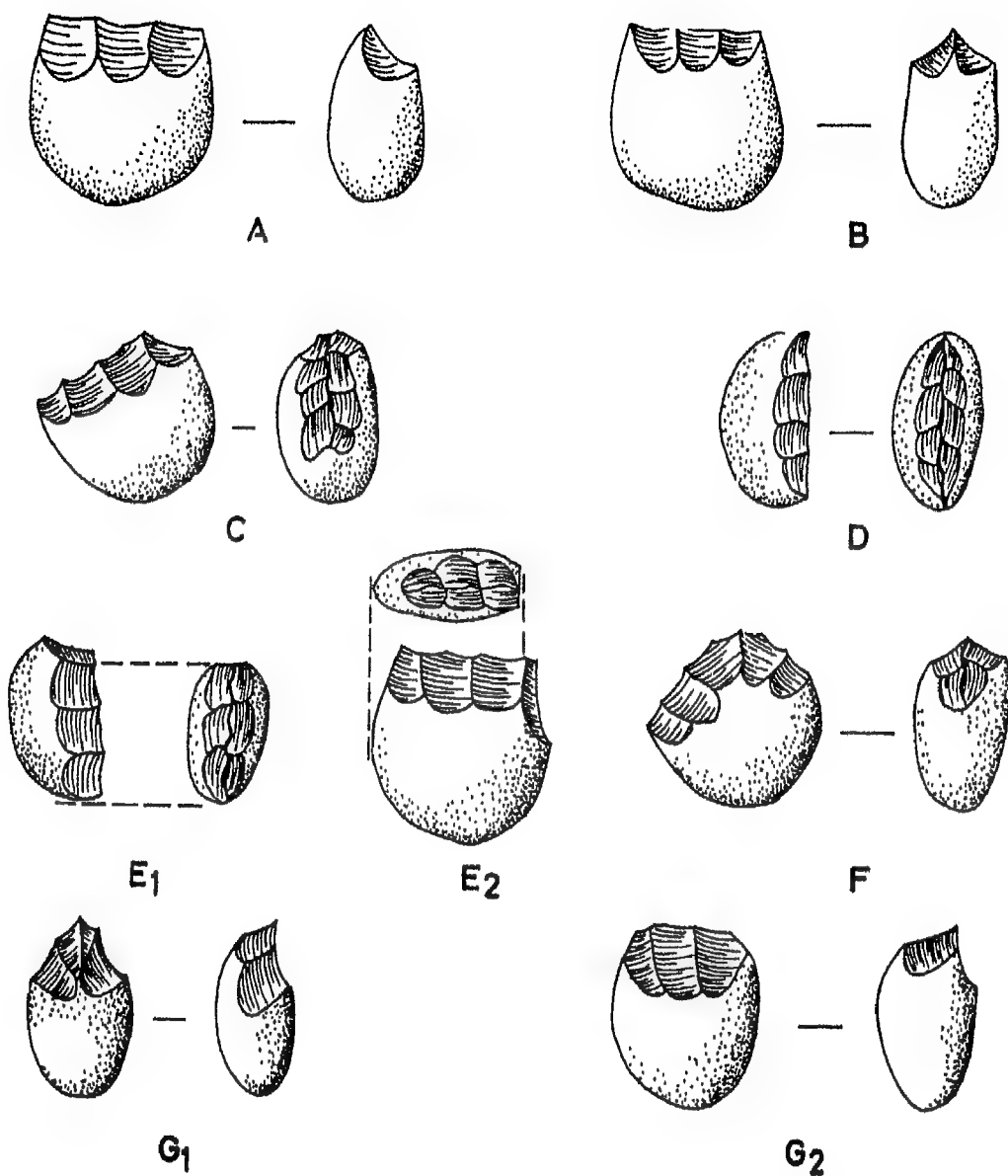
- Studies 27: 265-282.**
- Van Zeist W. 1970 The Oriental Institute Excavations at Mureybat. Syria: Preliminary Report on the 1965 Campaign. Part III; The Palesbotary. *JNES* 29: 167-176.
- Villiers, L.E. 1980 First Report on Palaeolithic Sampling at Abu el-Khas. *ADAJ* XXIV.
1982 The Lower Palaeolithic Site of Abu el-Khas Pp. 17-27, in Pella in Jordan Eds. A. Monicoll, R. Smith, and B. Hennessy.
- Waechter, J. d'A and Seton Williams V.M. 1938 The Excavations at Wadi Dhobai, 1937-1938 and the Dhobian Industry. *The Journal of the palestine Oriental Society* 18:172ff.
- Wright, G.E. 1937 **The Pottery of Palestine from the Earliest Times to the End of the Early Bronze Age** New Haven.
1951 An Important Correlation Between The Palestinian and Syrian Chalcolithic *Bulletin of the American Schools of Oriental Research* 122: 52ff.
1961 The Archeology of Palestine Pp. 73-113 in the *Bible and the Ancient Near East. Essay in Honor of W.F. Albright.* Gardin City Conblegay.
1970 The Phenmenon of American Archaeology in The Near East, in *Near Eastern Archaeology in the Twentieth Century, Essay in Honor of Nelson Glueck*, 3.56.
- Yeiven, S. 1975 El-'Areini, Tel; Esh-Sheikh Ahmed (Tel 'Erani). Pp. 89-97 in *Encyclopedia of Archaeological Excavations in the Holy Land.* London: Oxford University Press.
- Zayadine, F. 1978 An EB-MB Biloabte Tomb, Pp. 59-66 on *Archaeology in the Levant.*
- Zeuner, F. 1955 The Goats of Early Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 87-70ff.
1958 Dog and Cat in the Neolithic of Jericho. *Palestine Exploration Quarterly* 90:52ff.

المراجع العربية:

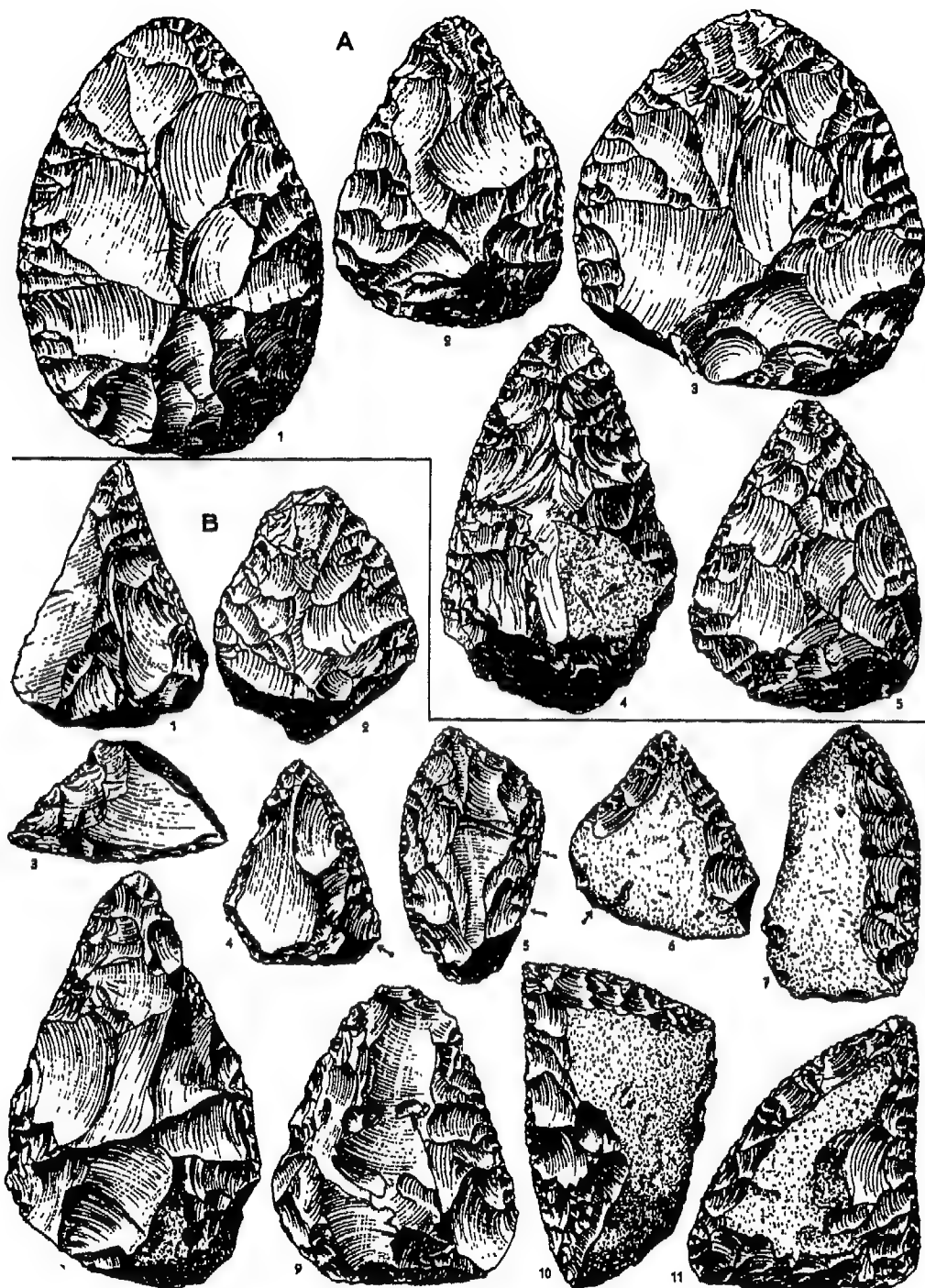
- ١- ابن حوقل: صورة الأرض - ١٩٦٧.
- ٢- ابن الفقيه: كتاب البلدان.
- ٣- الإمام البغدادي: معجم البلدان، الجزء الرابع.
- ٤- البلاذري: فتوح البلدان، ١٩٧٨.
- ٥- الأصبهاني: مسالك الممالك، ١٩٦٧.
- ٦- المقدسي: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ١٩٦٧.



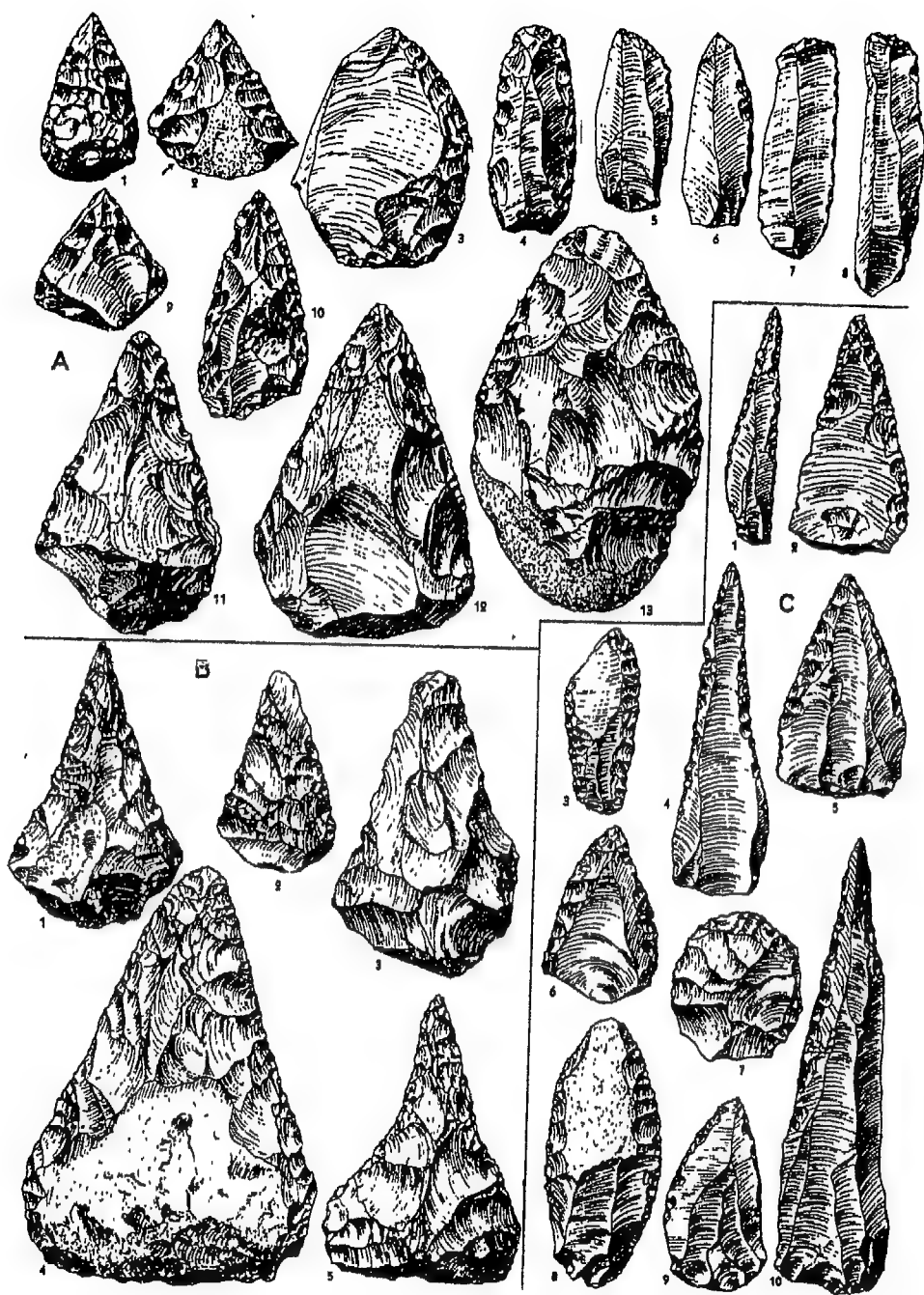
فلسطين



ادوات ابيفيلية من تل العبيدية وتعود
للمرحلة الأولى من العصر الحجري القديم



مغارة الطابون الطبقات F و Ea
(من D. Garrod/D. Bate)



Scale 1:2

الطابون :

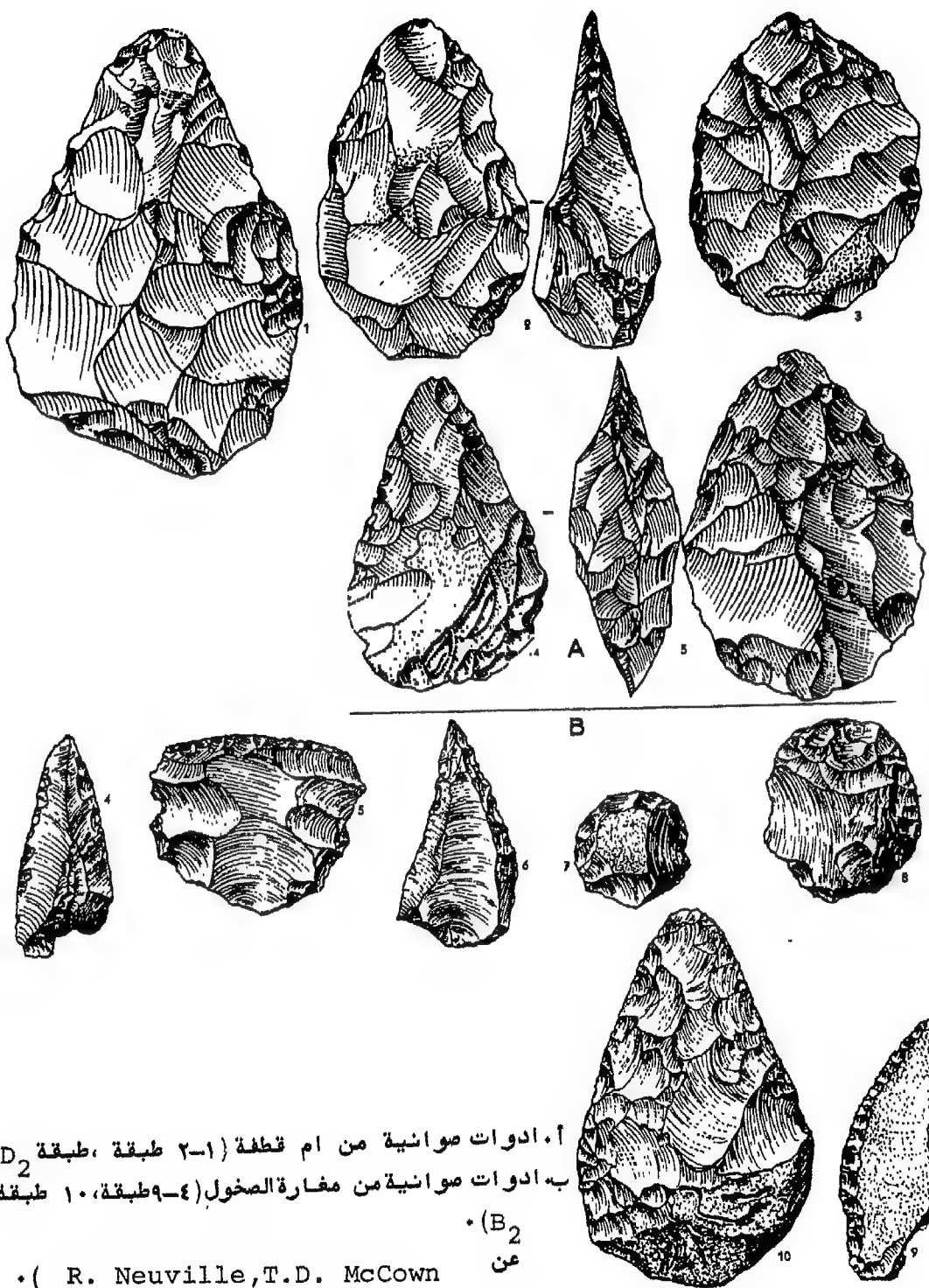
Eb أ. الطبقة

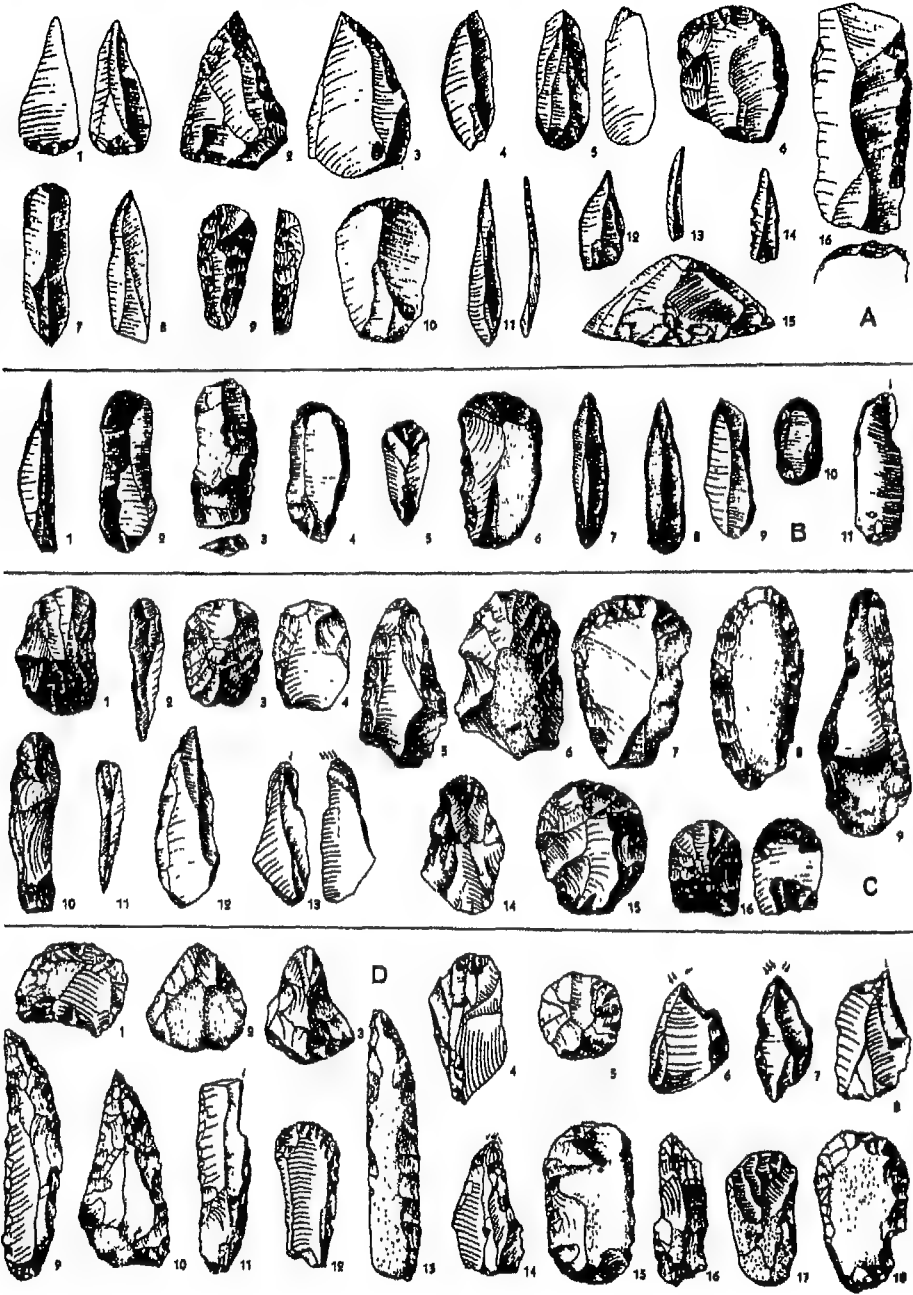
Ec ب. الطبقة

C₁ ج. الطبقة (٩٠٧٠٥٠٤٠٢٠١)

B الطبقة (١٠٠٨٠٦٠٣)

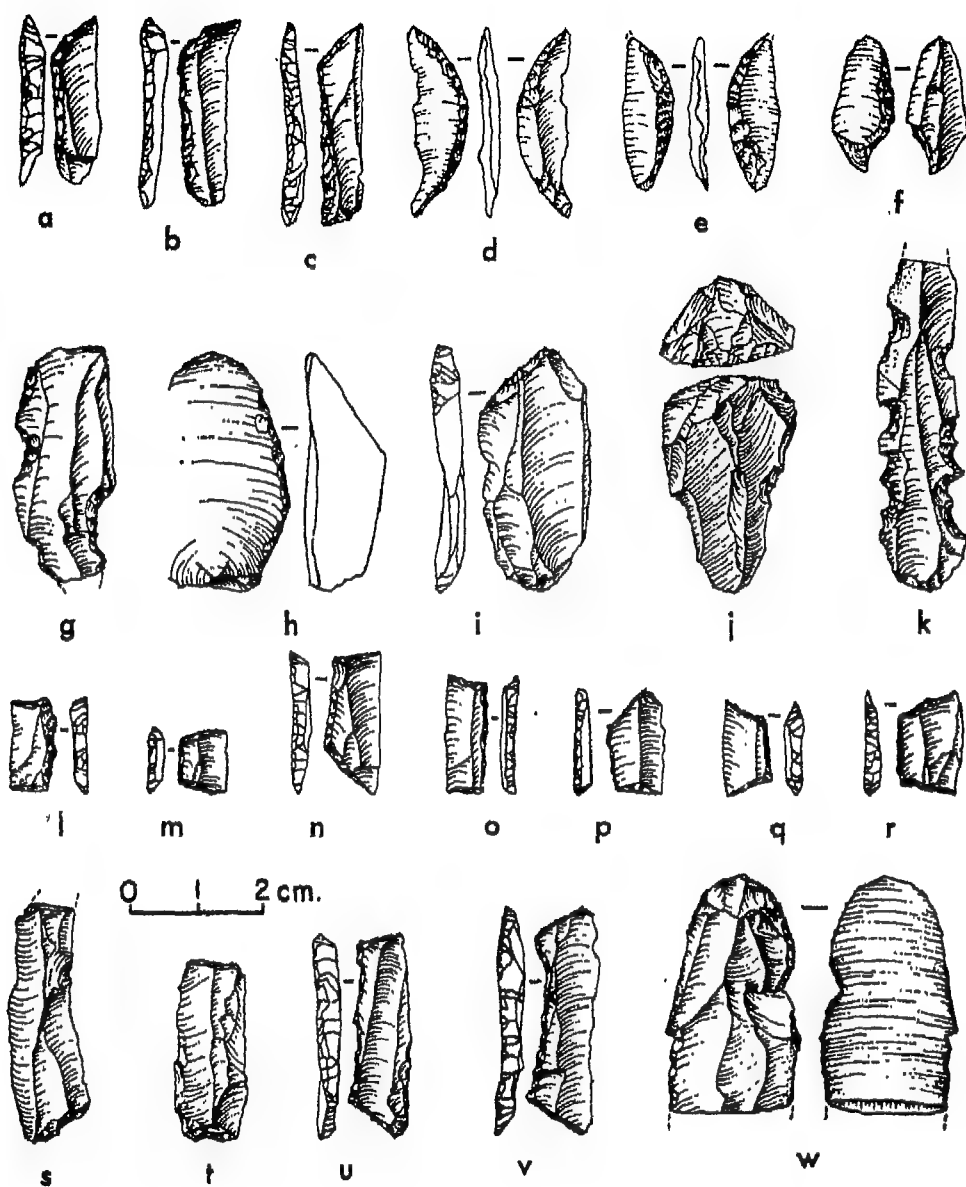
(D. Garrod/ D. Bate)



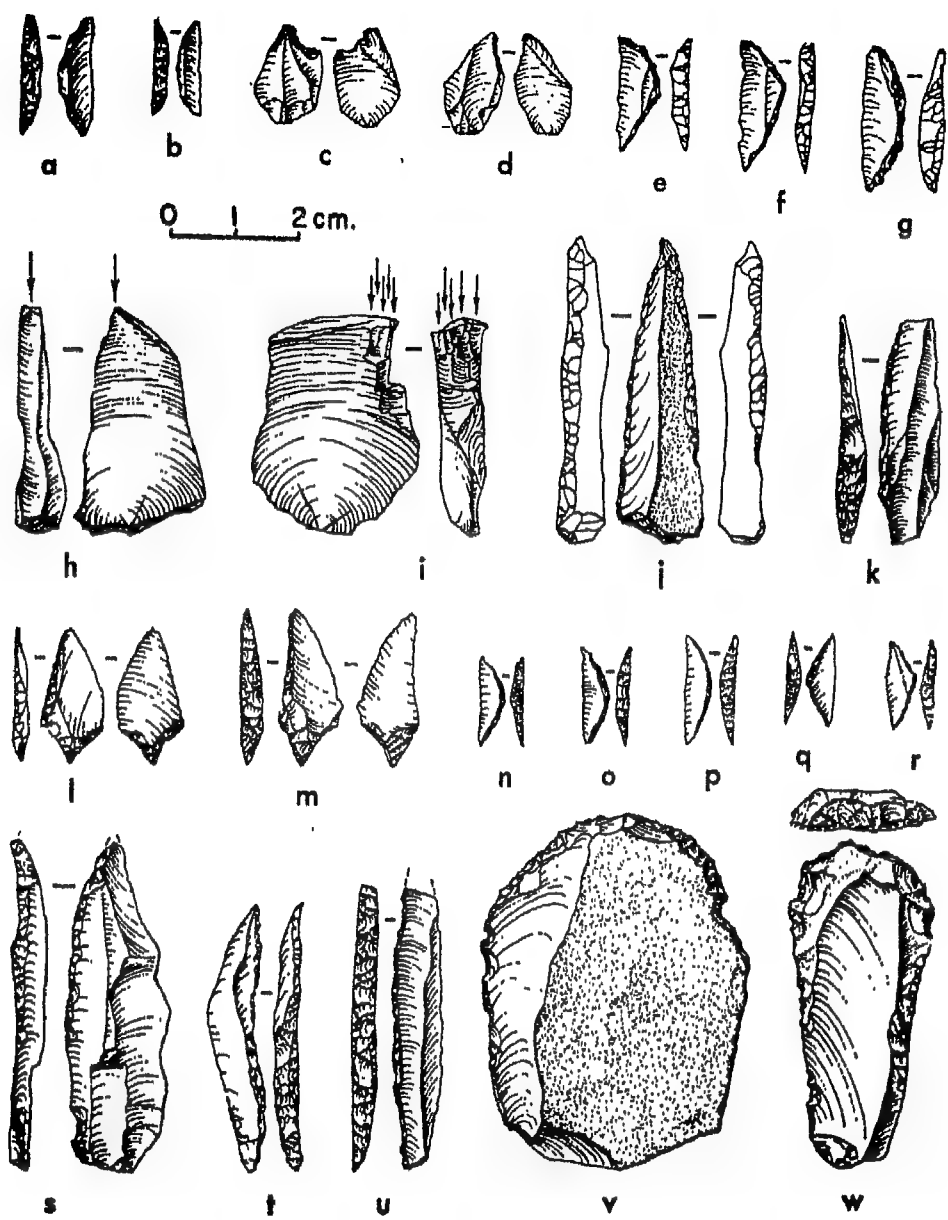


- أ. أدوات من كهف الأميرة .
- ب. أدوات من عرق الأحمر .
- ج. أدوات من مغارة الواد الطبقة E .
- د. أدوات من مغارة الواد الطبقة F .

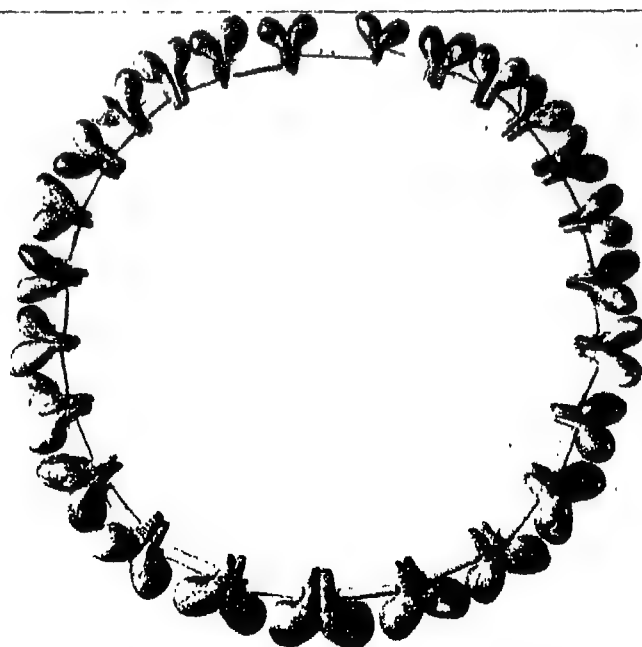
(D. Garrod; F.C. Howell)



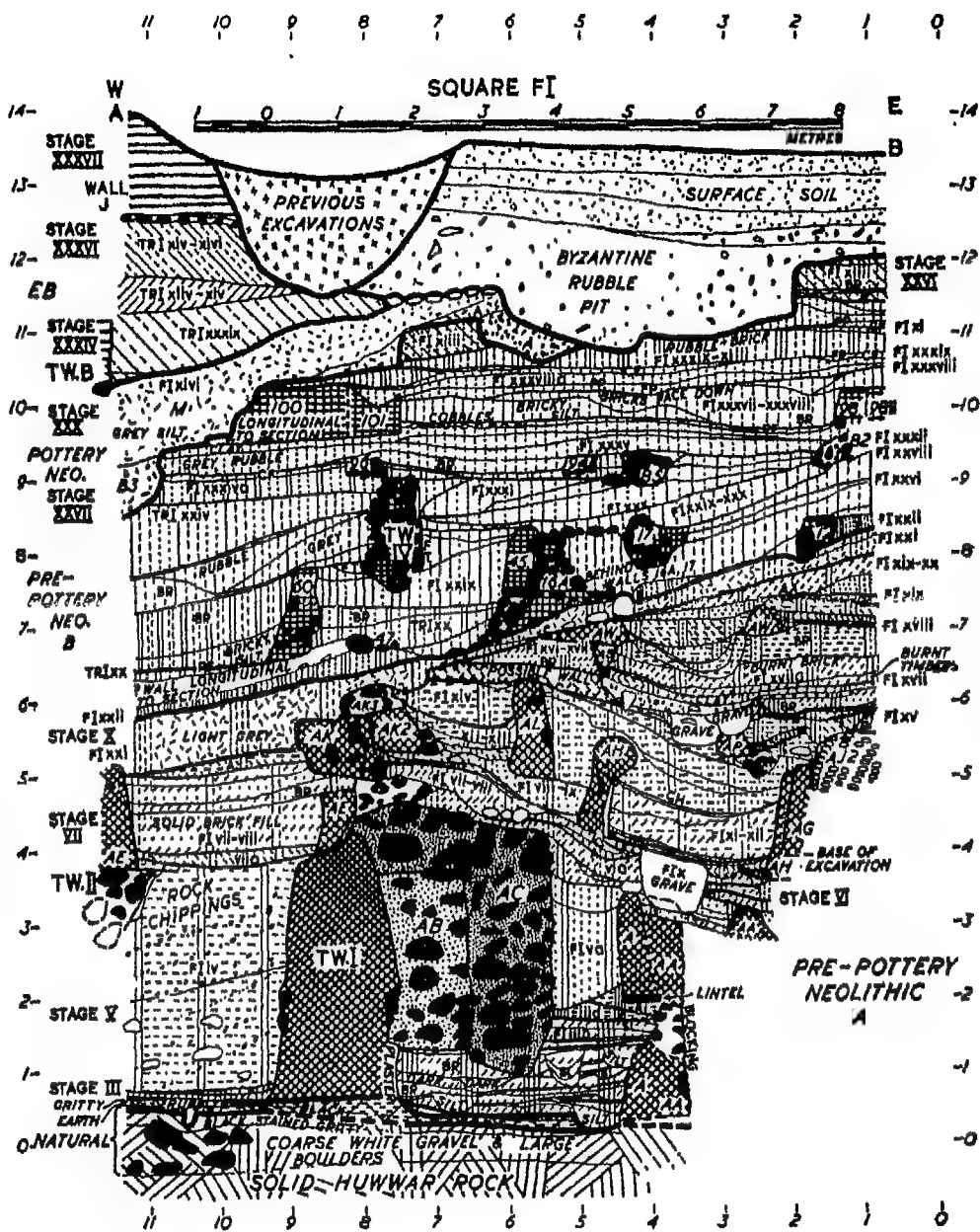
ادوات صوانية تعود لمرحلة الكبارا (المرحلة الرابعة
للعصر الحجري القديم) من منطقة النقب في فلسطين
(مأخوذة من Marks 1977)



أدوات صوانية تعود للفترة الناطونية من منطقة النقب
(من Marks 1977)



أدوات زينة وجمجمة مزخرفة بالاصداف من مغارة الواد
في فلسطين وتعود للفترة الناطوفية (Kenyon 1960b)

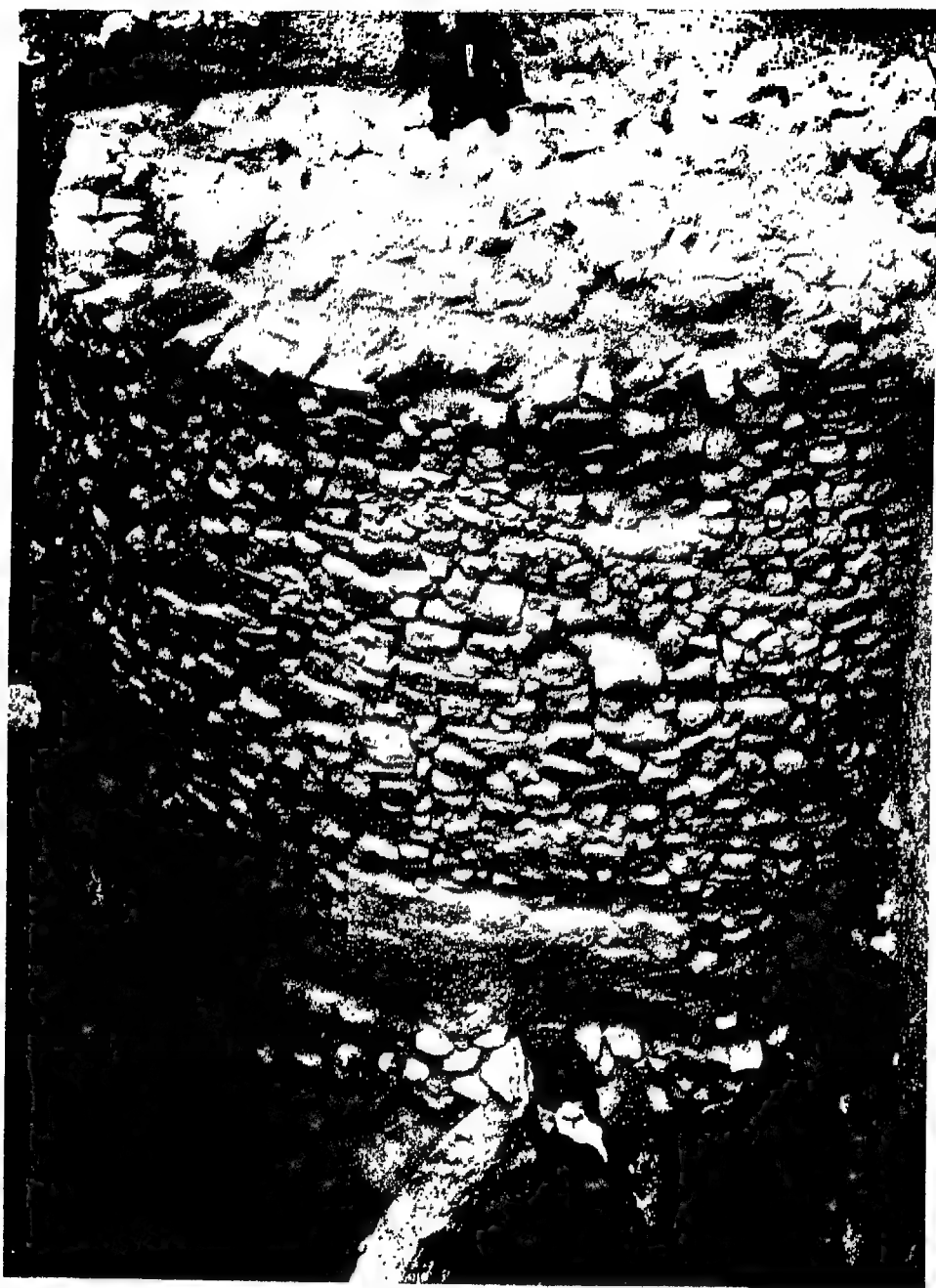


مقطع يظهر تتابع الطبقات السكنية في موقع أريحا

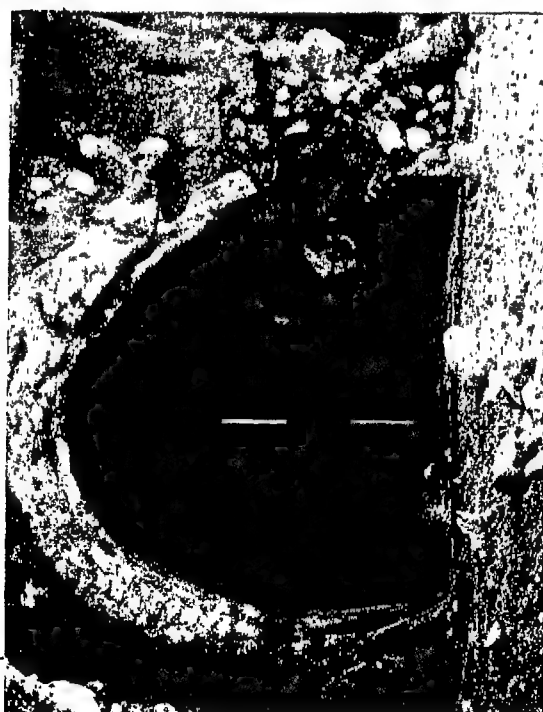
(عن P1. 237 b Kenyon 1981)



منظر عام للتحصينات الدفاعية التي تعود للعصر الحجري
الحديث ما قبل الفخار أ في اريحا

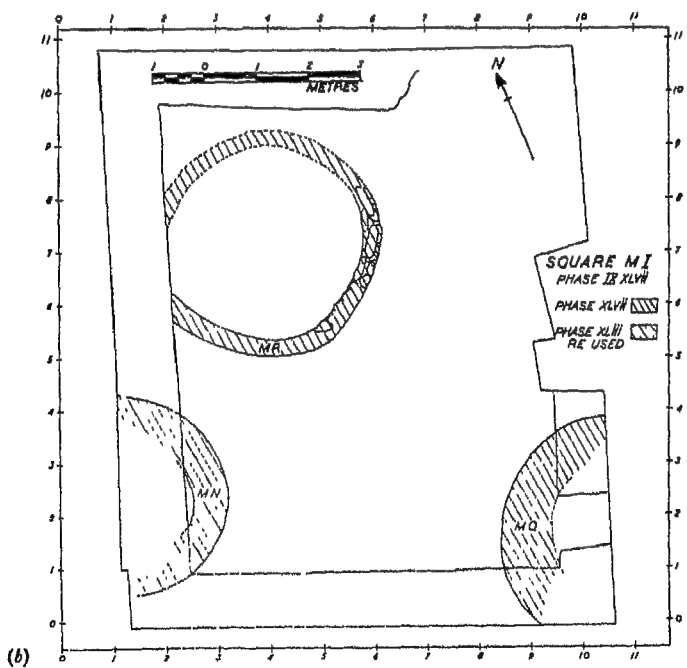
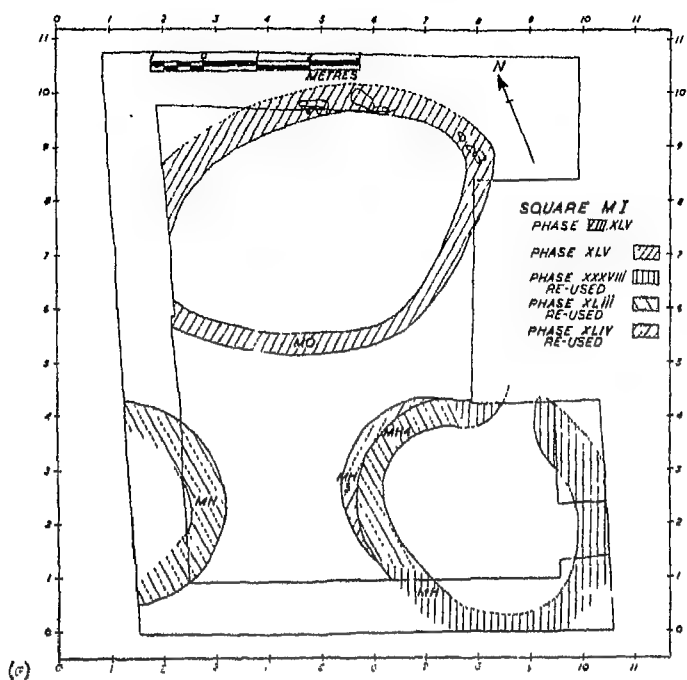


برج أريحا الذي يعود الى مرحلة العصر الحجري الحديث
ما قبل الفخار أ



بيوت دائرية الشكل تعود للعصر الحجري الحديث ما قبل

الفخار أ عشر عليها في اريحا



مخططات لبيوت العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار أ في

أريحا

(عن Kei'yon 1981; P1. 279)



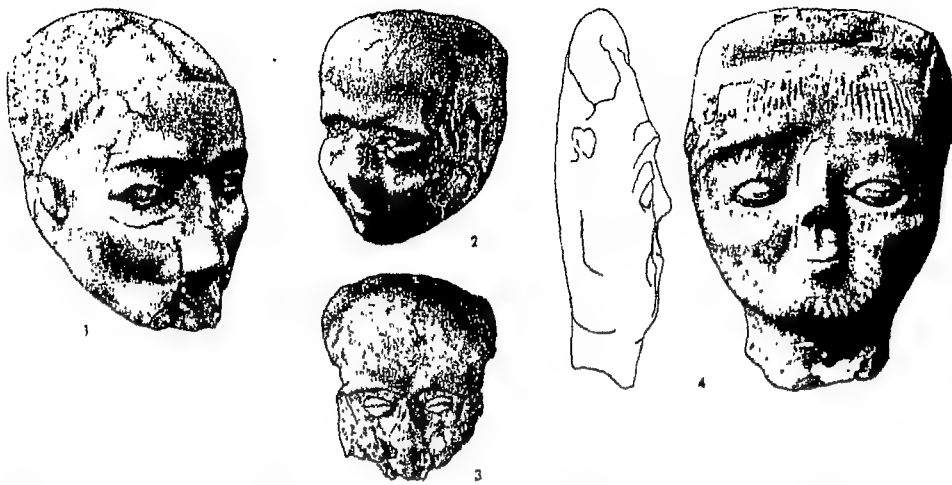
ببيوت عشر عليها في اريحا وتعود للعصر الحجري
الحديث ما قبل الفخار (ب)

(Kenyon 1981 عن)

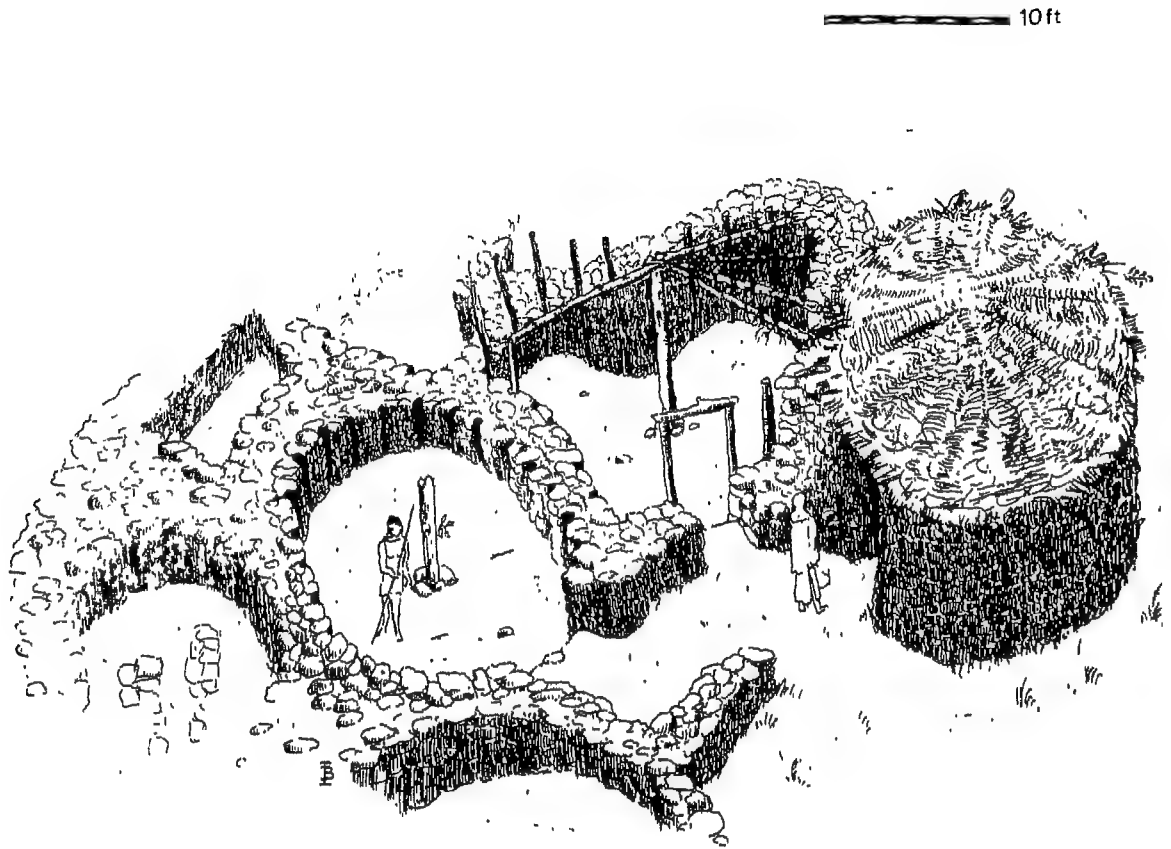


بيوت منتظمة الشكل من أريحا العصر الحجري
الحديث ما قبل الفخار (ب)

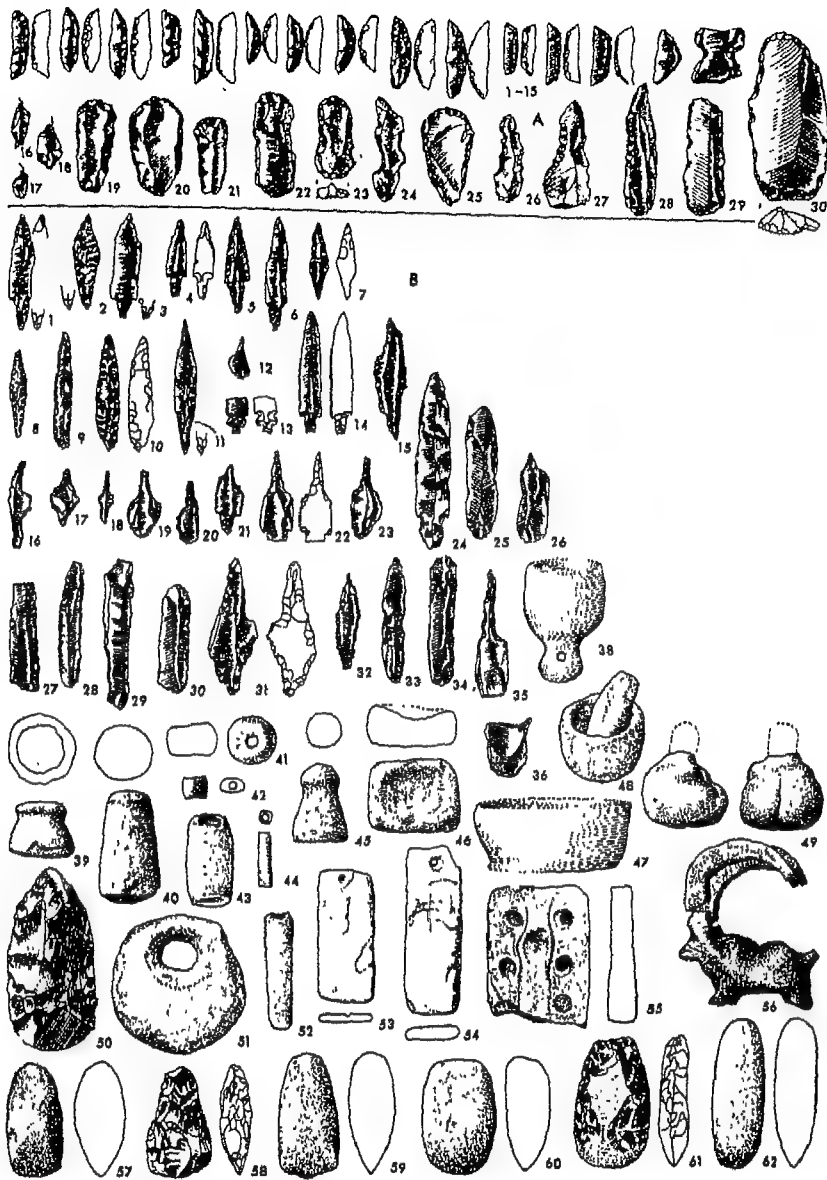
(من Kenyon 1981)



جماجم مزخرفة عشر عليها في اريحا في طبقات
العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار (ب)



مخطط يمثّل بيوت العصر الحجري الحديث ما قبل الفخار
(ب) في موقع البيشا في الأردن •



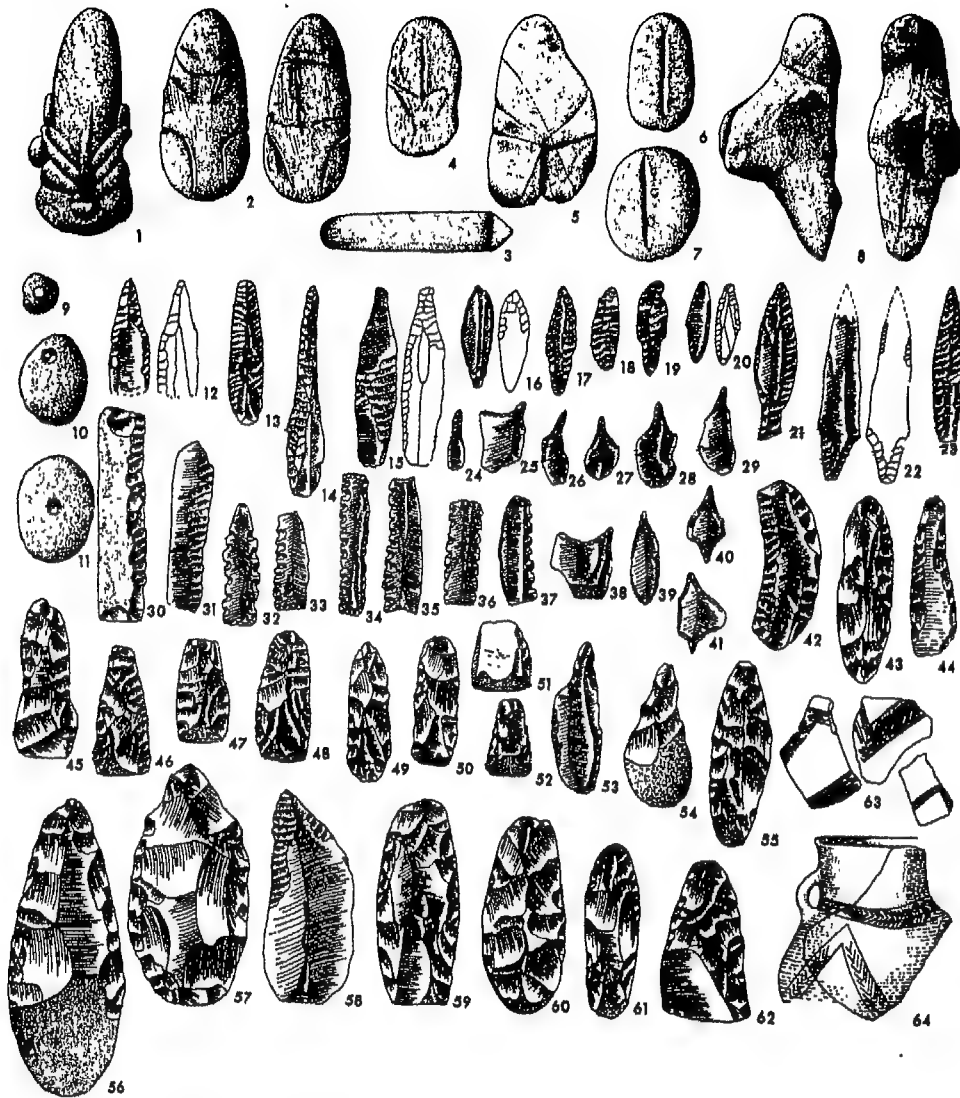
أدوات صوانية وبازلتية وتمثال صغير يمثل حيوانا من
موقع البهشا في الأردن ويعود الى فترة العصر الحجري
الحديث ما قبل الفخار ب .
(من Muller- Karpe 1968.p1.101)



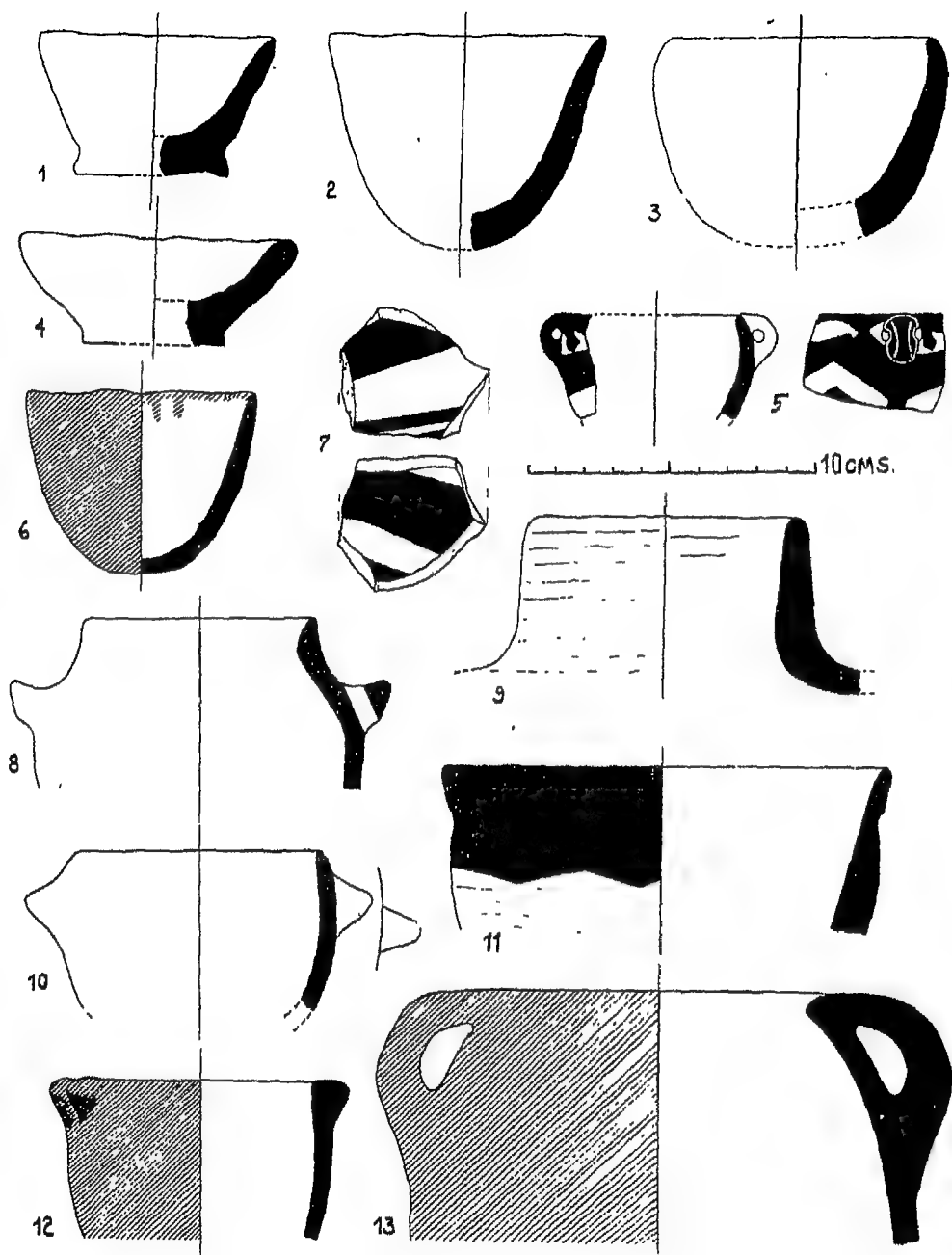
منظر عام لأحد القبور التي عثر عليها في أريحا
وتعود للعصر الحجري الحديث



حفر داخل الارض استعملت للسكنى في مدينة
اريجا في فترة العصر الحجري الحديث الفخاري
(عن Kenyon 1981)



دمى وأدوات صوانية وفخارية من موقع القحوانسة
 (شعار هجولان) في فلسطين ، فترة العصر الحجري
 الحديث الفخاري الأولى .
 (من Müller-Karpe 1968:p1.104) .

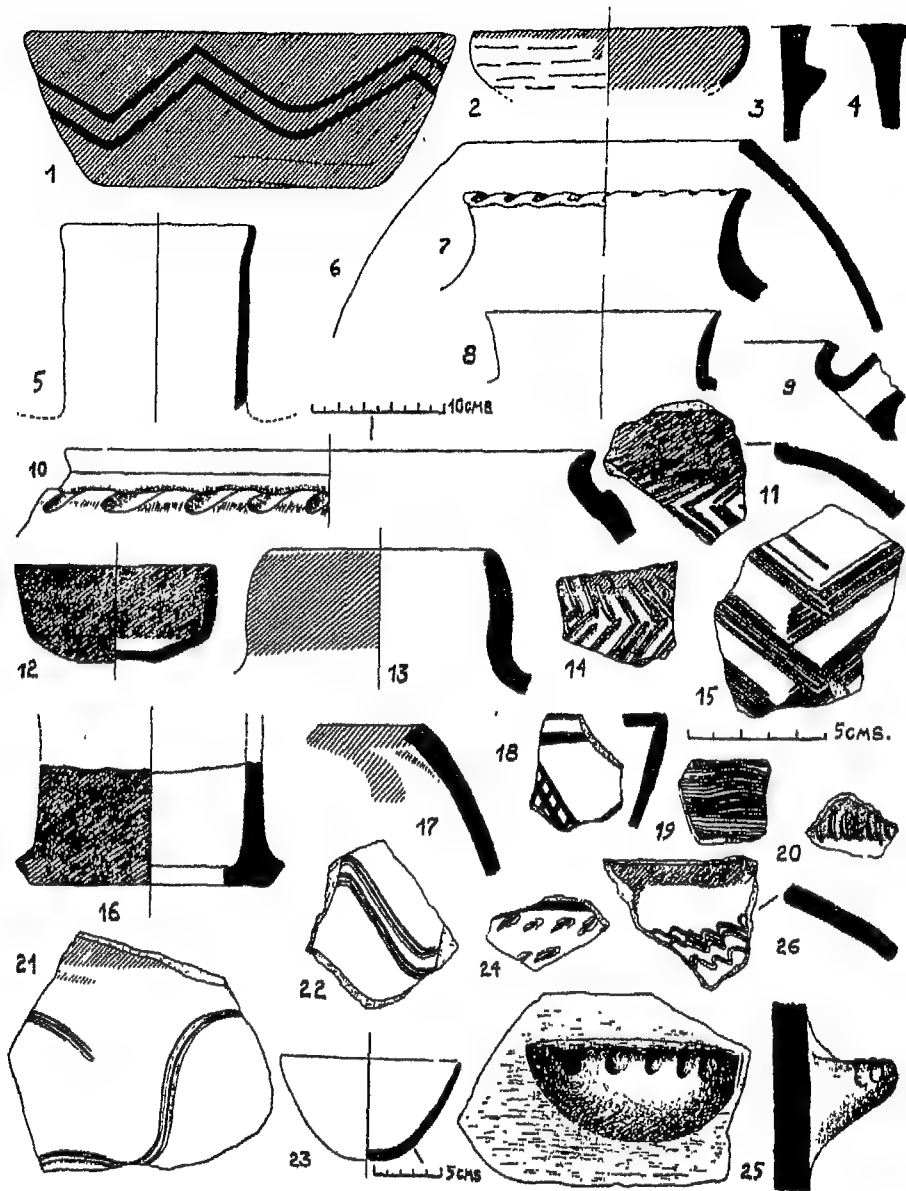


أدوات فخارية تعود الى العصر الحجري الحديث الفخاري أ
 من موقع تلييلات البطاشي الطبقة VI في فلسطين •
 (عن Kaplan 1958: p1. 7)

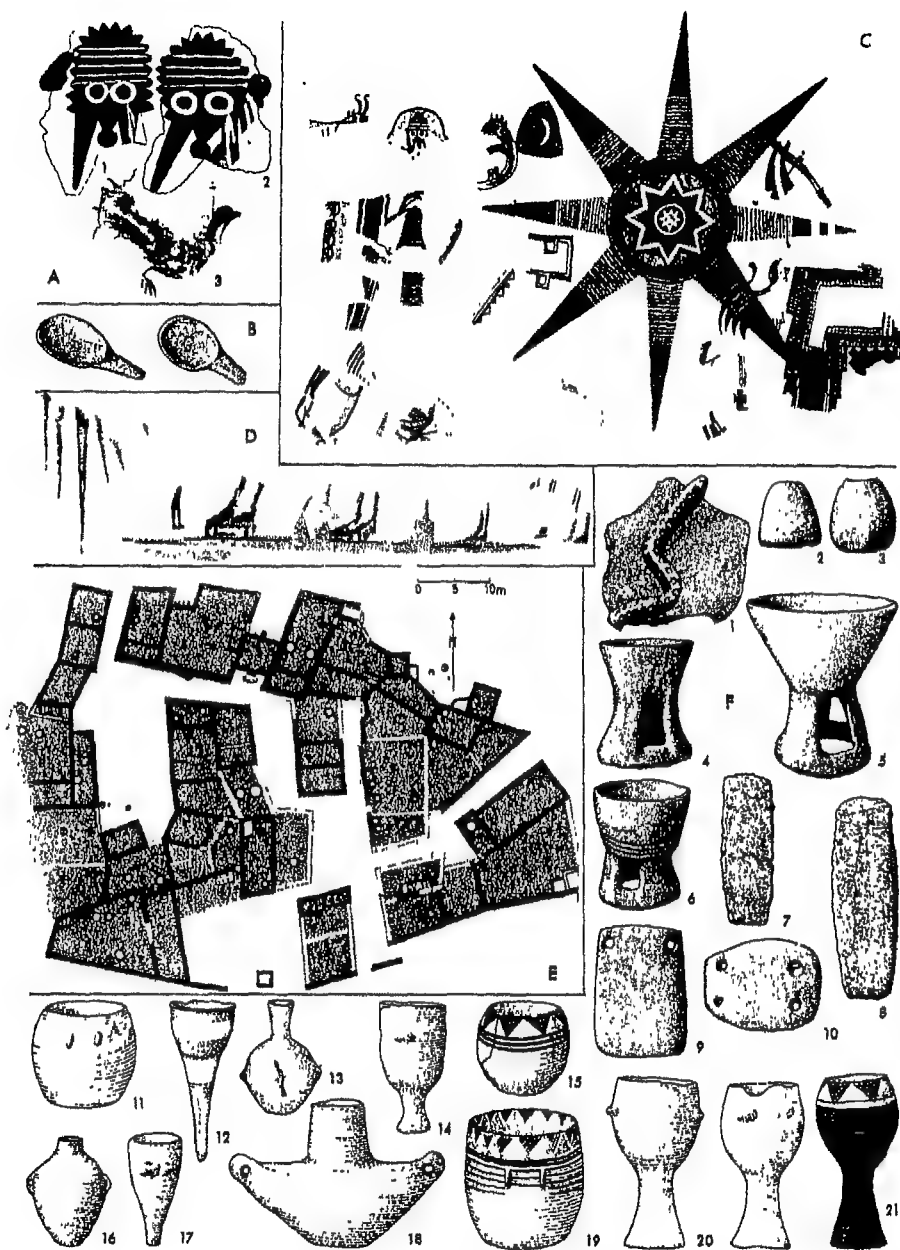


أدوات فخارية وصوانية وعظمية من موقع تليـلات
البطاشي وتعود بتاريخها للعصر الحجري الحديث الفخاري

(من 9 . p1 . 1958 : Stekelis)



أدوات فخارية من موقع تلييلات البطاشي، الطبقة III
تعود الى نهاية العصر الحجري الحديث الفخاري وبداية
العصر الحجري النحاسي *
(من Stekelis 1958: p1. 10)



رسومات هـريسكو ومخططات بيوت وأدوات من موقع

• تليلات الغسول وتعود للعصر الحجري النحاسي •

(من Muller-Karpe.1968:p1. 106)

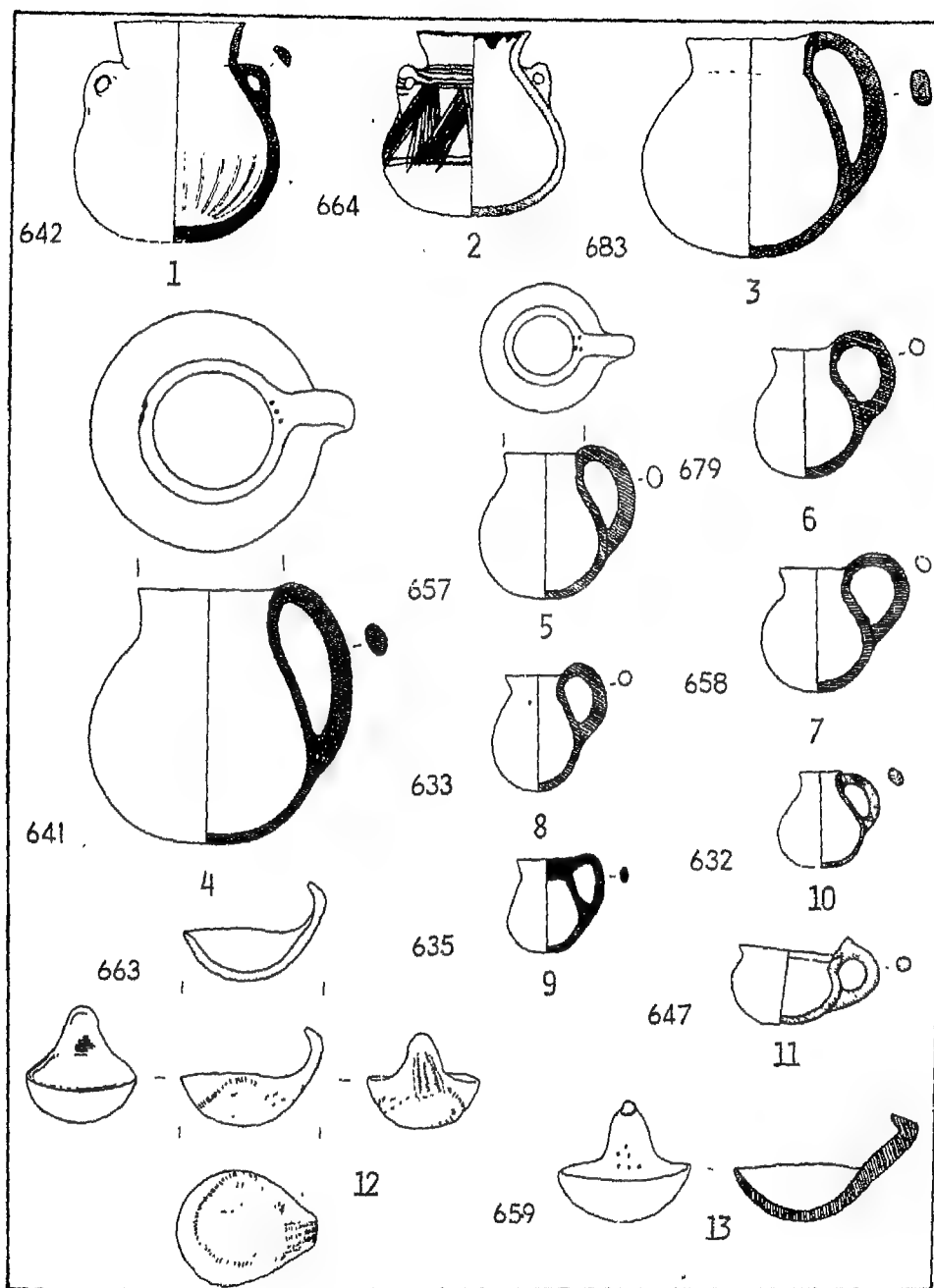


أدوات نحاسية وعظمية وفخارية من مواقع مختلفة في
فلسطين وتعود للعصر الحجري النحاسي .
(Muller-Karpe 1968. p1:107)

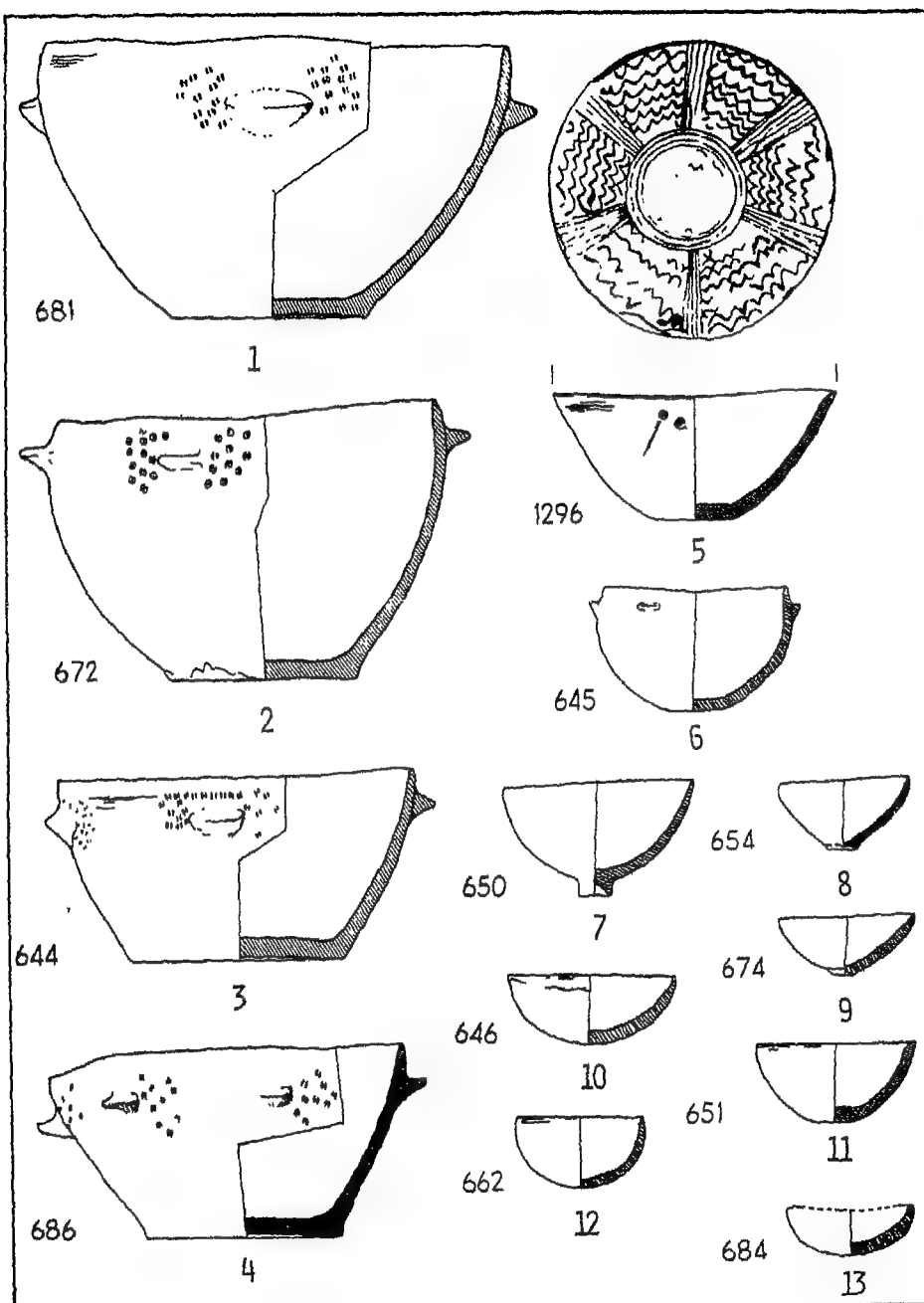


مجموعة من المعازم والأدوات الفخارية من موقع بيازور
في فلسطين

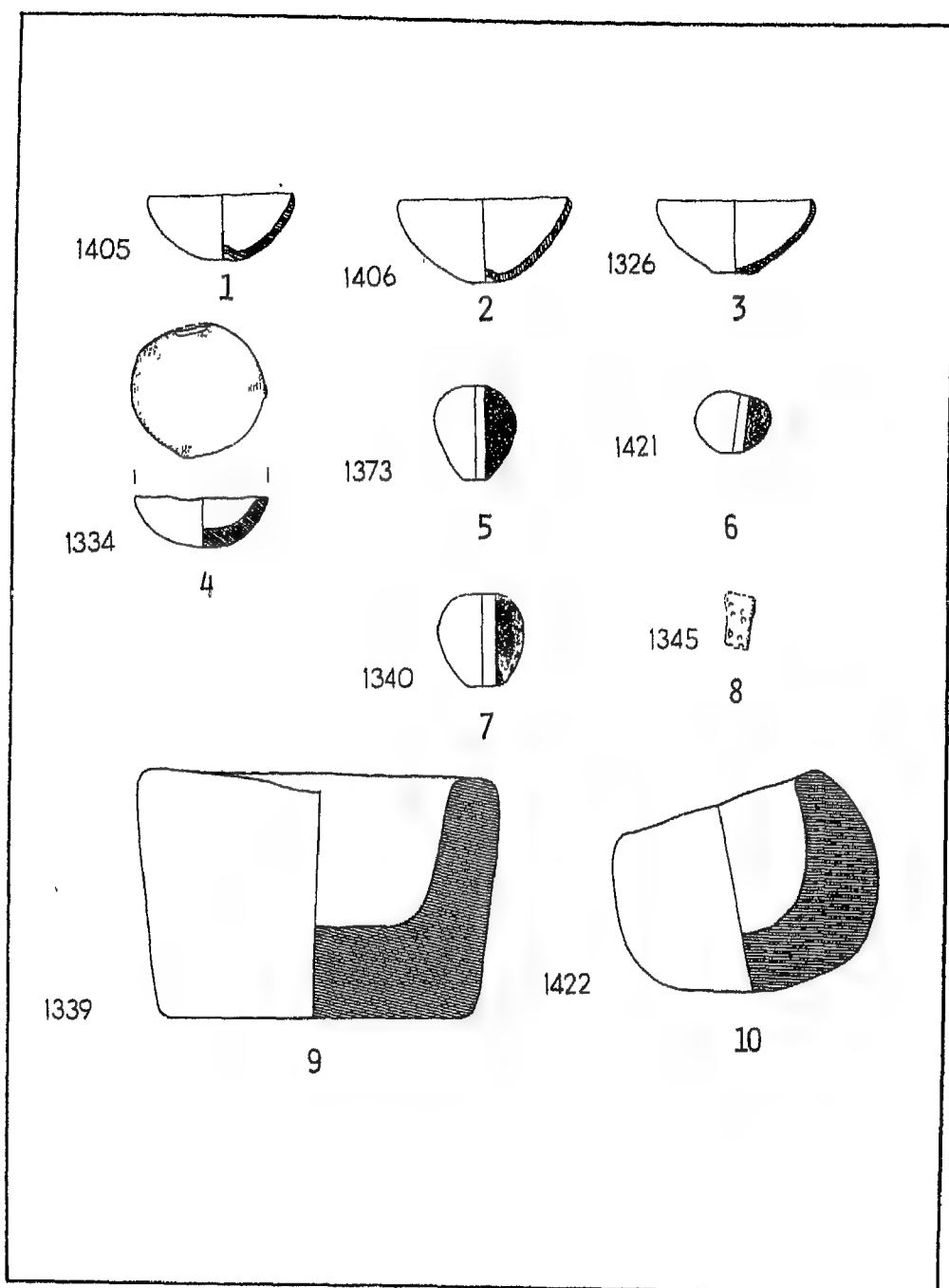
(Muller-Karpe 1968: p1. 109)



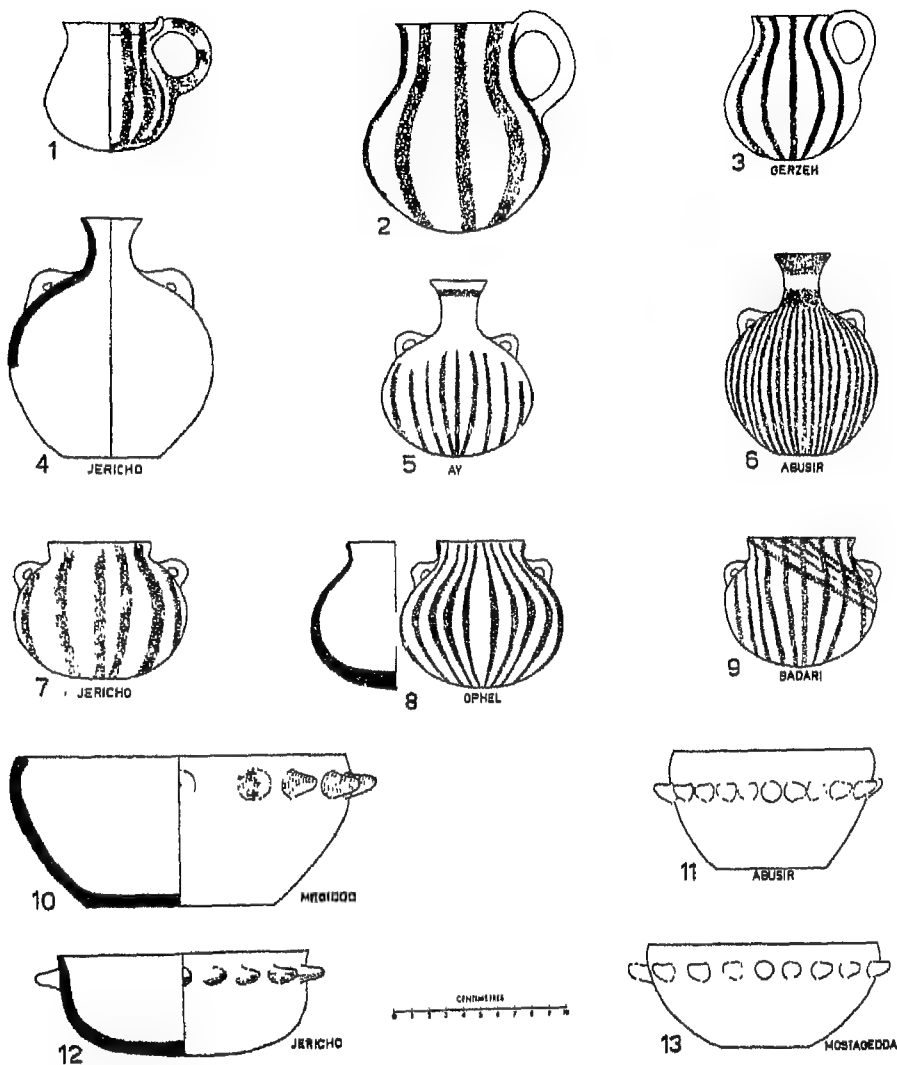
أدوات فخارية من قبور باب الذراع في الأردن



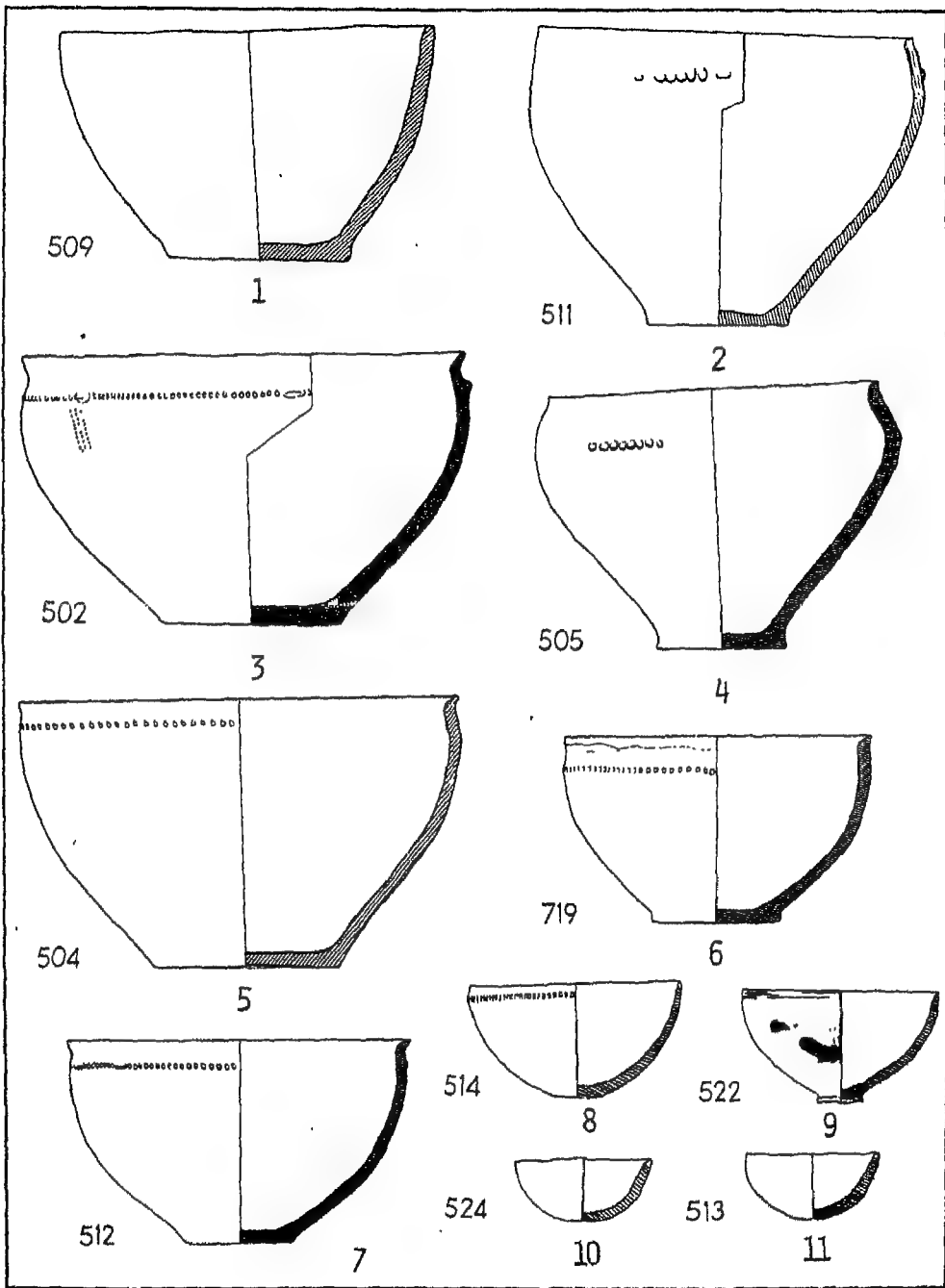
أدوات فخارية من باب الدراع في الأردن



أدوات فخارية من باب الذراع في الأردن



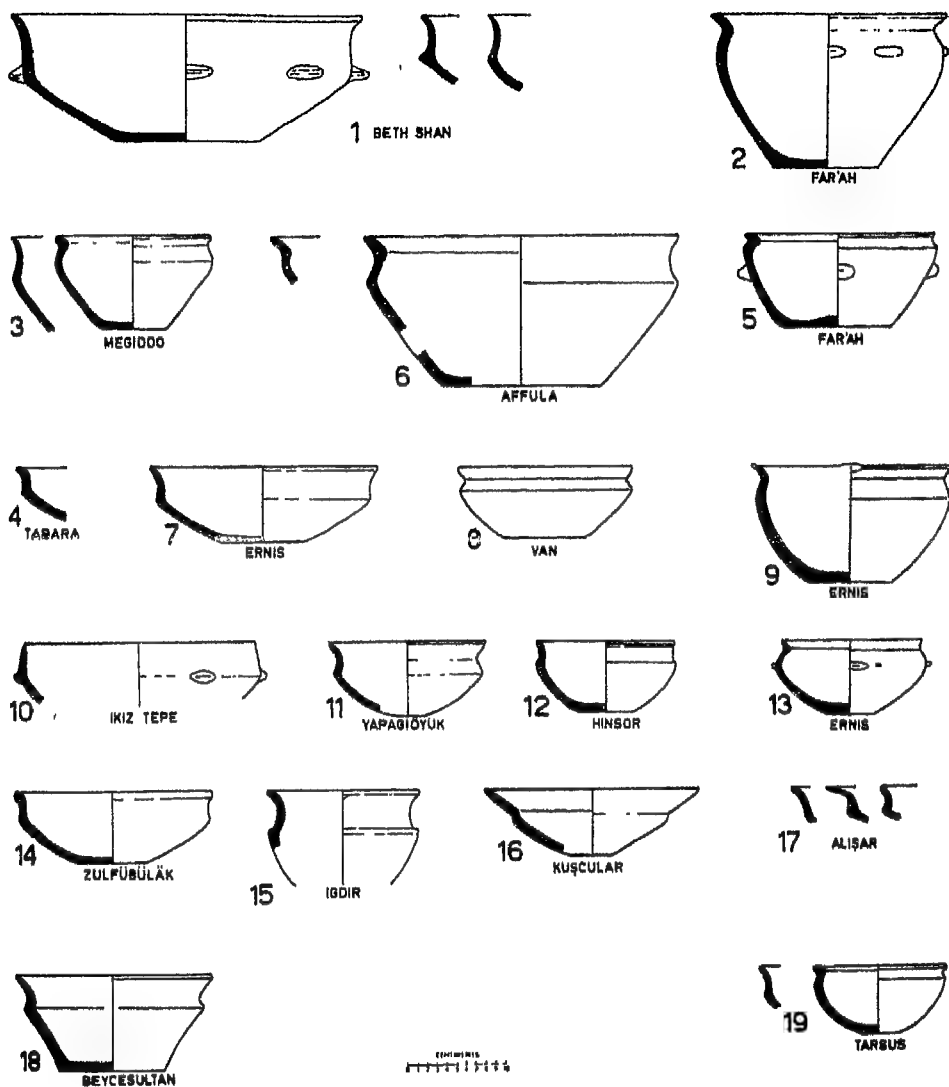
أواني فخارية من فلسطين ومصر تعود للفترة النحاسية
أطلقت عليها كينون اسم مرحلة ما قبل التمسدن



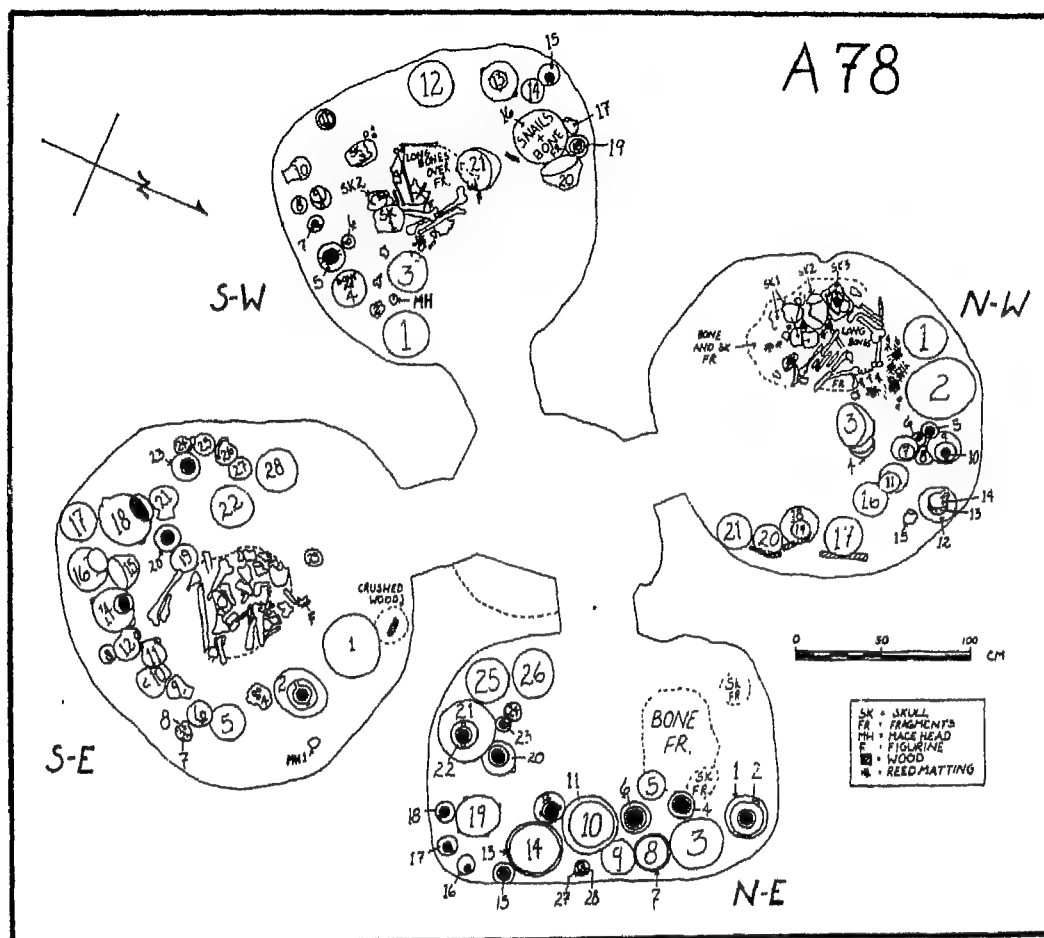
صحن فخارية مختلفة الاحجام من موقع باب السدراع
وتعود للعصر البرونزي القديم

(Rast & Schaub 1977

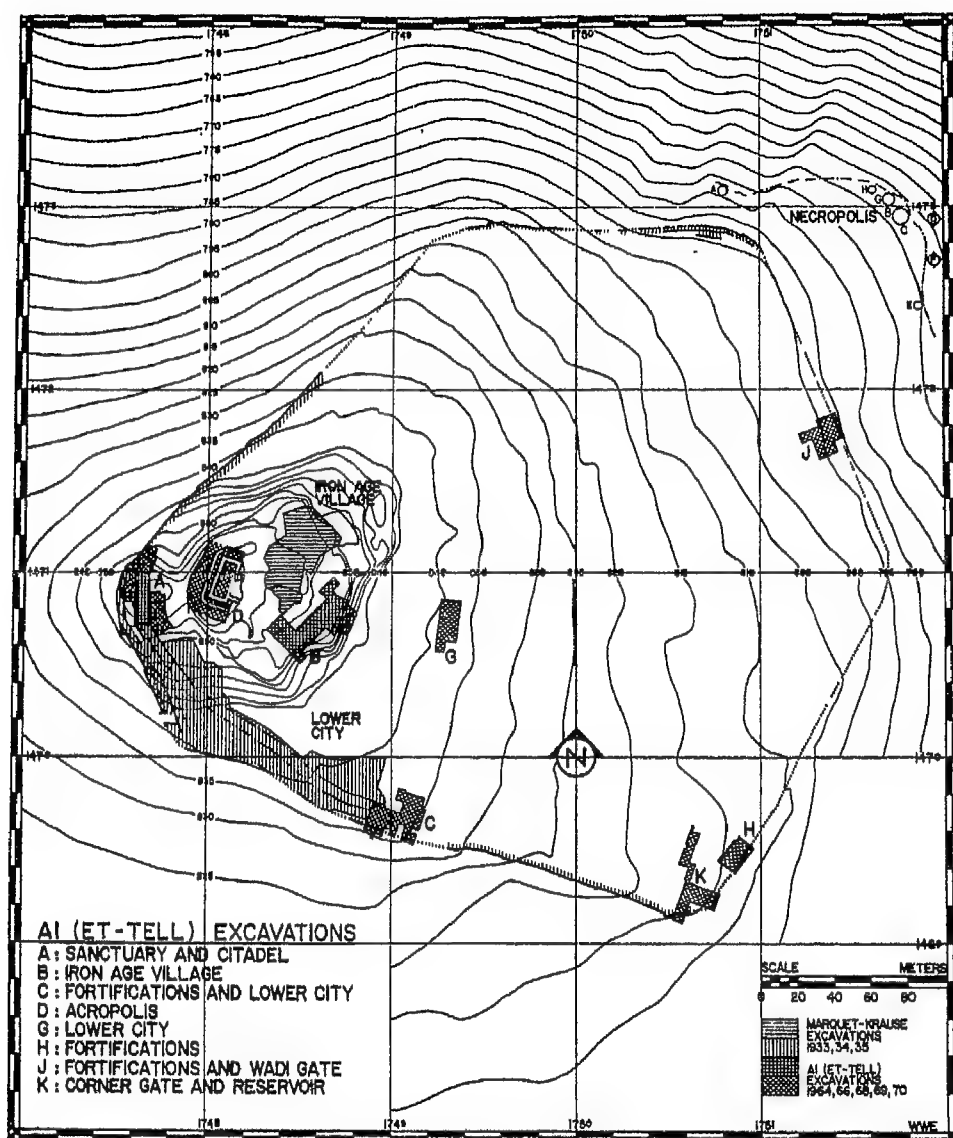
عن)



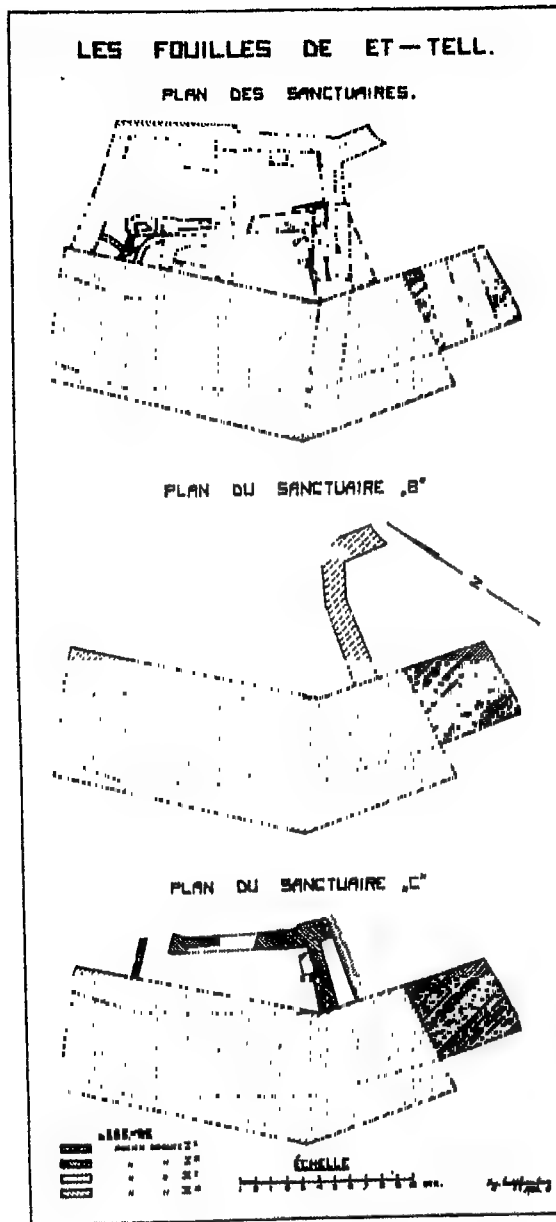
فخار سهل مرج بن عامر مع مقارنات من شمالي سوريا
(فترة ما قبل التمسدن)



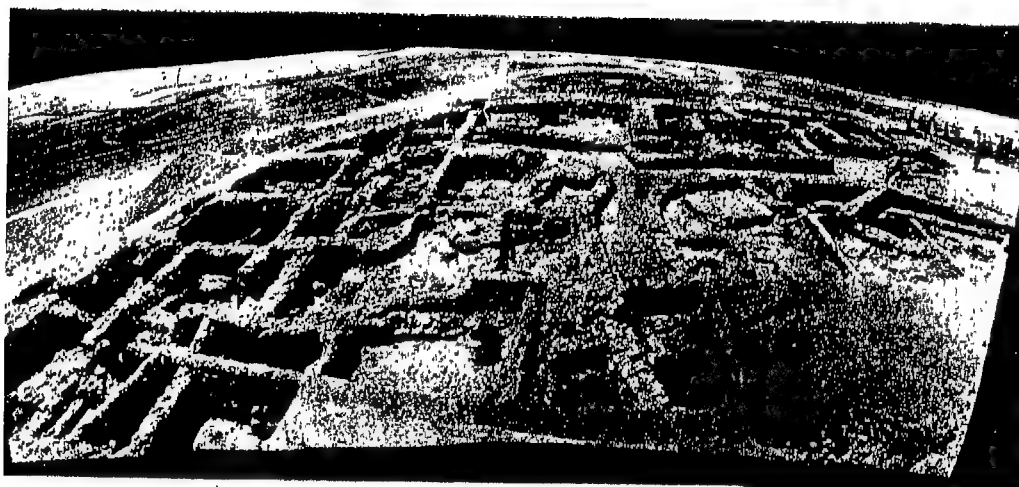
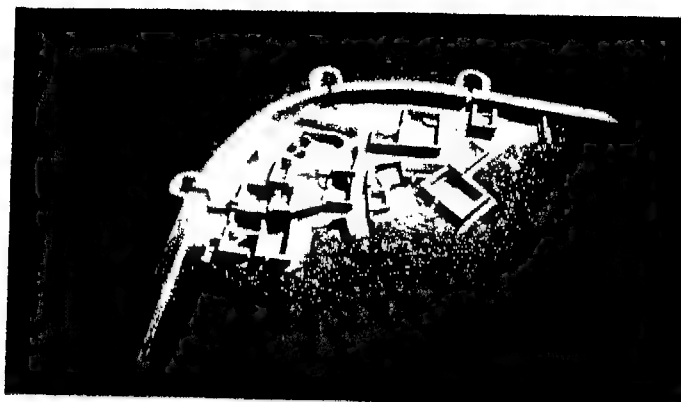
مخطط للنوع الأول من القبور التي تعود للعصر البرونزي
القديم من باب الذراع في الأردن



خارطة كنتورية للحفريات التي أجريت في موقع التل



مخططات لمباني ظهرت في التل وتعود للعصر البرونزي
القديم

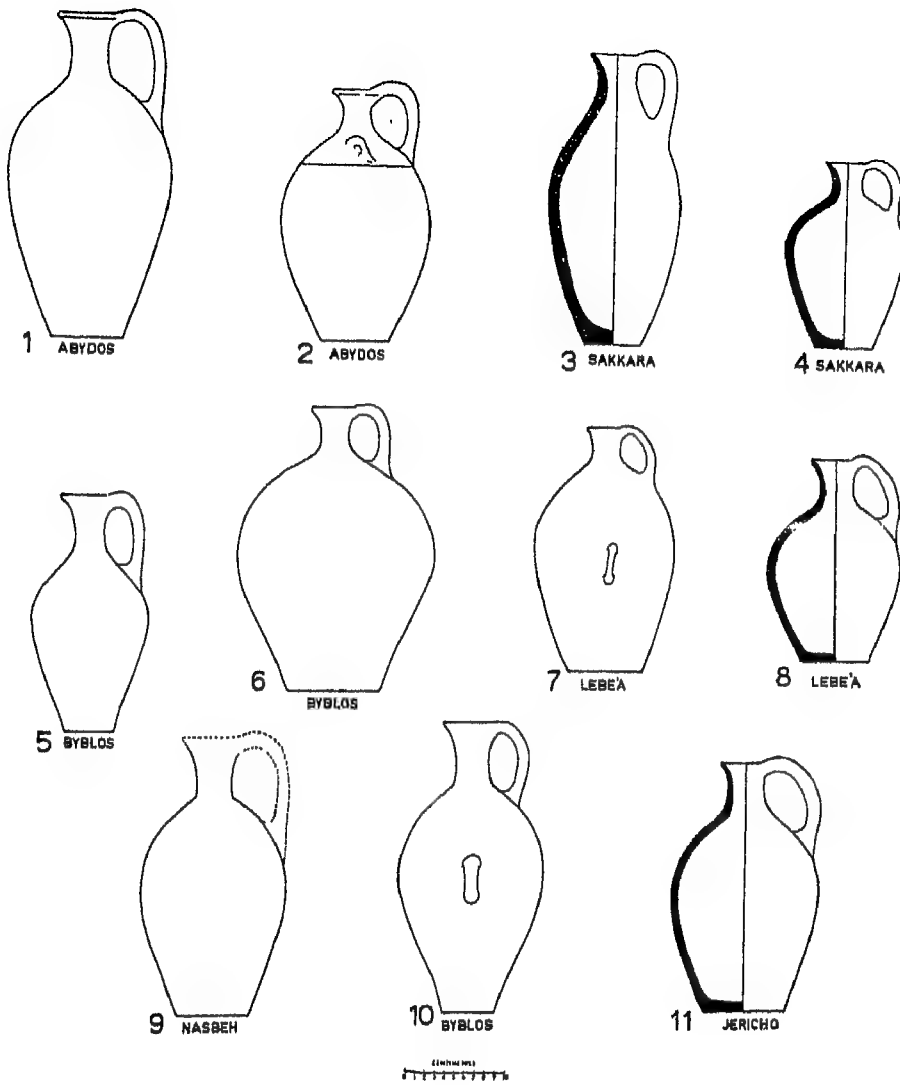


الشكل (١) يمثل نموذجا لأحد المناطق التي جراها فيها

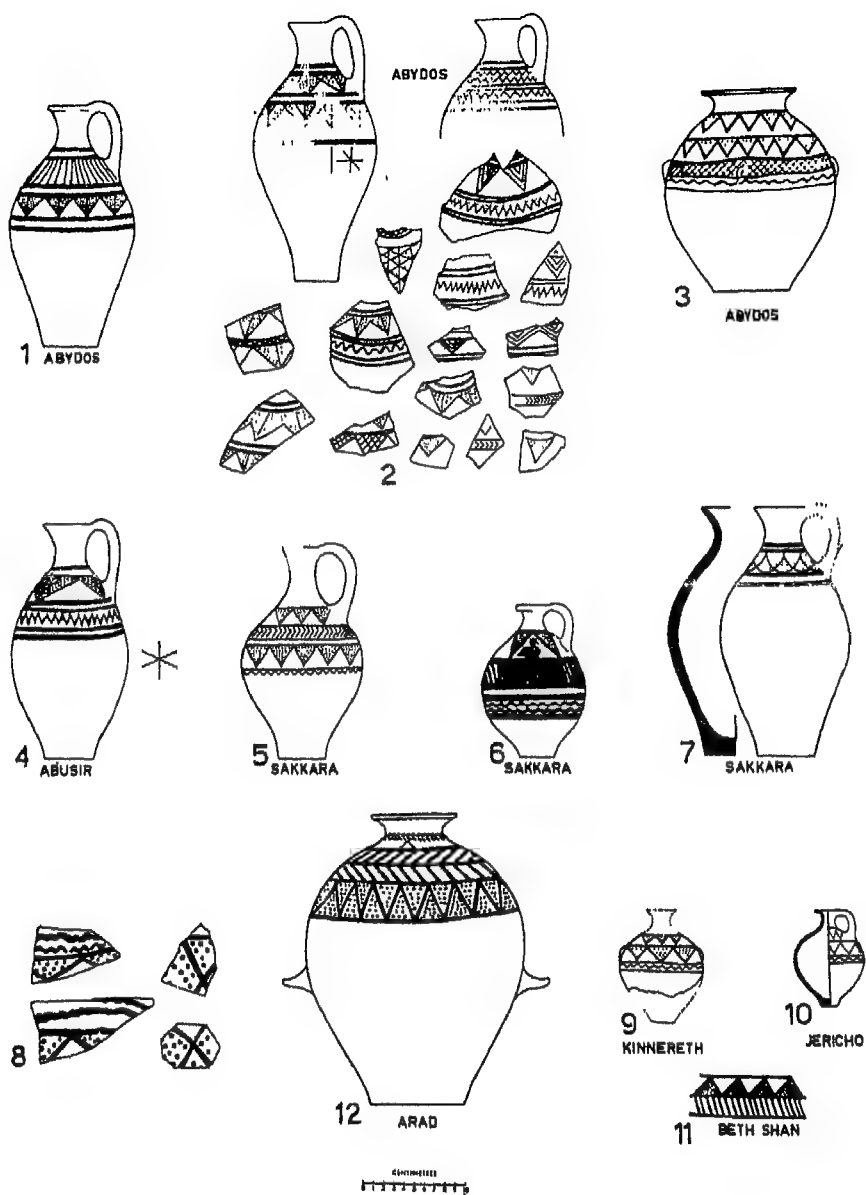
الحفر في موقع مراد في فلسطين *

الشكل (٢) يمثل صورة لمنطقة (K) في مراد *

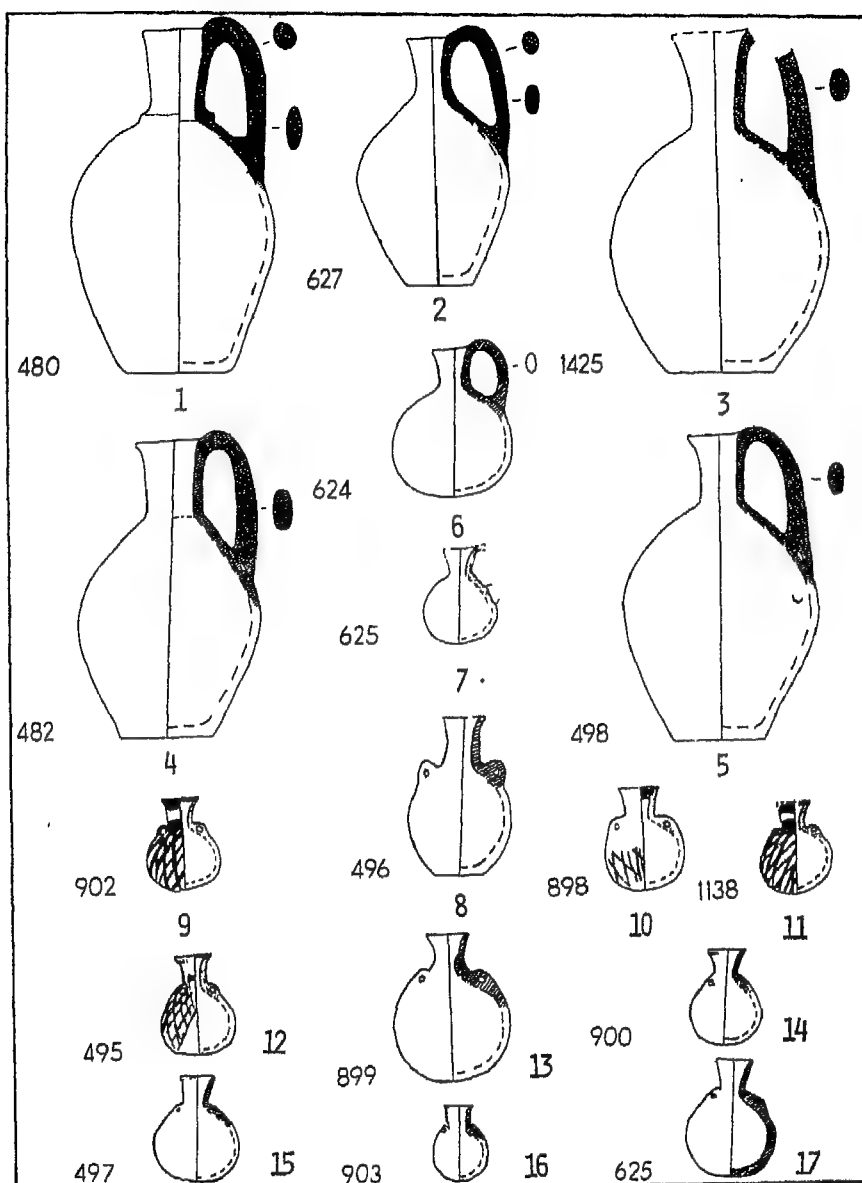
(عن Amiran 1978)



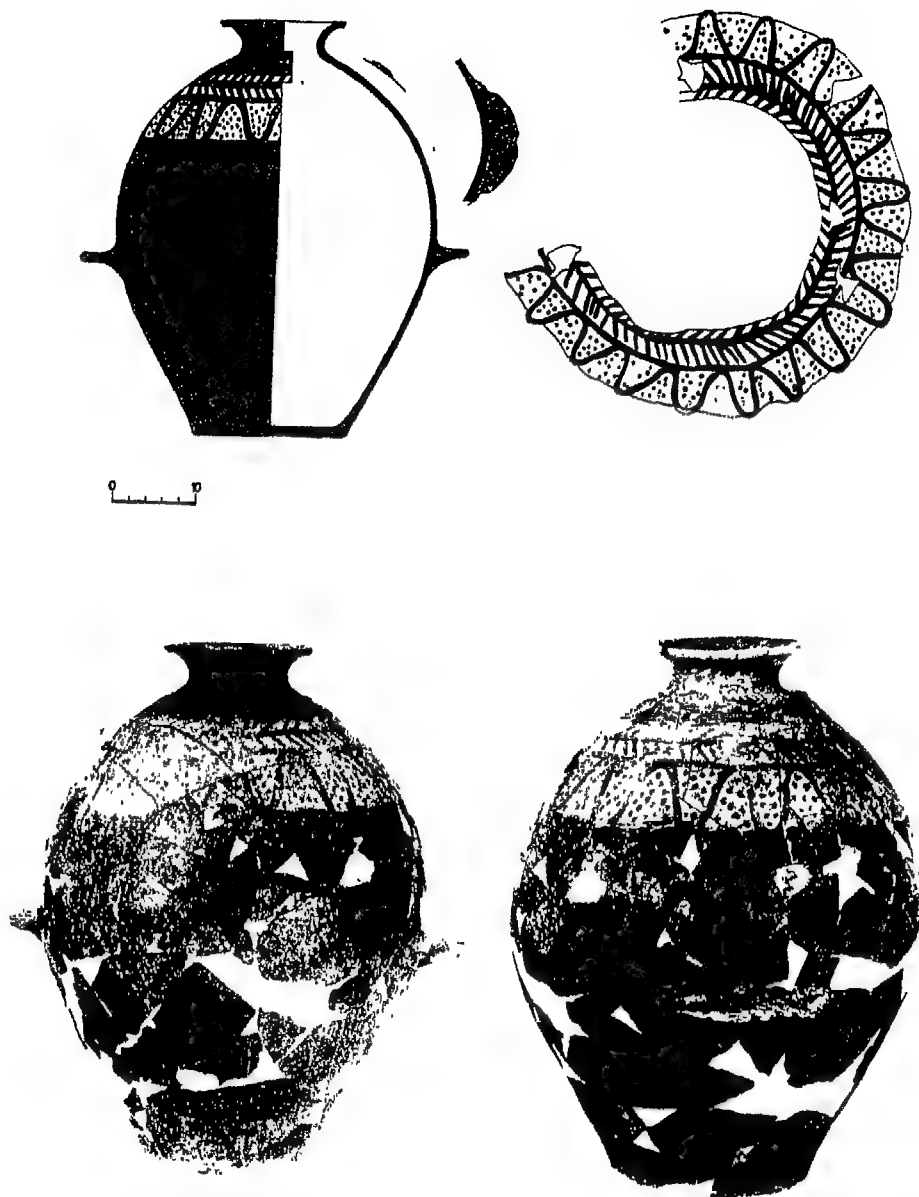
أباريق فخارية من مواقع فلسطينية ولبنانية تسمى
التأثيرات المصرية



أباريق فخارية من فلسطين ومصر



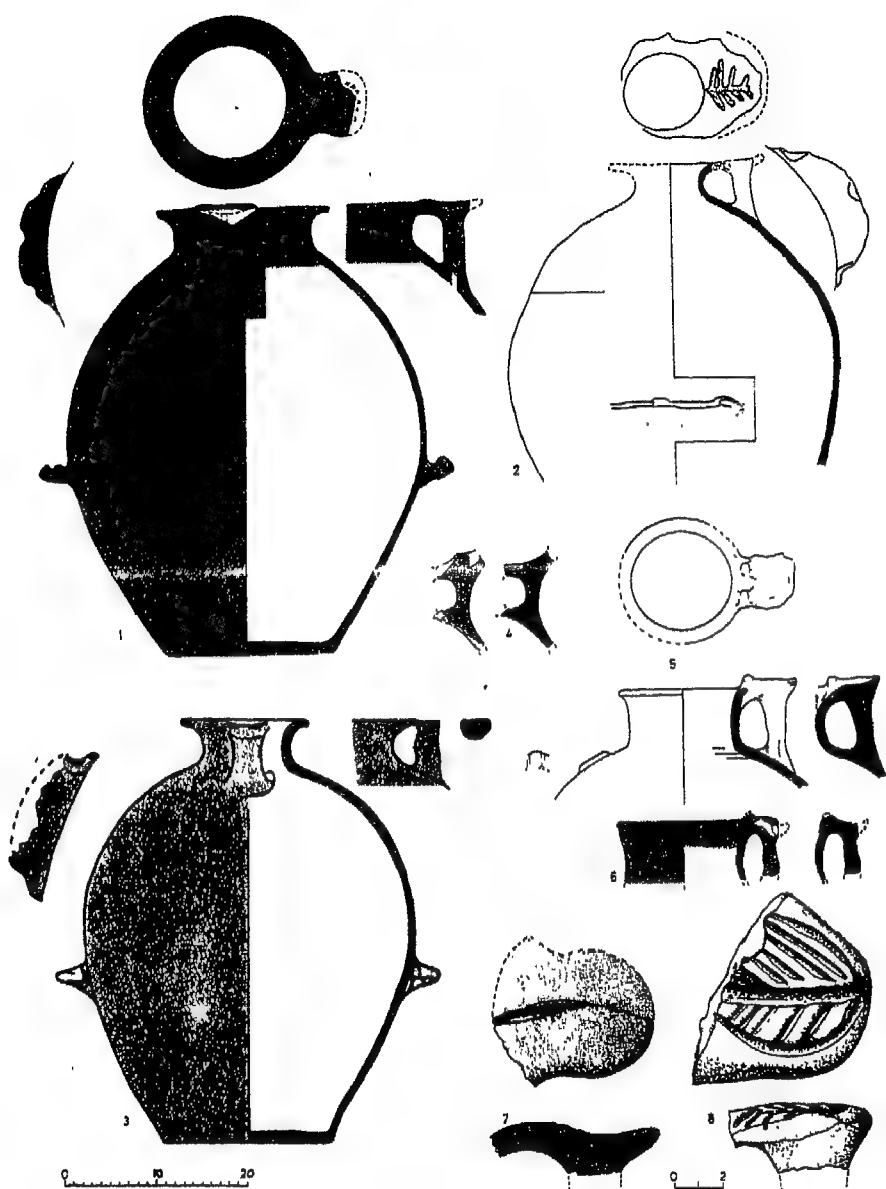
أباريق فخارية من العصر البرونزي القديم من مواقع
باب الدراع في الأردن
• (Rast and Schaub 1977; Fig. 19)



جرار فخارية تعود للعصر البرونزي القديم من موقع

مراد في فلسطين

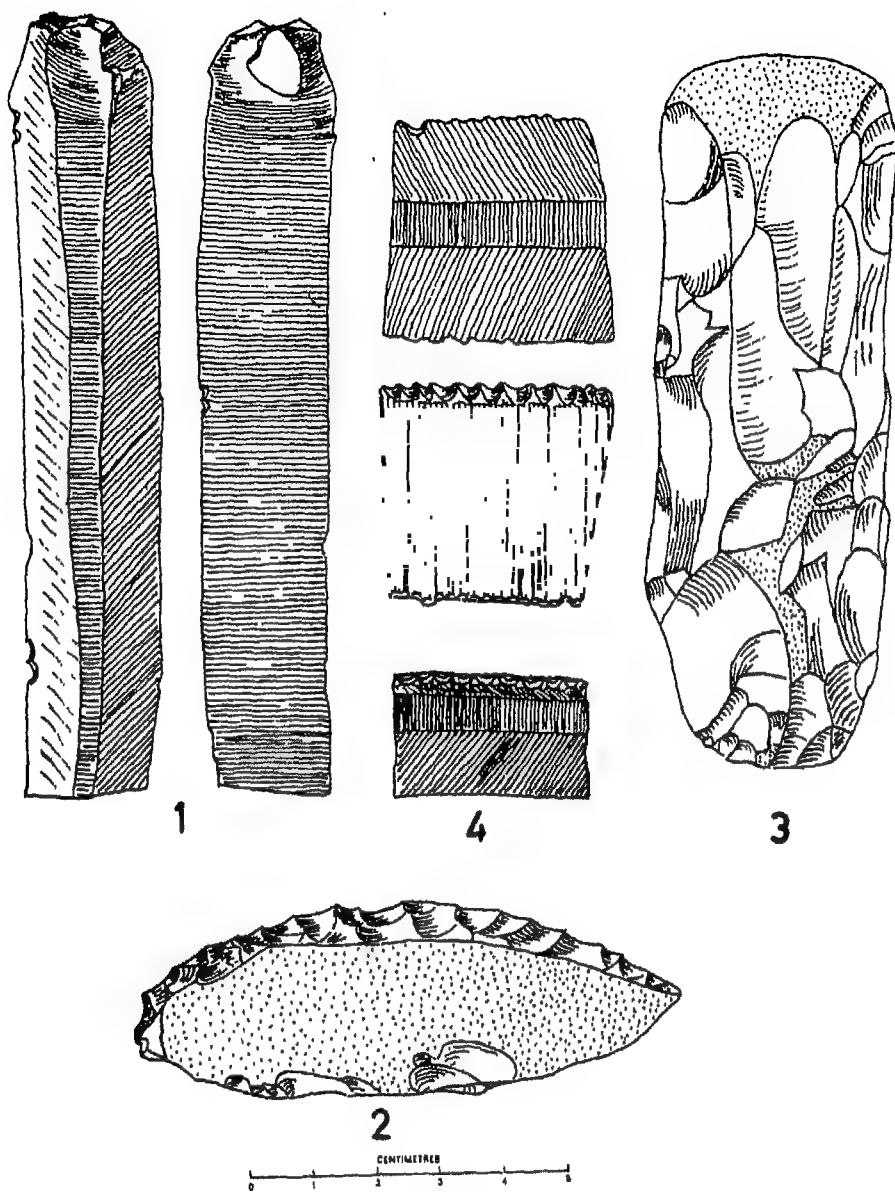
(من 1978 Amiran)



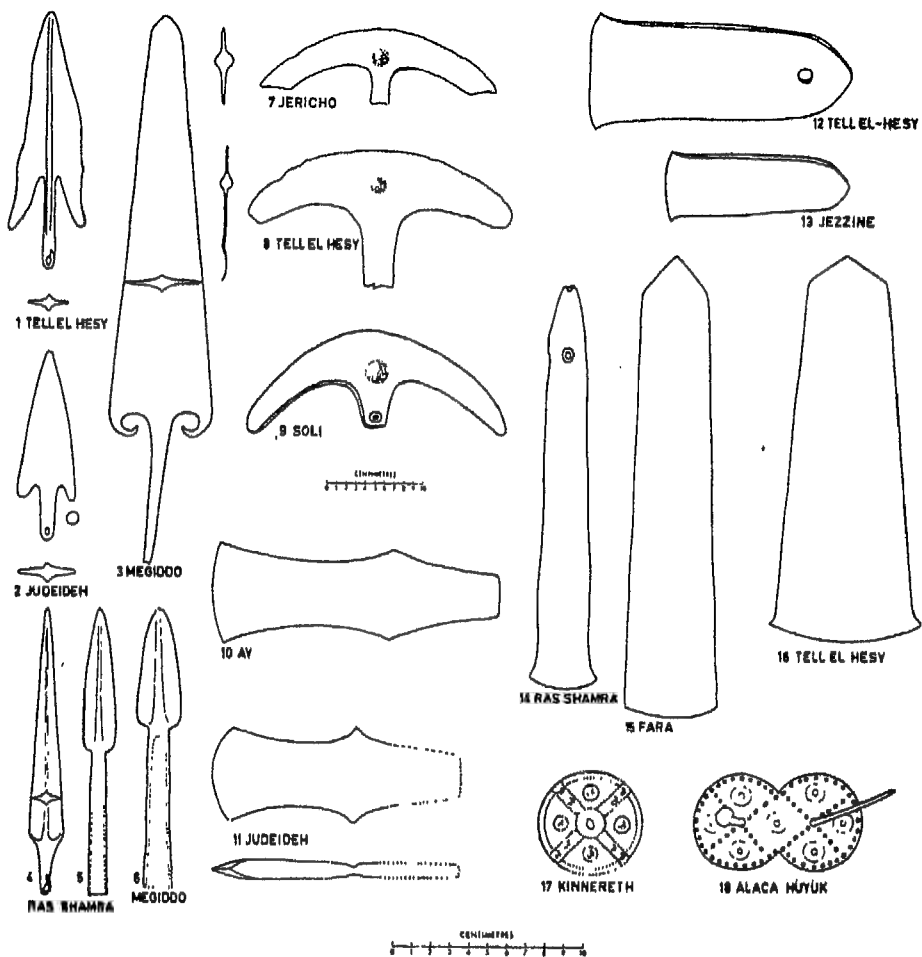
جرار فخارية تعود للعصر البرونزي القديم من عراد
(Amiran 1978 عن)



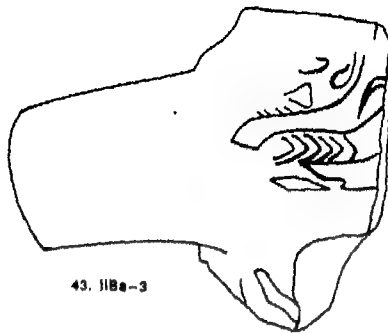
بعض الكسر الفخارية التي عثر عليها في عراق وتعود
للعصر البرونزي القديم وتحمل بعضها اشارة صانعها
(من Amiran 1978)



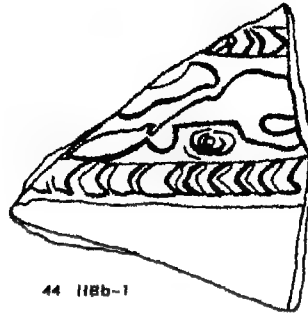
أدوات صوانية كنعانية تعود للعصر البرونزي القديم



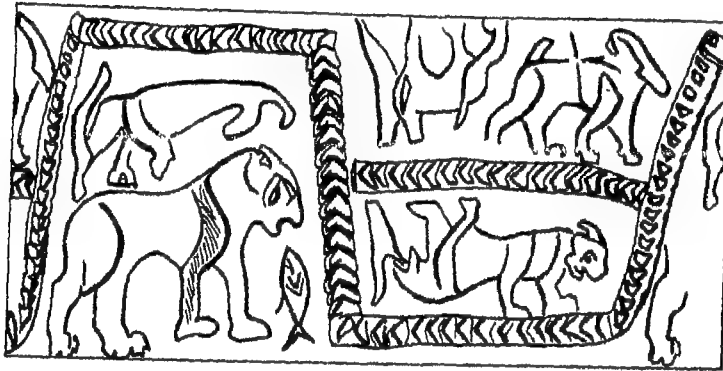
أدوات معدنية تعود للعصر البرونزي القديم الثالث من
فلسطين مع مقارنت لها من مواقع مختلفة في الشرق
الأوسط (Hennessy 1967; P1. LXXV)



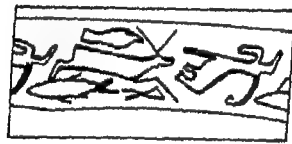
43. IIBa-3



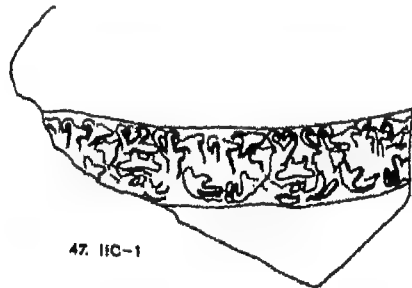
44. IIBb-1



45. IIBb-2



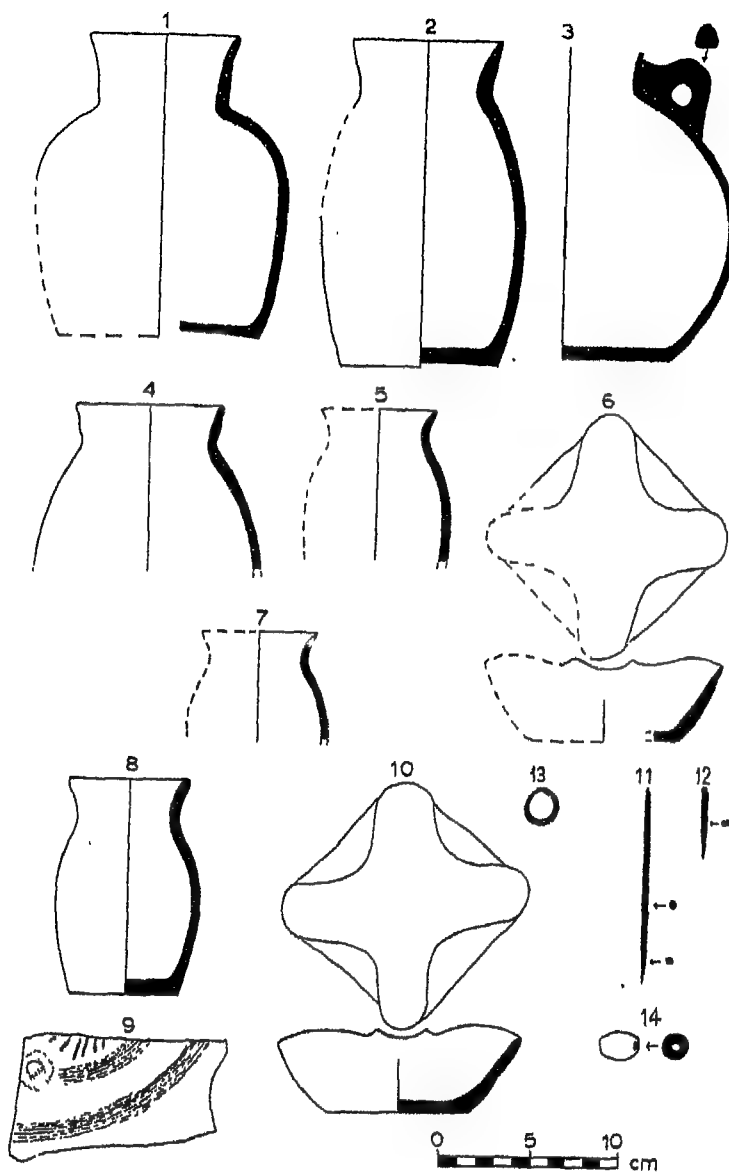
46. IIBb-3



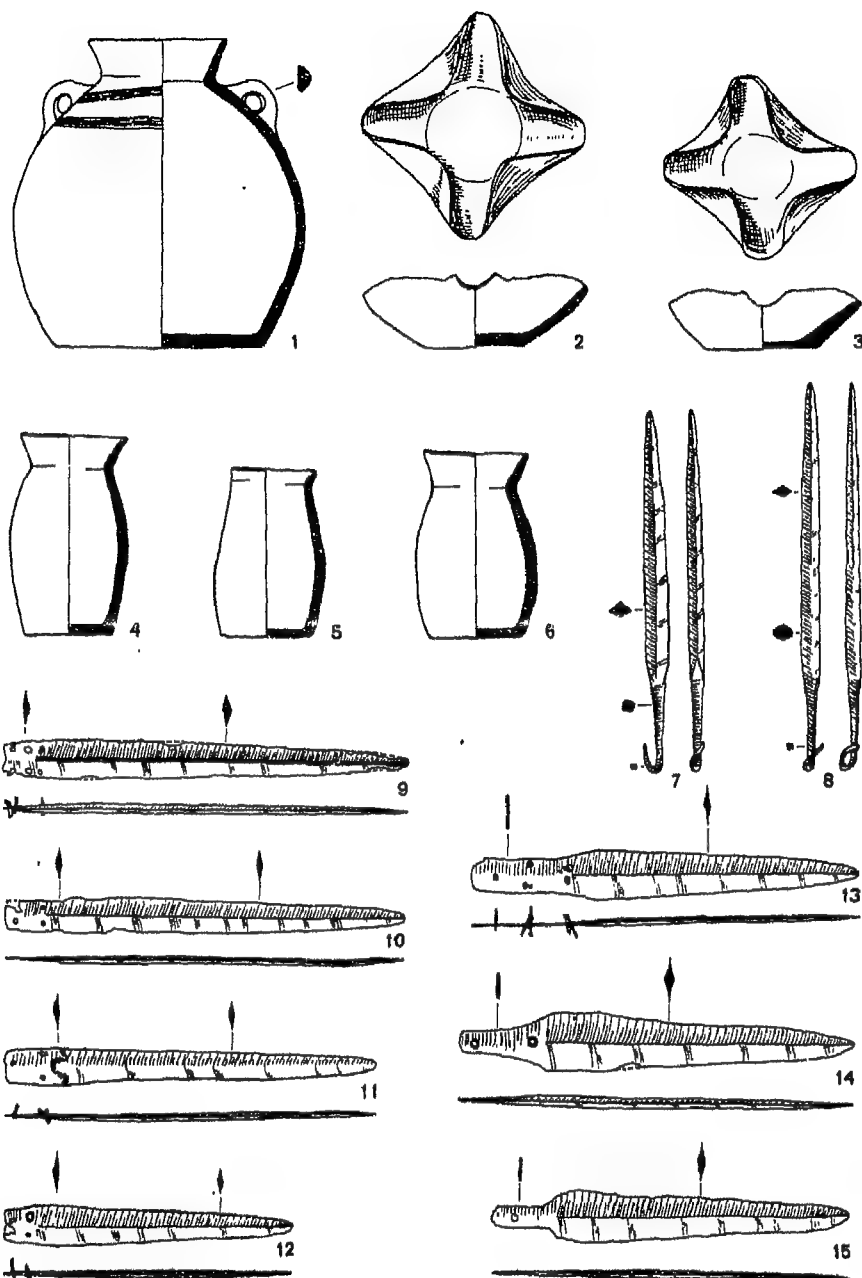
47. IIC-1

اختام تعود للألف الثالث ق.م من مواقع مختلفة في
فلسطين

(Ben-Tor 1978: Fig. 7)



أدوات فخارية تعود للمرحلة الانتقالية ما بين العصر
البرونزي القديم والمتوسط عشر عليها في موقع ظهر
المرزبانة في فلسطين



أدوات فخارية ومعنوية تعود للمرحلة الانتقالية
ما بين العصر البرونزي القديم والمتوسط

آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث

١٥٧٠-١٢٠٠ ق.م

الدكتور محمد خير ياسين

ومصطفى سليمان

١- مقدمة تاريخية

٢- آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث (١٥٧٠-١٢٠٠ ق.م)

أ- المواقع الأثرية

ب- العمارة

ج- الفن

د- النقوش والكتابات

هـ- الفخار

و- عادات الدفن

مقدمة تاريخية:

يقسم العصر البرونزي الحديث (الأخير) حسب تطور الفخار إلى الفترات التاريخية التالية^(١):

١- العصر البرونزي الحديث الدور الأول — (١٥٧٠ — ١٤١٠ ق.م)، وهي الفترة التي تلت عملية طرد الهكسوس من مصر.

٢ — العصر البرونزي الحديث الدور الثاني — (١٤١٠ — ١٢٠٠ ق.م)، ويقسم إلى فترتين هما:

آ- العصر البرونزي الحديث، الدور الثاني الفترة آ — (١٤١٠ — ١٣٤٠ ق.م) وهي فترة تل العمارنة

ب — العصر البرونزي الحديث، الدور الثاني الفترة ب — (١٣٣٠ — ١٢٠٠ ق.م) وهي فترة حكم الأسرة التاسعة عشرة في مصر.

وبذلك يبدأ العصر البرونزي الحديث في أرض كنعان (فلسطين) من طرد الهكسوس من مصر في بدايات النصف الثاني من القرن السادس عشر ق.م، وينتهي بغزو شعوب البحر ومنهم الفلسطينيين حوالي ١٢٠٠ ق.م لمنطقة غربي البحر المتوسط، واستقرارهم في القسم الجنوبي من الشاطئ الفلسطيني بقيادة أهم وأقوى شعوب البحر وهم الفلسطينيين والذين أعطوا اسمهم لأرض كنعان لتصبح فلسطين حتى يومنا هذا.

ويسمى العصر البرونزي الحديث في فلسطين بعصر السيطرة المصرية، حيث بدأ الاحتلال المصري لفلسطين وسوريا مباشرة بعد طرد الهكسوس على يد الفرعون آمحس الأول (١٥٥٢ — ١٥٤٦ ق.م) حوالي ١٥٦٠ ق.م أو بعد ذلك بقليل عندما استولى آمحس الأول على أفاريس عاصمة الهكسوس والتي عرفت فيما بعد باسم تانيس^(٢) وقد بدأ هذا الاحتلال بمحاصرة مدينة شاروهين (ربما تل الفارعة الجنوبي) حيث قام أمنحوتب الأول (١٥٤٦ — ١٥٢٥ ق.م) ابن آمحس الأول بإكمال الاحتلال المصري في آسيا الغربية، ثم قام الفرعون التالي تحتمس الأول (١٥٢٥ — ١٤٩٥ ق.م) بمهاجمة سوريا^(٣).

وكان لعملية طرد الهكسوس من مصر أثر مزدوج على فلسطين، وتمثل الأثر الأول في استقرار معظم الهكسوس المطرودين من مصر في فلسطين، أما الأثر الثاني فقد تمثل في مد النفوذ المصري إلى سوريا وفلسطين^(٤)، لأن حكام مصر في ذلك الوقت وجدوا خير وسيلة لحماية مصر من الحدود الشرقية هو احتلالهم لفلسطين.

وصارت فلسطين ولاية مصرية منذ حوالي ١٥٥٠ ق.م. حتى حوالي ١٢٢٥ ق.م، باستثناء قيام بعض الثورات المحدودة^(٥) والتي لا يوجد هناك أي دليل على استمرار أي من هذه الثورات أكثر من عدة سنوات. وقد دلت الحفريات الأثرية أن تل الحسا قد دمر ثلاث مرات، وتل المتسلم (مجدو) دمر مرتين، والقلعة المصرية في بيسان دمرت مرتين قبل منتصف القرن الثالث عشر ق.م.^(٦) ويذكر تحتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) في حملته على سوريا وفلسطين، أنه احتل تل المتسلم وتعنك وغزة^(٧). كما يذكر سيتي الأول (١٣١٨-١٣٠١ ق.م) في مسئلته التي وجدت في بيسان، أن هذه المدينة كانت قد تعرضت لهجوم مكون من تحالف عدة مدن مع طبقة فحل (بيلا) في شرقي الأردن، وذلك عندما قام بحملته المشهورة على شمال فلسطين^(٨).

وحصلت خلال القرن الرابع عشر ق.م مجموعتين من الحوادث وهما:

التدمير الذي أحدثه الخابيرو والمسجل في وثائق تل العمارنة، ثم استقرار العبرانيين في فلسطين والمسجل في التوراة والذي اتفق عليه المؤرخون بأنه حصل ما بين ١٤٠٠ و ١٢٩٩ ق.م.^(٩)

وتعتبر وثائق تل العمارنة من أهم الوثائق التاريخية والتي تزودنا بمعلومات مهمة عن الوضع السياسي والاجتماعي في فلسطين خلال النصف الأول من القرن الرابع عشر ق.م أي قبل بوقت قصير من خروج العبرانيين من مصر. وهذه الوثائق عبارة عن رسائل موجهة من الأمراء والحكام المحليين الكنعانيين والموظفين المصريين في سورية وفلسطين إلى البلاط المصري في عهد امنحوتب الثالث (١٤١٢-١٣٧٥ ق.م) وامنحوتب الرابع - أخناتون - (١٣٧٥-١٣٦٦ ق.م).^(١٠) وتفهم من هذه الوثائق وعددها حوالي ٣٥٠ رسالة مكتوبة باللغة الأكادية وهي اللغة الدولية لسكان الشرق الأدنى القديم خلال العصرين البرونزي المتوسط والحديث والمكتشفة عام ١٨٧٧ في موقع تل العمارنة بمصر، أن السلطة المصرية في سوريا وفلسطين قد بدأت تنهار، حيث بدأت بعض الولايات التابعة لمصر بالانحذاب نحو الجانب الحيثي، أو أعلنت استقلالها عن مصر، وولايات أخرى كانت تطلب المساعدة العسكرية المصرية ضد هجمات الخابيرو^(١١).

وقد وصف كل من (شوازداتا) حاكم مدينة الخليل و(عبدوحيا) حاكم مدينة القدس، مهاجميهم بالخابيرو^(١٢) والذين يربطون عادة بالعبرانيين من الناحية اللغوية^(١٣)، مع أن ذلك مشكوك فيه في الوقت الحالي، ولكن ربما ضموا فيما بينهم فيما بعد بعض أحفاد الخابيرو الذين ذكروا في وثائق تل العمارنة^(١٤).

ويتضح لنا من رسالة (عبدوحيا) حاكم القدس أنه إذا لم تصله مساعدة عسكرية مصرية عاجلة فإن مدينته سوف تسقط بالتأكيد في يد الحايبرو.

ولكن يبدو أن المنحوت الرابع (أخناتون) الذي كان مشغولاً بشورته الدينية، لم يستجب لنداءات الحكام الكنعانيين الذين يطلبون عونه العسكري^(١٥).

والجدير بالذكر أنه منذ قيام تحتمس الثالث (١٤٩٠-١٤٣٦ ق.م) بحملته على سوريا وفلسطين حتى تحتمس الرابع (١٤١٥-١٤٠٦ ق.م)، وهي الفترة التي سبقت فترة تل العمارنة، كانت مصر مشغولة بالحروب مع مملكة ميتاني، وفي نهاية هذه الفترة قام الحثيون بالضغط على الميتانيين من الشمال الغربي، وفي حوالي ١٣٧٠ ق.م قام الملك الحثي شالبليوما بمهاجمة مملكة ميتاني وأجبرها على دفع الأتاوة، واستمرت مملكة ميتاني في الوجود حتى استسلمت أخيراً للملك الآشوري شلمنصر الأول (١٢٦٤-١٢٣٥ ق.م).^(١٦)

وقد كانت أهم القوى الكبرى المتصارعة في الشرق الأدنى القديم خلال العصر البرونزي الحديث الدور الثاني الفترة ب (١٣٤٠-١٢٠٠ ق.م)، كل من الإمبراطورية المصرية، إلى أن انتهى هذا الصراع حوالي عام ١٢٦٩ ق.م بتوقيع معاهدة صلح بين الطرفين بعد معركة قادش والتي جرت في شمال فلسطين في عهد رمسيس السثاني (١٢٩٩-١٢٣٢ ق.م) والملك الحثي حاتوشيل الثاني، حيث لم يتقدم المصريون شمال قادش وأوقف تقدم الحثيين جنوباً^(١٧).

أما القوى الصغرى فكان يمثلها الآشوريين في وسط بلاد ما بين النهرين ومملكة ميتاني إلى الشمال الغربي من الآشوريين، ثم دويلات المدن الفينيقية على ساحل البحر المتوسط والمهتمة بالتجارة، والآراميون ومملكتهم المشهورة دمشق^(١٨).

وإلى الجنوب من المنطقة التي استقر فيها الآراميون أي فلسطين (أرض كنعان)، كان العبرانيون قد بدؤوا بالاستقرار فيها بعد خروجهم من مصر. وقد اختلف المؤرخون في تحديد تاريخ هذا الخروج، ولكن من المتفق عليهم أنه حدث في وقت ما خلال القرن الثالث عشر ق.م.^(١٩) واتخذت مسألة الفرعون المصري مرتباتح (حوالي ١٢٣٠ ق.م) أقدم دليل غير توراتي على وجود العبرانيين في فلسطين أو بالقرب منها ولكن كشعب غير مستقر^(٢٠).

والجدير بالذكر أن كثيراً من السكان المضطهدين في مصر قد شاركوا العبرانيين في عملية الخروج من مصر^(٢١)، والتي كانت عبارة عن عملية هروب عدد كبير من العبيد

والمضطهدين من عبرانيين وغيرهم، كما أن أحدا من هؤلاء لم تطأ قدمه أرض فلسطين حتى موسى نفسه الذي قاد عملية الخروج^(٢٢)، حيث وجد موسى هؤلاء الهاريين في مجتمع واحد على المعتقدات الدينية، وهو بذلك أنشأ ديناً قومياً وليس أمة. وعندما دخل أحفادهم إلى فلسطين فيما بعد اقتبسوا الحضارة والثقافة الكنعانية^(٢٣).

ويبدو أن موسى وقومه لم يستطيعوا دخول فلسطين من الجنوب لوجود مقاومة كنعانية قوية وخاصة ملك مدينة عراد الكنعاني^(٢٤)، هذا بالإضافة إلى الوجود المصري بعد معاهدة الصلح مع الحثيين في قادش، ولذلك قرر موسى دخول فلسطين من جهة الشرق عن طريق الأردن^(٢٥).

إن كلاً من الدلائل الأثرية والتوراة تشيران إلى أن العبرانيين عندما خرجوا من مصر قادمين إلى فلسطين والأردن، كانت هذه البلاد مأهولة تماماً بالسكان وعلى درجة عالية من الحضارة^(٢٦). ففي فلسطين كانت دويلات المدن الكنعانية يحكمها أمراء محليون تابعون للفرعون المصري وتمتعون بالحكم الذاتي طالما أنهم مستمرون على ولائهم للبلاط المصري ويقدمون له الأتاوة وعمال السخرة للمشاريع الحكومية المصرية^(٢٧). وكان الأمير أو الحاكم المحلي الكنعاني يشرف عليه موظف مصري كبير يسمى المفوض^(٢٨).

وقد دعم هؤلاء الحكام المحليون بقوات محلية من العربات والمشاة ولا يسمح لهم بالتدخل في جميع الأتاوة والتي كانت من مهمات المفوض المصري. ولكن يسمح لهم بالاتصال المباشر مع البلاط المصري بواسطة الألواح المكتوبة بالخط الأكادي كرسائل تل العمارية.

أما المفوض المصري فكان يشرف على جمع الأتاوة ويحدد مقدارها ويراقب العمل على الطرق العامة وفي حقول القمح للملكية في جبل جرزيل وغابات شجر الأرز في جبل لبنان وقد دعم هذا المفوض بقوات من الجنود المصريين والنوبيين والبدو والعيبد والمرتزقة، والذين كان سلاحهم الرئيس القوس والنشاب. وقد قام المصريون ببناء عدد من القلاع الحربية كمبانيهم العسكرية كقلعة بيسان حوالي عام ١٥٤٠ ق.م.^(٢٩)

أما في الأردن فكانت هناك خمس ممالك قائمة وهي: مملكة أدوم ومملكة مؤاب ومملكة عمون ومملكة خصبان وعجلون (باشان) الأموريتان وقد انتهت المملكتان الأخيرتان بعد فترة الغزو العبراني^(٣٠). وعليه تصبح الممالك الثلاثة الأولى على درجة من الأهمية في تاريخ فلسطين والأردن فيما بعد أي في العصر الحديدي (٢٠٠-٣٣٠ ق.م).

أما بالنسبة للعبانيين الذين وصلوا إلى فلسطين في وقت ما من القرن الثالث عشر ق.م. فقد استمروا في التجوال كقبائل غير مستقرة ولم يسكنوا المدن كما لم يتمكنوا من احتلال أية مدينة كنعانية مهمة حتى عهد داود في أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن العاشر ق.م.^(٣١) ومع نهاية القرن الثالث عشر ق.م. استقر العبرانيون في المناطق الجبلية على جانبي نهر الأردن حيث كان من الصعب عليهم اختراق قوة الكنعانيين العسكرية والذين يملكون العربات الحربية ونحن نعرف من حفريات تل التسلم (مجدو) وبيسان، أن هاتان المدينتان الكنعانيتان قد قاومتا العبرانيين لأجيال عديدة^(٣٢).

وكان احتلال مدينة أريحا من قبل العبرانيين قد لعب دورا بارزا في عملية دخولهم إلى فلسطين والمسجل في سفر يشوع^(٣٣). وإذا قبلنا تقدير التوراة بأن الدخول إلى فلسطين قد حدث قبل ٤٤٠ عاما من بناء الهيكل الذي بني عام ٩٦٠ ق.م. وجب علينا القبول بأن أريحا قد دمرت حوالي ١٤٠٠ ق.م، وإذا قبلنا آراء الباحثين الذين حاولوا التوفيق ومقارنة الأحداث مع التاريخ المصري، وجب علينا أن نقبل تاريخ ١٢٦٠ ق.م. كذلك هناك فترة طويلة قبل تأسيس المملكة العبرانية المتحدة حوالي ١٠٠٠ ق.م. وهذا يؤكد بأن دخول العبرانيين إلى فلسطين لم يكن بقوة كبيرة بل بواسطة مجموعة صغيرة ركزت نفسها في البلاد وضمت تحت لوائها بالتدريج القبائل المتحالفة والخابرو وآخرين غيرهم بواسطة توحيد المعتقدات الدينية.

لذلك يجب أن لا نندهش إذا لم تزودنا الشواهد الأثرية بأدلة على غزو كبير معاصر لغزو وتدمير مدينة أريحا^(٣٤). وكان قد اعتقد في الحفريات السابقة بأن الأسوار الدفاعية لمدينة العصر البرونزي الحديث في أريحا قد تم اكتشافها، وقد دمرت بسبب الهزات الأرضية والنار في عهد يشوع، ولكن لقد أصبح في ضوء الحفريات الجديدة بأن هذه الأسوار قد أخطأ في تأريخها ولها تعود للعصر البرونزي المبكر، وبدون أي شك فقد طمرت بين مخلفات العصر البرونزي المتوسط والتي لم تكتشف حتى الآن^(٣٥). ومن الثابت حاليا لدى علماء الآثار بشكل عام بأنه لا يمكن الاعتماد على التوراة من الوجهة التاريخية لأنها تمثل وجهة نظر العبرانيين فقط، حيث يقول عالم الآثار الهولندي الشهير هنريكوس فرانكن: "ان مفهوم العبرانيين (الاسرائيليين) الخاطئ للقضايا العربية وحقوق شعب فلسطين في عصرنا الحاضر لا يختلف عنه في العصر القديم"^(٣٦).

ويضيف فرانكن قائلا: ان أساس العلة في إقدام علماء الآثار التوراتية على تحريف التاريخ، هو أن الدراسات الأثرية التي تعالج الفترات التاريخية السابقة للعصر المسيحي تركز على الإيمان بأسطورة ابتدعها كتبه التوراة عن تحركات القبائل العبرانية عبر البلدان

المعادية وما تخلل ذلك من حكايات عن حروبهم مع سكانها، وبما أن التوراة تصف الأحداث التي مرت بالعبرانيين على ألسنة معجزات من صنع يهوه إله إسرائيل، فهي في نظر العبرانيين حقائق رغم استحالة إثبات صحتها علميا وتاريخيا.

ويرجع سبب وقوع علماء الآثار التوراتية ضحية هذا المنهج الخاطئ هو رفضهم تحليل الشواهد الأثرية ودراساتها خارج الإطار الديني والعقائدي الذي يحاولون من خلاله تفسير الأحداث التاريخية والتطورات الحضارية، ومن أبرز الأمثلة على ذلك سفر يشوع الذي يتحدث عن حروب وبطولات قام بها العبرانيون أثناء دخولهم إلى فلسطين، لذا كان لابد لعلماء التوراة من إيجاد فترة أثرية تتناسب شواهدا مع الروايات الدينية فوقع اختيارهم على الدور الثاني من العصر البرونزي الحديث (١٤٠٠-١٢٠٠ ق.م) (٣٧).

وفي أواخر العصر البرونزي الحديث الدور الثاني الفترة ب كانت الإمبراطورية المصرية آخذة في التدهور وفاقدة لاحترامها في سوريا وفلسطين أما الإمبراطورية الحيثية فقد انتهت ودمرت عاصمتها بوجازكوي على إثر غزو شعوب البحر وأهمها الفلسطينيين والذين احتلوا قسما كبيرا من الساحل السوري ودمروا معظم مدنه حتى وصلوا للحدود المصرية، كذلك بدأت قوة الآشوريين بالظهور كقوة دولية مهمة في تاريخ الشرق الأدنى القديم. ومع غزو شعوب البحر لمنطقة الشرق الأدنى القديم يبدأ ما اصطلح على تسميه بالعصر الحديدي (١٢٠٠-٣٣٢ ق.م).

٢- آثار فلسطين في العصر البرونزي الحديث (١٥٧٠-١٢٠٠ ق.م)

آ- المواقع الأثرية

من أهم المواقع الأثرية التي تمثل فترة العصر البرونزي الحديث في فلسطين ما يلي:

- ١- تل المتسلم (مجدو): في الطبقتين التاسعة والثامنة
- ٢- تل أبو حوام: في الطبقتين الرابعة والخامسة
- ٣- تل الجزر: تتمثل فترة العصر البرونزي الحديث في تل الجزر في الطبقات التالية: (٤٠)

آ- الطبقة السادسة

ب- الطبقة السابعة

ج- الطبقة الخامسة

د — الطبقتين الثانية عشرة والثالثة عشرة

هـ — المنطقة الأولى

و — المنطقة الثانية

٤ — أسدود: في الطبقات ١ — ٥ وفي المنطقة ب

٥ — تل القاضي: في المنطقة هـ والمنطقة ج في الطبقة الثانية والطبقة الأولى وفي المنطقة و^(٤٢)

٦ — بيسان: في الطبقة التاسعة^(٤٣).

٧ — تل بيت مرسم : في الطبقة جـ^(٤٤).

٨ — تل الدوير (لاخيش): الطبقة الأولى

بالإضافة إلى مواقع عديدة أخرى وجدت فيها آثار تعود للعصر البرونزي الحديث مثل تعنك وبلاطة وتل الفول وأريحا وتل كاسيل (قرب تل أبيب) دعي (دير ديوان) وبنية (بيت ايل).

ب - العمارة:

تميزت المدن في فلسطين في العصر البرونزي الحديث بنظام دولة المدينة ذات الأسوار المبنية بالحجارة أو الطوب الطيني والبوابات ذات المدخل المزدوج وقد اكتشفت في مدينة تل المتسلم الأسوار المبنية بالحجارة والبوابات ذات المدخل المزدوج^(٤٦). كما اكتشفت في تل القاضي الأسوار المزدوجة والبوابات ذات المدخل المزدوج أيضا^(٤٧). أما المنازل فقد كانت مؤلفة من صف من الغرف المنفردة أو المزدوجة حول ساحة واسعة مثلما اكتشفت في تل المتسلم وتعنك وبتين، وهذه المنازل مرتبطة بنظام للمجاري والتي كانت مسقوفة ومحددة بالحجارة تحت أرضيات المنازل المغطاة بالقصارة البيضاء أو السمراء، وهذه المجاري تنقل المياه القادمة ومياه الأمطار خارج أسوار المدينة^(٤٨). وكان للمدينة معهد مثلما اكتشفت في تل القاضي والذي يتكون من قاعة تؤدي للداخل تسمى ثم القاعة الرئيسية وتسمى الهيكل ثم قدس الأقداس^(٤٩). وكذلك معبد تل المتسلم الذي يؤرخ للفترة ما بين ١٤٠٠ — ١٦٥٠ ق.م^(٥٠)، ثم معبد بيسان واللذان يؤرخان للقرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م^(٥١). وكانت جميع هذه المعابد محصنة بالأبراج الدفاعية واتجاهها للشرق، وقد وجدت معابد لها نفس المخطط في أوغاريت (رأس شمرا)^(٥٢). كما وجد معبد في تل الدوير (لاخيش) والذي يؤرخ للقرن الرابع عشر ق.م

(حوالي ١٤٠٠—١٣٢٥ ق.م) والقرن الثالث عشر (حوالي ١٢٣٠ ق.م) عندما دمرت المدينة على أثر حملة الفرعون المصري مرتباتح^(٥٣).

جـ - الفن:

يعتبر العصر البرونزي الحديث في فلسطين من الفترات الغنية بالفن، ويعكس هذا الفن تأثيرات من مصر وبلاد ما بين النهرين. وقد تمثل هذا الفن فيما يلي:

١ — تماثيل فخارية صغيرة Pottery Figurines لآلهة الخصب عشتروت، وهل بشكل عام ذات شكل بيضاوي والأيدي مرفوعة للأعلى تحمل زهرة اللوتس أو صولجان، والرأس مزين بمقصات حلزونية (لولية). والتي ربما من تأثير مصري. وهذه التماثيل الصغيرة مأخوذة من نماذج كانت منتشرة في بلاد ما بين النهرين منذ العصر البرونزي القديم^(٥٤). وقد وجد مثل هذه التماثيل في كل من بيت مرسم^(٥٥) وبيسان^(٥٦) وفي تل الجزر^(٥٧).

٢ — تماثيل كبيرة من الحجر البازليتي الأسود تمثل أسودا أو مذابح مثلما وجد في تل القاضي^(٥٨).

٣ — حلبي ذهبية أو من الالكتروم (خليط من الذهب والفضة) على شكل أنثى ذات غطاء رأس عالي أو مدالية على شكل نجمة عليها ملامح أنثى وتعود للقرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م. وقد وجدت في تل العجول (عزة القديمة)^(٥٩).

٤ — منحوتات عاجية مختلفة مثل مشط مزدوج من العاج مزخرف بشكل أسد وشجرة وقد وجد مثله في تل المتسلم ويؤرخ للقرنين الرابع عشر والثالث عشر ق.م.^(٦٠) وكذلك صندوق من العاج مزخرف بزخارف نافرة على شكل أبو الهول والذي وجد في تل المتسلم أيضا ويؤرخ للفترة ما بين ١٣٥٠—١١٥٠ ق.م.^(٦١) كما وجد أيضا في تل المتسلم تمثال عاجي لامرأة عارية ذات عيني من الزجاج بالإضافة إلى لوحة لعب من العاج^(٦٢). كما وجدت منحوتة عاجية في تل الدوير تؤرخ للقرن الثالث عشر ق.م.^(٦٣)

٥ — أطباق تقدمه خمر مصنوعة من الحجر الكلسي مثلما وجد في تل بيت مرسم^(٦٤).

٦ — أعداد كبيرة من الجعران / الجعلان ذات الطابع المحلي والمستورد (المصري) والتي وجدت في معظم المواقع التي تمثل العصر البرونزي الأخير في فلسطين.

د. النقوش والكتابات:

استعمل الكنعانيون سكان فلسطين الأصليين في العصر البرونزي الحديث حوالي أربعة أنواع من الخطوط على الأقل في كتابة لغتهم الكنعانية وهي:

- ١ — الخط الأكادي المسماري .
- ٢ — الخط الهيروغليفى المصري.
- ٣ — الأبجدية الأوغاريتية (مثل لوح طيني مكتوب بالأبجدية الأوغاريتية وجد في بيت شمس).
- ٤ — أبجدية بيلوس (بنت جبيل)

وكان الكنعانيون قد استخدموا الخط الأكادي المسماري في العصر البرونزي الحديث بشكل واسع على الألواح الطينية. وقد تم اكتشاف مجموعة من الألواح الطينية المكتوبة بالخط الأكادي المسماري وتعود للقرنين الخامس عشر والرابع عشر ق.م، في الحفريات الأثرية في فلسطين، حيث تم اكتشاف ١٢ لوحا منها في تعنك والباقي في تل الحسا وتل الجزر وبلاطة وتل التسلم وأريحا، هذا بالإضافة إلى ١٥٠ لوحا طينيا من رسائل تل العمارنة، وحوالي ٢٠٠ لوح طيني من نفس المجموعة وجدت في سوريا ولبنان^(٦٥).

هـ - الفخار:

تتميز فخار العصر البرونزي الحديث في فلسطين بأنه مصنوع بالعجلة الفخارية ومصقول نوعا ما ومزخرف بالألوان المزدوجة الحمراء والسوداء والتميزة بأشكال مقسمة إلى إطارات ودانجل هذه الإطارات رسوم لحيوانات كالغزال وطيور وأسماك وأشجار النخيل هذا بالإضافة للأشكال الهندسية المختلفة^(٦٦).

وقد دل هذا الفخار على اتساع العلاقات التجارية بين السواحل السورية والفلسطينية وبلدان حوض البحر المتوسط الأخرى كقبرص وميسينا^(٦٧).

أما الأشكال الفخارية فقد اشتملت على الأنواع التالية:

- ١ — القصعات والزبادي ذات الجوانب الدائرية أو المستقيمة أو المنحنية
- ٢ — الكؤوس والمزهريات
- ٣ — جرار الطبخ ذات الحواف المائلة للخارج أو الدائرية أو المنحنية للخارج بزاوية

- ٤ — الجرار التجارية الكنعانية ذات القواعد المقصوفة.
- ٥ — جرار التخزين
- ٦ — الجرار المزخرفة بأشكال هندسية وإطارات بداخلها رسومات حيوانات وطيور وأشجار نخيل
- ٧ — الأباريق الكبيرة
- ٨ — الأباريق الصغيرة والمكايل
- ٩ — الأباريق المخروطية الشكل
- ١٠ — الأواني الواسعة المخروطية الشكل
- ١١ — مطرات الحجاج
- ١٢ — الأسرحة الواسعة العميقة
- ١٣ — الحق الفخاري
- ١٤ — الفخار القبرصي والماسيني المستورد

و- عادات الدفن:

كان سكان فلسطين الكنعانيين في العصر البرونزي الحديث يدفنون موتاهم في الكهوف الطبيعية التي تحتويها مناطقهم الجبلية أو في قبور محفورة في الصخر وهي دائرية غير منتظمة الشكل حيث تدفن مع الميت ممتلكاته الشخصية من سلاح وكساء وغيره^(٦٨). وكانت هذه القبور رحبة واسعة تمتلئ بالحاجات الشخصية للموت لاعتقاد الكنعانيين بأنها سوف تستخدم في الحياة الآخرة بعد الموت.

كما اعتقد الكنعانيون العادة المصرية في دفن الموتى وهي الدفن في توابيت فخارية والتي يوجد على غطائها في القسم العلوي من التابوت ملامح بشرية، ومن أهم أمثلة على ذلك تلك التوابيت الفخارية التي وجدت في تل الدوير (لاخيش) والتي تعود للقرون الثالث عشر ق.م وهي من صنع محلي وعلى إحداها كتابات هيروغليفية^(٧٠).

الهوامش

- 1- R. Amiran, Ancient Pottery of the Holy Land, (Jerusalem: 1969) , p. 124.
- 2 - W.F. Albright, From The Stone Age to the Christianity, (New York), p. 202.
- 3 - Albright, 1957, p.206.
- 4 - K.M. Kenyon, Archaeology of Palestine, (London: 1956), pp. 206-207
- 5 - Albright, 1957, pp. 206- 207.
- 6 - W. F. Albright, The Archaeology of Palestine, (London: 1956), pp. 99- 100.
- 7 - J.b. Pritchard (ed.)
- 8 - Pritchard 1969, pp. 253- 254.
- 9 -Kenyon, 1970: p. 206.
- 10 - M.J.Miller, The Old Testament and the Hlstorians.
- 11 - Miller 1976 : pp 5-6.
- 12 - Pritchard 1969 : pp. 482 - 483.
- 13 - G. W. Anderson, The History and Religion of Ancient Israel, (Oxford : 1966), p. 26.
- 14 - Miller 1976 : p.6.
- 15 - M. Burrows, What Mean These Stones? (London 1957), pp. 94- 95.
- 16 - Albright 1957, pp. 208-209
- ١٧ — احمد سوسة ، العرب واليهود في التاريخ، (دمشق: ١٩٧٥)، ص ٤٩٨ .
- ١٨ — جيمس هنري برستد، انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخري، (القاهرة: ١٩٥٠)، ص ٢٠٢ — ٢٠٤ .
- 19 - W. G. Burgh, The Legacy of The Ancient World, (London:1957), p. 51
- Miller 1976: p. 84; Kenyon 1970:p.206; Anderson 1966: p.25; D. Harden, *The Phoenicians*, (New York: 1962, p.50
- 20 - Pritchard 1969 (ed.): pp. 376-378.
- 21 - L.W.B. Ress, "The Route of the Exodus" PEQS (1948- 49), p. 48.
- 22 - K. M. Kenyon, Digging Tp Jericho, (London :1957), p. 242.
- سفر العدد ٣٢ : ١٣
- 23 - Burgh 1957: p. 51.
- 26 - K. M. Kenyon, Amorites and Cannanites, (London: 1968), pp 1-3
- سفر العدد ١٣ : ٢٩، سفر يشوع ١: ٥، ٦: ١٠
- 27 - G.E. Wright, Biblical Archaeology, (London: 1957), p.83.

٢٨ - لم يكن جميع هؤلاء الحكام المحليين يشرف عليهم مفوض مصري، وإنما بعضهم.

- 29 - Albright 1957: p. 207.
30 - Wright 1957 : pp. 83 - 86.
31 - D.C. Baramki, The Art and Architecture of Ancient Palestine, (Beirut : 1969), p. 103.
32 - Albright 1956, p.112.
33 - Kenyon 1957: p.277.
34 - Kenyon 1957: pp. 258-159.
35 - Kenyon 1957: p. 262.
36 - H.J. Franken, "The Other Side of Jordan" ADAJ (1970), pp. 5-10.
٣٧ - د. عدنان الحديدي، الآثار في خدمة السياسية، حولية دائرة الآثار العامة الأردنية، مجلد ٢٢ (١٩٧٧-١٩٧٨)، ص ٩.
38 - R.S.Lamon and G.M. Shipton, Megiddon I. Seasons of 1925 - 1934,
39 - R. W. Hamilton, " Excavations at Tell Abu Hawam" , QDAP, IV Nos 1-2 (1934), pp. 1-69.
40 - W.G. Dever; H.D. Lance and G.E. Wright, Gezer I , (Jerusalem): 1970).
41 - M. Dothan, " Ashdod II-III, The Second and Third Seasons of Excavations 1965, Sounding 1967", Atiqut, IX-X (1971) , pp. 1- 222.
42 - Y.Yadin, et-al , Hazor I-II, (Jerusalem: 1958, 1960).
43 - Albright 1956: p. 96.
44 - Albright 1956: p. 96, 94.
45 - Albright 1956: p. 96.
46 - Shalum Paul M. and W.G. Dever, Biblical Archaeology, (Jerusalem: 1973), Fig. 27.
47 - Paul M. 1973 : F149.
48 - Albright 1956: p. 101
49 - Paul M. 1973: p. 77, Fig. 44.
50 - Albright 1956: p. 103
51 - Albright 1956: pp. 103 - 104; Paul M. 1973: p.76, Fig. 43.
52 - Albright 1956: p.104.
53 - Kenyon 1970: pp. 214- 215, p 1-44.
54 - Albright 1956: pp.104- 106.
55 - Albright 1956: Fig. 27; 1-5.
56 - J. B. Pritchard (ed.), The Ancient Near East, Anthology of Texts and Pictures, (Princeton: 1958), Fig. 135.

- 57 - Dever et. al. 1970: Pl- 25: A., B.
- 58 - Yadin et. al. 1958: Pl. XXX, 1,2 and 3.
- 59 - Pritchard (1958 (ed.) : Fig. 11.
- 60 - Pritchard (1958 (ed.) : Fig. 10.
- 61 - Pritchard (1958 (ed.) : Fig. 29.
- 62 - Pritchard (1958 (ed.) : Figs. 30 -31 and 48.
- 63 - Albright 1956 : p. 108. Pl. 28
- 64 - Kenyon 1970 : p. 214, Pl. 43.
- 65 - Albright 1956 : pp. 101 - 103 , Figs. 24 - 25.
- 66 - Amiran 1969 : pp.124 - 140; Kenyon 1970: pp. 200- 202.
- 67 - Kenyon 1970: pp. 200 - 202.
- 68 - Baramki 1969 : p. 101.
- 69 - John Gray, Archaeology and the Old Testament World, (London : 1962), p. 178.
- 70 - O. Tufnell et. al . Lachish IV, The Bronze Age, (London : 1958), pp. 36, 31 - 132, 248 - 249, Pls. 45 -46.

المراجع

١ — التوراة

٢ — أحمد سوسة، العرب واليهود في التاريخ، دمشق: ١٩٧٥.

٣ — جيمس هنري برستد، انتصار الحضارة، ترجمة د. أحمد فخرى. القاهرة: ١٩٥٠.

٤ — عدنان الحديدي، الآثار في خدمة السياسة، حولية دائرة الآثار العامة الأردنية، مجلد ٢٢ (١٩٧٧—١٩٧٨)، ص٦٦—١٦٦

5 - Albright, W.F. The Archaeology of Palestine, London: 1956.

6 — From The Stone Age to the Christianity, New York ١٩٥٧ ,

7 — Amiran, R. Ancient Pottery of the Holy Land, Jerusalem, 1969

8 — Anderson, G.C. The History and Religion of Ancient Israel, Oxford :1966

9 — Baramki, D.C., The Art and Architecture of Ancient Palestine, Beirut : 1969

10 — Burgh, W.G. ,The Legacy of The Ancient World, London:1957

11 — Burrows, M., What Mean These Stones? London 1957

12 — Dever, W.G. et. al, Gezer I , Jerusalem, 1970

13 — Dothan, M." Ashdod II-III, The Second and Third Seasons of Excavations 1965, Sounding in 1967, Atiqut, IX -X, 1971

14 — Franken, H.J.The Other Side of Jordan" ADAJ" 1970

15 — Gray, John, Archaeology and the Old Testament World, London : 1962

16 — Hamilton, R.W., Excavations at Tel Abu Hawam" , QDAP, IV Nos 1-2 (1934

17 — Harden, D. The Phoenicians, New York, 1962

18 — Kenyon, K.M. Digging Up Jericho, London, 1957

19 — 1968, Amorites and Canaanites, London,

20 - 1970, Archaeology in The Holy Land, London

21 — Lamon and G.M. Shipton, Megiddon I. Seasons of 1925 - 1934, Chigaco, 1939.

22 — Maxwell, J. , The Old Testament and the Historians, Philadelphia, 1976.

23 — Paul M., Shamir and W.G. Dever, Biblical Archaeology, Jerusalem: 1973

24 — Pritchard, J.B. (ed.), The Ancient Near East, Anthology of Texts and Pictures, Princeton: 1958

25 — 1969 , The Ancient Near Eastern Texts Relating to the Old Testament, Princeton

26 — Riss, L.W.B. "The Route of the Exodus" PEQS , 1948- 49

27 — Tufnell O. et. al , Lachish IV, The Bronze Age, London , 1958

28 — Wright, G.E., Biblical Archaeology, London, 1957

29 — Yadin, Y., et-al , Hazor I-II, (Jerusalem: 1958, 1960

فلسطين في العصور الإسلامية

بقلم الدكتور شاكر مصطفى

مقدمة (عروبة فلسطين قبل الإسلام)

١ — فلسطين والفتح

أ — فلسطين قبل الفتح

ب — الفتح العربي.

ج — بدايات العصر الإسلامي.

٢ — فلسطين في العصر الأموي.

أ — الحرية الدينية الكاملة.

ب — التوطن العربي السلمي.

ج — العمران.

د — الإسهام العلمي.

هـ — الاستقرار والتطور الاقتصادي.

٣ — فلسطين أيام العباسيين.

أولاً: فلسطين الولاية العباسية.

أ — السياسة العباسية (تعظيم القدس. المصالح العباسية. الأمن. التعاون).

ب — أوضاع فلسطين العامة (النكبات الطبيعية. سوء الخراج. انقطاع

التجارة. ضعف الزراعة. الثورات).

ثانياً : فلسطين الولاية الطولونية ثم الإخشيدية.

أ — التطور السكاني.

ب — الدين والمذهب.

ج — الحياة السياسية.

د — التطور الاقتصادي.

هـ — مراكز العلم.

٤ — فلسطين في العصر الفاطمي والسلجوقي.

أ — النكبات الطبيعية.

ب — الوضع السكاني.

ج — الازدواج المذهبي والحركة العلمية.

د — التدهور الاقتصادي.

هـ — سياسة الحكام.

و — الثورات المحلية.

ز — هجمات القوى الطامعة.

٥ — فلسطين بين الغزو الفرنجي (الصليبي) والعصر الأيوبي:

أ — الغزو الفرنجي الصليبي لفلسطين.

ب — المقاومة الإسلامية.

ج — تحرير فلسطين من الفرنجة.

د — الأيوبيون وفلسطين.

أولاً: النشاط الاقتصادي.

ثانياً: النشاط العلمي.

ثالثاً: النشاط العمراني.

٦ — فلسطين في ظل المماليك والعثمانيين.

أ — تغير البنى الاجتماعية — الاقتصادية والسياسية.

ب — التطور السكاني.

ج — الطوائف الدينية.

د — الحكم والإدارة:

هـ — العلماء والعلم.

و — الأوضاع الاقتصادية:

ز — الآثار العمرانية.

خاتمة.

عروبة فلسطين قبل الإسلام

هذا البلد الذي يتفق نصف سكان الأرض على تقديس ترابه كما يسكنونه في قلوبهم، عرف العرب سكاناً وأهلاً قبل قرون طويلة من معرفته لهم مسلمين فاتحين في القرن السابع الميلادي. قبائلهم المتلاحقة إلى أرض فلسطين قبل ذلك، لغتهم بلهجاتها العديدة مدتهم وقراهم، مؤسساتهم الاجتماعية والاقتصادية، رؤاهم وعقائدهم الدينية، هي التي صاغت تراث فلسطين الحضاري قروناً عديدة عديدة قبل الإسلام. آخر من وفد منهم واستقر فيما بين عصر السيد المسيح وعصر الرسول الأعظم كان الضحامة والثموديون، وبعدهم الأنباط، ثم جاء بنو حزام ولخم وعاملة وبنو القين وكلب وقضاة وبنو ذبيان وعذرة حتى جاء الغساسنة... هذه الجماعات العربية المتوالية كانت الدماء المتصلة التي وطدت عروبة تلك الأرض المقدسة قبل إسلامها وكانت ترحف باستمرار من اليمن والحجاز ومن بادية الشام لتنتشر في جنوب فلسطين أو على طول وادي الأردن ثم توغل في الريف الفلسطيني الخصب.

وبالرغم من أن الدوافع الأساسية لهذا التحرك العربي من الجنوب والشرق باتجاه الشمال والغرب كانت دوافع اقتصادية لعبت الدور الأساسي سنوات المحل والأحداث الطبيعية والتكاثر الديمغرافي ومغريات الأرض الخصبة وطرق التجارة وجاذبية المراكز الحضرية إلا أن القرابة الاثنولوجية كانت بدورها بين العوامل الأساسية لأنها كانت تجعل التوغل العربي المتزايد في فلسطين أكثر فأكثر سهولة وإغراء. وكلما زادت كثافة الجموع العربية كانت عملية التوغل تصبح أكثر سلمية وأسهل انسجاماً واندماجاً مع المجموع السكاني. وإذا كانت المحاور التي تحركت عليها هذه الهجرات العربية هي محاور الطرق التجارية نفسها وكانت مراكز تجمعها هي عقد طرق المواصلات ذاتها (مثل غزة والبصرة وبصرى ومؤتة وأيلة وأذرعات) وكانت الأعمال التي مارستها فيما بين الوصول والاستقرار النهائي هي الأعمال والخدمات التجارية من حراسة قوافل وتأجير ركائب ونقل وإيواء وتمويل... إذا كان ذلك كله فإن الجموع العربية الجديدة كانت تتحول بالتدريج إلى الاستقرار الزراعي وتندمج في خلايا المجتمع الريفي القروي القلم لتشكل جزءاً لا يتجزأ منه.

الملاحظة الهامة هنا أن هذا التحرك العربي المستمر لسكنى فلسطين كان يزيد باستمرار في انفصام المجموعة السكانية الأصلية في فلسطين (من آراميين وكنعانيين وعرب) عن المجموعة الحاكمة من الروم وبقايا الرومان. فبالرغم من بعض التمازج الثقافي

والاثولوجي بين المجموعتين، فقد كان الانفصال واضحاً بينهما في اللغة والكتابة والتراث الثقافي، فللسكان اللغة الآرامية وتراثها، وللحكام الإغريقية وما تحمل من الماضي العلمي والفلسفي. كما هو واضح في السكنى، فلكل منهما مدنه الخاصة، أو أحيائه في المدن المشتركة. وفي الوظيفة والبنى الاجتماعية — الاقتصادية فللسكان الزراعة والحرف والتجارة وللروم الإدارة والجندية. وإذا كانت الحضارة الإغريقية الرومانية قد انتصرت على الشرق بالعلوم والفلسفة فقد انتصر الشرق عليها بالروح حين تبنّت دول الروم البيزنطية الديانة المسيحية.

وقد انتهى الحكم الرومي (اليوناني الروماني) كله في فلسطين والشرق العربي بمحادث تاريخي انقلابي تم في سنة ٦٣٣ م هو الفتح الإسلامي الذي أنهى فترة الازدواج الحضاري في الشرق العربي وأنهى في الوقت نفسه عصر القلق والحكم الأجنبي الذي كانت تعيشه المجتمعات العربية المستقرة في ظل الحضارة اليونانية — الرومانية والسيطرة الرومية الدخيلة.

وإذا كانت الفترة التي امتدت منذ فتوح الإسكندر (أواخر القرن الرابع ق.م) حتى الفتح الإسلامية (في القرن السابع) قد حاولت توجيه الشرق — العربي نحو الغرب وما وراء البحر فإن تتابع الزحف العربي المستمر من البوادي العربية إلى الأطراف الخصبية والذي بلغ لحظته الحاسمة في الفتح العربي الإسلامي قد حفظ وثبت في فلسطين (كما فعل في الشام كله وفي العراق ومصر) هويتها الحضارية العريقة وردها نهائياً نحو الشرق وإلى العرب. وبالرغم من أن الشرق العربي (والشام خاصة) كان مهد المسيحية التي تبنّاها الغرب كله من خلال روما وبيزنطة من جهة، وبالرغم من أن بلاد الشرق (ومنه فلسطين) قد ارتبطت بماتين العاصمتين حضارياً وسياسياً قرونًا طويلة، فإن السرعة التي قطع بها هذا الشرق صلاته معهما ليرتبط بمكة والمدينة، بعد الفتح العربي الإسلامي، قد برهنت على أن الفترة اليونانية الرومانية كانت ظاهرة دخيلة على هذه البقاع العربية وفترة عارضة في مسيرة حضارة عريقة واحدة ومتطورة لم تنقطع رغم الحكم السياسي الدخيل. وقد جاء الفتح العربي الإسلامي ليضع نقطة الختام لتلك الفترة الدخيلة العارضة.

١ — فلسطين والفتح

أ) قبيل الفتح:

قبيل أن يبدأ الفتح بقليل من السنين كانت عدة أحداث سياسية وسكانية ودينية وإدارية في فلسطين (والشام) قد جاءت تعمل لمصلحة هذا الفتح:

فأما من الناحية السياسية فقد كان السلاف يرهقون إمبراطورية الروم البيزنطية بالحروب منذ سنة ٥٩٢ ثم ازدواج الخطر عليها بتحريك الفرس الساسانيين ضدها منذ سنة ٦٠٥، وقد استطاع هؤلاء، رغم الجهود التي بذلها الإمبراطور هرقل أن يدخلوا الأناضول وسورية معاً سنة ٦١٣، ثم أن يحتلوا دمشق ثم القدس ويشعلوا فيها الحرائق ويدمروا المدن ويستولوا بين هذا وذاك على خشبة الصليب. ثم تحركوا سنة ٦١٩ فاحتلوا مصر.. وإذا استطاع هرقل بعد سنوات من القتال أن ينتصر سنة ٦٢٧ ويسترد الشام ومصر ويحتفل الاحتفال الباذخ في القدس نفسها بإعادة خشبة الصليب إلى المدينة المقدسة (أيلول سنة ٦٢٨) فإن قوى بيزنطة كانت قد استنفذت على نحو ما هذه الأخطار والحروب الطويلة، كما أن فلسطين نفسها كانت قد دمرت عمرياً واقتصادياً نتيجة هذه الحروب...

وأما من الناحية السكانية : فإن الغزو الفارسي قد ذهب في القدس وحدها بحوالي ٩٠ ألف ضحية كما هدم الأديرة والكنائس بما فيها من ثروات وأموال ونكل بالسكان أشد تنكيل حتى عدت الأقوات وانتشر الجوع للدرجة التي أكل فيها الناس الجيف وجلود البهائم... وقد اشترك اليهود مع الفرس في ذلك كله، وكان لهم «اليد الطويل في عمليات الدمار والنهب السلب والقتل. وقد سبي الفرس كثيراً من نصارى البلاد فبادر اليهود إلى شراء عدد كبير من المسيبيين يتراوح عددهم بين ٨٠ و ٩٠ ألفاً وذبحوهم....»^(١).

وبالرغم من أن الإدارة الفارسية عادت فعطفت على السكان وسمحت ببناء الكنائس وعودة الأسرى... وأتمت عملية استرضائهم بطرد اليهود من القدس، إلا أن القاعدة السكانية في فلسطين كانت على أي حال قد أصيبت بالكثير من الدمار.

وأما من الناحية الدينية : فإن الكنيسة في سورية التي كانت قد اتخذت لنفسها اللغة الآرامية لغة صلاة معبرة بذلك عن شخصيتها الذاتية مقابل الكنائس الأخرى التي اتخذت

^(١) يوسف الدبس — تاريخ سورية، المجلد ٤، ج ٢، ص ٥٤٧.

اللغة اليونانية، عبرت عن هذه الشخصية مرة أخرى بتبنيها مذهباً خاصاً بها هو المذهب المونوفيسي أو اليعقوبي^(٢) الذي رفضته السلطات البيزنطية وكان من نتيجة الصراع بين الطرفين أن غدا المجتمع السوري المسيحي معادياً من الناحية الروحية للسلطات الحاكمة يرى في أي انقيار سياسي أو عسكري لها عقوبة إلهية مبررة.

كانت المونوفستية تعبيراً عن انفصال الحضارة السورية عن الفكر المسيحي الهليني الذي تمثله إنطاكية وبيزنطة وروما معاً كما لم تكن الكنيسة في نظر السوريين — فيما يبدو — "مؤسسة دينية" ولكن تعبيراً عن عاطفة قومية وفنية "ضد الحكام الغرباء"^(٣).

وأما من الناحية الإدارية: أخيراً فإن الحدود بين سورية الجنوبية والبادية كانت عملياً عاجزة الحراسة، فالنظام الروماني القديم الذي كان يصطنع بعض القوى البدوية على الحدود وينصبها للحماية كان قد انتهى منذ مطلع القرن السابع وانتهى معه الحكم الغساني حين قطعت بيزنطة إعاناتها المالية. والعمال العرب الذين نصبهم هرقل في فلسطين والحدود من أمثال امرئ القيس "دوق غزة والبحر الميت" وفروة بن عمرو النافري الجذامي في معان، لم يكونوا يستندون إلى قوى قبلية واسعة بل إلى قوى نظامية محدودة وقد سحبت هذه القوى لمواجهة الحروب مع الفرس، كما أن الإرهاق المالي والعسكري قد أدباً إلى إهمال الحصون والمواقع الدفاعية للمقابلة للبادية وإلى إكراه الرعايا على إعادة دفع الضرائب التي كانوا دفعوها للفرس أيام الاحتلال مما ملأهم بالملق والنفور.

وقد كان هرقل منتهياً من احتفالاته بخشبة الصليب المقدس حين جرت غزوة بالقرب منه على موقع صغير في شرقي الأردن هو: مؤتة. ثلاث آلاف رجل كانوا قوام الغزوة ولم يعودوا من هجومهم هذا بشيء بل تركوا قائدهم زيد بن حارثة قتيلاً. وإذا لم يعر هرقل هذه المهجمة البدوية سنة ٦٢٩ أي التفات فقد كانت في الواقع مطلع المد العربي الإسلامي المقبل..

ب) وقائع الفتح العربي الإسلامي:

وقائع الفتح تتالت بالسرعة الخاطفة خلال سنوات ليست تعد شيئاً في عمر الأمم. فقد توفى الرسول (ص) بعد أن فرض نفوذ الإسلام عبر غزوة تبوك سنة ٦٣٠ في بعض المواقع شمالي الحجاز: أيلة ومقنا على البحر الأحمر واذرح والجرباء في البادية الأردنية..

^(٢) مذهب الطبيعة الواحدة وينسب إلى يعقوب السروجي (البرادعي).

^(٣) حتى — تاريخ سورية ولبنان. ج ٢، ص ١٤.

وبعد ثلاث سنوات كانت ثلاثة جيوش تدخل المنطقة نفسها ولا تزيد في عدد رجالها — مع الإمدادات التي رفلها فيما بعد — عن ٢٤ ألف مجاهد عبر بعضهم وادي العربة ليهزم سرجيوس بطريق فلسطين ويقتله ويصبح سيد الجنوب الفلسطيني (عدا قيسارية) بينما ظهر خالد بن الوليد بغتة أمام أبواب بصرى وجعل المنطقة ما بين جنوب دمشق والحجاز في يد العرب. ولما انتصر الفاتحون على ما اجتمع من الجيوش البيزنطية في أجنادين بعد ذلك (تموز سنة ٦٣٤) كانت فلسطين كلها هي ثمن النصر. لأن القوى العربية طاردت الروم إلى بيسان ثم فحل ثم أخذت منهم دمشق (أيلول سنة ٦٣٥) ولاحتقتهم إلى ما بعد حمص... ولما ارتد جيش الروم ردة واحدة يريد، عن طريق البقاع ثم الجولان، أن يقطع طريق العودة على هذه الجموع المندفعة مع ركض خيولها في سورية عادت القوى العربية فأذاقت الروم هزيمتهم التي أخرجتهم نهائياً من سورية: اليرموك (آب سنة ٦٣٦).

وفيما بين أجنادين واليرموك كانت القوى العربية تتوغل في أنحاء فلسطين وتستصفي المواقع من الجنوب إلى الشمال. القائد الأول الذي نصب ألوياً العربية والإسلام فوق مدنها هو عمرو بن العاص. وبينما كانت بقايا قوى الروم تنكمش إلى قيسارية والقدس وكان شرحبيل بن حسنة الكندي يفتح بيسان وطبرية، انطلق عمرو بن العاص إلى غزة يفتحها ثم ترك معاوية بن أبي سفيان على قيسارية ليستغل فراغ البلاد من الحاميات الرومية في الشمال فيفتح سبسطية ثم يمضي إلى نابلس فيفتحها بالأمان ويحترق أعلى وادي الأردن إلى مرجعيون ثم يعود فيستغل حالة الحصار المضروبة على القدس ليفتح مدن فلسطين الوسطى: اللد، بيت جبرين، ويبي وعمواس ثم يافا على السهل في ضربات متلاحقة انتهت بحصار أيلياء / القدس على يد عمرو بن العاص وأبي عبيدة بن الجراح. وتركت فلسطين في أيدي العرب... في الوقت نفسه وعلى الطريقة نفسها كلن الزحف العربي يجري فيما وراء فلسطين، واستصفي الفاتحون بلاد الشام الأخرى في سرعة خاطفة. ولم تشذ في المصير عن فلسطين التي أعطيت مدنها الأمان على الأنفس والأموال، سوى المدينتين اللتين تركت فيهما قوى المقاومة: القدس لمكانها الديني من المسيحية وقيسارية لطابعها الإغريقي (وإن كان بها خلق من العرب)... صمدت القدس فترة ثم اشترطت كي تستسلم أن يأتيها أمير المؤمنين بنفسه وجاءها الخليفة عمر بن الخطاب بالفعل، بعد أن حضر مؤتمر الجابية قرب دمشق وكتب لبطريقها صفرونيوس ولأهلها عهداً مشهوراً في التاريخ باسم العهد العمري: «أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم... أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقص منها ولا من صلبها.. ولا من شيء من أموالهم ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم ولا

يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود.. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل المدائن وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص. فمن خرج منهم فهو آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم ومن أقام منهم آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم.. فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم، ومن كان فيها من أهل الأرض فمن شاء منهم قعد وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن شاء سار مع الروم ومن رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يحصدوا حصادهم..». ودخل عمر المدينة فصلى (سنة ٦٣٨)، أما قيسارية فإن اتصالها بالبحر والروم أصحاب البحر أبقاها على المقاومة سنتين أخريين ثم سقطت سنة ٦٤٠... وثبتت منذ ذلك الوقت مسيرة فلسطين العربية في التاريخ إلى اليوم.

إن سرعة الفتح واستسلام البلاد السهل بعد المعارك الكبرى مع الروم. وهذا العهد العمرى مع كتب الأمان الأخرى للمدن إنما تكشف كلها مدى الشعور بالقرب والتفاهم بين الجموع الفاتحة وأهل البلاد المفتوحة. الروم وحدهم قاوموا والروم وحدهم هزموا وطردهم بأقصى القتال وأما أهل البلاد وفيهم الأعداد الواسعة من العرب فالتقوا مع جماعة هي منهم في الأعراق وفي اللغة وأنماط الحياة، وليست بالبعيدة عنهم حتى في الدين... التكوينات العرقية والحضارية التي ينتمي إليها الطرفان كانت واحدة. ولهذا كانت عمليات اللقاء والاندماج على أبسط وأسرع أحوالها...

ج) بدايات العصر الإسلامي:

الواقع أن الشيء الأساسي الذي تغير في فلسطين وأهلها بعد الفتح هو هوية الحكم والنظام السياسي. حل الخليفة المقيم في دمشق محل الإمبراطور المقيم في القسطنطينية وصار الحكم عرباً والجند من العرب وهؤلاء وأولئك أقرب على أية حال إليهم من أولئك اليونان والرومان، ونتيجة لهذا وذاك تغيرت ثلاثة أمور أساسية:

— المناخ السياسي والإداري الذي اتجه إلى الاطمئنان والانفتاح مع السياسة الإسلامية الجديدة.

— العلاقة الاقتصادية مع الجزيرة العربية وما وراءها بعد أن أصبحت مع الشام وحدة سياسية واحدة.

— التماثل الاجتماعي بعد أن اختفت البنى الاجتماعية الثنائية السابقة واتجه المجتمع إلى تماثله التقليدي العريق.

وأما الضرائب فلم يزد عليها سوى تعميم ضريبة الرأس على جميع غير المسلمين باسم الجزية. وأما جهاز الإدارة فبقي على حاله بكتابه وسجلاته ونظمه ورجاله من أهل البلاد. فالعرب الجدد تركوا هذا العمل "الفني" لمن سبقهم من القدماء من الموجات النبطية والغسانية والجدامية وغيرها، ولمن سبق هؤلاء من بقايا الآراميين والكنعانيين واليونان المتوطنين. ولقد بقيت سجلاتهم فترة تزيد عن نصف قرن باليونانية ثم عربت مع عبد الملك بن مروان وتعريب الدواوين...

الأمران الجديدان اللذان جاء بهما الفاتحون العرب واللذان كانا نواة الحضارة الإسلامية المقبلة: القرآن واللغة العربية. ولئن حددا مصير فلسطين العربي الإسلامي فإنه لم يجبر عليهما أحد أبداً. لقد أبقاهما الفاتحون لأنفسهم ديناً وأداة تفاهم، كما بذلوهما لمن شاء أن يقبلهما من الناس، عن قناعة ومصلحة أو طمع أو رضى. ولم تتم عمليتا الإسلام والتعريب إلا في ببطء وعلى هون في فلسطين وقد امتدتا على مدى لا يقل عن قرنين حتى تمت الغلبة لهما. ولئن سبق الدين اللغة في الانتشار فإن اللغة انتصرت في النهاية نصراً كاملاً، وأما الدين فلم يلبغ وجود المسيحية الذي ظل واضحاً، ولا سيما في المواقع المقدسة والمربطة بتاريخها الديني كالناصرة والقدس وبيت لحم.

وكان السبيل الأساسي إلى هذا الانقلاب الثقافي والروحي في فلسطين (وفي الشام كله) نقاط اللقاء الكثيرة بين الإسلام وبين دين الناس المسيحي (والمونوفيسي خاصة) ولغة الناس اليومية الآرامية... فأما في الدين فإن الإسلام جاء «مصدقاً لما بين يديه من التوراة والإنجيل»، ولا يرفض المسلمون نبوة الأنبياء ورسالتي موسى وعيسى. كما أنهم قدموا فلسطين والقدس في قلوبهم قبل أن يفتحوها، فإذا كانت مقدسة لدى اليهود والنصارى فإنها لدى هؤلاء الفاتحين أيضاً "أولى القبلتين" وثالث الحرمين، كما أنها موضع الإسراء والمعراج. وأما اللغة العربية فهي من الأسرة اللغوية ذاتها، بل هي أقرب الألسن إلى الآرامية، كما أن كتابتها التي كانت ناشئة وليدة في تلك الأوقات فإنما كانت تشتق في نوع خطوطها، من الخط النبطي الآرامي... وهكذا فإذا كانت لفلسطين مكانتها الخاصة في نفوس الفاتحين دون كل البلاد الأخرى التي فتحوها، فإن سكانها العرب كانوا معروفي الصلة بهم وكان الفاتحون يسموهم "العرب الضاحية" "المستعربة"^(١). كما أن اللهجات

* كانت هذه الضريبة موجودة في العهد البيزنطي، ولكن كان قد هرب منها سكان المدن والملاكون الكبار في الشام وبقيت على الفلاحين.

(١) انظر ابن منظور، لسان العرب. مادة عرب.

التي يتكلمونها لم تكن غريبة على أسماعهم ولا تختلف في شيء كثير منذ الآرامية حتى لهجات الجنوب اليمني عن ألسنتهم...

ومع كل هذا الوفاق، ونتيجة له، فقد عرفت فلسطين في الواقع عصراً جديداً في مسيرتها التاريخية بعد الفتح العربي استمر على الأقل قرناً كاملاً حكمها خلاله الخلفاء الراشدون من المدينة والخلفاء الأمويون في دمشق... عمر بن الخطاب وحده، من الراشدين، هو الذي عرف فلسطين بعد الفتح، زارها مرتين على الأرجح، كانت أولاهما حين تسلم القدس سنة ١٥ هـ، ثم زارها في الأخرى مواسياً منظماً للإدارة بعد ثلاث سنوات وبعد أن ضرب القحط الحجاز وغيره فيما يسمى عام الرمادة، وانتشر الطاعون في الشام فأصاب جمة المقاتلة العرب في فلسطين نفسها، وهو المعروف بطاعون عمواس، وقد هلك فيه أكبر القواد وعلى رأسهم أبو عبيدة بن الجراح وشرجيل بن حسنة ومعاذ بن جبل ويزيد بن أبي سفيان..

على أن عمر بن الخطاب في الزيارتين قام بعدد من الأعمال التي تكشف عن النظرية المميزة التي كان ينظر بها العرب من خلالها إلى هذه المنطقة، فبعد العهد الذي منح للقدس وغيرها أمر ببناء مسجد عند الصخرة المقدسة أو بالقرب منها، وقد رأى ذاك المسجد الأول وتحدث عنه بعض السواح الغربيين الذين زاروا القدس زمن معاوية^(١) أو بعده بقليل. ونظم عمر الإدارة العسكرية ونظم نزول العرب الفاتحين في فلسطين حين فرقها "على رجلين فجعل علقمة بن حكيم (الكناني) على نصفها (الشمالي) وأنزله الرملة (وهي معسكر) وعلقمة بن مجزر على نصفها (الجنوبي) وأنزله إيلياء، فترل كل واحد منهما في عمله في الجنود التي معه...". ويمكن أن نرى في هذه الأعمال العمرية الخطوط الأولى والأساسية للسياسة التي اتبعتها الأمويون، بعد ذلك تجاه فلسطين.

(١) كالسائح أركولف الفرنسي، وبعده بقليل زارها السائح المؤرخ جيروم (تقلاً عن عارف العارف — المفضل في تاريخ القدس، ص ٩٨).

٢ — فلسطين في العصر الأموي

الخلفاء الأمويون الأربعة عشر، الذين توالوا على العرش واحداً وتسعين سنة (١٤ — ١٣٢ / ٦٦٠) كان أطولهم عهداً وأبرزهم في الوقت نفسه ثلاثة: معاوية وعبد الملك وهشام. حكم كل منهم عشرين سنة أو تزيد. ويعد لهم في الشأن، وإن لم يكن بطول العهد، الوليد بن عبد الملك، الذي حكم عشر سنوات. وأولهم معاوية سبق خلافته بعشرين سنة من الولاية في الشام كله. وقد جعل من ولايته القاعدة التي استند إليها في الصراع مع الإمام علي للوصول إلى الخلافة، وحين اتفق الطرفان على التحكيم اختاروا موضعاً من شرقي الأردن للقاء الحكيمين هو "اذرح". أما حين قرر معاوية إعلان خلافته فلم يجد مكاناً يعدل في نظره مكانة المدينة أو مكة وقديستهما الدينية في قلوب المؤمنين إلا القدس، فذهب إليها وأعلن فيها خلافته وبايعه الناس من بعد.

وعرفت فلسطين بعد ذلك أحد عصورها الذهبية، فقد أضحت جندين من أجناد الشام الأربعة، التي هي أركان العرش الأموي. فللشمال جند حمص وجند دمشق وللجنوب جند الأردن وقصبتها طبرية ومن مدنه صور، عكا، اللجون، بيسان، أذرعلت، وجند فلسطين وقصبتها الرملة. ومن مدنه بيت المقدس وبيت جبرين، غزة، عسقلان، أرسوف، قيسارية، نابلس، أريحا، عمان. وأما المنطقة الباقية فهي أرض الشراة الممتدة من مواب إلى معان واذرح وأيلة وتبوك.

وكما أضحت فلسطين إحدى المناطق المركزية الهامة في إمبراطورية تمتد من الأطلسي حتى نهر السند. كذلك فقد غدت السند الديني والموقع الأقدس في أعين الخلفاء، بعد أن تقطعت جذورهم وركائزهم في المدينة ومكة وكسبوا في أكثر من مناسبة عداءهما وحاربوهما وحاربتاهما مرات. وهكذا عاشت فلسطين قرناً ساد فيه:

١) الحرية الدينية الكاملة : فالجمهرة العظمى من السكان كانت على المسيحية، وهي لم تكن مطمئنة فقط إلى عدم إجبارها على الإسلام، ولكنها اطمأنت إلى أمر آخر طالما قاست منه في العهد البيزنطي، هو التدخل الرسمي الحكومي في أمر العقيدة، والصراع مع التوجيهات الدينية الإمبراطورية ومع من تختاره الدولة لرئاسة الكنيسة. ذلك الاضطراب، أو الصراع المقيت القديم مع السلطات الرسمية انتهى، وترك الأمويون لهم اختيار أساقفة منهم. ونجت فلسطين خاصة من الأزمة الحادة التي أثارها الإمبراطور ليو الأيسوري بإعلانه اللايقونية، والتي استمرت ترهق بيزنطة أكثر من قرن، ومع أن المبادئ الإسلامية تحبذ اللايقونية وتتفق معها فإن أكبر لاهوتي مسيحي دافع عن

الأيقونات، عاش في ظل الخلفاء الأمويين وتمتع بصداقتهم وناقش المسلمين في القضاء والقدر، وهو يوحنا الدمشقي، الذي قضى أيامه في دمشق، وقضى الشطر الأخير من حياته في دير القديس سابا قرب القدس (سنة ٦٧٠ — ٧٤٩). وإذا كان هذا يدل على مدى الحرية والنشاط الفكري الذي تمتع به المسيحيون في الشام (وغيره) في ظل الأمويين، فلقد يدل على هذا وذاك أيضاً أن الفترة الأموية نفسها أرسلت إلى روما من سورية خمسة بابوات توالوا على العرش البابوي^(١). وقد زار فلسطين في العهد الأموي حجاج من أوروبا كتبوا عن رحلاتهم، ومنهم أركولف الغالي، الذي حج زمن معاوية وويليالد السكسوني، الذي حج زمن هشام. وقد تحدث الاثنان عن القدس الملأى بالبائع والكنايس ذات التزيينات الرائعة بقناديلها التي لا تحصى من الذهب والفضة، وعن السوق التي تقام سنوياً في عيد الصليب^(٢).

إن هذه الحرية الدينية لم تؤخر عملية التحول للإسلام فقط، ولكنها حافظت على الجماعات الذمية القديمة ومكنتها من البقاء عبر القرون. المرة الوحيدة التي عومل فيها المسيحيون بالشدّة إنما كانت لسبب سياسي: فقد أجبروا على اللغة العربية وحدد تنقلهم إلا بجواز مسبق، ودفع الرهبان الجزية، وإنما كان ذلك لرفضهم معونة الوليد بن عبد الملك على فتح القسطنطينية^(٣).

٢) **التوطن العربي السلمي في البلاد :** فقد ألغى الفتح تلك الحدود والحصون والحاميات الصحراوية بين البادية وفلسطين وجعلها أرضاً مفتوحة لأفواج بعد أفواج من "الجالية" العربية. وإذا كانت أوائل الجماعات في التوطن هي من الجنود الذين أنزلهم عمر منازلهم في الرملة وطبريا، أو أنزلهم معاوية في عسقلان وقيسارية، وقد ذهب بمعظم الأوائل طاعون عمواس، وطرد الروم ذات مرة الآخرين من قيسارية، إلا أن المدد البدوي العربي كان متصلاً بشكل يعوض كل خسارة في الطاعون أو القتال، وإذا انتعشت العناصر السكانية القديمة (الآرامية — الكنعانية) بهذا المدد وتقوت على بقايا العناصر الأجنبية اليونانية، فإنها في الوقت نفسه بدأت مسيرة الاستعراب البطيء. أما العناصر العربية فيبدو أن القبائل اليمنية السابقة للإسلام من مثل لخم وجذام وعاملة والأزد قد

^(١) هم يوحنا الخامس (٦٨٥ — ٦٨٦). سرجيوس (٦٨٧ — ٧٠١). سيسينيوس (٧٠٨). قسطنطين (٧٠٨ — ٧١٥). غريغوار الثالث (٧٣١ — ٧٤١).

^(٢) انظر H. LAMMENS, LA SYRIE (Beyrouth 1921) I. P. 114.

^(٣) تاريخ الكنيسة الرسولية الأورشليمية لخليل ابراهيم قزاقيا. ص ٥٨. (نقلاً عن عارف العارف — المفضل في تاريخ القدس، ص ١١٦).

تكاملت بطولها وتقوت بعد الفتح بأخرى من مثل حمير وهدان وطى ومدحج، فكان شيخ تلك القبائل أمثال ثابت بن نعيم والحكم بن ضبعان زعماء فلسطين أواخر العهد الأموي، في الوقت الذي كانت فيه قبائل كلب تتوسع ويزحف زاحفها من بوادي تدمر ودومة الجندل باتجاه بادية فلسطين وأراضيها، كما تكثر أعدادها وتتكاثر في حوران والبقاع وشمال فلسطين.

وقد أضيفت إلى هذه الجموع اليمانية السابقة واللاحقة جموع قيسية من عرب الشمال بعضها قرشي وبعض من كنانة وثقيف وعدي وربيعة وحنيفة، وقد نزل هؤلاء وأولئك في البلاد جنوباً في معسكرات، ثم كانت المعسكرات تفرغ تدريجياً بانتقال من فيها إلى المدن والقرى. وهكذا مثلاً فرغت الجابية وعمواس والرملة وكان الجند ينتقلون دوماً مع أهلهم وذرايهم ويستوطنون في المنازل التي يقطعهم إياها الخلفاء والسلاة، وتقدر أعدادهم في فلسطين مع الذراري بحوالي ٤٠٠ ألف^(١)، وقد يكونون أكثر بكثير بما كان يرفدهم دوماً من "الجالية" ويعوض عن الراجلين لجهات القتال. وقد تداخلت المنازل القيسية باليمانية في كل محلة، وإن ظلت الكثرة العددية للجماعات اليمانية، وبخاصة لقبائل كلب، التي نجدها في نهاية القرن الثاني قد غلبت في فلسطين، حتى لقد كانت جيوش الشام، مرة عند الجزيرة فصاح صائحها: «يا معشر كلب.. شامكم شامكم. داركم داركم الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري (أي من الجزيرة).. ثم سار وسار معه عامة أهل الشام»^(٢). على أن العصبية القبلية ما بين قيس وبين قد مزقت هذه الجماعة العربية وأثارت بينها التراع الدموي، وبعض أسباب العصبية سياسي، إلا أن جانبها الآخر والأهم اقتصادي يتصل بالزحام على التزل في الأماكن الأكثر خصباً، وتملك الأمراء الأمويين وأشراف القبائل للقرى الغنية وإدارتها بالوكلاء وضيق الأراضي بالآخرين وبالقادمين الجدد... وقد أخرجت هذه العصبية عملية الاستعراب والإسلام وحصرها مدة طويلة في مناطق المدن خاصة والقرى المجاورة لها وفي الثغور. وإذا كان التكاثر السكاني المتصل في فلسطين قد دفعها إلى الفتن أواخر العصر الأموي، كما أورتها الإصابة ببعض الأوبئة أكثر من مرة في تلك الفترة، فإنه قد دفع هذه المجموعات

(١) الطبري. ج ٢. ص ٤٢٧. (٣/٨٤٤ - ٨٤٥).

(٢) حتى - تاريخ سورية ولبنان. ج ٢. ص ٩٦. يجعل عدد المسلمين في سورية كلها في القرن الأول حوالي ٢٠٠ ألف، معتمداً على أن جند حمص أيام مروان بن الحكم بلغ ٢٠ ألفاً، وأن جند دمشق أيام الوليد الأول كان ٤٥ ألفاً. وهذه الأرقام لا تمثل في الواقع أفراداً وإنما تمثل أسراً، فالجندي كان يتحرك مع عائلته. وأجناد الشام الأربعة (ثم الخمسة) كانت على الأرجح لا تقل عن ٢٠٠ ألف أسرة.

العربية إلى التوغل والانتشار المتزايد في الريف والعمل في الزراعة وإلى النقلة بأنفسهم من ملاكين مستثمرين، ومقاتلة متمركزين في بقاع محددة، إلى مزارعين يزاولون الزراعة ويستثمرون الأرض وينظمون فيها الري ويزيدون اتساع القرى ويحيون الموات.

٣) العمران : فقد صرف الأمويون جهدهم لجعل المنطقة ما بين دمشق وجنوب الشام جنتهم المصطفاة، ولعله ما من عهد في الإسلام — عدا المملوكي — منح فلسطين من العناية ما منحها العهد الأموي، الذي أعطاهما أجمل آثارها، وخاصة في القدس لمكانتها الدينية، ولأن للأمويين أسبابهم في إبراز تلك المكانة. وعبد الملك بن مروان بادئ تلك الحركة العمرانية الواسعة، حين أعطى القدس واحداً من أروع أبنية الإسلام: قبة الصخرة سنة ٧٢ هـ^(١). وشرع ببناء المسجد الأقصى، الذي أمه ابنه الوليد. ويسدو أن الأمويين أقاموا عدداً من القصور في المدينة، فقد كشفت الحفريات الحديثة سنة ١٩٦٩ — ١٩٧٠ وراء الزاوية الجنوبية الغربية للأقصى عن أربعة قصور أموية مسورة غنية بالزخارف بعضها من بناء الوليد. وأرض الشوارع الفاصلة بينها وبين المسجد مبلطة بالحجارة. كما بنى الأمويون أسوار القدس وعكا، وشيدوا في الخليل الحرم الإبراهيمي، فكان المسجد الرابع في الإسلام، وربما كان ذلك في عهد عبد الملك، الذي بنى أسوار عسقلان أيضاً وحصنها ورمم قيسارية حين هاجمها الروم من البحر، وهدموا مسجدها، فأعاد بناءه وشحنها بالرجال وأقطعها الروابط. وأهم ما تم بعد عبد الملك في فلسطين بناء مدينة الرملة رابع مدن الإسلام العظيمة الباقية، وكانت معسكراً منذ العهد العموي، وحين ولى الولي بن عبد الملك أخاه سليمان جند فلسطين أحدث مدينة الرملة ومصرهه وكان أول ما بنى منها قصره والدار التي (كانت) تعرف بدار الصباغين، وجعل في الدار صهريجاً متوسطاً. ثم اختط للمسجد (الجامع) خطة وبناءه، فولى الخلافة قبل قبل استتمامه، ثم بنى فيه بعد في خلافته ثم أمه عمر بن عبد العزيز. ولما بنى سليمان لنفسه أذن للناس في البناء، فبنوا واحترق لأهل الرملة قناتهم التي تدعى بردة واحترق آباراً وولى النفقة على بنائها بالرملة وبناء مسجد الجماعة كاتباً له نصرانياً من أهل اللد يقال له البطريق بن النكا.. «وكان بنو أمية ينفقون على آبار الرملة وقناتها بعد سليمان..». «وكانت اللد هي المدينة التي يترها الناس قبل ذلك فأخذهم (سليمان) بهدم منازلهم والبنين في الرملة وعاقب من امتنع عن ذلك وقطع الميرة عنهم حتى انتقلوا إلى الرملة». وقد أراد سليمان من ذلك أن يجعل الرملة عاصمته للخلافة أي عاصمة الدنيا. وقد فعل. ولكن ذلك لم

(١) انظر في وصفها المقدسي البشاري — أحسن التقاسيم، ص ١٦٤ — ١٦٥. وانظر في بنائها البلاذري، فتوح ج ١، ص ١٧٠. واليعقوبي ج ٢، ص ٢٩٣.

يطل سوى أربع سنوات فقد مات سليمان وشيكاً ولكن الرملة من بعده ظلت عدة قرون قسبة فلسطين، بمركزها التجاري الزراعي وقرائها ومعاشها ورباطاتها وحماماتها ومساجدها وشوارعها الواسعة الأنيقة وبخاصة جامعها الذي كان يسمى بالأبيض، وقد بناه هشام بن عبد الملك وبقي حتى القرن الرابع الهجري «أهى جوامع الإسلام، ليس في جوامع الإسلام أكبر من محرابه، وليس بعد منبر منبر بيت المقدس أحسن من منبره»^(١).. حتى هدمته الزلازل سنة ٤٢٥ — سنة ١٠٣٣. وعنى الأمويون وخاصة منهم عبد الملك بمد الطرق في فلسطين وربطها بدمشق ولدينا عدة أحجار أثرية من الصوى التي كانت مقامة على جوانب الطرق لتحديد الأميال عليها. وقد زرت البلاد منذ وادي الفصور حتى أقصى البادية بالقصور، يقضيها الأمويون الربيع خاصة. وثمة أطلالها الكثير. فهناك قصر الصنيرة في الجنوب الغربي من بحيرة طبرية مشق معاوية وعبد الملك، وقصر خنان المنية، في الشمال الغربي من بحيرة طبرية للوليد بن عبد الملك، وقصر رائع في خربة المفجر شمال أريحا لهشام بن عبد الملك، وفيه التماثيل له ولجواريه والزخارف الدقيقة بالحص ولوحات الفسيفساء الرائعة. وهناك على سيف البادية قصران للوليد الثاني: قصر المشق وقصر الطوبة جنوب عمان، وثلاثة قصور للوليد الأول: قصر عمرة المدهش في رسومه وزخارفه وقصر الحوانة في وادي السرحان وقصر البرقع وغيرها... ومن المؤسف أن الزلازل القاسية التي ضربت البلاد سنة ١٣٠ / ٧٤٧ م قد دمرت الكثير من هذا العمران. ثم ذهبت الدولة الأموية وعناية الأمويين بها فقط، ولكن تكشف أيضاً الخطوات الأولى والوطيدة للمدرسة المعمارية العربية كما تكشف في الوقت نفسه ما هو أهم وهو حرية تقبل العصر الأموي للتصوير والنحت واستخدامهما الواسع في تزيين القصور وتصوير الخليفة وحياته الخاصة، ومدى الحس المدني والحضاري الذي كانت تتمتع به مجموعات الأمراء الأمويين والشخصيات العربية الكبيرة التي سكنت فلسطين وأعادت عمرانها. وكلها أمور لم تظهر في أي مكان من العالم الإسلامي يومذاك ظهورها في فلسطين.

٤) **الإسهام العلمي:** ساهمت فلسطين، بوصفها من الأقاليم المركزية في الدولة الإسلامية، مع مصر والشام والحجاز والعراق، في نشوء الفكر الإسلامي. وشهدت هذه البلاد خطواته الأولى فيها كما في غيرها. وبينما كانت بقايا علوم الأوائل تبعث بآخر أضوائها في أمثال القديس يوحنا الدمشقي، رجل الفكر اللاهوتي المسيحي وماريانوس المقدسي، الذي ترجم عنه خالد بن يزيد ما ترجم من الكيمياء والطب والفيزياء، كانت العلوم الإسلامية بالمقابل تبدأ انطلاقها على الخطوط نفسها التي سلكتها في الأمصار

الإسلامية الأخرى: فذلك العدد الواسع من الصحابة ومن التابعين وتابعي التابعين الذين نزلوا فلسطين، حملوا إليها بدورهم، القرآن والحديث وأوجدوا فيها علوم القراءة والتفسير، حسب المدرسة الشامية، ونما على أيديهم بعد ذلك علم الفقه وكان منهم القراء والمفسرون ورواة الحديث وأهل الفقه والقضاء والزهد.

وإذا لم يؤثر عن الصحابي الأقدم تميم الداري سوى الإقطاع الخيري الذي استمر عبر القرون الإسلامية موقوفاً على السابلة في الخليل، فإن فلسطين قد أطلعت في العصر الأموي عدداً من مؤسسي العلوم الإسلامية ومن هؤلاء الوليد بن عبد الرحمن الجرشي أول من أحدث الدراسة (قراءة القرآن) بفلسطين وعبادة بن الصامت والي عمر على القدس، وأول قاض بفلسطين، ورجاء بن حيوة الكندي الفقيه العالم جليس عمر بن عبد العزيز ثم رجاء بن أبي سلمة الفلسطيني وأبو زرعة بن زنباع الجذامي ويحيى بن عمرو السياني ومالك بن دينار وكلهم من كبار المحدثين.

هذا إلى بعض الشعراء مثل أوس بن أوس الشاعر الصحابي الذي سكن بيت المقدس والرملة.

٥) **الاستقرار والتطور الاقتصادي** : لم تتمتع فلسطين في ظل الأمويين بالعمران فقط، ولكن تمتعت أيضاً بما نستطيع أن نسميه: السلم العربي. وإذا تجاوزنا بعض الحركات الثورية المحدودة، أواخر العهد الأموي فقد أعطى هذا السلم لفلسطين استقراراً لم تعرفه منذ القرن الثاني الميلادي، وارتاحت البلاد من الحروب ومرت العشرات من السنين دون أن ترى فلسطين أرضها متداولة بين الفاتحين، أو مهددة بالغزو على الحدود أو مسرحاً للقتال الداخلي السياسي أو الديني. وهكذا فتح المجال لازدهار الزراعة وحفرت الآبار وفتحت الأقنية وخاصة في منطقة الرملة والغور. وكان بنو أمية يخرجون لها النفقة كل سنة. ومنحت الاقطاعات للمرابطين فأحيوا الموات منذ أيام عمر وعثمان ثم في أيام معاوية وعبد الملك والوليد وسليمان وهشام. وبعض هذه الاقطاعات كان مفرزاً من خراج العامة، أي مخففاً عليه الضريبة بسجلات من الخلفاء بقيت حتى العهد العباسي^(١). وهكذا صارت حتى المناطق الجنوبية من فلسطين (كما شهدتها الرحالة الغربي أركولف أيام معاوية) أرضاً خصبة مزهرة. ونشير هنا إلى أن القصور الأموية في غور الأردن وباديته لم تكن قصوراً للراحة ولكنها أيضاً مشاريع زراعية استثمارية أيضاً

(١) انظر البلاذري — فتوح البلدان (طبعة المنجد). ج. ١. ص. ١٧٠ — ١٧١.

بدليل ما بقي منها إلى اليوم من آثار الأقيّة والصهاريج والبحاري ومنشآت الري الواسعة والسدود التي تهدف إلى إحياء الموات وليس إلى مجرد إقامة الحدائق.

وقد أصبحت فلسطين، في الوقت نفسه، ممراً للتجارة العالمية التي أعانت الطرق الأموية، مع الأمن، على ازدهارها. وبنيت أول دار عربية لصناعة السفن في عكا زمن معاوية سنة ٤٦ هـ وهناك بني أول أسطول عربي وجرى في الوقت ذاته ترميم ميناء صور، ثم جدد عبد الملك بن مروان الميناءين، ونقل ابنه هشام دار الصناعة كلها إلى صور^(٢) فلما كان عهد مروان بن محمد أمر بإصلاح^(٣) الميناءين فقام بذلك كاتبه على النفقات زياد بن أبي الورد الأشجعي وظل النقش الذي يذكر ذلك عدة قرون بعده. ويكمل صورة الازدهار ما كان يصب في فلسطين من الأموال نتيجة الأعمال العمرانية وعطاء الجند ومرور التجارة بوصف فلسطين قطعة من القاعدة الواسعة التي يستند إليها العرش الأموي.

على أن هذا الازدهار أصيب بأزمة قاسية في أواخر العهد الأموي نتيجة لطول الحرب الاقتصادية التي قامت بها الدولة الأموية وامبراطورية الروم، التي كان من آثارها توقف التجارة البحرية بين سواحل الشام ومصر من جهة والسواحل المقابلة لها في أرض الروم والبلقان بعد أن حصر الروم تبادهم التجاري مع العرب في القسطنطينية وطرابزون (على البحر الأسود) خاصة. وهكذا ضعف الأسطول التجاري العربي ثم حطم في معركة بحرية سنة ١٢٩ — ٧٤٧ م. وكانت هذه الأزمة الاقتصادية أحد الأسباب في قيام الفتن والمنازعات في جنوب الشام وأواخر العصر الأموي، بينما تسببت النكبات الطبيعية كالزلازل (سنة ١٣٠ مثلاً) والأوبئة، مع التكاثر في إضعاف القاعدة العربية التي يقسوم عليها الحكم الأموي، وفي عدم قدرته، في النهاية، على التماسك.

(٢) البلاذري نفسه، ج ١، ص ١٤٠.

(٣) الجهمشيارى — الوزراء والكتاب، ص ٨٠.

٣ — فلسطين أيام العباسيين:

الانقلاب السريع الذي ذهب سنة ١٣٢ هـ / ٧٥٠ م بالعرش الأموي وأتى بدلاً منه بالعباسيين لم يمهله فقط الرعاية الخاصة التي كانت تحظى بها فلسطين، ولكنه جعلها تدفع أحياناً ثمن أمويتها. وإذا كانت مذبحة كبار الأمويين قد جرت فيها على نهر أبي فطرس (قرب يافا) فإن هذه المذبحة لم تمتد إلى السكان في شيء ولكن امتد إليهم الإهمال العباسي، الذي شمل الشام كله، منذ انتقلت الخلافة إلى بني العباس، وانتقلت العاصمة من دمشق إلى بغداد.

ودولة بني العباس الحقيقية لم تستمر أكثر من قرن، إلا قليلاً، وقد انتهت كسلطنة سياسية بمصرع المتوكل سنة ٢٤٧ / ٨٦١، وإن استمرت كخلافة ومقام ديني أربعة قرون بعد ذلك. وقد ارتبطت فلسطين بالحكم العباسي في بغداد وسامراء حتى سنة ٣٥٨، ولكنها انقطعت عن التبعية المباشرة له قبل ذلك بأكثر من قرن وقد رافق هذا الانقطاع تطورات بشرية واقتصادية في فلسطين الفترة العباسية فيها تنقسم إلى مرحلتين: أولاً: فلسطين الولاية العباسية، وقد دام ذلك أكثر من قرن وربع القرن (١٣٢ — ٢٦٤).

ثانيهما: فلسطين الولاية الطولونية ثم الإخشيدية، وقد ارتبطت فلسطين خلالها بمصر (٢٦٤ — ٣٥٨) وإن انقطع هذا الارتباط حوالي ثلث قرن بين سنتي (٢٩٢ — ٣٢٣).

أولاً: فلسطين الولاية العباسية:

الخلفاء العباسيون الأوائل من أمثال المنصور والرشيد والمأمون والمعتصم والمتوكل، كلهم نظروا إلى فلسطين وأمورها ولكن ليس كنظرة بني أمية لها. لم يأخذوا بعين الاعتبار أن مقر أجدادهم أيام حركتهم السياسية السرية كان على تخومها الجنوبية في الحيمة، ولا أن جمهرة أهلها هم من اليمانية الذين حملت جموعهم في خراسان الثورة العباسية على أكتافها ولا أن أهل فلسطين تنكروا لمروان بن محمد في هزيمته فلم يسئلندوه ولكنهم نظروا إلى فلسطين فقط من زاويتين: الزاوية السياسية بوصفها قطعة من الشام قاعدة بني أمية، فهي متهمة الولاء وغير مأمونة الجانب، ومن الزاوية الدينية بوصفها تضم ثالث الحرمين.

وهكذا في الوقت الذي عادت فيه فلسطين، مع الشام كله، إلى المركز الثاني كأي ولاية من الولايات الأخرى في الدولة فإن أوضاعها العامة قد تميزت ببعض الملامح الخاصة سواء في سياسة الخلفاء العباسيين فيها أو موقفها منهم.

أ) السياسة العباسية:

كانت فلسطين لدى خلفاء بني العباس:

١ — بلد المسجد الأقصى والصخرة المشرفة. وكان مما يتصل بسياستهم العامة رعاية المظاهر الدينية الإسلامية، لهذا زار القدس عدد من الخلفاء العباسيين وأكثر من مرة ومنهم المنصور والمهدي والمأمون، ولهذا أيضا حاول المنصور ترميم المسجد الأقصى، الذي هدمت الزلازل سنة ١٣٠ / ٧٤٧ أركانه الشرقية والغربية فقلع صفائح الفضة عن أبوابه لينفق عليه، وزلزلت الأرض ثانية سنة ١٥٨ فهدمت ما كان بني. وزار المهدي المسجد سنة ١٦٢، وهو خراب فأمر بتعديل مساحته وإعادة بنائه وجعل له قبة صغيرة مزينة بفصوص الذهب. وكان قد بنى^(١) من قبل مسجد في عسقلان سنة ١٥٥ نقل إليه رأس الحسين بن علي قتيلا كربلاء من الجامع الأموي بدمشق. وجاءت هزة أرضية ثالثة زمن المأمون خربت بعض المسجد وبعضا من قبة الصخرة فأمر المأمون بإصلاحها حين زار القدس سنة ٢١٦ / ٨٣١، وكتب المرمون اسمه من الفسيفساء بدل اسم عبد الملك بن مروان، فلا يزال إلى اليوم.

وفي الوقت نفسه يبدو أن عهد الاستقرار الطويل، والأمن الذي عرفته القدس في العهد الأموي قد جلب إليها الحجاج من بلاد الغرب وأبقى الفرنجة على الاتصال الدائم بأرض السيد المسيح المقدسة للدرجة التي دفعت مؤرخي شارلمان، الملك الفرنجي، إلى تمجيده بإيجاد صلة بينه وبين الرشيد وبيت المقدس. ويبدو أن شارلمان أرسل بعض الهدايا إلى بطريق القدس فأجابه عليها بطريق ببعض الهدايا الرمزية مع أحد الرهبان ومنها مفاتيح كنيسة القيامة وراية كنيسة التبرك بها. كما أنشأ شارلمان في القدس نزلا يتول به الحجاج الفرنجة المتكلمون باللغة اللاتينية وفيه بعض الرهبان وله بعض البساتين. وجدد البطريق فوما بطريق القدس قبة كنيسة القيامة وضحّمها.

٢ — كانت للخلفاء ولآل البيت العباسي مصالح واسعة في فلسطين. فقد صادروا الأملاك والقرى والقصور الأموية بعد تحطيم البيت الأموي، وهي ما كان يسمى "بالمستغلات" من أراضي الرملة والغور ونابلس وغيرها. وكانوا يحضون على مرافقها ما

^(١) في سنة ١٨٨٣ وجد نقش حجري في خرابت عسقلان يذكر بناء المهدي لهذا المسجد سنة ١٥٥.

كان يصرف من النفقة عليها زمن الأمويين أو كانوا يخففون الخراج على بعضها فهي أرض "التخافيف".

٣ — وعمل العباسيون على حفظ الأمن في الطرق العامة والسواحل. كان ذلك من هموم كبار الخلفاء. فالمنصور تتبع حصون السواحل ومدنها فعمرها وحصنها وبني ما احتاج البناء، والرشيد بذل الجهد لتأمين الطرق من المتلصصة. والمتوكل رتب المراكب في عكا وجميع السواحل وشحنها بالمقاتلة، وفي أيامه على الأرجح ظهرت الرباطات على السواحل الفلسطينية لمراقبة المحطات البيزنطية البحرية ولقضاء الأسرى.

٤ — فقد اصطنع العباسيون بعض الرجال من فلسطين ومنهم زياد بن أبي السورد الأشجعي كاتب مروان بن محمد الذي عمل للمنصور في أذربيجان وأبو عبيد الله معاوية بن يسار وزير المهدي وأبو أحمد يزيد بن أي خالده الأحول وابنه من بعده اللذان كتباً للرشيد وللمأمون. وسعيد بن السرح والي الأمين على اليمن.

كما تجند في الجيش العباسي أعداد من أهل فلسطين والأردن، زمن المهدي والرشيد والمأمون وكان منهم فرقة "فرسان طبرية" أيام المتوكل.

ب (أوضاع فلسطين العامة:

غير أن فلسطين بالمقابل كانت تشكو في الفترة العباسية مجموعة من عوامل الضيق والشدّة:

١ — وبعض هذا الضيق كان من فعل العوامل الطبيعية. فقد تعاونت عليها الزلازل المخربة التي نعرف منها خمسا على الأقل ما بين عهد أبي العباس والمأمون، هدمت الكثير من قصورها وأسوار مدنها ومساجدها. وجاءتها الطواعين أيضا ومنها طاعون سنة ١٧٢ الذي ذهب بسكان قرى بأكملها.

٢ — ومن عوامل الضيق سوء الإدارة والمبالغة في جباية الخراج نتيجة الرغبة العباسية في منع أي تحرك سياسي أموي في فلسطين. وقد ذهبت وفود فلسطينية أكثر من مرة إلى المنصور والرشيد والمأمون تشكو سوء الحال وأجيت طلباتها. وإن كان العباسيون قد أهملوا — ولعلهم أهملوا عامدين — معالجة العصبيات القبلية بين قيس وبن مازن جعل هذه العصبيات تفترس الكثير من قوى البلاد وطاقاتها المنتجة.

٣ — ولعل أهم عوامل الضيق إنما جاءت من الجانب الاقتصادي، فقد كانت فلسطين قد افتقرت منذ أواخر العهد الأموي نتيجة تحول طرق التجارة العالمية عنها، بسبب الحرب الاقتصادية مع الروم، شأنها في ذلك شأن الشام كله ومصر وانتقلت

شرايين التجارة العالمية عن مدن المتوسط الشرقية وموانئه إلى الطرق الأخرى الممتدة من خليج البصرة إلى بغداد والجزيرة ومنها إلى البحر الأسود وإلى القسطنطينية. وقد امتد هذا الانقطاع التجاري حتى مطلع القرن الثالث الهجري، ولم يبدأ في الرجوع إلى الشام ومصر إلا بعد الأحداث التي ضربت منطقة العراق ما بين سنة ١٩٥ - ٢٢٠ نتيجة حرب المأمون مع أخيه وقيام ثورة الزط في السواد وثورة نصر بن شبيب في الجزيرة وبابك الخرمي في الجبال، ولم تظهر آثار هذا التحول إلا في الفترة التالية للعصر العباسي بعد سنة ٢٥٠.

٤ - خلال ذلك كانت الزراعة في فلسطين تضعف نتيجة الظلم في الجبايات. فقد حمل الوفد الذي شكاه هذا الظلم إلى المنصور ديكاً منتوفاً ليمثل به حال الناس ورفضت في عهد الرشيد ضياع كثيرة وهجرها أهلها بسبب الخراج. وبالرغم من التدابير المؤقتة التي كان يعالج بها الخلفاء الموقوف من مثل عزل الوالي وتخفيف الخراج (زمن الرشيد والمتوكل مثلاً) أو بناء بعض المرافق العامة كالصهرج الكبير الذي بناه الرشيد لحزن المساء غربي الرملة والذي ما تزال بقاياه تحمل كتابة كوفية مؤرخة سنة ١٧٢ تذكر ذلك^(١) أو تعديل الأرض من جديد وإعادة مساحتها وتوزيع الخراج عليها (كما جرى في عهدي المأمون سنة ٢١٤ والمتوكل سنة ٢٣٠) بالرغم من ذلك فإن الزراعة بدورها كانت تنكمش ولم تستطع بالتالي أن تسد مسد النقص التجاري إن لم تزد في الضيق الاقتصادي العام. إن مجموع هذه العوامل قد اشترك في تفجير عدد من الثورات المحلية في فلسطين، تكاد تشكل سلسلة متصلة الحلقات.

٥ - فقد قامت في مطلع العصر العباسي ثورات كانت ردود فعل منطقية على قيام الخلافة العباسية وعلى أسلوبها القمعي للأمويين، ثم هدأت الثورات فترة أربعين سنة كانت فترة قمع ويأس وانتظار. لكننا نرى التمرد مرة بعد أخرى منذ سنة ١٧٤ في أيام الرشيد، ثم يتكرر بثورة أبي الندى البلوي سنة ١٩١، ثم أبي العميطر السفياي سنة ١٩٥، فيخرج في فلسطين حكام محليون (ومنهم ابن السرح) يظنون على حكمها الانفصالي حتى سنة ٢١٠، حين يستطيع قائد المأمون عبد الله ابن طاهر قهرهم. وتعود الثورة من جديد سنة ٢٢٧ بقيادة أبي تميم، الذي ادعى أنه السفياي وقاد ثورة الفلاحين ما بين الرملة والجولان. والأعداد التي لحقت به من هؤلاء والتي تقدر بمائة ألف تدل على اتساع الشقة بين الحكام والمحكومين. وإذا فشلت هذه الثورة فإنها مهدت في الواقع لظهور

(١) انظر فان برشم - الكتابات العربية في سورية، ص ٤، ودائرة المعارف الإسلامية (الترجمة العربية) ج ١٠، ص ١٩٥. ويسمى اليوم صهرج عنيزة أو القديسة هيلانة.

الوضع السياسي القادم في فلسطين، وهو الوضع الانفصالي، الذي ظهرت طلائعه حين اضمحل مركز الخلافة في سامراء بعد مقتل المتوكل سنة ٢٤٧، وقام عيسى بن السليل بنوع من الاستقلال في حكم فلسطين استمر حتى استسلم سنة ٢٥٧، ولكن كان قد زرع بذور الفترة التالية.

ثانياً: فلسطين الولاية الطولونية ثم الإخشيدية (٢٦٤ — ٣٥٨):

إذا وصلنا أواسط القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي) وجدنا بوضوح أن تطورات عديدة قد أخذت تلم بفلسطين وتغير من مسيرتها التاريخية: بعضها ديموغرافي — اجتماعي، وبعض ديني ثقافي، وبعض سياسي وبعض اقتصادي.

أ) فأما من الناحية السكانية فقد بقي أهل فلسطين في حذورهم وتكويناتهم العامة هم أنفسهم. فقبائل كلب اليمانية تملأ هضبة الأردن وتمتد إلى شرقي فلسطين «وأما أهل جند فلسطين فهم — حسب قول اليعقوبي الجغرافي المؤرخ المعاصر لتلك الفترة — أخلاط من العرب من لحم وحذام وعاملة وكندة وقيس وكنانة...»^(١). ويدخل اليعقوبي في تفصيل سكان بعض البلدان فيقول: «حوران ومدينتها بصرى وأهلها قوم من قيس من بني مرة خلا السويدياء فإن بها قوماً من كلب والبثنية ومدينتها اذرعات وأهلها قوم من قيس وقوم من يمن.. وعمان وريحا وأهلها قوم من قيس وبها جماعة من قريش وعرنذل من غسان. والجولان ومدينتها باناس وأهلها قوم من قيس وبها نفر من أهل اليمن. وجبل الجليل وأهلها قوم من عاملة. وعكا وقدس وبيسان وفحل وجرش والسواد وأهل هذه الكور أخلاط من العرب والعجم (النبط)...»^(٢).

«وأهل الرملة أخلاط من الناس، من العرب والعجم وذمتها سامرة ونابلس وفيها أخلاط من العرب والعجم.. وكورة بيت جبرين وأهلها قوم من حذام...»^(٣).

وهكذا فإن العنصر العربي كان قد وضع في فلسطين وقد امتص العناصر الأخرى التي تقلصت أو ذابت فلم يبق إلا بعضها. على أنه في هذه الفترة نفسها في أواسط القرن الثالث ظهرت على أطراف البادية جماعات عربية جديدة تتجه إلى فلسطين بعضها قبلل يمانية هي قبائل طيء التي أوغلت تدريجياً حتى أواسط فلسطين ومنها القبائل القيسية:

(١) اليعقوبي — البلدان. ص ٣٢٩ و ٣٢٧ (طبعة دي غويه).

(٢) لا يقصد بالعجم الفرس، لأنه يسمى الفرس باسمهم، ولكن يقصد سكان البلاد الأولين الآراميين. وقد يسمون النبط.

(٣) المصدر نفسه، ص ٣٢٦ — ٢٣٠.

كقبائل مالك التي كانت تعد ١٥ ألف فارس والتي تحركت إلى حوران ثم إلى شمال فلسطين وجنوب لبنان^(٤) وقبائل عقيل التي استقدمها الإخشيد إلى شمال الأردن وطبرية.

ومع أن هذه الجماعات العربية كانت تتمزق بالعصبيات وكثيراً ما كانت تقتتل فيما بينها كالذي حدث سنة ٢٥٧ / ٨٧٠ بين لحم وجذام في فلسطين الذين تحاربوا حرباً أخذت من الطرفين. ومع أن هذه العصبيات سوف تلعب دورها المدمر في سياسة الشلم حتى أواخر العهد الفاطمي إلا أنها على المستوى السكاني الاثنولوجي واللغوي والاجتماعي أنهت تعريب فلسطين الكامل وأعطتها خليطتها السكانية الأخيرة التي لن يدخل عليها حتى العصر الحديث إلا أبسط التعديل.

ب) وأما في الدين والمذاهب فيتحدث جغرافي بارز من أبناء فلسطين في القرن الرابع عنها هو المقدسي البشاري فيقول عن سكان البلد أنهم «أهل جماعة وسنة. مذاهبهم مستقيمة. وأهل طبرية ونصف نابلس وقلدس وأكثر عمان شيعية ولا ماء فيه لمعتزلي إنما هم في خفية. وبسيت المقدس خلق من الكرامية لهم خوائف ومجالس. ولا ترى به مالكي ولا داودياً والفقهاء شفعوية وأقل قسبة أو بلد ليس فيه حنفي، وربما كان القضاة منهم...»، ومع أن المقدسي يكشف عن تأثير المذهب الفاطمي ظاهرياً في فلسطين أيام الفاطميين بقوله عن رسوم العبادة «واليوم أكثر العمل على مذاهب الفاطمي..» وأن الناس «ينكرونها»، إلا أنه لم يعش إلى الربع الأول من القرن الخامس ليشهد تفرع الفرقة الفاطمية الدرزية التي نمت قبل سنة ٤٠٨ في مصر ثم انتقلت بعد انتهاء خلافة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ إلى شمال فلسطين وجنوب لبنان حيث بقيت إلى اليوم. ومع هذا الذي يذكره المقدسي عن انتشار الإسلام بمذاهبه المتعددة ووضوحه في الناس إلى أنه يذكر في الوقت نفسه أن البلد «كثير الذمة» «والسامرة فيه من طبرية إلى فلسطين ولا تجد فيه مجوسياً ولا صابئاً...» ويضيف: «وأقل ما ترى فيه فقيهاً له بدعة أو مسلماً له كتابة إلا بطبرية فإنها ما زالت تخرج الكتاب، وإنما الكتبة به وبمصر نصارى لأنهم اتكلوا على لسانهم فلم يتكلفوا الأدب كالأعاجم (يقصد السكان الأصليين الآراميين) وأكثر الجهابذة والصباغين والصيارفة والدباغين بهذا الاقليم يهود وأكثر الأطباء والكتبة نصارى...»^(٥).

وحوالي سنة ٨٧٠م زار فلسطين حاج غربي معروف باسم برنارد الحكيم وكان الحكيم وكان يحمل رسائل توصية من الأمير خفاجة صاحب باري في إيطاليا، وقد سكن في التزل الذي بناه شارلمان فذكر عن حياة الناس فيها بقوله: «المسلمون والمسيحيون فيها

(٤) من هذه القبائل تتمد الشهابيون في لبنان (أنظر طنوس الشدياق — أخبار الأعيان. ج ١، ص ٣٩ — ٤١).

(٥) نظر المقدسي البشاري — أحسن التقاسيم، ص ١٧٩ — ١٨٣.

على تفاهم تام والأمن مستتب حتى أن المسافر ليلاً يجب أن تكون بيده وثيقة تثبت هويته وإلا زج به في السجن حتى يحقق في أمره.. وإذا سافرت من بلد إلى بلد ونفق جمليسي أو حماري وتركت أمتعتي مكانها وذهبت لاكتراء دابة من البلدة المجاورة عدت فوجدت كل شيء على حاله لم تمسه يد..»^(٢).

ج) غير أن الحياة السياسية لفلسطين هي التي سوف تتطور وتضطرب في هذه الفترة ولمدة عدة قرون قادمة. كانت منذ انتهى العصر العباسي الأول قد بدأت في الاتجاه نحو الإقليمية شأنها في ذلك شأن الأقطار العباسية الأخرى ونحو القلق السياسي. كان الخلفاء العباسيون قد ضعفوا منذ أواسط القرن الثالث فليس لهم من الحكمة إلا اسم الخلافة وشعائريهم، أما السلطة ففي يد القواد الأتراك وأسر الوزراء والكتاب، وكما انقطعت بعض المناطق بفعل المتغلبين عليها من القادة كذلك كان يحدث في فلسطين: تغلب عليها لفترة قصيرة حوالي سنة ٢٥٥ — ٢٥٧ قائد اسمه عيسى بن شيخ بن السليل ثم خلفه القائد أماجور ولكن قوة أخرى ناشئة في مصر لقائد تركي آخر، غلبت على البلاد هي قوة ابن طولون سنة ٢٦٥/٨٧٨ وأصبحت فلسطين تابعة للدولة الطولونية في مصر..

بهذه الحركة الطولونية التي حولت وجهة هذا البلد السياسية من أرض النهرين إلى وادي النيل عادت فلسطين فوصلت ما انقطع من تاريخ ارتباطها القديم بمصر قبل ألف سنة أيام البطالمة وقبل أكثر من ألفي سنة أيام الفراعنة. كما أنها منذ هذه السنة سوف تظل — فيما عدا الفترة الصليبية — مرتبطة بالتاريخ والمصير مع مصر حتى العصر الحديث. ومنذ هذا التاريخ سوف تعود من جديد آلام الأرض المقدسة لأن الحروب لن تهدأ تقريباً على أرضها.. يكتسحها أولاً جيش الغزو الطولوني من مائة ألف فيما يقولون، ثم يأتيها من الشمال جيش الخليفة المعتمد وأخيه الموفق لمحاربة الطولونيين وهم من سبعين ألفاً يكون اللقاء عند الرملة في واقعة الطواحين سنة ٢٧١ وتبقى فلسطين بيد الطولونيين بعد ذلك ليخرج إليها حمارويه الطولوني مرات عدة تارة ليخمد ثورة قواده الانفصاليين فيها. وتارة ليعبر محارباً جيوش الخليفة. حتى إذا عقد الصلح وهدأت البلاد بعض الهدوء ظهر على حدودها الشرقية خطر جديد قادم في هذه المرة عبر البادية من شواطئ خليج البصرة: هو القرامطة، يحملون مبادئهم الشيعية المتطرفة والباطنية إلى الشام. وقد عبر قائدهم ابن زكرويه فلسطين بهم هازماً الحاميات الطولونية في معاقلها مثل طبرية ومنتجها نحو سورية الشمالية حتى اعترفت به وخطبت له سنة ٢٩٨/٩٠١. وفي السنة التالية

(٢) نقلاً عن عارف العارف — المفصل في تاريخ القدس، ص ١٢٤.

أرسل الخليفة بعض قواده لحرب القرامطة وإخراجهم من الشام ونجح في ذلك بعد حروب ومواقف ولكنه في الوقت نفسه أنهى الدولة الطولونية.

وهكذا كانت السوابك تحرث جيئة وذهاباً أرض فلسطين طول العهد الطولوني الذي لم يكمل ثلاثين سنة، وزاد فيها عبور الجيوش الطولونية الدائم إلى الشمال لحرب البيزنطيين في الثغور، لأن الثغور والدفاع عنها قد آلت إلى آل طولون في هذه الفترة ولكم تكسب فلسطين من هذا العهد سوى أمر واحد هو بناء سور عكا الحصين المزودج الذي عمل عليه أحمد ابن طولون وأضاف إليه مرفأً بحرياً له باب وسلاسل. وقد دافع هذا التحصين عن عكا أيام الصليبيين وبقي قائماً حتى أمام مدافع نابليون.

وبعد العهد الطولوني فترة ثلث قرن تعود فيه فلسطين ولاية عباسية حكامها في مجموعهم من القواد والأتراك الذين لم يستطيعوا إعادة الجسور بين الإدارة العباسية وبين فلسطين، لأن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية التي تجددت في المنطقة كانت تسير بها في اتجاه آخر كما بدأت هذه الفترة بقائد تركي حول مهمة حكمه إلى ملك وراثي كذلك انتهت الفترة بتجربة أخرى مماثلة. وبعد أن وصل محمد بن طغج إلى الولاية في جنوب الشام ومصر (سنة ٣٢٣/٩٣٥) وأخذ لقب الإخشيد وأخذ الأذن بالحكم الوراثي توفي وشيكاً ليأخذ الحكم ابنه الصغير تحت وصاية مربييه كافور الإخشيد الذي قاد الدولة أكثر قليلاً من عشرين سنة وما كاد يتوفى حتى دخلت مصر والشام في الحكم الفاطمي القادم من المغرب سنة ٣٥٨.

(د) رافق هذه التطورات كلها وأثر فيها وتأثر بها: تطور اقتصادي خطير الأبعاد شمل الشرق العربي كله ومنه بالطبع فلسطين منذ ما قبل القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي واستمر حتى أواخر القرن الخامس/ الحادي عشر.

أهمية موقع فلسطين، ضمن هذا التطور الاقتصادي، أنها كانت قطعة من جبهة التجارة العالمية المطلة على البحر الأحمر وطرق خليج البصرة من جهة وعلى البحر الأبيض المتوسط من جهة أخرى وأنها تشرف مع مصر على البرزخ البحري والبحري ما بين آسيا وأفريقيا وأوروبا.

وقد عملت الاضطرابات التي هزت العراق في القرن الثالث (ثورة الزط عشرين سنة في مطلع القرن ثم ثورة الزنج بين سنة ٢٥٥ — ٢٧٠. ثم الاضطرابات القرمطية في السنوات العشرين الأخيرة من القرن) على إعادة طرق التجارة إلى شواطئ المتوسط الشرقية سواء عن طريق خليج البصرة مباشرة بحراسة البدو أو طريق وادي الفرات أو عن طريق البحر الأحمر. وكان هذا التحول أحد أسباب الغنى الواضح الذي عرفت به الدولة

الطولونية (في النصف الثاني من القرن الثالث) ثم الإخشيدية كما كان هو الذي يفسر ضرب هاتين الدولتين للدنانير الذهبية الخاصة بهما والتي تميزت بعبارة الجيد. كما يفسر كثرة دور الضرب (في طبرية والرملة وقيسارية) ويفسر قدرة الدولتين على بناء المدن والقصور المترفة وتمويل الحروب والبذخ الواضح (في مثل جهاز قطر الندي ابنة خمارويه..).

وقد انتعشت فلسطين بهذا النشاط التجاري الذي رافقه ونجم عنه توسع الدورة النقدية بدخول كميات من الذهب في الحركة الاقتصادية للمنطقة نتيجة لاجتماع التجارة بين الشرق والغرب فيها وتسارع الايقاع المدني ونمو المدن في المشرق حتى لنعد في فلسطين وحدها أواسط القرن الرابع أكثر من ثلاثين مدينة، بالإضافة إلى نمو الاستهلاك مع التكاثر السكاني وتسهيلات المبادلة التجارية بظهور نظام الائتمان والصكوك والعمليات المصرفية والبيوتات التجارية الواسعة الفروع والصلات.

وكل هذه الأمور خلقت تسارعاً مطرداً لا في النشاط التجاري فقط في فلسطين، ولكن في الانتاج الزراعي والحرفي، ونستطيع أن نرى صورة ذلك الازدهار الزراعي والحرفي في الصورة التي رسمها المقدسي لفلسطين في أواسط القرن الرابع وتحدث فيها عن "التجارات المفيدة" بها، وعن زراعات الزيتون والحبوب والكروم بكل مكان من جبل عامل إلى الخليل، وعن الضياع الجليلية فيها وعن الأقطان وقصب السكر في الحولة وطبرية والنخيل والرز في بيسان، وعن الأراضي التي تغور نعماً وخيرات في قيسارية والقدس والرملة وعسقلان والداروم وعن أنواع الفواكه الكثيرة المنتشرة من عسقلان والخليل حتى لتختص وتميز بستانين نوعاً منها. وعن إنتاج الزيت والسكر والصابون والزجاج والرخام والنسيج والكاغد. وبديهي أن هذا النشاط الاقتصادي الواسع قد رافقه ببروز طبقة التجار في الشرق العربي كله، وفي فلسطين، ووضع الفقر في الشرائح الدنيا من المدن والريف مما أغرى المجموعات البدوية المجاورة بالغزو المتماذي وأفرز فئات هامشية من المتلصصة في أواخر العهد الإخشيدي حين انكسر ذلك النشاط الاقتصادي السابق وحلت الأزمات بالشام ومصر بتوالي الأوبئة والقحط وظهور النشاط التجاري الأوروبي والبيزنطي في المتوسط وتعاقب الضربات البدوية والرومية على أطراف فلسطين واحتلال النقد الإخشيدي في أواخر عهد كافور بالغش ونقص العيار، وكان ذلك كله تمهيداً لتطور تاريخي جديد حمل اسم العهد الفاطمي.

هـ) في هذه الفترة برز في فلسطين عدد من المراكز العلمية اطلعت عدداً من العلماء والكتاب: أهمها:

الرملة: التي كانت قصبة فلسطين وينسب إليها عدد من العلماء منهم المؤمل بن إهاب الحافظ المعروف بابن قفل (توفي سنة ٢٥٤ / ٨٦٨) ومحمد بن أحمد بن سهل النابلسي الرملي الزاهد الفقيه المتوفى سنة ٣٦٦ وكشاجم محمود بن الحسين (المتوفى سنة ٣٦٠) وموسى بن سهل الحافظ (المتوفى سنة ٣٦٢).

عسقلان: وكانت تجتذب الناس بمركزها التجاري والزراعي على الطريق إلى مصر وقد أطلعت عدداً من المحدثين منهم أبو الحسين الملقب بالعسقلاني (المتوفى سنة ٣٧٧ / ٩٨٧) وأبو بكر بن جعفر الخرائطي صاحب الحديث والأخبار (توفي سنة ٣٢٧).

القدس: وقد أطلعت المطهر بن طاهر المقدسي المؤرخ ومحمد بن أبي بكر المقدسي البشاري الجغرافي البارز وكلاهما من رجال أواسط القرن الرابع أو بعده بقليل.

طبرية: التي كانت تخرج الكتاب، فكان فيها تعليم صنعة الكتابة كما كانت من مراكز العلم والجدل، حسب ما يتجلى في أقوال المسعودي الذي زارها حوالي سنة ٣٣٠.

ولعل ما هو أكثر شأنًا من هذا النشاط العلمي من الناحية الاجتماعية والروحية ما بدأت تكسبه فلسطين في تلك الفترة من القدسية الدينية المتزايدة وقد اتخذ تقديسها الشكل التقليدي برواية أو وضع الأحاديث على لسان الرسول والصحابة بتفضيلها وذكر فضلها، ولا شك أن معظم هذه الأحاديث قد ضوع في هذه الفترة ومن بعدها لأغراض اجتماعية واقتصادية وسياسية ومن ذلك أن "بيت المقدس من جنة الفردوس" وأن الصلاة في مسجدتها بخمس مائة أو بخمسين ألف صلاة وأنها "أرض المحشر والمنشر" وأن "من مات في بيت المقدس فكأنه مات في السماء". وبعض هذه الأحاديث تعويض عن الآلام وبعضها تأكيد لمعاني الأزدهار.

وهكذا نلاحظ أن عدداً من الحكام وخاصة من البيت الإخشيدى يطلبسون نقل رفاقهم من مصر إلى القدس ومن هؤلاء الحكام عيسى النوشري المتوفى سنة ٢٩٧ وتكين المتوفى ٣٢١ ومحمد بن طنج الإخشيد وابناه أنوجور وعلي، وشقيقه الحسن..

٤ — فلسطين في العصر الفاطمي والسلجوقي (٣٥٨ — ٤٩٣):

هذا العصر بدوره يمكن أن يقسم من الناحية السياسية قسمين:
أولاً: الفترة الفاطمية التي امتدت منذ سنة ٣٥٨ واستمرت بالنسبة لجنوب فلسطين حتى العهد الصليبي.
ثانياً: الفترة السلجوقية التي ابتدأت في فلسطين الداخلية حوالي سنة ٤٦٣ وانتهت بالاحتلال الصليبي سنة ٤٩٢.

على أن هذا التقسيم قد يخدع في الواقع التاريخي الحضاري المتشابه والمتصل في المنطقة من وراء هذا الظاهر السياسي المتباين: فقد صار جنوب الشام حتى دمشق وحمص إلى الخلافة الفاطمية منذ سنة ٣٥٨ وجوهر الصقلي الذي قدم بالجيوش الفاطمية من المغرب وفتح مصر تلك السنة أتم الطريق في السنة نفسها إلى الشام ليضم القطعة الشلمية من الدولة الإخشيدية على الفور إليه. ولكن هذا الحكم الفاطمي لم يهنأ أبداً بحكم الشام حكماً مستقراً إلا لفترات قصيرة ومحدودة حتى الخلفاء الفاطميون الأوائل: المعز، والعزیز، والحاكم بأمر الله والظاهر لم يتطعموا فرض نفوذهم المستقر هناك. وحين جاء بعدهم المستنصر (ما بين سنة ٤٢٧ — ٤٧٨) لمدة ستين سنة وكان أطول خلفاء الإسلام عهداً، كان عهده الفترة الانقلاية في تاريخ الفاطميين عامة وتاريخ فلسطين أيضاً.

ففي حوالي ٤٦٢ بدأت تظهر في فلسطين طلائع الموجه التركية السلجوقية. ثم ما لبثت أن احتلت داخل فلسطين والشام كله تاركة السواحل فقط من طرابلس حتى عسقلان للحكم الفاطمي. وسقطت القدس في أيديهم سنة ٤٦٥ / ١٠٧٢ وبعثوا إلى بغداد ييشرون بعودتها إلى الخلافة العباسية، وبحول فلسطين من جديد من الارتباط بمصر إلى الارتباط ببغداد. وقد دام هذا العهد السلجوقي قرابة ثلاثين سنة قبل أن يصل فلسطين الصليبيون.

غير أن هذه المسيرة السياسية التي امتدت قرناً ونصف القرن لا تتوافق مع الواقع الاجتماعي — الاقتصادي للناس في فلسطين، فهذا الواقع كانت له مسيرته الخاصة التي لم تتغير كثيراً بتغير الحكام ما بين الفاطميين الشيعة في مصر والسلاجقة العباسيين السنيين المتصلين ببغداد.

لقد كانت النظم السياسية المسيطرة واحدة في المفهوم والطرائق. فالفاطميون جندوا القبائل المغربية من كتامة وزويلة وغيرها لإقرار النفوذ الفاطمي في جنوب الشام وأواسطه ولاستغلال البلاد. والسلاجقة كانوا قبائل عسكرية قادمة من أقصى المشرق تفرض

سيطرتها وتنوطين وتستغل ثروات البلاد التي تحتل. الطرفان كانا طبقتين عسكريتين مرفوضتين من السكان. وإذا كان الجند الفاطمي يحمل صفة التشيع السبعي الذي يزيد في رفض الشام له بسبب عواطفها الأمومية، فإن الجند السلجوقي كان من الجشع والتدمير بحيث أبغضه الناس بدوره وظل يشكل طبقة مستغلة غريبة حتى أطل العدوان الصليبي.

وفي المرحلتين كان جنوب الشام يعاني، لأسباب متعددة، سياسية وطبيعية وخارجية الكثير من الآلام السياسية والاقتصادية التي بدأت تضيق الخناق على المجتمع الشامي كله بما فيه فلسطين منذ أواخر القرن الرابع الهجري حتى بلغت أقصى مراحلها في أواخر القرن الخامس. وانتهى هذا العصر الصعب بسقوط سواحل الشام ومعها فلسطين في يد الصليبيين ويمكن أن نرى أهم الملامح في فلسطين القرن الخامس في النقاط التالية:

(أ) النكبات الطبيعية (من الزلازل والأوبئة والمجاعات):

فقد تتالت على الشام (وفلسطين في جملته) نكبات جارفة من هذه وتلك كانت تدمر دون انقطاع جهود أهلها كما تذهب بعشرات الألوف منهم. كانت الزلازل أهون الشرور مع أنها دمرت تراث البلاد العمراني وأوابدها الموروثة منذ العصور القديمة أو المستحدثة في الإسلام. ثم لم تكن البلاد تهتم بحكم وضعها الأمني وبحكم الورع الديني بأكثر من ترميم الأسوار والمساجد فيما بين سنتي ٤٢٠ — ٤٦٠ / ١٠٢٨ — ١٠٦٧ مثلاً نحصى خمس زلازل على الأقل هدمت آخر واحدة منها أكثر دور الرملة وسورها وتضعض جامعها ومات أكثر أهلها تحت الردم^(١). وثالوث القحط والأوبئة والمجاعة كان دائم التردد على البلاد. ونحصى مثلاً في الفترة السابقة نفسها خمس جوائح من هذا النوع سجلها المؤرخون بلغ بعضها من العنف والقسوة أن استمر سنوات واتخذ شكل الكوارث أو أدى إلى هلاك عشرات الألوف من الجوع وإلى أكل اللحم البشري وافتراس الجثث.

(ب) مقابل هذه النكبات تطور الوضع السكاني في فلسطين. أضيفت إليه عناصر بشرية جديدة مصدرها من منبعين:

أولاً: المد البدوي العربي:

وقد تمثل في نوعين من الزحف قدم أحدهما من الشمال والثاني من الشرق. فأما الشمالي فقد كان زحفاً منظماً واضح الأهداف ويتحرك عن عقيدة سياسية دينية ذات

(١) ابن القلانسي — ذيل تاريخ دمشق ص ٩٤.

فلسفة وإمام ونظام ولم يكن الشمال منبعه ولكن اتبع — مع الفارق — طرق المهجرات السامية القديم من ضفاف الخليج العربي بالأحساء إلى وادي الفرات ثم انحدر من هناك حتى جنوب الشام، وهذا هو الزحف القرمطي. وقصة غزوات القرامطة في مختلف بلاد فلسطين والشام مملوءة بالمآسي والمعارك الدامية. ولم تخف حدة الموجة القرمطية حتى الربع الأخير من القرن الرابع بعد وصول الفاطميين ومكافحتهم للقرامطة رغم اللقاء في المذهب الفكري — الديني بين الطرفين.... طبرية، الرملة، غزة عسقلان، كانت المدن التي ألتمت بها الفتكات القرمطية لهباً وحريقاً وأسراً وقطع شجر.

وأما حركة البدو من الشرق فقد كان قوامها بصورة خاصة قبائل طي، وكان معها بعض القيسيين. وقد شق الطائيون طريقهم إلى الجنوب الشامي من البادية تاركين لبني كلب أواسط سورية — ما بين تدمر وحمص وبصرى — وقد تزعم الطائيين بنو الجراح فظلت أسماء زعمائهم تتردد في المنطقة حوالي القرن (بين أواسط القرن الرابع والخامس) واتخذوا مركزاً لهم في بلدة الرملة بعد أن أعادوا بناءها وفتح أسواقها ومسجدها. وقد كانت هذه القبائل تعمل تارة لحسابها الخاص وأطماع زعمائها وتارة أخرى مرتزقة لحساب من يستخدمها أو يسترضيها من الحكام. وقد تنتصر أحياناً وتحتل فلا يكون لنصرها من أثر سياسي طويل بسبب فقدانها التنظيم الحكومي أو تنهزم فلا ينجم عن ذلك المحسارها النهائي لأن أجيالها من البادية كانت ترفدها دون انقطاع. وفي مرة واحدة فقط تأسست دولة بدوية أو دولتان استمرتاً ثلاثة أرباع القرن أو أكثر قليلاً، ولكن ذلك إنما كان في شمال سورية (الدولة المرداسية في حلب والدولة العقيلية في الموصل والجزيرة بعد الدولة الحمدانية) ولكن بدو فلسطين لم ينجحوا في الاحتفاظ بما يغزون من المدن لقرب ما بينهم وبين مركز الحكم الفاطمي في القاهرة. وقد حاول بنو الجراح مرة خلق خلافة إسلامية عاصمتها الرملة واستدعوا لها مرشحاً من الهاشميين خطبوا له سنة ٤٠١ / ١٠١٠ ثم فشل المشروع.

وقد بدا في مطالع القرن الخامس كأنما الشام كله قد وقع تحت رحمة الموج البدوي لأن قبائل جديدة من قيس كانت قد وصلت الشمال الشامي وحاول حسان بن الجراح زعيم طيء إقامة حلف بدوي ثلاثي لاقتسام الشام سنة ٤١٥ / ١٠٢٤ وإخراج الفاطميين منه فيكون له من شمال الرملة حتى حدود مصر ويكون لسنان بن عليان زعيم كلب دمشق وأواسط الشام ويكون لأمر بني كلاب صالح بن مرداس حلب والشمال. واقتسموا البلاد سنوات قبل أن يهزمهم الفاطميون عند طبرية هزيمة ساحقة سنة ٤٢٠ / ١٠٢٨. فلما ثاروا سنة ٤٣٣ / ١٠٤١، وسيطروا على فلسطين سحقوهم وسجنوا

زعماءهم في مصر عشرين سنة. وعلى أية حال ظلت القوى البدوية الكليسية والطائفة مصدر تغذية بشرية وتهديد للأمن في فلسطين حتى أنهى قواها وأمرها الغزو السلجوقي.

ثانياً: العناصر البدوية التركية:

وهي جموع من "الغز" البدو حملتها الموجة السلجوقية بعد سنة ٤٦٠ وكانت بلاد الشام أحد الأطراف الأخيرة لامتدادها الحربي والبشري. وقد أتت إلى هذه البلاد بعناصر سكانية غريبة عن تكوينها العام ظلت تتسرب ألوفاً بعد ألوفاً أكثر من قرن وإذا كان إسلامها ومذهبها السني ودفاعها عن الإسلام (ضد الروم والصليبيين) قد قربتها من المجموع العربي في البلاد فإن تسربها التدريجي والاجتماعي على مدى عشرات السنين واصطناعها اللغة العربية واستعراها الثقافي والاجتماعي بسبب انخفاض مستواها الحضاري عن مستوى الحضارة العربية الإسلامية في البلاد. كل ذلك قد جعل هذه العناصر تتعرب وتذوب فيها بدل أن تصبغ بصبغها التركية. وقد رافق هذه الموجات التركية، مجموعات بشرية أخرى حملتها الموجات نفسها من الأكراد والفرس والخوارزميين ذابوا جميعاً بدورهم مع الأيام في المجموع العربي.

ج) ازدواج المذهبي والحركة العلمية:

كان نشر الفكر الشيعي الفاطمي من سياسة الفاطميين الأساسية في كل البلاد التي حكموها ومنها فلسطين، وقد أنشأوا لذلك دار المعلم في القدس، وجعلوا شريعة الحكم على مذهبهم في البلاد. وكان لهم في كل مدينة داعيتهم للمذهب. كما أن الفكر الشيعي الإمامي معروفاً في بعض المناطق مثل طبرية وعكا. ولكن الدعوة الفاطمية لقيت على ما يظهر المقاومة الشديدة وإن نجحت بعض النجاح في المدن الساحلية. وفي الفترة التي تلت وفاة الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ وصلت إلى شمال فلسطين وإلى وادي التيم مجموعة من دعاة الفرقة الحاكمية الدرزية التي استمر يقودها ويوطدها مؤسسها الفكري حمزة الدرزي أكثر من عشرين سنة واستمرت موجودة بعد ذلك إلى اليوم.

ولكن المذهب الفاطمي ظل سطحي الانتشار بين الناس. فما كادت القدس تسقط في يد السلاجقة سنة ٤٦٥ حتى توافدت إلى فلسطين موجة من العلماء السنة من المشرق والمغرب وانتعشت فيها دراسة الحديث والفقه وحلقات المناظرة والدرس بين مختلف المذاهب السنية. وكان من كبار الوافدين أبو الفرج عبد الواحد الشيرازي (المتوفى سنة ٤٨٦) الذي أدخل إلى فلسطين المذهب الحنبلي والإمام الصاغاني وأبو بكر الطرطوشي

الأندلسي وأبو بكر العربي الإشبيلي. وبرز من رؤساء الأشاعرة في البلاد مكّي بن عبد السلام الرميلى الذي أسره الصليبيون في القدس سنة ٤٩٢ ثم قتلوه وأبو الفتح نصر بن ابراهيم المقدسي الشافعي (المتوفى سنة ٤٩٠). وتأسست في القدس عدة مدارس للحنفية والشافعية، وكان في مسجدها الأقصى ثمان وعشرين حلقة درس قبيل الضربة الصليبية تبحث في الكلام وأصول الفقه ومسائل الخلاف على طرائق أهل العراق والقيروان. وهذه الحركة العلمية المضادة للدعوة الفاطمية والتي كان يغذيها السلاجقة لسبب سياسي واضح شملت العديد من مدن فلسطين مثل عسقلان ونابلس وطبرية. وجعلت البلاد «ذات دين ظاهر وعلم وافر» ويكفي أن نعلم أن المذبحة الصليبية في القدس سنة ٤٩٢ حصدت بين ما حصدت ثلاثة آلاف عالم وعابد ومعتكف وفيهم الكثير من العالمات والعبادات.

(د) التدهور الاقتصادي:

فإن الأزمة الاقتصادية التي أصابت فلسطين ومصر في أواخر العهد الإخشيدى كلن ممكناً أن تستمر لولا المذهب الفاطمي الذي جاء به العهد الجديد معه من أفريقية والمغرب. كان الفاطميون هناك قد فتحت دروب الذهب القادم من السودان نتيجة تغلغل القوافل الإسلامية عبر الصحراء. وقد سيطروا به على تجارة الرقيق والخشب والفراء مع أوروبا وبقي منه فائض كبير استطاعوا به غزو مصر. ألف حمل من الذهب حملوا معهم لنفقات إقامتهم الأولى "الدينار المعزي" الذي ضربه المعز لدين الله كان الفاتح الحقيقي. وقد استخدموا هذا الذهب في السيطرة على مصبات التجارة في شرقي المتوسط (شواطئ مصر والشام والبحر الأحمر) وفي إنعاش الجو الاقتصادي الذي اضطرب في فلسطين ومصر. وقد حاربهم القرامطة في فلسطين ومصر وفي البحر المتوسط أيضاً ليحتفظوا بالسيطرة على المصبات التجارية فلم يفلحوا. واضطروا إلى التراجع والانكماش من جديد إلى مواقعهم التجارية الأساسية في الخليج العربي. وبالرغم من كل ذلك التآلق "الذهبي" الذي رافق توضع الفاطميين في مصر والذي وُجد ووسع تجارة مصر عبر البحر الأحمر إلا أن الإنعاش الاقتصادي لمناطق الشام الجنوبية لم يدم طويلاً. استطاع أن يستمر قرابة النصف قرن آخر، فلما كان القرن الخامس الهجري عاد من جديد إلى الاضطراب لا في فلسطين فقط ولكن في مصر أيضاً نتيجة عدد من العوامل كان من بينها انقطاع ورود الذهب من أفريقية والمغرب إلى مصر بسبب استقلال بني زيري عن الفاطميين وقطع بني هلال البدو طرق المغرب، في الوقت الذي ازدادت فيه قوة الجمهوريات

الإيطالية وسيطرتها على التجارة المتوسطية وتوالت النكبات الطبيعية الداخلية على شرقي المتوسط واضطربت الإدارة الفاطمية ثم تعرض المشرق كله لهجمة بدوية تركية واسعة اكتسحته مما وراء النهر حتى الأناضول والشام هي الموجة السلجوقية الغزية، ما بين سنة ٤٣٠ — وسنة ٤٧٥ محتوية ضمنها الخلافة العباسية كلها والأجزاء الأرمينية والأناضولية من الامبراطورية البيزنطية.

ضمن هذا الإطار العام كانت فلسطين قطعة من الأراضي الإسلامية المنكوبة بهذه التطورات. والصورة الاقتصادية الزاهية التي رسمها الجغرافي المقدسي في حوالي سنة ٣٧٠ لفلسطين لم يستطع الرحالة نصري خسرو أن يعطينا مثلها حين زار البلاد في أواسط القرن الخامس حوالي سنة ٤٥٠، بل عبر عن خوفه من قطاع الطرق تارة، واقتصر على الإسهاب في وصف الأماكن المقدسة تارة أخرى. وتحدث بين هذا وذاك عن أسوار المدن وعن ميناء عكا الحصين وعن صناعات الرخام في الرملة والحصن في طبرية والسفن في حيفا، وعن أشجار الزيتون والتين في الرملة والقدس والخليل، وعن أرباب عائلات يملك أحدهم /٥٠ ألف من^(١) من الزيت يحفظونها في الآبار ويصدرونها إلى أطراف العالم. وعن القدس التي كان سكانها ٢٠ ألفاً فقط وعن سورها وبواباتها الحديدية وصهاريج الماء فيها وعن زراعات الشعير والقمح في منطقة الخليل. وقد عمل الفاطميون على تأمين المرافئ التجارية. كان الأسطول التجاري — الحربي أحد المشاغل الأساسية لهم ولهذا أفردوا الثغور الساحلية في الشام وفلسطين معها وولوا في كل ثغر منها والياً من مصر ورتبوا معه جنداً لحفظه من الغارات الرومية. ولعلهم في الوقت نفسه شجعوا الأربطة الشعبية الخيرية التي ذكرها المقدسي على سواحل فلسطين ما بين يافا وعسقلان.

ولكن الأسطول الفاطمي نفسه قد ضعف في أواسط القرن الخامس وضعفت معه الثغور الشامية الفلسطينية مع ازدياد نشاط وقوة أساطيل المدن الإيطالية خاصة وأساطيل الروم. وازداد ضعف هذه الثغور مع سقوط الداخل الفلسطيني (والشامي كله) بيد السلاجقة بعد سنة ٤٦٥، ولكنها تباين الحكم بين الساحل والداخل لم يقطع عليها طرق التجارة التي عادت قائمة مع المشرق والتي ازداد نشاطها مع السلم السلجوقي حتى جاءت الضربة الصليبية فقطعتها القطع المأساوي فترة حسنة.

(١) كان وزن المن الواحد في الشام يعادل /٨١٩/ غراماً ولكن صاحب هذا الكلام نصري خسرو هو رحالة غراساني، والمن في بلاده يعادل /١٩٢٠/ غراماً. (انظر فالترهنتش — المكايل والأوزان الإسلامية "الترجمة العربية"، ص ٤٦—٤٧).

(هـ) سياسة الحكم :

اهتم الفاطميون ثم السلاجقة بالمكانة الدينية لفلسطين. وحين تصدعت قبة الصخرة في هزة أرضية سنة ٤٠٧ أيام الخليفة الحاكم عمداً ابنه الظاهر إلى بنائها سنة ٤١٣ وترك بذلك ثلاثة نقوش. وبني الفاطميون بعض الجوامع كجامع نابلس آخر أيام الحاكم سنة ٤١١ ومسجد عسقلان الذي بناه الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي سنة ٤٩١ ليضم رأس الحسين. وقد أهدى الخلفاء الفاطميون الكثير من قناديل الفضة لقبة الصخرة والمسجد الأقصى وكانت عليها النقوش بأسمائهم وبأوزانها التي كانت تزيد في مجموعها عن ألف من. وكانوا يرسلون إليها الشمع الكثير للإنارة كل سنة ومن بينها شمعة كبيرة جداً طولها سبعة أذرع وقطرها ثلاثة أشبار ولونها كالكاפור وشمعها مخلوط بالعنبر وعليها اسم الخليفة بالذهب.

وقد تصاعد في الوقت نفسه شأن الأرض المقدسة لدى المسلمين وخاصة في بلاد الشام وازدادت حرمتها لدرجة الاستعاضة بزيارتها عن الحج إن لم يستطيعوه، فيتوجه أحدهم إلى الموقف، في موعد عرفات ويضحي أضحية العيد كما هي العادة، ويحضر هناك لتأدية ذلك في بعض السنين أكثر من عشرين ألف شخص في أوائل ذي الحجة ومعهم أنباؤهم. كما يأتي لزيارة بيت المقدس من ديار الروم كثير من النصارى واليهود.

وحين سقطت القدس بيد السلاجقة كان لذلك "الفتح" أصداء واسعة من الفرح في المشرق العباسي السني قابلها رنة أسى في مصر الفاطمية التي لم تسلم بالأمر وظلت تعمل على استرداد البلد مع فلسطين كلها حتى استطاعت استردادها قبل خمسة أشهر فقط من وصول الصليبيين إليها. وكان من تقدير المكان الديني لفلسطين في العهد السلجوقي ما وفد إليها من جموع العلماء الكبار وما قام فليها من حركة علمية نشطة.

غير أن هذه العناية الفاطمية السلجوقية لم تشمل السكان فقد كان الحكم الاستبدادي هو الطريقة السائدة وكان فرض المغارم والضرائب والمصادرة وتخريب الزروع والبيوت من طرق الإدارة المألوفة. كما كان مصير الرعايا رهناً بأهواء الحاكم، وهو في أغلب الأحيان من القاعدة العسكرية "المغاربة" أو "الأتراك" ورهنياً بقدرته الإدارية وجشعه المالي. وعدد من هؤلاء الحكام سجلوا أسماءهم بالسواد في ضمائر الناس من أمثال جعفر بن فلاح الكتامي وابنه علي والمفرج بن الجراح وابنه حسان وأبي محمود الكتامي وأتسر الخوارزمي. ومقابل ذلك ذكروا عن أحد الولاة الموصوفين بالعدل في

الشام وهو أنوشتكين الدزيري أنه ترك بعد ١٧ سنة من الولاية مليوناً ومائتي ألف ديناراً.

وإذا كان الظلم الإداري والمالي في تلك الفترة شاملاً للجميع من مسلمين وذميين فقد كان لبعض الحكام دواعيه السياسية لإصابة الذميين خاصة بقليل أو كثير من التضييق. والحادث البارز في هذا الصدد إنما جرى في عهد الحاكم بأمر الله الفاطمي الذي تأثر من موقف البيزنطيين من دولته فضيّق على أهل الذمة وأصاب فلسطين خاصة رشاش من هموسه إذ أمر بهدم عدد من الكنائس ومنها كنيسة القيامة في القدس سنة ٤٠٠. غير أنه عاد في آخر أيامه فأطلق للنصارى حرياتهم الدينية وسمح لهم بتجديد ما هدم من كنائسهم وأعيد بناء كنيسة القيامة في عهد ابنه الظاهر سنة ٤٢٧ ثم في عهد المستنصر.

كانت النتيجة الأهم لهذا الحكم الاستبدادي المستمر هي قيام القطيعة الكاملة بين الحكام والمحكومين. وتأصل طبقات من العداء بعضها فوق بعض في النفوس كانت تنفجر كلما وجدت متفصلاً لها. أما حين يصطدم الحكام بعضهم ببعض أو يتعرضون لغزو خارجي فقد كانت جماهير الشعب والناس تتلقى كل أولئك — رغم أنها لا تتحول — إن تحولت — إلا إلى الشماتة أو العطف السليبي أو الرعب المكبوت حسب نظرة الناس للمنتصر والمهزوم. وقد كان لهذه السلبية نتائجها الخطرة، إذ تحولت القضايا المصرية لأهل الشام (ومنها فلسطين) إلى قضايا منفصلة عنهم لا تخص إلا الحكام. وقد ظهر ذلك بوضوح في ما تعرضت له فلسطين (والشام معها) من ألوان الاجتياحات البشرية والعسكرية في تلك الفترة، وهي أحداث أضافت مآسيها إلى المآسي الأخرى. على أن ذلك كله لم يمنع من قيام العديد من الانفجارات الثورية أيضاً.

(و) الثورات المحلية:

وقد كان محورها الخط الممتد ما بين الرملة، طبرية إلى دمشق، حيث كانت تقوم الثورات على العباسيين في بغداد من قبل، وعلى الإخشيديين في مصر. ولم تعرف فلسطين الفاطمية الاستقرار إلا لما لأن دواعي الثورة على الفاطميين كانت تتكاثر لا سيما في القرن الخامس حين ضعفت قبضتهم على البلاد. وقد كانت أسباب الثورة في معظم الأحيان ناجمة عن عجز الحكام الفاطميين، وعن الظلم المالي، وعن سوء معاملة "المغاربة" جند الفاطميين للناس، وعن تمرد هؤلاء الجنود أنفسهم واصطدام فرقهم بعضها مع بعض في بعض الأحيان، كما كان يرفدها على الدوام سبب مذهبي هو رفض أهل

الشام الجنوبي وخاصة دمشق للمذهب الفاطمي الشيعي وتمسكهم بالسنة. وقد بلغ من اضطراب الأمن وكثرة الثورات أن شكلت كثير من المدن مثل القدس وعسقلان وطبرية وصور وعكا ودمشق فرقاً عسكرية من أبنائها للدفاع عنها عند الطوارئ، وفي أيام الانتفاضات، عرفت باسم "الأحداث" واستمرت موجودة حتى أواسط القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي. وبالرغم من أن سلطة الفاطميين كانت في الساحل الفلسطيني أقوى منها في الداخل بسبب قوة الأسطول الفاطمي وعجز الجيش البري أملم البدو فإن بعض مدن الساحل عرفت الثورة والتمرد أيضاً مثل صور التي تزعمها ملاح اسمه علاقة سنة ٣٨٧هـ / ٩٩٧م. ، مثل عكا. وكانت سنابك الجيوش الفاطمية في اندفاعها لإقرار الأمن وإخماد التمردات وإقرار النفوذ الخلافي لا تنقطع عن حراسة أرض فلسطين في كل اتجاه خلال هذه الثورات التي كانت كثيراً ما تتحالف فيما بينها ثم تنتهي مع ذلك بتدمير الزرع والضرع ودفع الغرامة الباهظة. إحدى حرائق الجامع الأموي في دمشق إنما كانت نتيجة إحدى الثورات في تلك الفترة، ولقد دمرت صور وطبرية والرملة وغيرها مرات في مثل هذه الأحداث، كما دمرت القدس وعسقلان ويافا في العهد السلجوقي في أحداث مماثلة.

ز) هجمات القوى الطامعة:

وإذا كان بعضها عربياً ويكاد يشبه القوى البدوية الأخرى فإن باقيها أجنبي تلمرة في العرق والدين وتارة أخرى في العرق فقط.

أولى هذه القوى: الحمدانيون، وبالرغم من أن حروبهم مع الروم قد استنفدت قواهم كلها فإنهم كانوا يطمعون في الانسياح نحو الجنوب وأخذهم من الإخشيديين ثم من الفاطميين وقد وصلوا دمشق إلا أنهم لم يجاوزوا مشارف فلسطين الشمالية ثم لم يستقروا ولكنهم خلال ذلك أثاروا القلق والاضطراب في المنطقة الجنوبية.

ثانية هذه القوى: الروم، فإن اليقظة الحربية التي أصابتهم وخاصة في الربع الأخير من القرن الرابع/ العاشر الميلادي عقب حروبهم مع الحمدانيين وانتصارهم على شمال الشام واحتلالهم إنطاكية قد فتحت أمامهم آمالاً صليبية نامت منذ أربعة قرون باسترداد بيت المقدس من المسلمين. الإمبراطور حنا تزمسكيس (٩٦٩ — ٩٧٦) لم يخف أطماعه هذه التي يمكن أن تعتبر المقدمة الأولى للغزو الصليبي المقبل، وقد ذكرها بوضوح في الكتاب

الذي أرسله إلى حليفه آشوط الثالث ملك أرمينيا حول حملته على الشام إذ قال: «رغبنا أن نحرر ضريح المسيح المقدس من نير المسلمين..»^(١).

وهكذا قام ترمسكيس بأول حملة صليبية مبكرة في هذا السبيل فعبّر بجيشه من إنطاكية إلى دمشق عن طريق البقاع ثم إذا صدقنا قوله الذي لا يؤيده المؤرخون فتح طبرية والناصرية وقيسارية وحرر كل فينيقية وفلسطين وسورية «ولو لم يحتج الوثنيون الذين كانوا يعيشون هناك في القلاع على الساحل خوفاً منا لكننا استطعنا أن ندخل بمعونة الله مدينة القدس المقدسة وأن نصلي لله في الأماكن المقدسة..». ويبدو حقاً أن هذا الاحتلال الذي يدعيه ترمسكيس "يعود إلى الخيال" لأن الغزوة البيزنطية التي قادها سنة ٩٧٥ انتهت بدخوله دمشق ولعله لامس المناطق الشمالية من فلسطين لكن آماله كانت أبعد من أقدامه بكثير وقد منعه منها قوة الفاطميين.

أما ثلاثة القوي فكانت قوة إسلامية قادمة من البعيد البعيد فيما وراء تركستان هي الأتراك الغز بزعامه السلاجقة. وكانوا قد اكتسحوا في موجة بشرية واسعة ما بين أقصى خراسان حتى الأناضول والعراق وظهرت بعض عصاباتهم في شمال الشام حين استدعى والي فلسطين الفاطمي بعضاً من هذه العصابات الغزية سنة ٤٦٣ / ١٠٧٠ على شكل مرتزقة لمعونته على حماية البلاد من غزوات البدو. لكن هذه العصابات ما لبثت أن أدركت ضعف الفاطميين وإفلاسهم المالي بعد سنوات المجاعة و"الشدة المستنصرية" التي امتدت سبع سنوات قبل ذلك فاستولوا على فلسطين لحسابهم الخاص: أخذوا الرملة وكانت خربة وبيت المقدس وملكوا طبرية ثم دمشق ثم عكا (لفترة محدودة) وسرعان ما قامت مملكة تركية في المنطقة وضعها زعيمها المغامر أتسز تحت ظل السلاطين السلاجقة وقد حاول غزو مصر فلما عاد منهزماً ثارت عليه فلسطين كلها، ونهبت القدس أهلها، فجاء إليها وقتل فيها ثلاثة آلاف إنسان وفرض عليها الأموال المهرقة وسار إلى الرملة فلم يجد بها أحداً لأن أهلها هربوا، ثم جاء غزاة فقتل كل من فيها حتى لم يدع عيناً تطرف..^(١).

ولم تكن عمليات الإبادة القاسية هذه غريبة عن طرائق السلاجقة في الغزو ولكن هذه القسوة مع فقد القوة البحرية لدى الغزاة أبقتنا الساحل الفلسطيني والشامي حتى طرابلس في أيدي الخلافة الفاطمية.

Chronique de Matthieu d'Edesse, (Documents Armeniens) Vol. I. P. 20 (La lettre

^(١) entre) P. 13 - 20.

^(١) سبط ابن الجوزي — مرآة الزمان (مخطوط باريس) الورقة ١٦٧ ظهر.

على أن أتسر اضطر تحت ضغط الفاطميين أن يسلم المملكة إلى (تتش) شقيق السلطان السلجوقي ملكشاه الذي قتله واستبد بالبلاد مالكا لها حوالي ١٥ سنة. وقد آلت دمشق وفلسطين إلى ابنه دقاق من بعده. وكان جيش دقاق عند إنطاكية يدافع دخول الصليبيين إلى الشام سنة ٤٩٨ حين استرد الفاطميون القدس. لم يستطيعوا أن يدركوا أنها ستخرج من أيديهم بعد أشهر للفرنجية الصليبيين.

٥ - فلسطين بين الغزو الفرنجي (الصليبي) والعصر الأيوبي:

كان الغزو الفرنجي (الصليبي) حلقة في سلسلة الاجتياحات البشرية والعسكرية التي أخذت تتعرض لها فلسطين منذ القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي). على أنه كان أخطرها وأقساها على الإطلاق لأنه على الأقل كان صراعا دام قرنين وامتلا بمخات من المعارك المتصلة التي امتدت ميادينها ما بين دلتا النيل وأقصى الجزيرة وانتقلت فلسطين والأرض المقدسة خلالها إلى مركز اهتمام العالمين معا: الغربي المسيحي في أوروبا من جهة والشرقي الإسلامي فيما بين إيران ومصر حتى المغرب من جهة أخرى.

وإذا كان السلاجقة قد قدموا من أقصى تركستان لفرضوا أنفسهم طبقة حاكمة في الشام وإقطاعية عسكرية وزاحموا الفاطميين على حكم فلسطين، فإن الفرنجة قدموا من أقصى الغرب ليفرضوا أنفسهم طبقة حاكمة أخرى. وقد كان مقدرًا لهاتين الطبقتين الغريبتين — والسابقة منهما لم تكن قد استقرت بعد في الشام تماما — أن تصطرعا أفسى الصراع لأن الرهان إنما كان على أرض مقدسة في أعين الطرفين وعلى عقد التجارة العالمية ومرافئها في الشرق. ولما كان السلاجقة مسلمين وعلى مستوى حضري بدوي فقد ذابت مجموعهم شيئا فشيئا في السكان مدخلة على المجموع العربي شيئا كثيرا أو قليلا من التعديل الاتنوغرافي سوف يزداد أثره مع القرون لا سيما في المدن. وفي الوقت نفسه ألف السكان مع السلاجقة بالتدريج جبهة واحدة، إذ استيقظت على ضربات الفرنجة صلات الحكام بالحقومين، فإذا هم يلتقون جميعا على العداء والحرب للفرنجية الغزاة. أما الفرنجة بالمقابل فظلوا غرباء عن البلاد ليس لأنهم فقط مسيحيون ولكن لأنهم ظلوا جسما غريبا ضمن المجموع السكاني المتجانس. وبالرغم من أنهم ملكوا الأرض والمدن بالقوة وظلوا بالقوة والمدد الأجنبي يدافعون عن وجودهم فيها إلا أنهم لم يستطيعوا إقامة أي جسر واضح من الصلة بينهم وبين أهل البلاد. فما أن انقطع عنهم المدد الغربي من المال والرجال حتى تقرر مصيرهم بالجللاء الإجماري.

(أ) الغزو الفرنجي الصليبي لفلسطين:

وصلت جموع الصليبيين الأولى إلى فلسطين من شمال سورية عن طريق الساحل ربيع سنة ١٠٩٩، أي بعد أربع سنوات فقط من إعلان البابا الدعوة لتخليص الأرض المقدسة من أيدي المسلمين، ومع أن الحماسة الدينية هي السمة الظاهرة التي تلهب جموعهم وتحركهم إلا أن ألوانا من المطامع الدنيوية السياسية كانت عملاً رؤوس قاداتهم، وأشتاتا من الأطماع الاقتصادية كانت تعتمل في نفوس أصحاب الأساطيل الإيطالية التجارية الذين كانوا يمدونهم بالمال والرجال والمعونة عبر البحر.

ولم يجد الفرنجة صعوبة كبيرة في اجتياز مدن الساحل: عكا، حيفا، قيسارية، أرسوف، لأنهم لم يتعرضوا لها ولا هي عرضت لهم وقد تحولوا إلى الداخل عند يافا فمروا بالرملة ثم ضربوا الحصار قرابة أربعين يوما على القدس. ولم يصل المدد الذي كانت تنتظره حاميتها الفاطمية التي لا تزيد عن ألف رجل بينما كان عددهم يزيد عن ٥٠ ألفا فسقطت المدينة (١٥ تموز سنة ١٠٩٩) ... المذبحة استمرت أسبوعا بعد ذلك كانت من أبشع المجازر في التاريخ فقد ملأت القدس بالجلث المكسدة التي ذقت الذبح والحرق وتقطيع الأوصال، وبلغ مجموع الضحايا سبعين ألفا. وكتب الصليبيون أن حيولهم تخوض في الدماء إلى الركب في أروقة المسجد الأقصى.

وأقمرت القدس إلا من الغزاة والجلث فأخرجوها خوف الأوبئة والتمسوا بعض المسيحيين المحليين ليأهلوا معهم المدينة وحولوا المساجد كنائس. وإذا رفض الأمير الذي نصبوه للحكم أن يحمل من الورع لقبا سوى: حامي القبر المقدس فإن الأمير الذي خلفه بعد سنة فقط حمل لقب الملك سنة ١١٠٠. وانكشف أن الفرنجة لم يكونوا ينظرون إلى الأرض المقدسة كمكان ديني بقدر ما يريدونها إمارة سياسية ومركزا تجاريا وموطن هجرة بشرية مستقرة.

وهكذا بعد أن ظهرت إمارتا الرها وإنطاكية ظهرت مملكة بيت المقدس اللاتينية التي استطاعت في أقل من سنة أن تمد حدودها من منطقة الجولان حتى وادي العربة، ومن غزة حتى شمال عكا بما في ذلك الجليل وسرعان ما وضعت لها القوانين والنظم على النمط الغربي الإقطاعي، ونقلت لها أنماط الحياة الفرنجية وتأسست من الجموع الصليبية التي بقيت في البلاد مجتمعات خاصة، عسكرية ودينية سكنت المدن تاركة الريف في الغالب لسكانه وأصحابه الأصليين. شكل الغزاة طبقة حاكمة جديدة ولكنها أجنبية قوامها أعداد من المغامرين والحجاج والتجار والمرزقة ورجال الدين.

وشكل المتطوعون للعمل المدني منظمين عسكريين دينيين الأولى الداوية (أو رجال الهيكل) لتأمين وصول الحجاج الغربيين إلى القدس والثانية الاستبارية لتأمين المأوى لهم. ولكنهما تحولتا بسرعة وبسبب طبيعة المجتمع العسكري الصليبي وحاجاته الدائمة للقتل، إلى إمارتين داخل الإمارات وإلى فرقتين عسكريتين من الرهبان.

وقد عاش المجتمع الفرنجي الدخيل على ما يأخذه من الضرائب المحلية الزراعية وما يأتيه من المدد الغربي وما ينهبه من الأرض الإسلامية وعلى ما يتقاضاه خاصة من الرسوم والمكوس على القوافل ومرافق التجارة. ونزلت في المدن الساحلية (مثل عكا، أرسوف، قيسارية، يافا) جاليات تجارية إيطالية بصورة خاصة (من جنوة ونابولي والبندقية وغيرهم) منحت الأسواق الحرة والامتيازات في إقامة حي تجاري على ثلث المدينة يتبع بلادهم في التشريع وله البيوت والفنادق واحتكار التجارة ببعض البضائع دون رسوم ولا نفوذ عليه وذلك جزءا مشاركتها في غزو هذه البلاد والاستيلاء عليها كما احتكر الفرنجة كافة المعاملات التجارية بين الشرق والغرب عبر مرافق الشام وبنيت مملكة القدس خاصة مرفأ أيلة (العقبة) وقلاع الشوبك والكرك في شرقي الأردن لإحكام سيطرتها على قوافل التجارة الإسلامية بين مصر ودمشق والحجاز.

وظل المجتمع الفرنجي في فلسطين في تحدد بشري مستمر بما يصله من الجموع الأوروبية، وفي اتصال مستمر بأوروبا — وأحيانا بمشاكلها — فلم يستطع أن ينسى لا أصله ولا تقاليده ونظمه، كما أنه عاش بالمقابل في عزلة دائمة عن المجتمع الشرقي بسبب الحروب التي كان يشنها دون انقطاع عليه لتأمين استقراره. وزاد الحاجز اللغوي (أي اللهجات اللاتينية التي يتكلمها) في انعزاله فلم يتعلم الفرنجة اللغة العربية إلا فيما ندر ولا تعلم أحد من المجتمع الإسلامي لغة اللاتين للتفاهم معهم. وإذا كان ممكنا أن تشكل المسيحية جسرا اتصال بين الفرنجة ومسيحيي الشرق فإن مذاهب الشرق محدودة لا سيما مع جو العداء الحربي الدائم بين المسلمين والفرنجة. وبالرغم من أن الصليبيين قد أخذوا مع الأيام بعض مظاهر الحضارة الشرقية في الطعام والملابس والأدوات والمعلومات الطبية ورقة الطباع، كما تعاملوا دون انقطاع في التجارة مع المسلمين، إلا أن مظاهر الاتصال هذه ظلت سطحية ومحدودة قاصرة، وظل المجتمع الصليبي مجتمعا اصطناعيا مزروعا في وسط عدائي، وقد عبر عن ذلك أن الأثر الوحيد الذي تركه الصليبيون بعد مائتي عام من الإقامة في الشرق هو القلاع الحربية التي كانوا يعتصمون بها وبعض الكنائس التي تشبه القلاع.

ويبدو بالمقابل أن المجتمع الإسلامي الذي بقي في الريف الفلسطيني ظل يعيش حياته العادية تحت الحكم الفرنجي وضمن نظمه وقوانينه. وقد شكلت جماعات منه بعض العصابات لقطع الطرق وتدمير الأمن منذ الأيام الأولى وقد أشار إليها كتاب الفرنجة^(١) مما دعا إلى تشكيل فرقة الداوية. كما أشار إلى هؤلاء أسامة بن منقذ بعد أن زار فلسطين الصليبية سنة ١١٢٣ وإلى علاقات العداء بين بقايا المسلمين هناك والصليبيين وإلى الكيد الذي يكيد به بعضهم لبعض^(٢).

وأما من الناحية السياسية فأضحت مملكة القدس في فلسطين رأس مجموعة من الإمارات اللاتينية تمتد على طول الساحل السوري وحتى عمق واضح في الجزيرة مشكلة إمارات طرابلس وإنطاكية والرها وتاركة الداخل السوري كله بيد المسلمين. وتوالى على القدس ملوك لعل أهمهم الثلاثة الأوائل الذين قامت على جهودهم كل سمعة المملكة في القوة والتوسع.

ب) المقاومة الإسلامية:

وإذا كان المجتمع الشامي (والعالم الإسلامي من ورائه) قد فوجئ بالغزو الصليبي وظنه أول الأمر من "الروم" فإن ردة فعله كانت على المستوى الفكري — الروحي سريعة جدا وإن كانت على المستوى العملي العسكري محدودة ومتفرقة. في دمشق، وحين كان الصليبيون لا يزالون عند إنطاكية جلس فقيه شافعي في الجامع الأموي يعلن فريضة الجهاد على الشام أولا وعلى العالم الإسلامي بعد ذلك. وبعد سنتين كان شيخ دمشق آخر هو علي بن طاهر السلمي النحوي (المتوفى سنة ٤٩٩ / ١١٠٥) يقرر أن هذا المحجوم هو واحد من غزو ذي ثلاث شعب بعضه من اسبانيا وبعض من صقلية وهذا الثالث على الأرض المقدسة وكتب "كتاب الجهاد" وجلس يدرسه للناس في الجامع الأموي بدمشق^(٣).

ورغم القطيعة والتباعد بين الحكام والمحكومين فإن فكرة الجهاد قد جمعتهم ضد العدو المشترك وبدأت المقاومة باسماء غير مشهورة من مثل مودود صاحب الموصل

^(١) ذكر الراهب الروسي دانيال الذي زار الأرض المقدسة سنة ١١٠٦ أن الأمن مفقود وأن على الطرق العدد الكبير من قطاع الطرق، وذكر ذلك سيبولف وغيره. (انظر عارف العارف — المجلد في تاريخ القدس، ص ١٥٨ و ١٦٥).

^(٢) انظر كتاب أسامة بن منقذ — الاعتبار، ص ١٣٨ و ١٣٩.

^(٣) الأجزاء الباقية من هذا المخطوط موجودة في المكتبة الظاهرية بدمشق.

وطغتكين صاحب دمشق اللذين هزما الصليبيين هزيمة منكرة عند طبرية سنة ١١١٢، كان ممكنا أن تكون مثل حطين لولا أنهما لم يستثمرا نتائجها، ولولا أن الثاني تأمر على الأول فقتله. ولكن المقاومة استمرت في تصاعد.

كانت عسقلان قد بقيت في أيدي الفاطميين رأس جسر حربي وتجاري مدة نصف قرن بعد الغزو الصليبي ولكن القوى الفاطمية توقفت بعد خمس أو ست سنوات من النضال عن منازلة الفرنج الذين طمعوا بالعكس في أرض مصر وهاجموها ويئس الفاطميون من جدوى النضال البحري بعد أن ذهب الساحل السوري من أيديهم وقطعت عليهم الأساطيل الإيطالية وغيرها طرق البحر والتجارة مع الشام. ومع أن دمشق اعتبرت أن عليها عبء تحرير فلسطين إلا أنها بعد المحاولات الفاشلة بزعماء طغتكين مالت إلى المهادنة. ولم تفلح المحادثات التي عقدها أتابكة دمشق مع غيرهم من أمراء الشام والموصل في زحرة الصليبيين عن الأرض التي احتلوها في فلسطين أو في غيرها حتى ظهر "زنكي".

كان زنكي من الطبقة الحاكمة التركية، وكانت هذه الطبقة المحاربة وكان التجنيد يجري في صفوف التركمان خاصة، أما التمويل ودفع التكاليف واحتمال الآلام والتخريب والضحايا والدمار فمن نصيب العرب السكان الأصليين. ومع أن دخول الترك كمحاربين إلى الشام قد أخرج من الميدان قوى البدو وجمدها فإنه على ما يبدو جندها أيضا للجهاد وخاصة قبائل طي وكنب، كما أنه لم يستغن عن قوى "الأحداث" المحلية وقوى المتطوعة من الشعوب المسلمة الأخرى كالديلم والأكراد الذين جمعهم الجهاد والارتزاق. في زمن زنكي ونتيجة لأعماله الحربية وتوحيده الموصل مع حلب في أتابكية واحدة، ومحاولته ضم دمشق إليها، تبلورت أفكار المقاومة للصليبيين وتوضحت. فلما استطاع أخذ الرها سنة ١١٤٤ وإلغاء إمارتها اعتبر الناس ذلك بدء الانهيار الصليبي، والواقع أن فترة التوازن بين قوى الغزو وقوى المقاومة كانت قد بدأت تتساوى قبل ذلك، وقد اتضح التوازن يوم فشلت الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق سنة ١١٤٨ وكان فيها ٥٠ ألف صليبي وثلاثة ملوك. ثم جاء نور الدين زنكي بعد أبيه وتبنى سياسته في توحيد القوى الإسلامية حتى وضحت أهداف المقاومة الإسلامية من خلال الأفكار الأساسية التي راجت في نفوس الناس قوامها: الجهاد والشهادة في سبيل الله من جهة وضرورة توحيد القوى لتخليص القدس وفلسطين من الاحتلال من جهة أخرى. وقبلما ذكر الناس إنطاكية وطرابلس في تلك الفترة، ولكن القدس بالذات ومكانتها وقدسيتها في النفوس أخذت تحتل المقام الهام في تبلور المقاومة. كان الفقهاء يؤكدونها

بالأحاديث النبوية الكثيرة ويشيدون بمكانتها. وكما ألفت كتب في الجهاد شارك فيها حتى نور الدين نفسه وعدد من العلماء. كذلك ظهرت سلسلة من الكتب في فضائل القدس وتعظيمها كتبها الكثيرون من المحدثين والفقهاء. وظهرت رسائل في فضائل عسقلان والخليل وألفت كتب الزيارات للمشاهد المباركة.

ولما كانت الخلافة الفاطمية الشيعية في حالة ضعف وتدهور فقد تمثلت المقاومة الإسلامية فقط في محور دمشق — حلب الذي يقوده نور الدين، كما دعا هذا الضعف نفسه كلا من نور الدين والصليبيين إلى التسابق لورثة الحكم الفاطمي في مصر. كان الصليبيون يريدون توطيد مركزهم في الأرض المقدسة وتوسيع قاعدتهم التجارية بامتلاك دلتا النيل كما كان نور الدين يرمي إلى تطويقهم في فلسطين من الجهتين الشامية والمصرية بأخذ مصر. وانتهت سلسلة الحملات والمناورات التي تمت بين سنتي ١١٦١ — ١١٦٩ باستيلاء صلاح الدين، قائد نور الدين على الحكم في مصر وإلغاء الخلافة الفاطمية بعد قليل والتغلب على المؤامرات الداخلية والدولية التي دبرها الصليبيون وغيرهم ضده.

ج) تحرير فلسطين من الفرنجة:

لم يكن ظهور صلاح الدين مفاجأة ولكنه كان نهاية خط المقاومة الطويل الذي امتد حوالي سبعين سنة حتى الآن، وقد استطاع صلاح الدين عقب وفاة نور الدين سنة ١١٧٤ أن ينطلق من مصر فيضم أملاك نور الدين إليه ويقضي ١٣ سنة في الاستعداد العسكري والدبلوماسي والسياسي إلى أن تفرغ للوقوف بجيش إسلامي موحد في حطين تجاه القوى الصليبية كلها في الشام مجتمعة. النصر الرائع الذي حازه صلاح الدين في معركة حطين (تموز سنة ١١٨٧) جعلت المعركة من المعارك الفاصلة في التاريخ. انسحقت القوى الصليبية فانطلقت القوى الإسلامية تسترد مدن فلسطين مدينة مدينة: طبرية، عكا، قيسارية، حيفا، نابلس، يافا، صفد، الرملة، بيت لحم، صفورية، عسقلان، غزة، الخليل، عدا مدن سورية الأخرى في الشمال. وأخيرا استسلمت القدس بعد حصار قصير (تشرين الأول سنة ١١٨٧)، وكان موقف صلاح الدين من الحامية الصليبية ومسكن الفرنجة الموجودين فيها نموذجاً رائعاً للنبل والتسامح، وإذا كانت مملكة القدس اللاتينية قبل ثمان وثمانين سنة قد بدأت يبحر من دماء المسلمين فقد انتهت هذه المملكة بفصل من العفو ندر مثيله في التاريخ: كان فيها ستون ألفاً من الفرنجة فخرجوا بالفداء والأمان والمال والآنية. حتى فقراؤهم افتداهم صلاح الدين بنفسه.

الأحداث الباقية من الحروب الصليبية بعد فتح القدس وهي ست حملات كبرى معروفة كانت صراعا في الفراغ. ومع أن القدس وفلسطين كانت محورها إلا أنها في معظمها لم تجر في فلسطين، وبالرغم من أنها دامت أكثر من مائة سنة أخرى إلا أنها لم تسمح للفرنجية بأكثر من ١٧ سنة من الاحتلال السلمي للقدس (٦٢٦ - ٦٤٣ / ١٢٢٨ - ١٢٤٥). أضحت القدس المقدسة مجرد ستار سياسي يخفي مع الأطماع الاقتصادية مشاكل الغرب نفسه، وقد فرغ من المحتوى الديني للدرجة التي آمن معها العرب بأن خلاص هذه الأرض لا يكون إلا بحملة من الأطفال لأنهم أطهار.

الحملة الثالثة التي كانت رد فعل أوروبا المحموم ضد سقوط القدس والتي حملت إلى الشرق ثلاثة ملوك كانت تمرينا غربيا على الفروسية والحرب واللس السياسي برز فيه خاصة ريشارد قلب الأسد. وكان من نتيجته في صلح الرملة تثبيت أقدام الصليبيين في الساحل الفلسطيني ما بين صور وعكا إلى أطلال عسقلان، وذلك بعد ملحمة من الدفاع الإسلامي الرائع عن عكا برز فيه التحام قوى الشعب العادي مع الحاكم والجند.

وقد توفي صلاح الدين بعد ذلك بقليل سنة ١١٩٣ بعد أن منح القدس عدا التحرير لمسة عمرانية واسعة قوامها البيمارستان للمرضى والخانقاه والمدرسة الصلاحية، كما رمم الجوامع وقبة الصخرة وبنى السور والخندق وجامع جبل الطور وبعض المقابر. ولمس العمران الخليل وعكا وطبرية وغيرها في الوقت نفسه.

لكن الغرب الأوروبي عاد مع ذلك يحمل شعار "استعادة أرض القبر المقدس" وقامت الحملة الرابعة التي انتهت في لحظة من لحظات افتضاح النوايا، إلى احتلال القسطنطينية. وقامت حملة الأطفال فانتهى أمرهم في أسواق النخاسة وقامت الحملة الخامسة سنة ١٢١٧ فتوجهت إلى مصر لا إلى فلسطين وانتهت عند دمياط لا القبر المقدس.

وقامت الحملة السادسة فاتفق صاحبها فريدريك الثاني ملك صقلية مع الملك الأيوبي الكامل صاحب جنوب الشام على صلح سنة ١١٢٩ يعطيه القدس ولكن دون أسوار. وضح العالم الإسلامي لهذا التخاذل وذهب المؤذنون يؤذنون أمام مخيم الملك الأيوبي احتجاجا في غير وقت الأذان فاضطر الملك الذي جاء بعده إلى معادوة احتلالها مؤقتا سنة ١١٣٩ ثم هاتيا سنة ١٢٤٤. ثم جاءت الحملة الصليبية السابعة فانتتهت كالحامسة في مصر وعند دمياط.

ومع أن الصليبيين حصروا خلال هذه الفترة كلها في شقة ساحلية ضيقة قوامها مدن الساحل إلا أن الأمراء الأيوبيين الذين تقاسموا ملكة صلاح الدين ثم أبناءهم وأحفادهم كانوا من الأنانية والزحام التافه على الإمارات وضيق النظر السياسي بحيث لم يكن أي

واحد منهم بمستوى الهم الكبير الذي ألهم صلاح الدين، حتى أبرزهم وهما العادل وابنه الكامل كانا أصغر من ذلك. وقد زال الأيوبيون من مصر وسورية بين سنتي ١٢٥٠ — ١٢٦٠ دون أن يزحزحوا الصليبيين عن مواقعهم بل مكنوهم أيضا من غيرها. وهكذا بقيت المهمة الصعبة والمقدسة في تصفية الصليبيين لمالك الأيوبيين يقومون بها وبغيرها ويكسبون عن هذا الطريق المجد في عيون الإسلام وشرعية الحكم أيضا.

د) الأيوبيون وفلسطين:

انتصار صلاح الدين في حطين واسترداده الأراضي المقدسة أعطيا أسرته من بعده حق الحكم في مملكته الممتدة ما بين أعالي الجزيرة وأعالي مصر واليمن أيضا. ولكن الأيوبيين من أمراء البيت أو قواد الجيش تقاسموا هذه المملكة بينهم واعتبر كل واحد منهم ما يقع تحت يده منها نوعا من الاقطاع العسكري^(١)، وهو المفهوم الإداري الذي دخل الشام مع السلاجقة (وكان الصليبيون يطبقون ما يشبهه) والذي أضعف الإدارة ضعفا مهد لزوالها في العصر المملوكي.

كانت فلسطين أولا موضوع نزاع بين ولدي صلاح الدين (الأفضل والعزیز) حتى أخذها الملك شقيقه الملك العادل (٥٩٦ — ٦١٥ / ١١٩٩ — ١٢١٨) ثم تسلمها المعظم ابن العادل حتى سنة ٦٢٤ / ١٢٢٦ وفي السنة التالية صارت للملك الكامل ٦٢٥ / ١٢٢٧ (الذي تنازل عن القدس سلميا للملك فريدريك صاحب صقلية النورماندي سنة ٦٢٦) وورث أعمال فلسطين بعد ذلك ابنه الملك الناصر (الذي تحررت القدس في عهده سنة ٦٤٢) ثم توفي لينتهي الحكم الأيوبي بابنه طورانشاه سنة ٦٤٨ / ١٢٥٠ ويبدأ العهد المملوكي الذي تبعته منذ ظهوره غزة والقدس ونابلس والساحل الفلسطيني كله.

وبالرغم من قلق العهد الأيوبي في فلسطين في بعض الأحيان فقد أفادت منه البلاد في ثلاث نواح هامة:

أولا: النشاط الاقتصادي: فقد عني الأيوبيون بأمور الزراعة والري في فلسطين (وفي غيرها من ممالكهم) ليستفيدوا من العائد الزراعي. وإذا تذكرنا أنهم كانوا يسيطرون على ما بين مصر واليمن والشام عرفنا لماذا أولوا التجارة عنايتهم الكبيرة ولماذا انتهجوا طريق المسالمة والاتفاق مع القوى التجارية الغربية وعقدوا المعاهدات التجارية مع المدن الإيطالية

(١) المقرئزي — الخطط (ط بولاق)، ج ١، ص ٩٧.

ومع الفرنجة (الفرنسيين الجنوبيين) والقطلانيين (الاسبان) وفتحوا لهم مرفأ الشام ومنها في فلسطين عكا ويافا خاصة ومنحهم التسهيلات لإقامة البيوت التجارية وللمحسني بالحجاج الغربيين إلى القدس والذهب بالمطرزات والنسيج والزجاجيات وبالقطن وبمختلف بضائع الشرق وبخاصة التوابل بأنواعها والأحجار الكريمة والبخور والعقاقير والأصباغ التي كان يقوم على تجارتها في ما بين المثلث الأيوبي (اليمن — مصر — الشلم) وما بين الهند التجار المعروفون بالكارم أو الكارمية الذين وجدوا منذ العهد الفاطمي ولكنهم برزوا كتنظيم تجاري دولي في العهد الأيوبي. وكانت لهم في الشام وفلسطين ومصر تنظيماتهم القوية تجاريا وماليا وفي الأساطيل والوكلاء.

ثانيا: النشاط العلمي: إن عودة القدس وفلسطين إلى المسلمين، بعد عودة مصر الفاطمية إلى الفلك السني، وما أثارته الحركة الصليبية من ردود فعل دينية وفكرية كل ذلك جعل الشام بصورة خاصة مركز جذب لموجات متصلة من العلماء الوافدين من المشرق والمغرب إليها في العهد الأيوبي (من المشاركة مثلا كان الشهرزوي وسيط ابن الجوزي وسيف الدين الأمدى وعبد اللطيف البغدادي، ومن المغرب جاء ابن سعيد وابن عربي وابن مالك وابن البيطار وابن ميمون اليهودي الطبيب) وقد زاد في اجتذابهم تنافس البلاطات الأيوبية على إكرامهم وتشجيعهم والحركة الاجتماعية والغنى التجاري الواعد. وهكذا صارت بلاد الشام في العهد الأيوبي، رغم مآسيه السياسية، المركز العلمي الأول في البلاد الإسلامية، وتجمع كما برز فيها الفقهاء والمحدثون والأطباء والكتاب والشعراء والعلماء بالعشرات وبنيت لهم المدارس والزوايا والخانقوات والبيمارستانات. وقد نالت فلسطين، والقدس منها بالذات، نصيب كبير من هذا التحرك الثقافي الواسع الذي أخذ بصورة عامة ثلاثة اتجاهات:

١ — الطب الذي نما وظهرت الحاجة إليه مع الحروب لدرجة أنه كتب في تاريخ رجاله في وقت واحد تقريبا موسوعتان (كتاب ابن أبي أصيبعة في دمشق وكتاب القفطي في حلب) وبنيت له المدارس فيهما كما أقيمت البيمارستانات ومنها البيمارستان الصلاحي في القدس.

وكان من أطباء فلسطين البارزين في القدس: يعقوب بن صقلان القدسي وابنه سديد الدين، وابن الصوري النبائي وحفيده علي، وفتح الله المقدسي ورشيد الدين ونجم الدين اللبودي هذا إذا لم تذكر العلوم العملية الأخرى المرافقة للطب كالصيدلة وعلم النبات.

٢ — علوم الدين من قرآن وحديث وفقه وما يتصل بذلك، وتراجم رجال هذه العلوم من أهل فلسطين أو ممن جاؤوها تملأ كتب التراجم. وإنما كان عددهم كبيراً لأن نظام "المدارس" الذي ظهر أواخر القرن الخامس في المشرق الإسلامي انتشر بسرعة كبيرة وعلى نطاق واسع وبنيت له أيام الأيوبيين الأبنية الخاصة في الشام وفلسطين ومصر وأضحى المصدر الأساسي لموظفي النظم السلجوقية والأيوبية. كما منح المذهب السني ما يلزمه من الأجهزة الدعائية المنظمة.

٣ — الزهد والتصوف: وقد جاء هذا الاتجاه نتيجة التصعيد في الموقف الإيماني وازدواج ذلك مع التهديد الصليبي — المغولي من جهة وقسدية الأرض الفلسطينية من جهة أخرى. وإذا كثرت الزهاد والمتصوفة في فلسطين والقدس فقد أعطاهم الجو العام مبرر الانطلاق في هذا السبيل كما أن الأعياد الدينية التي أنشأها صلاح الدين في "مواسم" سنوية محددة لإبراز قوى المناطق وربطها ببعضها ببعض في فلسطين أعطت الفرق الصوفية مجال الظهور بتظاهرات جماعية.

ثالثاً: النشاط العمراني: كان العهد الأيوبي مطلع مرحلة من العمران الواسع في فلسطين امتدت على عدة قرون بعده. والعناية التي بذلها الأيوبيون في منح فلسطين المنشآت العمرانية وحبس الأوقاف عليها لم يسبقهم بها سوى المماليك من بعدهم. وإذا كان صلاح الدين، قد بدأ تلك الأعمال رمزا لعودة فلسطين إلى أيدي المسلمين وتثبيتاً للمؤسسات الإسلامية فيها، فإن الذين تولوها من الأيوبيين بعده قد تابعوا الأعمال نفسها، وحين انتهى عهدهم في منتصف القرن السابع، كانوا قد أعطوا فلسطين مجموعة من الجوامع والمدارس للتدريس والخانقاهات والزوايا والأسوار الدفاعية عن المدن. ولعل أكثرهم نشاطاً في هذا المضمار هو الملك المعظم عيسى ومعظم الأبنية الحالية في قلعة القدس وفي المسجد الأقصى من أعماله، وهو الذي بنى قلعة جبل طابور وجامعه، وجامع النبي يونس في حلحول وحبس الأوقاف الكثيرة على الحرم الإبراهيمي في الخليل وأنشأ سبيل شعلان شمالي الحرم والمدرسة النحوية والمدرسة المعظمية والناصرية، كما بنى الملك الأفضل المدرسة الأفضلية والجامع العمري في القدس. بالإضافة إلى سقايات وسبل أوقاف ومنشآت أخرى. والكتابات الأثرية التي تخلد هذه الأعمال ما تزال إلى اليوم منقوشة على بقاياها.

وإذا انقضى العهد الأيوبي وفي القدس وحدها تسع مدارس دينية بناها الملوك والأمراء تعبيرا عن مقامها الديني فإن هذا البلد قد حظي أيضاً لأول مرة وفي العهد الأيوبي نفسه بثلاثة مؤلفات تحكي فضائله وتؤكد قدسيته في الضمير الإسلامي. وقد

كتب أحد هذه المؤلفات في بغداد أبو الفرج ابن الجوزي وكما كتب الكتائب الآخرين عالمان من أسرة ابن عساكر العلمية في دمشق عملا في التدريس بمدارس القدس.

٦ - فلسطين في ظل المماليك والعثمانيين:

بدأ العهد المملوكي بداية مثيرة أعطت المبرر لوجوده. فهؤلاء المماليك الذين استخدمهم الأيوبيون جندا لهم استطاعوا الاستفادة من التناحر الأيوبي لقيموا نظاما لم يعرف له مثيل من قبل ولا من بعد هو أن يتولى رئاسة الدولة المماليك فقط وأن يتوارثها أيضا المماليك بعضهم من بعض. ومع أن هذا النظام قام في مصر سنة ١٢٥٠ فإن الشام كلها دخلت فيه بحكم استيلاء المماليك على تركة سيدهم الأيوبي. وكان من المصادفة أن فلسطين بالذات هي التي قدمت للمماليك فرصة الظهور البطولي على المسرح الإسلامي وتوحيد مصري الشام ومصر، وذلك في عملين تاريخيين:

(١) دفع الخطر المغولي:

فإن هذا السيل البشري المدمر كان قد بدأ يكتسح البلاد الإسلامية من الشرق منذ مطلع القرن السابق (الثالث عشر الميلادي). فما أن سقطت بغداد في يده سنة ٦٥٦/ ١٢٥٨ حتى كانت الخطوة التالية بلاد الشام فسقطت حلب وحارم وحمّاه ودمشق ووصلت طلائع المغول حتى غزة. وكلمة "سقطت" لا تمثل الواقع الذي كان سلسلة من النكبات والمذابح والدمار. كان المغول لا يغادرون مكانا إلا خلفوه جثثا وأطلالا تخرق. ووجد المماليك أنفسهم في مصر - ودولتهم ما تزال في مستهلها - أمام أحد حلين: إما أن ينتظروا الموت حتى يأتيهم أو أن يذهبوا بأنفسهم إليه في محاولة يائسة للدفاع. وخرج الجيش المملوكي فالتقى بجيش المغول عند عين جالوت بين طبرية والناصرية سنة ١٢٦٠ ووقعت المعركة الفاصلة التي كانت نقطة تحول في التاريخ وذاق المغول لأول مرة مرارة الهزيمة المنكرة وقتل قائدهم كتبغا وتراجعوا ثم تراجعوا إلى ما وراء حدود الشام. وانتهى بذلك الغزو المغولي الأول والكبير للشام. ولقد تأيد الموقف المملوكي جدا بعد ذلك بسحق الغزوة المغولية الثانية سنة ١٢٨٠ عند حمص ثم بسحق محاولتهم الثالثة والأخيرة سنة ١٣٠٣ عند مرج الصفر جنوبي دمشق بعد أن كان المغول قد اكتسحوا الشام واخترقوا فلسطين حتى غزة^(١).

(١) أما الموجة الثرية التي جاءت بعد ذلك بمائة سنة بقيادة تيمورلنك فقد انتهت بتدمير دمشق سنة ١٤٠١ التدمير الكامل ثم انسحبت دون أن تدخل فلسطين.

٢) تصفية الصليبيين في الشام:

كانت الإمارات الصليبية قد تعايشت بشكل أو بآخر مع الأمراء الأيوبيين، إلا أن الملك الظاهر بيبرس رابع السلاطين المماليك أخذ بفكرة الحرب المقدسة فقاد بين سنتي ١٢٦٣ - ١٢٧١ سلسلة من الحملات السنوية تركت حصون الإفرنج تسقط الواحد تلو الآخر بين يديه. وهكذا امتلك الكرك سنة ١٢٦٣ ثم الناصرة وهدم كنيستها ثم أخذ قيسارية بضربة صاعقة سنة ١٢٦٥ ثم أرسوف واحتل سنة ١٢٦٦ صفد وأباد حاميتها البالغة ألفي مقاتل ثم استسلمت له يافا سنة ١٢٦٨ ثم شقيف أرنون في لبنان، ثم سقطت انطاكية فقتل منها ١٦ ألفاً وأخذ ١٠٠ ألف أسير. وسقط حصن الأكراد. وجاء السلطان قلاوون بعد ذلك فاستطاع فتح قلعة المرقب ثم طرابلس ١٢٨٩ وتوفي فآتم الفتح ابنه خليل الذي سقط في يده آخر معاقل الصليبيين على الساحل السوري كله: فتح عكا أولاً فاستسلمت المدن الأخرى الباقية: صور، صيدا، بيروت، انطربوس سنة ١٢٩١، ثم استسلمت أرواد، وختمت بذلك الملحمة الصليبية في الشرق الشامي بعد أن استمرت قرنين.

إن النصر المزدوج على الخطرين المغولي والصليبي أعطى الجهاز العسكري المملوكي المبرر لتسلم الحكم بوصفه درع البلاد القوي.

وعبرت بعد ذلك خمسة قرون لم تعرف فلسطين خلالها الغزو الأجنبي حتى وصل إليها نابليون آخر القرن الثامن عشر سنة ١٧٩٩. ولكنها في الواقع عرفت ما هو أسوأ منه وهو حكم الزمر العسكرية الأجنبية ومشايخ البدو خلال تلك القرون التي يعطونها في التاريخ عنوان: عهد المماليك (ما بين سنة ١٢٥٠ وسنة ١٥١٦) والعهد العثماني (منذ سنة ١٥١٦ حتى ١٩١٨). كان مركز الحكم خلال الفترة الأولى في القاهرة بيد سلطان من القفجاق أو من الشراكسة هو دوماً من العبيد السابقين الذين احترقوا الجندية لدى السلطان السابق، وكان المركز في الفترة العثمانية في استامبول بيد السلطان العثماني. وكما مر المماليك بفترة في عهود السلاطين الأوائل أمثال بيبرس وقلاوون وبعض من السلاطين الشراكسة (برقوق، قايتباي) ثم انهاروا، كذلك مر العثمانيون بفترة من القوة أيام السلطان سليم وسليمان القانوني، ثم جاءت فترة التزع الطويل "للرجل المريض" التي استمرت أكثر من ثلاثة قرون. وكانت فلسطين سواء بقيت بلداً مقدساً الأرض تحوم من حوله الهالة الدينية ولكنها لم تعد بلدات مركز سياسي. ثوارها الذين ثاروا فيها في القرن الثامن عشر هم الذين أعادوا إليها هذا المركز فترة قصيرة. ثم جاء دخول نابليون ثم جيش محمد علي إليها فأعادها إلى دوائر الاهتمام السياسي، ولكن هذا وذاك على السواء لم

يخلصها من الفئات التي أطلقتها الإدارة السلطانية للتحكم فيها وهم من جهة مجموعات أجنبية من العسكر السلطاني الباحثين عن جمع المال ومن الجهة الأخرى جماعات جشعة من البدو الباحثين عن مستقر. وبين هؤلاء وأولئك كانت معاش الناس وحياتهم الاقتصادية تكثر بين ارتفاع وانخفاض وإن كان خطها البياني يتجه دوماً إلى الانخفاض، وكانت البلاد تكسب أحيانا بعض العمران في المباني الدينية ولكنها تسير في الفكر على الانغلاق والجمود، حتى مطلع القرن العشرين.

أ) تغير البنى الاجتماعية — الاقتصادية والسياسية:

والانقلاب الأساسي الذي تم في فلسطين (والشرق العربي معها) القرون المملوكية — العثمانية هو تغير البنى الاجتماعية — الاقتصادية والسياسية في البلاد، رغم بقاء كل شيء تحت مظلة الحضارة الإسلامية. لم يكن المجتمع الإسلامي الذي ظهر في الشام (والعراق ومصر) بعد الحروب الصليبية في بناء وطموحاته واهتماماته الحياتية هو المجتمع الإسلامي السابق لتلك الحروب ولو أن الجذور في العصورين واحدة والإطار الديني الشامل هو في الظاهر واحد. الدولة المملوكية وتاليها الدولة العثمانية لم تكونا امتداداً حضارياً للنظم العربية الإسلامية السابقة ولكنهما كانتا تكويناً سياسياً آخر: قامت أولهما تحت ضغط الحروب الصليبية — المغولية وقامت الأخرى في ظل الحروب التوسعية المتصلة ضد الروم وضد الشعوب البلقانية والأوروبية. وقد أفرزت هذه الظروف القتالية في الحالين، وكرد فعل على الأخطار، وباسم الجهاد والدين، طبقتين متحالفتين:

١ — طبقة عسكرية من المماليك ثم من زملائهم الانكشارية العثمانية، تسلمت الإدارة والسياسة تحت رئاسة السلطان (المملوكي أو العثماني).

٢ — طبقة دينية أفسحت لنفسها مكاناً في النظام السياسي وتعاونت معه وكان هذا النظام نفسه، بسبب غربته عن المجتمع الذي يحكمه، بحاجة إلى التعاون معها وتأييدها.

وما دام الإسلام، في حالتي الدفاع (ضد الفرنجة الصليبيين والمغول) أو الجهاد ضد امبراطورية الروم هو الذي انتصر وما دام هؤلاء الجند من ممالك أو سباهية وانكشارية هم الذين حملوا سيف الإسلام ونصروه، فقد كان رد الفعل العام لدى الناس هو التسليم لقوتي الجند ورجال العلم الديني، أرباب السيف وأرباب القلم، بقيادة المجتمع. فالنظام المملوكي (والعثماني من بعده) هو كما قال ابن تيمية تحالف الجندي مع العالم.

كانت ملامح هذا الانقلاب البنائي قد بدأت تظهر منذ العهد الأيوبي الذي لم يكن سوى فترة انتقال من تكوين بنائي إلى آخر. ولم يكن بروز الطبقتين العسكرية والدينية

إلى واجهة الحكم السياسي هو النتيجة الوحيدة فقد رافق ذلك ما هو أهم منه وهو الإيمان بأن الفكر الإسلامي على الشكل الذي وصل إليه في القرنين الرابع والخامس هو ختام الفكر وقيمته الكبرى وإن التمسك بإطاره وحدوده وحرفيته هو الطريق لصيانة العالم الإسلامي وبقائه. فكان كل هم القوتين الدينية والعسكرية المحافظة على استمرارية ما كان والبقاء ضمن الفلك المرسوم. وبالرغم من أن تطور الأيام والأحداث قد جاء بالكثير من المتحولات فانقطعت الصلة بين الحكام والمحكومين، وتفكك المجتمع إلى وحدات دفاعية مهنية وسكنية ومذهبية، وانهارت المركاتلية الإسلامية أمام التطور الاقتصادي العالمي واكتشاف أمريكا وطريق الهند وظهور الرأسمالية، وانهار النظام المملوكي بعد تألقه الأول ولم يستطع النظام العثماني تجديد شبابه بسبب ضحالة بعده الاقتصادي وفكره الثقافي فما لبث أن انهار بدوره. بالرغم من ذلك فإن تلك القناعات ظلت تقود الاستمرارية الاجتماعية في طريق المحافظة والانغلاق الكامل عدة قرون.

ضمن هذا الإطار نستطيع أن نفهم النقاط التالية من تاريخ فلسطين:

ب) التطور السكاني:

خلال هذه القرون المملوكية — العثمانية كان شيء قليل أو كثير من التطور الديموغرافي — وليس الاثنوغرافي — يدخل فلسطين باستمرار. لم تترك الموجة الصليبية فيها أي أثر ملموس في الناحية البشرية. جاءت الجالية الفرنجية أجنبية وخرجت أجنبية.

على أن إخراج الصليبيين من فلسطين والذي جاء على دفعتين بينهما حوالي المائة سنة: الأولى زمن صلاح الدين والثانية زمن بيبرس وقلاوون، قد ترك في البلاد في الدفتين فراغا سكانيا واسعاً في المدن خاصة. وكان لا بد أن يمتلئ. ولا شك أن صلاح الدين وأخلافه قد شجعوا التوطن حتى على المستوى الديني وانتشرت أفكار أخذت شكل الأحاديث النبوية تدعي بأن القدس أرض المحشر وأن الصلاة في الأقصى بخمسين ألف صلاة وأن نازله مجاهد وأنه قطعة من الجنة لتدفع الناس إلى السكنى فيه رغم الخطر الصليبي القائم. وهكذا كان أن توطن في فلسطين بعض الجند التركمان (وما يزال منهم إلى اليوم بقايا فيها) وجاءها بأمر صلاح الدين مجموعات من البدو نزلوا أرضها ومنهم بنو حارث وبنو زيد وبنو سالم قرب القدس وبنو عمر عند الرملة وبنو صعب عند نابلس وبنو حارثة عند جنين واللجون.

ويبدو أن الزحف البدوي ظل مستمرا بعد ذلك دون انقطاع حتى أواخر القرن الثامن عشر. وكان هذا الزحف ينشط أو يهدم حسب الظروف السياسية ويستفيد من

فترات الفوضى والاضطراب للتغلغل الدائم كما يستفيد خاصة من النقص المستمر في السكان وفراغها بين فترة وأخرى نتيجة الأوبئة والطواعين والمجاعات التي تخللت العهد المملوكي كله، وأخذت أحيانا كثيرة شكل الكوارث، وأهمها القحط والطاعون في الشام (وفلسطين) ومصر سنة ١٢٩٥، والطاعون الأسود سنة ١٣٤٩ الذي اكتسح حتى أوروبا واستمر سبع سنوات وجاءت وقت كان يموت منه في غزة وحدها ٢٢ ألفا كل شهر، والأوبئة بين سنتي ١٣٥٩ — ١٣٦٣، والطواعين الثلاثة التي أصابت البلاد زمن السلطان قايتباي وقد استمر أحدها تسعة أشهر في فلسطين سنة ١٤٧٦ ورافق الثاني القحط والغلاء سنة ١٤٨٦ واستمر الثالث سنة ١٤٩١ قرابة خمسة أشهر وارتفعت ضحاياه اليومية أحيانا في القدس إلى ما فوق المائة ضحية.

وإذا أقفرت هذه الأوبئة البلاد وهبطت بعدد سكانها إلى نحو الثلث فإنها تسببت في الوقت نفسه في الفتن والفوضى كما فتحت الباب لهجوم البادية على الحضر ملء الفراغ. وهكذا نجد العرب البدو قوة وعنصر اضطراب في الأمن خلال العهد المملوكي ولا سيما في أواخره كما نجدهم يملؤون فلسطين ساحلها والداخل خلال العهد العثماني ويشكلون الأكثرية السكانية خارج المدن، وهي ظاهرة واضحة في فلسطين لقرها من الجزيرة العربية وإن كانت أقل وضوحا كلما اتجهنا إلى الشمال في الشام.

ولقد يكون من الضروري أن نعزف بعض الملامح عن هذا الزحف العربي البدوي لأنه في الواقع قد أغمى — رغم وجود بعض الأقليات العنصرية الأخرى — تعريب فلسطين النهائي. إنا نجد بعضا من قبائل طيء مثل بني جرم وبني حارثة قد بقيت خلال الحكم الصليبي في فلسطين فيما بين غزة والخليل. وقد تكاثرت هذه القبائل — فيما يبدو — خلال العهد المملوكي فصارت جرم والجرامنة يسيطرون على جنوب فلسطين كله ولشيوخهم لقب عسكري مملوكي (مقدم) ثم أعطوا لقب (أمير) وكان مركز هؤلاء الأمراء وادي الملح شرقي بئر السبع. أما بنو حارثة فقد هاجر قسم منهم منذ العهد الفاطمي إلى مصر (بنو سنابس) وملأ الباقون أيضا قضاء جنين، فما تزال المنطقة بين أقبضية الناصرة، حيفا، ييسان تعرف إلى اليوم باسم بلاد بنو حارثة. وقد ساند الجرامنة الذين عرفوا بالبأس والقوة حكم المماليك حتى آخر أيامه فلما جاء العهد العثماني بسرز بدلا منهم الحواري في مساندة العثمانيين وانتقلت بذلك مراكز القوى والثقل البدوية إلى الشمال، وصار مقر بني حارثة في سنحج اللجون يتوارثون الإمارة في المنطقة ويستولون فيها على المكوس.

ويبدو أنه في مطالع العهد العثماني وصلت فلسطين، ولكن من مصر هذه المرة، قبائل السوملة وعائيد وقبائل بني عطية التي نزلت حول بئر السبع. ولعله في الوقت نفسه أو بعده بقليل حدثت تحركات بدوية في حوران كان منها تحرك قبيلة صقر إلى الجليل. وفي أواخر القرن السابع عشر جاءت بعض القبائل من شرقي الأردن فالتقت مع بني عطية الذين ألفوا معهم حلفا بدويا عرف باسم حلف الوحيدات في الجنوب. كما تأسف جنوب غزة ورفع وبئر السبع اتحاد قبائل ثلاث باسم الترايين. وفي نهاية القرن الثامن عشر كان قد انتهى توزيع الأراضي بين القبائل في فلسطين ساحلها ودخلها وأضحى لكل قبيلة أرضها التي ترعها وتحول فيها. وبعضها كان قد تحول إلى الزراعة. ولو عددنا أمهات العشائر لزادت الأسماء وحدها على ٥٠٠، وكثير منها من سلالة تلك القبائل القديمة السابقة للإسلام مثل النفيعات على طول الساحل جنوب حيفا وهي من جذام، والعزازمة حول بئر السبع وهي من قضاة، ويقع في جنوب بيت لحم التعمارة أكبر قبائل فلسطين وهم من بني الحارث من طيء وقد تحولوا إلى الزراعة. ونجد حول أريحا وفي الغور حتى بيسان قبائل يمنية عديدة من أهمها العرينات والنصيرات حول أريحا والشاتوه في الشمال. كما نجد بين صفد وطبرية عشائر الصويلات والقديرية والمواسي والتلاوية والدوالي، وحول عكا العرامشة والقليطات وعند مصب الأردن الشمالية ونجد بقايا الحواريث وصقر والجرامنة في مواضعهم الأولى تقريبا والسوطرية حول الرملة والسواحرة حول طولكرم، ونجد بعض العشائر القيسية في الخليل مثل الجهالين والكعابنة. إن اضطراب الحكم في ظل المماليك والعثمانيين إذا فتح حدود فلسطين كاملة للتوغل البدوي، فإن هذا الاضطراب نفسه هو الذي منع وإلى فترة طويلة استقرار القبائل السريع وأبقى فيها العصبية القبلية القديمة من نوع قيس ويمن. على أن الصورة الأخيرة للتوزيع القبلي في البلاد والتي استقرت منذ القرن الماضي تكشف — على أي حال — أن ذلك التوغل الطويل العميق قد أنهى تماما تعريب البلاد الاثنوغرافي بعد أن كان تعريبها اللغوي قد تم قبل العهد الصليبي.

(ج) الطوائف الدينية:

بالرغم من أن الإسلام عاد إلى فلسطين بعد الفتح الأيوبي متصرا ككثير الحيوية والنشاط إلا أنه تقبل مع ذلك وجود أهل الأديان الأخرى بجانبه فيها. ففي المدن وخاصة منها ذات التاريخ الديني كانت تعيش بجانب المجموعات المسلمة الطوائف المسيحية وما يتجمع مرة بعد أخرى من اليهود. صلاح الدين بعد فتح القدس أبقى فيها وفي غيرها من

مدن فلسطين التي وقعت في يده الجماعات المسيحية المحلية (من الروم والسريان). الفرنج (اللاتين) وحدهم هو الذين طردوا كما بقي فيها بعض اليهود. غير أن النكبة التي أصابت الشام كله على يد المغول رغم هزيمتهم سنة ١٢٦٠ أصابت أيضا فلسطين ومدنه ومن فيها. وحين زار السائح اليهودي موسى بن نحمان القدس سنة ١٢٦٧ وجدها خربة خالية ليس فيها إلى جانب ألفي مسلم سوى ٣٠٠ مسيحي عادوا إليها بعد هزيمة المغول وأسرة يهودية واحدة.

ويبدو أن عدم استقرار البلاد وهزات الأمن فيها بفعل الفئات العسكرية والبدوية وما أورثته الحروب الصليبية في النفوس من سلبية ضد المسيحيين، كل ذلك منع من تزايد أعدادهم فبقي وجودهم واضحا فقط في المدن المقدسة: الناصرة، بيت لحم مع القدس. كما أورثهم بعض المضايقات من الحكم الذي كان يخشى أن يجمّل أي تحرك من تحركاتهم المعنى السياسي الصليبي، وقامت الخصومات الكثيرة بين الطوائف وزاد الارتباط بالإرساليات التبشيرية، فلما جاءت بعض البعثات القنصلية والتجارية الأجنبية كالفرنسية والروسية والانكليزية في العهد العثماني تساندت أيضا معها. وكان من ذلك معاهدة حماية الحجاج المسيحيين بين الدولة العثمانية وفرنسا سنة ١٧٤٠.

وأما اليهود فلأن بنيامين التطيلي الذي زار فلسطين في أواخر عهد نور الدين (حوالي سنة ١١٦٥) لم يجد فيها سوى ١١٠٠ أسرة يهودية أحصاها بنفسه مع كهاتها. ومنها مائتان فقط في القدس. ويبدو أن أعداد اليهود ومنهم السمرة ظلت محدودة جدا بعد ذلك حتى أواخر القرن السادس عشر. ذكر السائح فايري في مطالع هذا القرن (حوالي ١٥٠٧) أنه كان في القدس نحو ٥٠٠ يهودي ونحو ألف مسيحي من مختلف الطوائف، وقد وجد في الوثائق المحفوظة في المحكمة الشرعية بالقدس إحصاء لليهود سنة ١٥٧٢ يحدد عددهم بـ ١١٥ شخصا فقط يعيش ٥٥ منهم حول الحرم والباقون في الأحياء، ثم كان من أثر اضطهاد اليهود والمسلمين معا من قبل محاكم التفتيش في أسبانيا والبرتغال أن توافد عدد متزايد منهم إلى فلسطين التي كانت قد أصبحت ولاية عثمانية. وكان بين هؤلاء بعض الأثرياء والعلماء مثل عباديا برتينورو. ثم جاءت الاضطهادات الأخرى لليهود في أوروبا وفي بولونيا خاصة في القرن السابع عشر (وهي الحروب المعروفة باسم قائدها شميلنكسي Schmilnizki ١٦٤٨ — ١٦٥٦)، فهربوا مرة أخرى من المذابح إلى فلسطين فصاروا آفا عديدة. ولكنهم استغلوا تكثرهم وتسامح السلاطين ليشيروا القلاقل ويزيدوا في اضطراب أمن البلاد. وظهر فيهم أمثال شسبتاي ظبي (١٦٢٦ — ١٦٧٦) في نشاطه الهدام في القدس سنة ١٦٦٣ فعادت السلطنة العثمانية إلى التضييق

على إقامتهم ونشاطهم ثم منع هجرهم. على أنه، مع كل ذلك، لم يكن منهم في أواخر القرن التاسع عشر في فلسطين أكثر من عشرين ألفاً.

(د) الحكام والإدارة:

إذا انتقلنا بعد هذا إلى تطور الحكم السياسي وجدنا أن صلاح الدين أعاد القسم الأعظم من فلسطين إلى ما كانت عليه من قبل كجزء من مملكة تضم مصر والشام، وجاءت تصفية الممالك للصليبيين فأتمت هذه الظاهرة السياسية بوحدة القطريين في التاريخ والمصير. على أن طرائق النظامين المملوكي والعثماني في الحكم كانت من السوء بحيث انتهت رغم انعدام الغزو الخارجي إلى التدمير الداخلي.

أولاً: الولاية: بلغ عدد من نعرف من ولاية القدس الممالك (التابعين لنيابة دمشق^(١)) ٦٨ واليا كانوا جميعاً من ضباط الفرق العسكرية المملوكية، أي أنهم جميعاً — رغم إسلامهم — غرباء دون جذور في المنطقة كلها لأن أصولهم المباشرة هي من مناطق القفقاس. ورغم المكانة الدينية التي كان يهتم الممالك تنميتها ودعمها من حول الأراضي المقدسة فإن الأرض كانت، في اعتبارهم، شيئاً آخر منفصلاً عن السكان، الذين ذاقوا الولايات من الظلم وقسوة الضرائب والحكم التعسفي. وجاء العهد العثماني بعد ذلك بأكثر من ٧٤ والياً على القدس. كان معظمهم في القرن السادس عشر حتى السابع عشر من الروم (أتراك الأناضول) وهم بدورهم غرباء طارئون ودون جذور في الأرض، على أن فلسطين كانت من الناحية الإدارية تشبه الوحدة السياسية التي حملت هذا الاسم في القرن العشرين، ولا كانت تشبه الأجناد الإسلامية القديمة. كانت نيابة دمشق المملوكية تمتد إلى بيسان وعجلون والقدس والرملة حتى غزة في فلسطين بالإضافة إلى ما بين حمص — عبر البقاع — إلى صيدا. بينما تقوم نيابة في صفد فتحكم المثلث ما بين عكا وطبرية حتى جنين. وتقوم نيابة الكرك تحكم البر في جنوب شرقي الأردن. وقد عاد العثمانيون — دون أن يفكوا ارتباط القدس بدمشق — فجعلوا جنوب سورية كله ولاية واحدة مركزها دمشق ولها الألوية مثل القدس وغزة والسناجق مثل طبرية والناصرية.

وغربة الحكام عن الشعب سواء في العهد المملوكي أو العثماني، مع الابتزاز لموارده والإهمال لشؤون الحياة أقم الانقطاع الكامل ما بين الطرفين وعزل الشعب الفلسطيني

(١) صارت فلسطين مرة في سنة ١٣٧٥ نيابة سلطنة مملوكية، كما صارت متصرفية مستقلة عن دمشق فترة من الفترات (بين القرن ١٧ — ١٨) أو تابعة لولاية صيدا.

العربي عزلا كاملا عن القوى السياسية، وإن كانت نزاعات هذه القوى ومصائبها تنتهي بالانصباب فوق رأسه.

كان هم "نواب دمشق" الممالك الوصول للسلطنة، ولذلك ثار ٢٩ من أصل عددهم البالغ ٧٤ فأعدم ١٥ منهم وسجن ٥ وإن نجح منهم أربعة بخلع السلاطين وإثان بالوصول للسلطنة. وأما العهد العثماني فكان الولاء للسلطان قائما حتى في العهود المتأخرة فيما عدا بعض الثورات التي تمثلت فيها نقمة الشعب بجانب طمع المتنفذين أمثال ضاهر العمر وأحمد الجزار. ولكن الولاة كان يصطدم بعضهم ببعض كما كانت فرقهم العسكرية نفسها تتناحر فيما بينها وتحرق الأخضر واليابس.

ثانيا: الإدارة: بدأت الإدارة المملوكية في فلسطين ومصر بداية نشيطة وقد منحهما السلطانان بيبرس وقللاون الكثير من نشاطهما، للتقرب من الشعب واستغلال العواطف الدينية ببناء المساجد والقلاع وترميمها وإصلاح الموانئ وشق الأبنية وإقامة المنشآت العامة ورصد الأوقاف لها وتنظيم البريد السريع بين القاهرة ودمشق عبر فلسطين في أسبوع واحد. لكن الإدارة المدنية زالت في هذا العهد وتحولت إلى إدارة عسكرية في يد أمراء الجيش المملوكي. كما تحول الجهاز المدني القلم في الدواوين إلى جهاز ثانوي فني خادم ذلك أن النظام المملوكي قام على أساس الإقطاع العسكري الذي ورثه من العصر الأيوبي - السلجوقي، مع فارق أساسي هو أنه ألغى عن هذا الإقطاع الصفة الوراثية. كما لم يكن العسكري صاحب الإقطاع مالكا للأرض ولكنه مجرد مالك لضرائبها التي يأكلها باعتبارها مرتبا له مقابل عمله العسكري ولإعداد ما يقابل إقطاعه من الجنود المماليك ومن العدة الحربية اللازمة للقتال. فكانت الإدارة مركزية لنيابة دمشق والأمراء التابعون لنائب دمشق لهم النيابات الصغرى كالقدس والنيابات الأصغر كصغد وغزة ثم الأصغر حتى القرى. وكلما جاء عهد جديد أو ظهر شيء من عدم التوازن في القسمة بين الأمراء عادوا إلى "الروك" أي أعادوا مسح الأراضي الزراعية وتعديل ضرائبها وتوزيعها فيما بينهم حسب مراكز القوى فيهم. وقد حاول المماليك إدخال شيوخ القبائل في فلسطين ضمن النظام الإقطاعي نفسه بوصفهم قوى عسكرية وسيطر هؤلاء بذلك على مساحات شاسعة من الأراضي فيها.

وحين أتى العثمانيون أدخلوا على هذا النظام التعديل الأساسي وهو تحويله إلى نظم الالتزام فالضرائب ملك للسلطان والباشوات وملتزموا الضرائب من ورائهم (المقاطعية) يضمنون ولايتهم ومقاطعاتهم لمدة محدودة ويدفعون للباب العالي ما التزموا بدفعه سنويا مقابل أكل واردات الولاية وتقديم الخدمات العسكرية. وقد اضطرب هذا النظام بدوره

فبعد أن كان هؤلاء من العسكريين وكانت مهماتهم الأساسية عسكرية، تحولوا بالتدريج إلى جهاز استغلال مالي. فالباشوات يشترى ولاياتهم والجبّة الملتزمون يأخذون الالتزام مدى الحياة أو يهبهم السلطان ريع الأراضي. وهم يورثون أيضاً تلك المقاطعات ويتصرفون أحياناً كثيرة بالأرض نفسها ويستخدمون قوة الدولة (الجند الإنكشارية) في ذلك كله. وقد عمل في الالتزام مجموعات من الوجهاء والتجار والكتاب ورجال الدين وشيوخ القبائل الذين تحولت أراضي الالتزام تحت أيديهم إلى "مالكانات" أي أملاك خاصة لذريتهم من بعدهم، ومعظم الأسر المعروفة في فلسطين كانت أملاكها المعقارية الواسعة من هذا المصدر. حتى الأراضي التي هرب بها ملتزمو إقطاعها الأولون فجعلوها أوقافاً أطل القرن الماضي على فلسطين وقد تحول معظمها إلى أملاك خاصة ببعض الأسر المسيطرة ذات الصبغة الدينية. فلما ألغى الإقطاع والالتزام سنة ١٨٣٩ كان هذا النظام الإداري عملياً قد انهار. ولكن تسجيل الأراضي الذي تم في نظام (الطابو) سنة ١٨٤٦ ثم في قانون الأراضي سنة ١٨٥٨ أوجد ووطد الإقطاع الحقيقي في فلسطين وغيرها.

لقد كان من أهم نتائج الإدارة الإقطاعية المملوكية وإدارة الالتزام العثمانية أن انكمشت الإدارة عملياً إلى المدن فقط حيث يقيم رجال الإدارة والجند وترك الريف لمصائره سواء تجاه الكوارث الطبيعية أو مظالم الجند والجبّة أو نهب البدو حتى تحولت مناطق زراعية واسعة في فلسطين (والشام والعراق) إلى مراعى بسبب إقفارها من الفلاحين الذين كان عسف الجنود وجشع المرايين وأشغال السخرة بالإضافة إلى مبالغات الجبّة وتحاييلهم لزيادة "الميري" تذهب بمعظم إنتاجهم إلى ما يشبه أقدان الأرض.

ثالثاً: مشكلة البدو: على أن أسوأ ما كانت تقاسيه فلسطين (والشام والعراق ومصر معها) في العهد المملوكي والعثماني هو مصائب الزحف البدوي. وما يجره من نهب وتدمير وفقد للأمن ونهب للمحاصيل. وقد شعر البدو بقوتهم للدرجة التي وضعوا فيها مرة بعض المشاريع السياسية الخطيرة، فإن الشريف العنابي زعيم عربان مصر أرسل سنة ١٣٩٤ إلى زعيم عربان الكرك وجنوب فلسطين يطلب معونته على الخلافة والسلطنة جميعاً، حين خروج السلطان لقتال تيمور. وإذا فشلت المؤامرة ثم لم تتكرر فإن الدولة قد حاولت عبثاً "عسكرة البدو" بإعطائهم الإقطاعات ولقب الأمراء وفرض الولاء للدولة، وفرض عدد من الجند عليهم، وإلزامهم بحراسة الطرق، لكنهم كانوا يأخذون الامتيازات ولا يقومون بالالتزامات، بل يزدادون في الفوضى. وقد استفحل ذلك خاصة منذ أواخر العهد المملوكي أن بلغت الفوضى حداً جرأ البدو على غزو المدن. وهكذا نراهم يقطعون الطرق سنة ١٤٧٩ ونجدهم عند أسوار القدس يحاصرونها رغم المقاومة الشديدة سنة

١٤٨٨ (٨٩٤هـ)، ونراهم مرة أخرى عندها سنة ١٥٠٢ ثم ١٥٠٥، فلإذا جاء السلطان العثماني سليم الفاتح ما كان للقدس من شكوى — مع الفقر — سوى الخلاص من "العربان". وبدلاً من أن يعد السلطان بطردهم أمر ببناء سور للقدس. على أن أكثر ما كان يضايق الدولة منهم إنما هو قطع طريق الحج إلى الحرمين وطرق التجارة إلى مصر فهي تحت رحمتهم وكثيراً ما كانوا يغيرون على قوافل الحجاج بالتهب والقتل ويسببون للسلطان "خادم الحرمين الشريفين" الكثير من الحرج والضيق.

ولقد حاولت السلطنة العثمانية فرض نفوذها أحياناً بقطع بعض رؤوس البدو. ولكنها كانت مضطرة على الدوام لشراء ولائهم، فكانت تعطي زعمائهم إمارة الحج وتعطي بعضهم الأموال لخفارة الحجيج والقوافل، كما تمنح الأمراء منهم حكم بعض البلاد كالقدس وعجلون وغزة ونابلس وصفد. وهكذا نشأت إمارة بدوية محلية حاكمها شجعها العثمانيون، جرى ذلك في مناطق لبنان وفي فلسطين من مثل منصور بن فريخ، الذي أعطوه نابلس وصفد وعجلون وإمارة الحج مرتين أواخر القرن السادس عشر، وقانصوه الغزاوي، الذي حكم عجلون — الكرك، في الوقت نفسه وتسلم إمارة الحج ١٥ سنة، ثم خلفه ابنه ثم الأحفاد. ومثل هؤلاء آل طراباي في صفد حتى جبل نابلس. وظهرت في الوقت نفسه أسر من كبار الموظفين أبرزها أسرة أبي شاهين (رضوان) التي تولى عدد من أفرادها حكم غزة والجنوب الفلسطيني وإمارة الحج في القرنين ١٦ و ١٧. ولعل أخطر المحاولات السياسية البدوية تلك الإمارة التي أقامها ظاهر العمر الزيداني بين سنة ١٧٣٧ — ١٧٧٥ في شمال فلسطين، وجعل مركزها عكا أهم مرفأً تجاري وحربي في سورية، كما لعب دوره الدولي في السياسة قبل أن يدمر الأسطول التركي قوته ويظهر بدلاً منه، وفي المنطقة نفسها، أحمد الجزار، المغامر البلقاني الذي اشتهر بوقوفه في وجه نابليون. ولم تخل البلاد من ثورات وفتن متتالية خلال ذلك في القرن الثامن عشر، وخاصة في القدس والخليل ونابلس وبعضها طائفي نتيجة تدخل النفوذ الأجنبي والقنصليات الغربية في البلاد.

هـ) العلماء والعلم:

أولاً: طبقة العلماء: بالرغم من عدم وجود نظام كهنوتي في الإسلام فإن ظروف العصر المملوكي قد أوجدت طبقة دينية مميزة اضطلعت ضمن النظام المملوكي ثم العثماني من بعده بوظائف محددة وتنظمت في سلسلة مراتب تصدر بالتعيين لها المراسيم السلطانية

(كالقضاة والمفتين والعاملين في الجوامع والمؤسسات الدينية) تحت رئاسة ما سمي في العهد المملوكي بقاضي القضاة وفي العهد العثماني بشيخ الإسلام.

وقد قامت هذه الطبقة، في العهدين المملوكي والعثماني بثلاث مهام، اثنتان منها سياسيتان والثالثة علمية:

أ — أعطت هذه الطبقة للحكم صبغة الإسلام وروابطه المحلية ولم يكن يدونها أكثر من حكم مجموعات عسكرية غريبة عن السكان.

ب — وفرت في الوقت نفسه لأجهزة الحكم الملاكات (الكوادر) اللازمة من كتبة الدواوين والموظفين الذين كانوا يستخرجون من مئات المدارس الدينية في القدس ودمشق والقاهرة وغيرها التي كانت تسيطر على التدريس فيها هذه الطبقة الدينية نفسها.

ج — وأخيرا قاد رجال هذه الطبقة الحركة العلمية في العصرين المملوكي والعثماني. ولما كان العلم بالنسبة إليها أحادي الوجه أي أنه علوم الدين فحسب وكان قصارى الجهد في هذه العلوم هو المحافظة على ما وصلت إليه في العصور السابقة لذلك اتجهت الحركة العلمية بكل خصصها في العصرين في هذا الاتجاه الوحيد.

وكما تحولت الوظائف والمهن الأخرى في العصرين المملوكي والأيوبي بالتدريج إلى وظائف ومهن وراثية في الأسر تحولت الوظائف الدينية بدورها إلى وظائف وراثية. وكانت تتناول رزقها في معظم الأحوال من الأوقاف كما تتناول في الوقت نفسه المهلبت السلطانية التي أضحت بعضها مقررا سنويا في العهد العثماني. و"الصرة" السلطانية في سنة ١٦٧١ كانت تشمل ٨٠٠ موظف ديني — كما ذكر السائح العثماني أوليا جلبي — في الحرم القدسي وحده. وهي تشمل أئمة المذاهب الأربعة والوعاظ والمدرسين والخدم وخمسين من المؤذنين والمسيحين والمبلغين والقراء والسدنة، وكان هؤلاء كميات من اللحم والخبز والمؤن.

وبعض الأرقام الإحصائية قد تعطي فكرة عن أهل العلم واتجاهاتهم وأعمالهم ومراكزهم. ففي إحصاء مبدئي لعلماء فلسطين مثلا في الفترة المملوكية نجد أن ثمة حوالي ٧٥٣^(١) شخصا ممن وصفوا بالعلم فيهم الفقهاء والقضاة والخطباء والزهاد، والحفاظ

(١) هذا الرقم جمعناه بصورة أساسية من الأئس الجليل الذي حوى ٤٤١ ترجمة من هؤلاء وأضافنا إليه ما وجدناه في مختلف المراجع الأخرى مثل الدرر الكامنة والضوء اللامع والكواكب السائرة وشذرات الذهب ولدى ابن كثير والذهبي في العبر والبوريني وفي النجوم الزاهرة وخطط المقرئ وغيرها. ومن الهام أن تسجل هنا أن أبواب فلسطين كانت مفتوحة بمعنى أن الكثير من أبنائها العلماء كانوا يتركونها إلى مصر ودمشق وغيرها وأن الكثير من علماء العالم الإسلامي في المشرق والمغرب كان يأتي ليتوطن في فلسطين.

والقراء ومنهم قرابة ٤٤٠ في القدس والخليل فقط، كان الشافعية فيهم يبلغون ٣١٨ والأحناف ١٠٨ والحنابلة ١٥. وكان في بيت المقدس ٦١ مدرسة منها خمسون أنشئت في العهد المملوكي وكانت القدس مركزا لتسع طرق صوفية لها ستة أربطة وثمانين خوانق و٣٢ زاوية. كما كان لها العديد من التكايا. وكان في فلسطين في العهد المملوكي بيمارستانات في كل من القدس خاصة والرملة ونابلس وغزة وعكا وصفد والخليل والكرك.

إن هذه الأرقام قد تعطي صورة عن الحركة العلمية الناشطة التي عرفتها فلسطين في العصر المملوكي على أننا نضيف إليها لإكمال الصورة ملاحظتين:

الأولى: هي أن العلم كان أحادي الطريق. العلماء كلهم والمدارس جميعا كانت تعمل في العلوم الدينية فقط واستمرت على ذلك في العهد العثماني، واكتفت من هذه العلوم أيضا بالحفاظ على التراث الموروث منها وجمعه وشرحه واختصاره والتعليق عليه وكتابة الموسوعات فيه دون أي محاولة للإبداع. ولا تكاد تجد حتى في الطب من الاسماء البارزة سوى عشرة أطباء (هم أبن القف من الكرك ويوسف بن هلال وشهاب الدين بن يوسف وأمين الدين محمد وعلاء الدين علي والأربعة من صفد، وعماد الدين النابلسي وعماد الدين اسماعيل المقدسي و خليل بن شاهين نائب القدس وصفد، وعبد الله بن سليمان الغزي وابنه محمد الشهير بالرئيس) كما لا نجد في العلوم الأخرى سوى محمد بن عبد الكريم الصفدي في علم الحيوان وابن الهائم المقدسي الفرضي صاحب المؤلفات في الحساب وابن خفاجة الصفدي العالم بالفرائض.

الثانية: أن الحركة العلمية استمرت على نوعيتها في العهد العثماني وإن لم تحتفظ بنشاطها بل فقدت بالتدريج فاعليتها ومشت إلى تزايد الانغلاق. وهكذا لم يضاف العثمانيون إلى المدارس في القدس سوى مدرسة واحدة. وضاعت الأوقاف بالتدريج فأهملت المدارس الأولى وانحطت مستوياتها وتوقف الكثير منها. حتى أعداد العلماء في فلسطين في القرون العثمانية الأربعة، لا تكاد تعادل نصف ما ظهر في العهد المملوكي. وأهم من هذا كله أن حكام البلاد رغم وجود القناصل الأجانب فيها وتكاثر الإرساليات والاتصال التجاري الدائم مع الغرب لم يحاولوا فتح أي نافذة على الحركة الفكرية التي كان يزخر بها الغرب في تلك القرون والتي أقام عليها حضارته الحالية.

ثانيا: الأرض المقدسة والتصوف: رافق تلك الأجواء الدينية واتصل بها أمران:

الأول: التصعيد المتصل في قدسية القدس، ومقامها الروحي الإسلامي. وقد عبر ذلك التصعيد عن نفسه بصدور ستة كتب خلال العهد المملوكي في بيان قدسيتها. فبعد

كتاب ابن الجوزي ببغداد والكتابين اللذين صدرا في العهد الأيوبي بقلم اثنين من الدماشقة: ابن عساكر (ابن المؤرخ الدمشقي المعروف) صاحب "الجامع المستقصى" وابن عساكر (ابن الأخ) صاحب "باعث النفوس إلى زيارة القدس المحروس" ثم كتب ابن سرور المقدسي "مثير الغرام بفضائل القدس والشام" وابن المرجي المقدسي "فضائل القدس" والشريف عز الدين حمزة، كتابا مثله. ثم وضع مجير الدين الحنبلي كتابه الضخم "الأنس للجليل" وأخيرا الجلال السيوطي كتاب "إتحاف الإخصا". وبالرغم من أن معظم هذه الكتب تكرر بعضها إلا أنها كانت تعبر عن الجو الروحي القدسي الذي أحيطت به الأراضي المقدسة في تلك الفترة والذي استمر قائما في العهد العثماني كله وإن لم يكتب فيه مثل تلك الكتب.

الثاني: إن حركة الزهد والتصوف والطرق الصوفية أخذت مداها الأوسع في فلسطين في العصر المملوكي واستمرت في التوسع خلال العهد العثماني. لقد برزت الحركة الصوفية في فلسطين منذ أوائل القرن السابع الهجري، بعد تحريرها من الصليبيين واستمرت تنتشر وتقوى بالأوقاف والشيوخ والمريدين ومنها الرفاعية والقادرية والنقشبندية والوفائية والقلندية واليونسية ثم المولوية في العهد العثماني. وقد أسست أكثر من نصف الطرق والخوانق والزوايا في فلسطين في القرن الثامن الهجري / السابع عشر الميلادي. كان في القدس وحدها تكايا لسبعين طريقة كانت تقوم على أكتافها المواسم الدينية في فلسطين وصارت مشيخة الطرق، مع الأيام، وظيفة تتوارثها الأسر (كالعلمي والدجاني مثلا) وامتألت كتب التراجم والسير بأخبار "الأقطاب" "العارفين" و"المكاشفين" وأهل الكرامات والأولياء وأصحاب الأضرحة والمزارات.

وقد ملأت "كرامات" هؤلاء الزهاد وأخبارهم المعجزة الخيال الشعبي العام ومنحت الناس، في أجواء النكبات والمظالم والبؤس كثيرا من الاطمئنان الروحي السليبي بينما كانت السير الشعبية من أمثال سيرة الملك الظاهر وتغرية بني هلال والأميرة ذات الهمة وعنترة وغيرها تمنح من الجانب الآخر الاطمئنان الكامل والثقة بقوة الفروسية المملوكية من خلال تجميد الفروسية في أبطال تلك السير وحكاية الآلام الاجتماعية في الوقت نفسه والتنفيس الخيالي عنها.

(و) الأوضاع الاقتصادية:

أولا: الريف: لئن قام النظام المملوكي على أساس إقطاع الإرفاق أي إقطاع ضرائب الأرض للجنود مقابل اضطلاعهم بالحرب والإدارة فإن ذلك لم يود إلى الاهتمام بالزراعة

على المدى الطويل، ولكن أدى بالعكس إلى إضعافها بعد انقضاء عهد الممالك الأوائل. فقد صار أصحاب الإقطاعات يستترفونها أسوأ الاستزاف بالخشع ولأنهم كانوا غير واثقين من بقائها في أيديهم باستمرار وغير ضامين لقدرتهم على توريشها لذويهم، (بجعلها أراضي جيشية). وقد أعيد مسح وتوزيع إقطاعات الشام أكثر من مرة في العهد المملوكي وأهما الروك الناصري ببلاد الشام سنة ١٣١٣.

وقد ذكر أن المملكة الصفدية كانت أواسط القرن التاسع/ ١٥ ميلادي تحوي ١٢٠٠ قرية بعضها كبار كالمدن وكان في إقليم نابلس ٣٠٠ قرية ومثلها البلقاء وفي بانياس والحولة ٢٠٠ قرية^(١) تزرع الرز. غير أن عددا من العوامل كان تدمر النشاط الزراعي القائم على الحبوب والقطن والزيتون والحرير والكروم ولعل أهمها تغيير العوائد (الضرائب) الدائم فحصة المقاسمة للإقطاعي في فلسطين والشام كانت بين الثمن والنصف من حاصل الأرض يضاف إليها عشر نصيب الفلاح ولكن المتسلطين لم يكونوا يعدمون الوسائل للتلاعب في ذلك لاستغلال الربا الفاحش وطلب "العاجل" وضريبة الجسور والطواحين والمعاصر ومكوس نقل الحبوب والزيت ورسوم المراعي والضيافة للجند والهدايا في المناسبات. فإذا أضفنا إلى هذا كله نكبات الفتن المحلية بين الحكام وتنقل الاقطاعات من يد إلى يد، وأعمال السخرة والزحف البدوي المتماذي على فلسطين والذي سحب البادية على العديد من المناطق الزراعية وحولها إلى مراعي وأضفنا أيضا وأيضاً كوارث الأوبئة والجراد وسنوات القحط وقلة الأمن وانتشار قطاع الطرق أدركنا السبب في تقلص المساحات المزروعة بشكل متماد عبر العهد المملوكي، ثم تزايد هذا التقلص في العهد العثماني، نتيجة استمرار هذه الأسباب نفسها ونتيجة ما انضاف إليها من مساوئ نظام الالتزام وبيع الاقطاعات بالرشاوى للمقرين والمتزمن والمحطاط النظم العسكري لدى الانكشارية والسباهية (الفرسان). وهكذا حتى صار الكثير مما سجل على أنه قرى في "الديوان" دمن "ومزارع" أو سمي "بالخراب الدائر". وكان جلاء الفلاحين "أهل الزرع والضرع" عن أراضيهم أمرا شائعا ومستمر وطبيعيا نتيجة كل ذلك حتى جرت العادة في الشام (في العهد المملوكي) بأن من نزع من دون ثلاث سنين يلزم ويعاد إلى القرية قهرا ويلزم "بشد الفلاحة"^(٢) وكانت المظالم تصل بالفلاحين أحيانا حتى الثورة كالثورة الفلاحية التي قادها عثمان بن ثقالة في عجلون سنة ٨١٦ وسامح فيها الفلاحين بالضرائب السابقة وأعلن أن لا ضريبة إلا العشر. ولكن القوى الحاكمة كانت هي

(١) غرس الدين الظاهري — زبدة كشف الممالك. ص ٤٤ و ٤٦.

(٢) السبكي — معيد النعم وسيد النقم. ص ٣٤.

المنتصرة دوما وبقي "مقدمو الفلاحين ورؤساء العشائر" (أي العشائر) هم ملوك الريف المتقلص حتى أوائل القرن الحالي وصار شائعا في جنوب الشام القول بأن "أهل القرايا من أهل البلايا".

ثانيا: المدن: ولم تكن المدن بأحسن حالا في العهدين المملوكي والعثماني من الريف. وإذا كانت المراكز المدنية كالقدس، وصفد ونابلس وغزة والرملة وغيرها هي مراكز تجمع الحرفيين والتجار إلى جانب رجال السلطتين العسكرية والدينية وثكنات الجند فلن هذا التجمع نفسه قد فرض عليها في تلك القرون، ومع ظروف الإدارة العسكرية والكوارث والمظالم تكويننا اجتماعيا — اقتصاديا خاصا يمكن أن يوصف بأنه دفاعي ويتميز :

١ — بتشكيل وحدات مهنية متساندة (أصناف) تجمع أفراد المهنة الواحدة برئاسة شيخ الكار في سوق واحد (الزجاج، الأسلحة، الزيت، الصابون، النسيج، الحرير..). ووحدات سكنية تجمع أهل الحي الواحد في مجموعة اجتماعية متساندة. ولحارات الحي أبوابها التي تغلق في ساعات معينة من الليل ولها بين شبابها رابطة محلية يتزعمها "شيخ الشباب".

٢ — بوجود أسوار للمدن الكبيرة ووجود قلاع فيها (كالقدس ونابلس والسلط وعجلون والكرك وبانياس وصفد وعكا).

٣ — بتوارث الحرف والوظائف: فالمهنة أو العمل التجاري أو الوظيفة الدينية تنتقل بالوراثة من الآباء إلى الأبناء مما أعطى المجتمع صفة الثبات الاستمراري والجمود عند صيغة ثابتة معينة.

ولما كانت المدن مركز بجميع الثروة الحرفية والتجارية والإدارية فقد كانت دوما معرضة للنكبات القاصمة لا في بساطتها المجاورة ولكن في أحيائها الداخلية وبخاصة فتن الجند وخصومات الولاة بعضهم مع بعض وفي فترات الغزو الخارجي (المغول، تيمور، العثمانيين) وفي التحركات الثورية (فخر الدين المعني، ضاهر العمر، أبو نبوت..). أما في مظالم الضرائب والسخرة فلم تكن أقل معاناة من الريف وبخاصة منها الطبقات المسحوقة.

ولقد حظيت القدس وحدها بسبب مكانتها الدينية ببعض الامتيازات في العهد المملوكي والعثماني على السواء "فلم تكن يؤخذ (في أسواقها) شيء من المكوس بخلاف

جميع المدن^(١) ومع ذلك فقد أنهكتها الأحداث وهجمات البدو في أواخر الفترة المملوكية وحين فتح السلطان سليم البلاد قدمت القدس مائدتها للسلطان في قصاع (هنايب) من الخشب واعتذر أهلها عن ذلك قائلين: نحن فقراء^(٢) ولقد انتعشت فترة من الوقت بعد ذلك فكان فيها في أوائل القرن السابع عشر مثلاً ٤٦ ألف نسمة لهم ٤٣ ألف كرم و ٦ حمامات و ٢٤٠ محراب صلاة وخمس كنائس و ٤٠ مدرسة و ٧ دور للحديث و ٢٠ دار للقرآن وتكايا لسبعين طريقة صوفية وكان فيها ٢٥٤٠ دكاناً وستة مخانات^(٣). لكن الأمن من حولها مفقوداً وكان في غزة ٦٠٠ دكان و ٧٠٠ مسجداً و ٢٠٠ سبيل ماء، و ١٣٠٠ منزل وعدة حمامات وتكايا و ٧ آلاف كرم.

ثالثاً: حركة التجارة: كانت التجارة في الواقع النشاط الاقتصادي الأساسي الذي حمل النظام المملوكي على كتفيه. وإذا طفا هذا النظام على نهر من الثروة وتمكن من البقاء الطويل واستطاع منح فلسطين (مع مصر والشام) أجل المباني فإن ذلك يعود إلى أن المراكنتلية الإسلامية في عهد المماليك أوج قوتها، قبل أن تستطيع المراكنتلية الأوروبية المنافسة تطويقها ثم قطع الطرق عليها ثم الحلول محلها حتى في أراضيها نفسها.

كان الأيوبيون منذ عهد صلاح الدين قد فتحوا الطريق للتجارة الشامية بالمعاهدات والتسهيلات التي منحوها لأساطيل المدن الإيطالية وقد تابعهم المماليك من بعدهم في ذلك — وإذا كانت سيطرة المغول على المشرق الإسلامي كله قد نشطت الطرق البرية بين الشرق والغرب فإن الطرق البحرية قد أصبحت تغذي الشام ومصر عن طريق البحر الأحمر وعلى أيدي تلك المجموعة التجارية الدولية التي عرفت بتجار "الكارم". كانوا ملوك الفلفل والبهار والتوابل في العالم وعلى ثروات تمكنهم من إقراض السلاطين والتدخل في سياسة الدولة. وقد ضعف الطريق البري إلى المشرق في القرن الرابع عشر وانتصر الطريق البحري وصارت مدن وموانئ الشام ومصر في هذا القرن مراكز التجارة العالمية. وتوطنت فيها جاليات أوروبية تجارية وزادت موارد الذهب على المماليك من النوبة ومن السودان الغربي مما جعل الطبقة التجارية وواردات الدولة تتمتع بأحسن الرخاء.

(١) غرس الدين — زبدة ص ٢٣.

(٢) مما ذكره الرحالة العثماني أوليا جلبي في كتابه أوليا جلبي سياحة نامه سي ونقله عارف العارف — المفضل في تاريخ القدس. ص ٢٦٨.

(٣) عارف العارف — المفضل ص ٢٦٤.

وقد أصبحت تجارة فلسطين مع مصر والشام بضربة قوية في أواخر القرن الرابع عشر حين صار الحكم للمماليك الشركسة بعد سنة ١٣٨٢ وغرقت البلاد في الفتن الأهلية حوالي ربع قرن واستغلت الجماعات البدوية ذلك لتدمير الريف الزراعي كما توالى غزوات القراصنة الأوروبيين للسفن الإسلامية والموانئ، ونضبت موارد الذهب النوبي بينما اجتذب الأوروبيون ذهب السودان الغربي عن طريق المغرب الأقصى وانهار النظام النقدي بغش الذهب وظهور العملة النحاسية وكملت المصائب بانتشار الطاعون الأسود ثم بتخريب التتر (مع تيمور) شمال الشام وتوالى الجراد وتكرر المجاعات والقحط والغلاء.

وقد اعتدلت الأمور فترة بعد هذه النكبات فاستقر النقد وعادت التجارة تدريجياً ووطد المماليك علاقاتهم مع القرى التجارية الأوروبية في البحر المتوسط (جنوة والبندقية وفلورنسة وبيزا وشركة جان كبير الفرنسية ومع قطالونية وقشتالة) وصار لهذه القوى وكالاتها التجارية وفنادقها وجالياتها في مدن الشام (ومنها في القدس ويافا وعكا وصور) وصارت أساطيل البندقية وبيزا تحمل القطن في الصيف من يافا وصور كما ينقل الفرنسيون وغيرهم الأصواف والحرير والزيت مع التوابل والعاج والعقاقير ويأتون مقابل ذلك بالحجاج والمنتجات الأوروبية النسيجية والمعدنية والفراء. وبعد أن سقطت القسطنطينية في يد العثمانيين سنة ١٤٥٣ زاد انتعاش التجارة المملوكية بسبب سياسة التضييق العثمانية على التجارة الأوروبية. وحسب المماليك أن العصر الذهبي قد عاد مع تحول التجارة العالمية بكثافتها إليهم ومحاولة القوى الأوروبية المختلفة استرضاءهم بعقد الصلات وكثرة الجاليات والوفود وطلب الإعفاءات وتعدد وكلاء القناصل في المرافئ فبالغوا في استغلال الحركة التجارية. وقادهم الخطر العثماني وحروبهم مع الدويلات التابعة له وتخريبات القراصنة في البحر والبدو في البر مع الحاجة المتزايدة للمال، إلى احتكار التجارة لأنفسهم، لاغتنام أرباحها كلها. وهكذا احتكروا منذ أيام برسباي (١٤٢٢ — ١٤٣٨) تجارة السكر والقطن ثم تجارة التوابل والفلفل وغيرها. وفرضوا على الأهليين والأوروبيين الأسعار العالية وبخاصة في الشام وحولوا "الكارمية" موظفين عندهم وتلاعبوا بعملة وكانوا كثيراً ما يلجأون في فلسطين وغيرها إلى إجبار الأهليين على شراء مخزون الحوام من الغلال والبضائع (كالزيت والقطن والحبوب) بأضعاف السعر لجمع المال.

كانت المواقع الجغرافية حتى أواخر القرن الخامس عشر هي التي تفرض التساوي في المنافسة بين المراكنتلية المملوكية والمراكنتلية الأوروبية الطامحة والمتجهة إلى الرأسمالية. وقد انكسر هذا التوازي فجأة باكتشاف الأوروبيين، في وقت واحد طريقتين إلى الشرق

القصي: طريق الأطلسي الذي أوصلهم إلى اكتشاف أمريكا وذهبها وخيراتها وسمح لهم بالتحول إلى الرأسمالية وطريق رأس الرجاء الصالح الذي قطع به البرتغاليون شرايين التجارة المملوكية في المحيط الهندي. وإذا لم يكن الممالك ينتظرون مثل هذا الانقلاب ولا كانوا يستطيعون منع وقوعه فإنهم في الوقت نفسه كانوا أضعف بكثير من مقاومته بعد أن وقع. وفي الوقت الذي كانت فيه قواهم الاقتصادية والبحرية والعسكرية تنحط، جاءهم الضربة من العثمانيين واحتل السلطان سليم بلاد الشام وفلسطين سنة ١٥١٦ ثم مصر ١٥١٧. توافقت الحادتين معا: الانقطاع التجاري والفتح العثماني، أعطى بلاد الشام بما فيها فلسطين مع مصر مصيرا جديدا، ذلك أن العثمانيون اهتموا بالقضية السياسية - الدينية في الجنوب العربي وفي البحر المتوسط، ولم يأهوا كثيرا للقضية التجارية. ولم يعد شرقي البحر المتوسط المركز الرئيسي للتجارة العالمية ولبضائعها الثمينة بعد الصراع الضاري الذي كسبه البرتغاليون في المحيط الهندي، فانكششت علاقات بلاد الشام واقتصرت على الخطوط البرية الضعيفة التي صارت تمر خاصة بحلب في شمال الشام في الوقت الذي كانت فيه الحركة الرأسمالية الأوروبية تبلغ أقصى نشاطها. بما وفدها من خيرات أمريكا والهند، وتتوغل في البلاد العثمانية المشرقية ومنها فلسطين لا للبحث عن البضائع الثمينة ولكن لتحويل هذه البلاد إلى أسواق للبضائع الغربية. تغيرت طبيعة العلاقات التغير الجذري. المعاهدة التجارية التي "تلطف" الباب العالي بتوقيعها للفرنسيين سنة ١٥٣٤ أعطت تجارهم الامتيازات من حرية التجارة إلى حرية العبادة والتملك فامتدت أيديهم خاصة إلى القدس وعكا ويافا ثم لحقهم الانكليز بامتيازات مماثلة سنة ١٥٨٠ ثم الهولنديون سنة ١٦١٢ وتحرك الجو التجاري في فلسطين والشام كله بحلول هؤلاء وأولئك محل البنادقة والجنوئين، ولكنه لم يكن نشاطا شاميا وإنما كان نشاطا أوروبيا في بلاد الشام. وما كان مادة أولية كما في الماضي ولكن مصنوعات وتكونت له مراكز وخانات ووكالات وقنصليات وإرساليات تبشيرية. كما تكونت له، مع ظهور الضعف العثماني حمايات وأطماع. وحين وقع السلطان محمود الأول مع فرنسا سنة ١٧٤٠ معاهدة فتح بموجبها الأراضي المقدسة لجميع المسيحيين الوافدين إلى الشرق تحت العلم الفرنسي وجدنا للفرنسيين جاليتهم القوية في القدس ويافا وعكا والرملة وغيرها. ولكن استفادت الطوائف المسيحية من ذلك النشاط التجاري الأوروبي فإن البلاد لم تستطع أن تستفيد منه بسبب الأوضاع العثمانية الداخلية التي تميزت منذ القرن السابع عشر بضعف الإدارة ونشاط البدو في الشام، وخطر الطرق وكثرة الفتن، وبسبب السياسة العثمانية الخارجية، التي كانت تعتمد على الانغلاق والمحافظة. وإذا ترك أثر ذلك

على عدم تطوير الصناعة في الشام وغيرها وعلى اعتماد الاقتصاد الزراعي وحده، رغم ضعفه، فإنه أثر في الوقت نفسه على ثروة البلاد التي دخلت دور الاستنزاف الخارجي الاستعماري.

ولقد عرفت فلسطين بعض النشاط التجاري عن طريق مرفأ عكا أيام ضاهر العمر بعد سنة ١٧٥٠ ولكنه كان نشاطاً محدوداً عمل في تصدير الحرير والقطن والقمح من الحاصلات الزراعية في فلسطين ولم تلبث نتائجه الاقتصادية أن انهارت مع انهيار الرجل. وقد تابع خلفه أحمد الجزار سياسة أخرى باحتكار بعض المرافق التجارية واستطاع أن يكون ثروة ويبنى بعض المباني في المدينة (كالجامع والصور) واستطاع الإنان "بالدويلة" التي أقامها حول عكا أن يدخل فلسطين ضمن الاهتمام العالمي من الناحية السياسية بجانب مكائها الديني.

وحين أطل القرن الماضي كانت جميع البنى الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والفكرية في فلسطين في حالة جمود وانكماش وفقر شديد. وكان جنود نابليون قد اخترقوها قبل سنة من ذلك من غزة حتى عكا وأصيبوا بالطواعين!

الأثار العمرانية: ربما كان أهم ما كسبته فلسطين (ومعها الشام ومصر) من العهد المملوكي خاصة والعهد العثماني بعده هو المباني (الدينية والتعليمية والتجارية والاجتماعية والدفاعية) التي أقاموها في مختلف المدن وبخاصة في القدس. فبالرغم من كل ما توصف به الفئات المملوكية من العسف والجشع فإنها كانت في النتيجة تنفق ما يفيض لديها من المال في العمران. ودوافع هذا العمران متعددة منها تآلف قلوب الرعية ومنها التكفير عن الذنوب وبعضها لأغراض الدفاع وبعض لتهرب الأموال من المصادرة المحتملة بحبسها على الأوقاف وبعض لتخليد الذكر بالأضرحة الضخمة أو بالمشاريع الاجتماعية كتوفير المياه أو الحمامات والمخانات. حتى غدا العصر المملوكي واحداً من أزهى عصور العمارة الإسلامية. وإذا ظهر ذلك واضحاً في القاهرة، في الدرجة الأولى، فإنه ظهر خاصة في فلسطين وفي القدس من بلاد الشام.

وقد بدأ ظهور الفن المعماري المملوكي بطابعه المعروف، منذ العهد الأيوبي وفي الأبنية التي أكثر منها الأيوبيون بالشام والتي تميزت باستخدام الأحجار بسبب توفرها في سورية، وبالمناعة المحكمة بسبب الرغبة في إظهار القوة تجاه الصليبيين وتأكيد مناعة المسلمين، وبالوظيفة الدينية بسبب موجة الإيمان العارمة في تلك الفترة الصراعية. وقد أضاف مهندسو العصر المملوكي إلى ذلك الزخارف الكثيرة والأنيقة في ظواهر البناء

وداخله والعناية بالمداخل والمقرنصات ورفع القباب على شكل خوذة المحارب وبالتناسب المتوازن في الشكل العام للبناء.

وإذا كانت معظم الآثار الإسلامية الباقية في فلسطين إنما تعود إلى العهد المملوكي فلأن هذا العهد كان أيضا أكثر العهود الإسلامية عمرانًا وبناءً فيها. كان الماليك يعتبرونها جوهرهم الدينية ويتباركون بقدسيتها حتى شملت عنايتهم العمرانية مختلف مدخل وأبوابها. ففي كل بلد منها أكثر من أثر لهم. وقلائل هم السلاطين الكبار أو النواب الذين لم يتركوا فيها بصماتهم العمرانية وأوقافهم. وأبرز هذه الأسماء التي تتكرر هي أسماء الظاهر بيبرس والناصر محمد بن قلاوون وبرقوق وقايتباي وحقق من السلاطين وأسماء جاولي وتنكر من كبار الأمراء، وقد تنوعت وظائف الأبنية المملوكية في فلسطين (وغيرها) فهناك:

أ) أبنية دينية: وبديهي أن الاهتمام العمراني الأول إنما توجه إلى الجوامع، وإلى العناية بالحرم القدسي والحرم الإبراهيمي. وهكذا نجد أبنية بيبرس في المسجد الأقصى وجامع نابلس وصفد ونجد اسم قلاوون في حرم الخليل وفي مسجد الخضراء بنابلس، ونجد جوامع إيلك والناصر محمد وقايتباي في غزة، هذا عدا الجوامع الأخرى، والمآذن الأنيقة وعدا التجهيزات لها في الرملة وعكا وصفد ويافا وعدا جوامع جاولي وتنكر في الخليل وغزة وغيرها.

ويتبع الأبنية الدينية مجموعات الزوايا والخانقاهات والتكايا وأضرحة الأنبياء والصالحين والمزارات وهي عديدة جدا. وإذا كانت القدس قد اختصت في العصر المملوكي بخمسة أربطة وست خانقاهات و ١٥ زاوية، إلا أنها تتوزع أيضا في جميع أنحاء فلسطين. ففي المدن التكايا والزوايا كما في غزة وعكا والخليل، وصفد وبيسان ويافا واللد والرملة والمجدل وطولكرم وفي القرى عشرات المقامات والمزارات ومنها مقامات النبي موسى قرب القدس والنبي روين في يافا والنبي صالح وضريح سكيئة وكلها بناها الظاهر بيبرس وإن دثر بعضها.

ب) أبنية تعليمية: وهي المدارس والبيمارستانات خاصة. وإذا حظيت القدس وحدها بخمسين مدرسة مملوكية فقد كان للمدن الأخرى نصيبها أيضا ومن ذلك مدارس غزة الخمس في عهد الناصر محمد ومنها مدرسة جاولي ومدارس صفد وعكا والخليل والرملة. كما توزعت البيمارستانات، وفيها التعليم الطبي، فيما عدا القدس ما بين بيمارستان جاولي في غزة وفي الكرك ومارستان تنكر في صفد ومارستان الخليل والمارستانات التي أقيمت في أيام الناصر محمد في الرملة ونابلس على يد محمد بن فضل الله.

ج) أبنية دفاعية: ومنها القلاع والأسوار. وقد بنى الظاهر بيبرس قلعة صفد كما بنى باب الأسباط في القدس وبنى قلاوون قلعة رأس العين وبنيت ورممت في العهد المملوكي أسوار عكا وقلعة غزة وعجلون والكرك والرملة.

د) أبنية الخدمات العامة: وهي متنوعة ولعل أهمها ما يتصل بتوفير المياه بسبب قلتها. ومن ذلك سبيل قايتباي في الحرم القدسي وجر مياه العروب إلى القدس سنة ٨٨٨ وبشر حقمق في غزة. ومن أبنية الخدمات بناء الحمامات مثل حمام الناصر في القدس وحمام جاولي في غزة، وبناء الجسور مثل جسر دامية الذي بناه الظاهر بيبرس على نهر الشريعة سنة ٦٦٤ وما تزال قنطرته قائمة، وجسر اللد الذي بناه بركة خان سنة ٧٧١ وهو من أجمل جسور فلسطين وطوله ثلاثون مترا. أما بناء الخانات والفنادق للتجارة والمسافرين فكانت تتوزعها مختلف المدن التجارية الفلسطينية وبخاصة في مرفأ عكا ويافا كما أقيمت في غزة والرملة وبيت لحم.

ولم يتابع العهد العثماني العمل المملوكي العمراني، وبالرغم من أن السلطان سليمان القانوني قد منح القدس عنايته فبنى لها الأسوار وجدد في قبة الصخرة، كما أقام ستة أسبل للماء فيها ورمم الأبنية كما رمم قلعة القدس إلا أن هذه العناية العارضة انقطعت بعده ولا نكاد نسمع عن بناء جديد إلا ما قامت به حفيدة قانصوه الغوري من بناء جامع وتكية وحمام في جنين وما قام به الوالي فروج من بناء وكالة للتجار في نابلس أوائل القرن العاشر سنة ١٦٠٠م. وما زاد على الزوايا في القدس (٧ زوايا وخانقاه واحدة). وحتى ظهور ظاهر العمر ثم أحمد الجزار وابنه بالتبني سليمان وعامله في يافا أبو نبوت لكي نشهد بعض الحركة العمرانية، في الساحل الفلسطيني، المتصلة بأمور التجارة والدفاع وأمور الدين، فبني العمر برج حيفا وأحمد الجزار أسوار عكا والسوق ومخازن الحبوب والميناء والجامع المعروف باسمه مع المدرسة المتصلة به وبني أبو نبوت سور يافا وسبيل الماء فيها والجامع. ولكن هذا كله كان فترة عارضة في انتظار أحداث العصر الحديث.

وأخيرا ...

إن خلاصة ما يمكن أن نقول هذه المقدمة التاريخية هو أن فلسطين التي كانت عربية في جذورها المتنوعة واللغوية والحضارية قبل الإسلام قد أخذت ملامحها العربية الإسلامية الواضحة منذ الفتح العربي الأول وقد تجلّى ذلك في تراثها الفكري والأثري تجلّيه في أهلها وفي بناها الاجتماعية وتطورها التاريخي وعلاقتها السياسية، وقد كانت

على الدوام صلة الوصل ما بين الجناحين الشرقي والغربي للعالم الإسلامي وللوطن العربي ولم يكن ذلك في الموقع الجغرافي فحسب، ولكن في العطاء الحضاري أيضا. كما كانت أحد مناطق اللقاء والصراع الأساسية بين الشرق والغرب عبر العصور، عسكريا وحضاريا واقتصاديا. وإذا منحناها قدسية أرضها مكانتها السامية لدى أهل الأديان السماوية، فقد انعكس ذلك في تراثها الحضاري والعمراني وبخاصة في العصور الإسلامية التي استمرت أربعة عشر قرنا حتى الآن وأعطتها طابعها العربي الإسلامي المميز. وإذا دفعت ثمن هذه القدسية الكثير من الآلام وناضلت ضد عنيف الأطماع فقد كسبت من ذلك الكثير من المكانة في التاريخ ومن الصلابة في النضال وإثبات الذات ومن الترابط العميق بين أهلها وأرضها. ولعل أرضها إنما كانت مقدسة لا لما عرفت من الأنبياء والأحداث والآثار والرؤى الدينية فقط ولكن أيضا لما عرفت من الآلام...

النقود العربية الإسلامية المضروبة في فلسطين العربية

الدكتور: محمد أبو الفرج العش

تمهيد:

اهتم العلماء والباحثون بالمسكوكات المضروبة في شتى البلاد، وجمعوها ونظفوها وصنفوها حسب العصور التاريخية، وحسب الدول الساکة وحسب المدن التي سكّت بها، لقد بدأ العمل فردياً في العالم، ثم غدا عمل المؤسسات الأثرية والعلمية. أصبحت النقود القديمة الآن من أهم المواد المكتشفة في أثناء التنقيبات الأثرية، وهي تدل بصدق ووضوح عن عمر الطبقة التي ينقب فيها، وهي بالتالي تحدد عهد المكتشفات الأخرى التي وجدت مرافقة للنقود.

هذه الدراسات المستفيضة: حل الرموز، قراءة الكتابات، التعرف على تاريخ العاهل الذي ضرب النقد، المكان الذي ضرب فيه النقد، السنة التي ضرب فيها، الصور المائلة على النقود، الزخارف، وزن النقد، حجمه، المادة التي ضرب منها النقد، عيار هذه المادة، الخلاط المعدنية، طريقة ضرب النقد، النقد المسكوك بصورة سليمة، النقد المزيف قديماً أو حديثاً، الأغلاط الواردة على النقد بشكل غير مقصود، الأغلاط المقصودة^(١)... كل ذلك هو ما يشغل عالم النقود.

أطلق العلماء على هذا العلم Numismatics نسبة إلى وحدة النقد اليوناني الصغيرة (نُمِّيَّ)، وقد راق لأحد المشتغلين العرب^(٢) بهذا العلم فسمى هذا العلم (علم النُمِّيَّات)، ولكن استحسن الباحثون العرب فيما بعد تعبير (علم المسكوكات).

اتسع ميدان هذا العلم، وتشعبت فروعه، فكان لا بد أن يختص كل عالم في نطاق محدود، ليستطيع أن يحيط به، ويجيد العمل فيه.

اهتم العلماء بدراسة النقود العربية الإسلامية، وذلك للأسباب التالية:

(١) الأغلاط المقصودة على النقود العربية الإسلامية كانت لغرض الدعاية كما فعل الفاطميون حين ضربوا نقوداً فاطمية عليها مكان الضرب (مصر) وتواريخ سابقة لفتحهم مصر، وتكون الأغلاط على الأكثر بسبب كتمان موت الحاكم أو الخليفة والبلاد في حالة حرب.

(٢) وهو الأب أنستاس ماري الكرمللي صاحب كتاب: النقود العربية وعلم النُمِّيَّات، القاهرة ١٩٣٩م.

١ — التقويم الهجري: النقود العربية بعضها لا يحمل تاريخاً، أما النقود التي سبقت النقود العربية مباشرة، وهي النقود الساسانية الإسرانية والنقود البيزنطية، فهي تحمل تاريخاً محدوداً يبدأ من حكم كل عاهل. لذا لجأ علماء النقود إلى تنظيم لوائح بحكم هؤلاء الملوك مقارنة بالتقويم الميلادي.

النقود العربية الإسلامية حملت التاريخ الهجري باستمرار، وفي هذا إبداع وتحديد وتثبيت، جعلت الأمم فيما بعد تسير وراء العرب المسلمين في تأريخ نقودهم حسب تقويم ثابت، وهو التاريخ الميلادي.

٢ — عرب الحجاز قبيل الإسلام كانوا يتعاملون فيما بينهم بالتبادل، لكنهم عرفوا النقود بفضل تجارتهم الخارجية مع اليمن والحبيشة شتاءً ومع بلاد الشام والعراق صيفاً. وكانت أكثر النقود المتعامل بها الدراهم الساسانية الكسروية وهي من الفضة، والدنانير البيزنطية وهي من الذهب، والفلوس البيزنطية وهي من النحاس.

نظم الإسلام التعامل بالنقود، ومنع قصها، وتزييفها، والتلاعب بعارها، وظل العرب المسلمون يتعاملون بالنقود الأجنبية، لكنهم منذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب (رضي الله عنه) أخذوا يسكون النقود حسب الأنماط القديمة، وعدلوا وزن الدرهم الساساني، فقد كان رائجاً نوعاً من الدراهم: البغلي ويزن الواحد ٣ غرامات تقريباً، والطبري ويزن غرامين تقريباً، فأمر الخليفة عمر بسك الدرهم الإسلامي وهو وسط بين الدرهمين القديمين، جعل وزنه ثلاثة غرامات تقريباً، وتكون النسبة بين الدينار البيزنطي (الذي يزن مثقالاً = ٤.٥ غرامات تقريباً) وما يعادله من الدراهم الإسلامية، بحيث يكون الدينار يعادل عشرة دراهم.

كان هذا أول إصلاح إسلامي طرأ على إصدار النقود من أجل تنظيم أمور الزكاة، وتثبيت أنصابه، ولم يعدل المسلمون شيئاً من مظاهر الدرهم الساساني إلا أنهم أضافوا في هامش الوجه الذي يحمل صورة العاهل الإيراني كلمة أو كلمتين أو أكثر باللغة العربية: لله، بسم الله، بسم الله ربي.. أطلق العلماء على هذه النقود "الدراهم العربية الساسانية المغفلة". واصطلحوا عليها بالمغفلة لأنها لا تحمل اسم الحاكم المسلم.

مرت النقود العربية الإسلامية بمراحل من التطور الهادئ، بدأ في عهد الخليفة الثاني، وانتهى في عهد عبد الملك بن مروان حين عرّب النقود تعريباً نهائياً في آخر سنة ٧٧هـ. قد يقول قائل: لماذا تأخر العرب المسلمون هذه المدة الطويلة (حوالي ستين سنة) حتى عربوا النقود؟ — الجواب: النقود تعتبر دعامة الأمور المالية والاقتصادية: إن هذه الأمور حساسة جداً لا ينفع فيها التغيير المفاجئ، لأنها تقوم على الثقة والعرف، لذا كان في التطور الوئيد كل الحكمة.

قصة تطور النقود العربية الإسلامية جذبت اهتمام العلماء المتخصصين، لذا أفردوا لها أبحاثاً هامة، بدؤوا بها الكتب التي وضعوها لدراسة النقود العربية الإسلامية. وقد أفادوا كثيراً من المعلومات التي أوردها المؤرخون العرب المسلمون أمثال: البلاذري والطبري وابن النديم وابن الأثير والماوردي وابن الطقطقي والمقريزي وابن خلدون والقلقشندي.. كما أفادوا من الأخبار الواردة في كتب الأدب والكتب المؤلفة في سك المعادن ودور الضرب والتقطوا بعض المعلومات من الوثائق القديمة وسجلات المحاكم الشرعية والإدارات^(٣).

٣ — المعلومات الهامة عن أسماء الخلفاء وأولياء العهد والأمراء والملوك والولاء والوزراء وأمراء الأمراء والمشرفين على السك والملوك والولاة ورؤساء الزعامات المحلية والثوار... في العهد الأموي وأوائل العهد العباسي، لم يذكر الخلفاء أسماءهم على الدينار والدراهم، وإنما بدأ ذكرها على الفلوس في العهدين الأموي والعباسي، ثم بدأت

^(٣) نورد هنا فيما يلي أهم الأبحاث التي تكلمت عن تطور النقود العربية الإسلامية القديم من هذه الأبحاث ذكر في مقدمات كتب النقود المصنفة:

Lavoix: Catalogue des Monnaies Musulmanes, Vol. I (Khalifes, Orientaux), Paris, 1887.

Lane - Poole: Catalogue of Oriental Coins in the British Museum, Vol. I, London, 1875.

Walker: Catalogue of Muhammadan Coins, Vol. I, London, 1.

Idem: Catalogue of Muhammadan Coins, Vol. II, London, 1956.

عبد الرحمن فهمي محمد: موسوعة النقود العربية وعلم النميات.

١ — فجر السكة العربية — القاهرة ١٩٦٥. ١٩٧٠.

ناصر الدين النقشبندى: الدينار الإسلامي — بغداد ١٩٥٣.

محمد أبو الفرج العث: النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن (مؤتمر بلاد الشام — عمان، ١٩٧٤).

على نطاق ضيق على الدراهم العباسية، ثم ظهرت على الدنانير والدراهم بشكل متقطع في عهود الرشيد والأمين والمأمون، وأخيراً أصبح إثباتاً على جميع النقود أمراً سياسياً منذ عهد المعتصم بالله ٢١٨ — ٢٧٧هـ.

ولما كانت الدولة العربية الإسلامية قد اتسعت اتساعاً عظيماً في العالم، حتى وصلت إلى الصين شرقاً والأندلس غرباً وسيبيريا شمالاً ومنايع النيل جنوباً، وسيطرت على أقاليم عديدة، وضمت شعوباً كثيرة، وسمحت للعصبيات المحلية في الأقاليم بإقامة دول تابعة للخلافة، فإن المعلومات من الأسماء الأعلام على النقود تكاد تفوق الحصر، لذا اهتم علماء النقود بتنظيم لوائح ونبد تاريخية عن الدول الإسلامية والأسر الحاكمة، وكان أولهم ستانلي لين بول^(٤). وكان الثاني إدوارد زمباور النمساوي فوضع كتاباً بالموضوع نفسه بالألمانية ونقله إلى الفرنسية، ثم ترجم إلى اللغة العربية^(٥).

وبالرغم من أهمية الكتاتين المشار إليهما فإنه من الممكن وضع كتاب آخر يصحح فيه ما ورد من الأغلط الكثيرة ويضاف ما استجد من المعلومات المستنبطة من النقود التي عرفت حديثاً.

٤ — المعلومات الهامة عن أسماء المدن التي ضربت فيها النقود العربية الإسلامية. كثير من المدن قد بادت، وكثير منها تطورت وربما تبدلت أسماءها. اهتم أيضاً بهذا الموضوع زمباور المشار إليه، فوضع قبل وفاته كتاباً^(٦) نشره Peter Jaekel فسدد نقصاً كبيراً في علم المسكوكات ثم ظهرت نقود تحمل أسماء مدن غير معروفة سابقاً، وقد صنفها الدكتور جورج مايلز^(٧) ونشرها ولا زالت الأرض تجود علينا بمكتشفات جديدة، ولا بد من تجميع المعلومات ونشرها^(٨).

^(٤) Lane - poole: Muhammadan Dynasties, London, 1897.

اهتم بهذا الكتاب العالم الروسي بارتولد فترجمه إلى الروسية، وأضاف إليه بعض المعلومات المفيدة، استفاد العالم التركي خليل أدهم من الأصل والترجمة الروسية فترجمه إلى التركية. وأخيراً أنرى عالم دمشق الأستاذ محمد صبحي فرزات تحت اسم (الدولة الإسلامية) دمشق ١٩٧٣.

^(٥) زمباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي (ترجم تحت إشراف الدكتور زكي محمد حسن وعدد من طلابه، وطبع في القاهرة سنة ١٩٥١.

^(٦) Zambaur: Die Munzprägungen des Islam, Wiesbaden, 1968

^(٧) Miles: Addition to Zambaur Munzprägungen des Islam

^(٨) سأقوم بهذا العمل — إذا يسر الله — وقد جمعت عدداً من أسماء المدن غير المعروفة ولا أزال أجمع.

٥ — كثير من الدول والدويلات الإسلامية قامت في العالم الإسلامي معتمدة على شعارات دينية^(٩) هذه الدول ذكرت شعاراتها على النقود. نكتفي بذكر ثلاثة شعارات فقط: الخوارج وضعوا "لا حكم إلا الله".

الفاطيون وضعوا "عليّ وليّ الله".

الصلبيين في فلسطين وضعوا "الأب والابن والروح القدس إله واحد"....

٦ — ألقاب الخلفاء والحكام ذكرت على النقود العربية الإسمي لامية بوفرة عظيمة اهتم بهذا الموضوع الدكتور حسن الباشا^(١٠) ثم الدكتور باقر الحسيني^(١١) أول هذه الألقاب "أمير المؤمنين" ظهر على النقود العربية الساسانية مكتوباً بالفهلوية، وظهر بالعربية على الفلوس الأموية والعباسية ثم على النقود العباسية عامة.

ثاني هذه الألقاب "خلفت الله"^(١٢) أو "خليفة الله" ويقصد به "خليفة الله" ظهر على النقود العربية الساسانية وعلى الفلوس العربية المتأثرة بالنمط البيزنطي قبل التعريب النهائي.

استحسن الخلفاء العباسيون أن يكون لكل واحد منهم لقب يعرف به مثل: السفاح، المنصور، المهدي، الهادي، الرشيد... وجرى على ذلك الخلفاء الفاطميون، وتابعهم في ذلك خلفاء المغرب والأندلس، وطغى اللقب حتى نكاد لا نعرف الاسم. أما زعماء العصبية المحلية أو الحركات الدينية كالقرامطة، فهم ابتدعوا أيضاً لأنفسهم ألقاباً. ويهمننا في هذا البحث اللقب الذي اتخذته لنفسه الحسن بن أحمد القرمطي وهو "السيد الرئيس" أو "السادة الرؤساء" يبدو أنه كان يذكر اللقب بصيغة المفرد إذا كانت سلطته عالية ويذكر بصيغة الجمع إذا ارتفعت عليه سلطة مجلس الثورة. سنجد هاتين الصيغتين على نقوده المضروبة في فلسطين.

(٩) اهتم بهذا الموضوع الأستاذ سمير شما والدكتور محمد باقر الحسيني.

(١٠) حسن الباشا: الألقاب الإسلامية، القاهرة — ١٩٧٥.

(١١) نشر عدة مقالات في مجلة المسكوكات الصادرة في بغداد وفي غيرها.

(١٢) من العجيب أن يقع ناقش النقود بهذه الغلطة ربما عاجلت هذا الموضوع في بحث عن تطور الخط العربي بعد الإسلام وقد كنت كتبت بحثاً عن الخط العربي قبل الإسلام في مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية سنة ١٩٧٣.

بعض هذه الألقاب مطابقة لأفعال وإمكانات أصحابها مثل (العادل) لنور الدين محمود بن زنكي و(الناصر) لصلاح الدين يوسف بن أيوب. ولكن كثيراً من الملوك والسلاطين فخموا أنفسهم بالألقاب التعظيمية الكثيرة وما كانوا على المستوى اللائق في الحكم.

هنالك ألقاب مزدوجة، أحد هذين اللقبين رافق صاحبه قبل الوصول إلى الملك مثل: نور الدين، صلاح الدين، سيف الدين... وقد أهمل الناس اسم الشخص الحقيقي، واكتفوا بلقبه: حتى أن الناس اتخذوا مثل هذه الألقاب أسماء في العصور المتأخرة.

٧ — الكنية لازمت الخلفاء والأمراء وبعض الملوك والسلاطين مثلاً: أبو العباس السفاح، أبو جعفر المنصور، أبو عميم معد المستنصر بالله الفاطمي.. ذكرت الكنية أيضاً على النقود بكثرة منذ القرن الرابع الهجري.

لمحة تاريخية من خلال دراسة النقود:

فلسطين جزء من بلاد الشام الطبيعية، وبلاد الشام تعتبر الجناح الغربي من الهلال الخصيب، وهو يعتبر المنطلق المتمم لشبه جزيرة العرب: وشبه جزيرة العرب تعتبر الخزان البشري العربي الأصيل، يقذف بين حين وآخر منذ الألف الرابع قبل الميلاد بدفعات من البشر، إما إلى الجناح الشرقي من الهلال الخصيب وهو العراق، وإما إلى الجناح الغربي الذي هو بلاد الشام.

تتبع العلماء هذه الهجرات العربية منذ الألف الرابع قبل الميلاد حتى الفتح العربي الإسلامي، فأحصوا الشعوب المهاجرة التي استقرت في الهلال الخصيب، وأطلقوا عليها الشعوب السامية، تمييزاً لها عن الشعوب العربية التي ظلت قاطنة في شبه الجزيرة العربية. وقد ذبت لهم أصولها العربية من دراسة الوثائق المكتوبة التي وجدت في العراق وبلاد الشام، بنتيجة التنقيبات الأثرية، فوجدوا تطابقاً وتوافقاً في الأصول، وتشابهاً في التفكير والحياة الاجتماعية. وقد دلت الدراسات الأنتروبولوجية على أنهم جميعاً من أصل واحد.

ليس هنالك حاجز طبيعي بين بوادي الجزيرة الشمالية وبادية الشام، لذا كانت القبائل العربية ترحل نحو الشمال وتغذي الهلال الخصيب — بدماء عربية جديدة. كانت آخر الهجرات القديمة في القرنين الثاني والثالث الميلاديين: هجرة اللخمين الذين أسسوا

مملكة الحيرة، وهجرة الغساسنة الذين أسسوا مملكة دمشق الممتدة إلى تخوم الجزيرة العربية، أما قبائل تميم وتغلب وكلب وسواها فقد استقر بعضها في الشمال، وظل بعضها الآخر متنقلاً بين شبه الجزيرة والشمال.

لو أردنا أن نلخص أسباب هذه الهجرات، والتنقل، فإننا نجد الأسباب الاقتصادية والاجتماعية أبرز هذه الأسباب، ولا سيما الابتعاد عن مشاكل الثأر والانتقام المبتلى بها جميع أنواع القبائل في الدنيا.

يروى لبعض المؤرخين أن يجعلوا الفتح الإسلامي هجرة من هذه الهجرات وهم يجعلون أسباب الفتح الأساسية هي الاقتصادية. ولكن لسو درسوا التاريخ العربي والإسلامي وروح الإسلام دراسة واعية، لوجدوا بسهولة الأسباب الحقيقية الأساسية لهذه الحركة هي: الفتح لنشر الإسلام، دين الحق والعدالة، ولتصفية العلاقات السياسية والعسكرية مع الدولتين الإيرانية والبيزنطية اللتين كانتا تكيدان للعرب سواء أكان منهم المقيمون معهم في المهلال الخصيب، أم العرب المجددون الذين حملوا لواء الدعوة الإنسانية بعد أن أصبحوا أمة واحدة، وأقاموا دولة واحدة.

بلاد الشام تمتاز بتضاريسها الطبيعية: جبال منيعة، ووديان سحيقة، وأغوار تفصل بين أجزاء البلاد، لذا كانت فلسطين جزءاً يتمتع بمزايا خاصة في التاريخ القديم، إلا أنه في التاريخ العربي الإسلامي اندمج اندماجاً كلياً مع الأجزاء الأخرى، لأن النظام الإسلامي وحد القلوب والمفاهيم العقلية والخلقية.

اهتم الأمويون بجميع البلاد وخاصة دمشق وفلسطين، وعادت القدسية الروحية إلى القدس الشريف، فبنى فيها عبد الملك قبة الصخرة سنة ٧٢ هجرية. وكانت أول عمل عمراني عظيم وجميل، وبنى خلفاؤه المساجد والقصور والقلاع والمدن منها الرملة التي شيدها سليمان بن عبد الملك وأقام فيها منذ سنة ٩٠ هـ، أي قبل خلافته.

ضربت النقود العربية الإسلامية في العهد الأموي^(١٣)، وربما قبله، ووجدنا فلوساً تحمل مكان الضرب: فلسطين وإيليا — فلسطين وإيليا، تعني القدس، وضرب الفلوس في

^(١٣) في العهد الأموي اقتصر سك الدنانير على دمشق وربما ضربت أيضاً في مصر، ولكن لم يذكر عليها مكان الضرب، ما عدا إفريقية والأندلس والحجاز. أما الدراهم الأموية فقد ضربت بدمشق وسمع الخليفة الأموي بضرها في مدن العراق وإيران وأرمينية وأفريقية والأندلس. أما الفلوس الأموية فقد ضربت في كثير من مدن بلاد الشام وغيرها ومنها مدن فلسطين.

جبرين (وبيت جبرين) وبيسان والرملة وصفورية وطبرية وعسقلان وعكا وغزة واللد
ويئس وحطين.. وربما جادت علينا الأرض بأسماء مدن أخرى؟.

ضربت النقود في فلسطين في الدور العباسي الأول، ولكن لا نعرف منها حتى الآن
إلا فلوساً، وسكت في العهد الطولوني، ثم ضربت عباسية بين سنتي ٢٩٣ و ٣٣١هـ، ثم
ضربت في العهد الإخشيدى، وضربت عباسية سنة ٣٥٥هـ ثم عادت لإخشيدية حتى
سنة ٣٥٨هـ. بعد الغزو الفاطمي لمصر سنة ٣٥٨هـ، وبعد أن استقر لهم الأمر دخلوا
فلسطين ودمشق، فلاقوا فيها مقاومة عنيفة وعديدة... ضرب الفاطميون في فلسطين النقود
سنة ٣٥٩هـ.. زحف الحسن بن أحمد القرمطي إلى دمشق واستولى عليها وعلى فلسطين
وطرد الفاطميين سنة ٣٦٠هـ، وضرب النقود في فلسطين سنة ٣٦١ و ٣٦٢ هـ، ثم
هاجم مصر متفقاً مع بعض القبائل العربية لكنه أخفق، وطمع به الفاطميون فانسحب إلى
بلاد الأحساء، لكنه عاد مؤازراً القائد التركي (الفتكين) الذي لجأ إلى بلاد الشام فراراً
من الخلافات بين آل بويه في العراق واستطاع الرجلان طرد الفاطميين من فلسطين
فحكماها بين ٣٦٤ و ٣٦٧هـ. ضرب الفتكين ديناراً بويهياً ليطمئن عضد الدولة، لكنه
عند ضعف مركزه سنة ٣٦٧هـ انحاز إلى العزيز بالله الفاطمي الذي أكرمه وقربه^(١٤).

هذه البلاد المقدسة الجميلة غدت في القرن الخامس الهجري \ الحادي عشر
الميلادي هدفاً لغزو أوروبي استعماري، ألبسوه حلة صليبية مسيحية، يتبرأ منها سيدهم
وسيدنا المسيح، فاكتمسحوا بلاد الشام ساحلياً حتى وصلوا إلى فلسطين، واستطاعوا
البقاء بسبب تمزق الدولة العربية الإسلامية والتناحر على السلطة بين أفراد البيت الحاكم
الواحد وبين الأسر الحاكمة المتجاورة وبين العصبية المسلحة. لقد ضعف الرادع الديني
وكثر الإقبال على الدنيا بطمع وحشع، حتى آذن الله بتوحيد القوى والصفوف بفضل
طهارة ونبل أسرة زنكي، وخاصة الملك العادل محمود بن زنكي، وبفضل تماسك
الدويلات الإسلامية بزعامة الأسرة الأيوبية في أول عهدها على يد الملك الناصر صلاح
الدين يوسف بن أيوب. كان بنتيجة هذا التصحيح في المنهج أن أسفر الصراع بين
المسلمين والصليبيين عن تفوق المسلمين في جميع المجالات.

^(١٤) ابن الأثير ج ٨ (ص: ٢١٧ - ٢١٩).

شكل الصليبيون عدة دويلات وكان لا بد لهم من نقود يتعاملون بها فيما بينهم ومع جيرانهم. كانت النقود الفاطمية هي النقود الطاغية على الأسواق في بلاد الشام وسواحل البحر المتوسط، لذا استعملها الصليبيون أولاً، ثم ضربوا نقوداً قلدوا بها النقود الفاطمية تقليداً أعمى، لأن ناقش النقود كان يجهل اللغة العربية، فكانت النقود من حيث الظاهر مشابهة، لكن الكلمات الصحيحة قليلة، وأكثرها مبهم، بل بعضها عبارة عن خطوط قائمة ونائمة، ولا تعني شيئاً. بعض الدنانير الصليبية المقلدة كانت أفضل من غيرها من حيث الكتابة ومن حيث العيار، لكن أكثر هذا النوع من الدنانير كان عيارها ضعيفاً جداً، يميز ضعف عيارها بسهولة من لونها الأصفر الفاقع وخفة وزنها.

عندما سيطر الأيوبيون على مصر والشام، وحلت نقودهم محل النقود الفاطمية قلد الصليبيون أيضاً النقود الأيوبية الذهبية والفضية. كانت النقود الذهبية على الأكشتر تسك في الديار المصرية، أما الدراهم والفلس الأيوبية فكانت وافرة جداً في بلاد الشام وخاصة المضروبة في دمشق. النقود الذهبية المقلدة كانت تحمل اسم دور الضرب المصرية، أما الفضية فهي تحمل اسم دمشق، وعلى الأخص في عهد الملك الصالح اسمعيل الذي حكم دمشق مرتين بين سنتي ٦٣٥ و ٦٤٣هـ وكانت علاقاته مع الصليبيين حسنة، لأنه كان في عداء مستمر مع السلطان الأيوبي في مصر.

يجدر بنا أن نذكر أن النقود الصليبية المقلدة في العهد الأيوبي كانت أفضل بكثير من النقود المقلدة في العهد الفاطمي وهذا يدل على أن الصليبيين تعلموا اللغة العربية، وربما استخدموا بعض المسيحيين المحليين في نقش النقود.

يمكن تصنيف النقود الفضية الصليبية التي تحمل اسم (دمشق) كما يلي:

١ — النقود المقلدة تقليداً حسناً دون زيادة ولا نقصان، وهي تعرف من خطها.

٢ — النقود التي تحمل في طيات الكلام صليباً صغيراً.

٣ — النقود التي تحمل التاريخ الميلادي.

سأنشر هذه النقود في بحث هام وهو: "النقود العربية الإسلامية المضروبة بدمشق"

— إن شاء الله —.

وأخيراً ضرب الصليبيون نقوداً ذهبية وفضية ونحاسية مسيحية خالصة، كتبت باللغة العربية وبخط لين وبشيء من الركاقة، حملت اسم مكان الضرب (عكا) والتاريخ الميلادي ١٢٥١ — ١٢٥٨. هذا يدل على أن أكثر الصليبيين استعربوا، وضربوا أيضاً نقوداً من خليط معدني، أكثره نحاس وأقله فضة، لونه أسمر كتب عليه "ضرب قلس" وضربوا فلوساً نحاسية صغيرة في عكا.

هذا المعدن يطلق عليه بالفرنسية (Billon). في عهد بودوان الثالث ملك القدس (١١٤٣ — ١١٦٣)^(١٥) ضربت نقود فرنجية تحمل الصليب في الوجه مع اسم بودوان (Baldvins rex) وعلى الظهر صورة معبد كتب حوله († De Jerusalem = sic) أي القدس مع شيء من التحريف. ضربت في عهد الملك نفسه نقود فضية تحمل اسمه ومكان الضرب († De Jerusalem) مع كتابات أرمنية مما يدل على أنه كان في فلسطين وخاصة القدس متطوعون أرمن.

* * *

مدينة غزة في فلسطين ظلت تحت حكم الأيوبيين وكانت تعتبر الخط الأمامي لمقارعة الصليبيين. ضربت فيها النقود الأيوبية. أقدم نقد مسجل ضرب بغزة يعود إلى سنة ٦٢٣هـ وهو محفوظ في المتحف الوطني بدمشق. استمر إصدار الدراهم الأيوبية في غزة حتى آخر عهد الملك الكامل محمد سنة ٦٣٥هـ^(١٦).

* * *

^(١٥) يوجد ثلاثة ملوك صليبيين من ملوك القدس يحملون اسم بودوان، يظن أن أحدهم ضرب النقود وهم:

بودوان الثالث: ١١٤٣ — ١١٦٣ م.

بودوان الرابع: ١١٧٤ — ١١٨٥ م.

بودوان الخامس: ١١٨٥ — ١١٨٦ م.

رجح الأستاذ شلومبرج أن هذه النقود ضربت في عهد بودوان الثالث لا غير:

Schlumberger, G. Numismatique de l' Orient Latin, Paris, 1877.

^(١٦) هذا ما هو في حد علمنا، لكننا نتظر الكتاب العام الذي ينشره عن النقود الأيوبية الدكتور بالوغ.

تزعزع مركز الصليبيين في عهد الملك الناصر صلاح الدين، وتقلصت مناطق نفوذهم، ولو أن الأجل تأخر، لكان صلاح الدين طهر البلاد من الصليبيين. توفي صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ = ١١٩٣م، فحكم مصر والشام وأولاده وأخوه الملك العادل سيف الدين أبو بكر، كل في منطقة نفوذه، فتمزقت الوحدة التي كونها صلاح الدين، ولكن لم يمض وقت طويل حتى استطاع الملك العادل سيف الدين أن يسيطر على الموقف، وأعاد الوحدة إلى البلاد، وصمد في وجه الصليبيين.

توفي الملك العادل سنة ٦١٥هـ = ١٢١٨م فتقاسم أولاده وبعض أولاد أخيه صلاح الدين حكم البلاد، وتمزقت الوحدة من جديد، وحصل تنافس بين الملوك الأيوبيين بل نزاع وقتال. وكان هذا هو السبب في انتعاش الصليبيين وبقاءهم، وأمل الأوروبيون في استعادة القدس وتمكين نفوذهم، فتجدد إرسال الحملات.

في هذه الفترة لم يضرب الأيوبيون نقوداً في فلسطين إلا في (غزة) على نطاق محدود.. كما أشرنا سابقاً.

* * *

كان موقف الملك الصالح أيوب (٦٣٧ - ٦٤٧هـ / ١٢٤٠ - ١٢٥٠م) ضعيفاً في مصر بسبب مناوأة ملكي دمشق والكرك والأيوبيين، وبسبب تقدم الصليبيين ومحاولتهم استعادة القدس ثم وصول الحملة الصليبية الكبرى إلى مصر بقيادة لويس التاسع الفرنسي. لم يكن يثق الصالح أيوب بالأيوبيين أنفسهم الذين ثاروا عليه في مصر بالذات بالإضافة إلى مناوأة ملك دمشق الذي كان يحاول الاستيلاء على مصر، لذا اشترى الصالح عدداً كبيراً من المماليك الأتراك، وبني لهم قلعة في جزيرة الروضة في النيل، وعاش معهم، وتزوج منهم، ودرهم على الأعمال الحربية والإدارية.. فكانوا قوة لا يستهان بها.

هؤلاء المماليك هم الذين صمدوا في محاربة الفرنجة في مصر، في معركة المنصورة. واستطاعوا فيما بعد أن يستولوا على الحكم بسبب تحاذل الأيوبيين. وصمدوا لغزو هائل بحماس منقطع النظير، وهو الغزو المغولي الي كان هدفه الاستيلاء على مصر، فكسروا شوكته في معركة عين جالوت سنة ٦٥٨هـ = ١٢٦٠م، وارتفع اسم المماليك في العالم الإسلامي عامة، وفي مصر والشام خاصة، واستطاعوا أن يوطدوا حكمهم في مصر والشام، ثم أخذوا على أنفسهم تصفية الصليبيين في بلاد الشام.

حكم المماليك الأتراك مصر بين سنتي ٦٤٧ — ٧٩٢هـ / ١٢٥٠ — ١٣٩٠ م.
وتأخر بدء حكمهم في الشام إلى ما بعد انتصارهم في عين جالوت ٦٥٨هـ — ١٢٦٠ م.
وحكم المماليك الشراكسة مصر والشام بين سنتي ٧٨٤^(١٧) — ٩٢٣هـ — ١٣٨٢^(١٨) / ١٥١٧ م.

ضرب المماليك الأتراك والشراكسة جميع أنواع النقود في مصر والشام^(١٩)، إلا أنهم لم يضربوها في مدن فلسطين إلا ما ندر، لقد ذكر زماور^(٢٠) نقداً ضرب في (عكا) في مصنفه الإحصائي عن مدن الضرب، لكنه لم يشر إلى المرجع الذي وجد فيه، وهو مؤرخ من سنة ٦٧٨هـ أي من عهد بدر الدين سلامش أو سيف الدين قلاوون.
وجدت في متحف دمشق درهماً مقصوفاً عليه مكان الضرب (غزة) واسم الظاهر سيف الدين برقوق (٧٨٤ — ٧٩٩هـ ثم ٧٩٢ — ٨٠١هـ)، لم يظهر التاريخ على الدراهم لأنه مقصوص من أطرافه.

هذا كل ما ورد من النقود المملوكية المضروبة في فلسطين، عسى أن تجود الأرض علينا باكتشاف جديد، يزيد من معلوماتنا عنها.

* * *

أما في العهد العثماني فقد وردت أوسمة ضربت في (عكا) سنة ١٢٥٦هـ باسم السلطان عبد المجيد من الذهب والفضة والبرونز مكافأة للجنود الذين بذلوا جهوداً كبيرة في إخراج جيش محمد علي من بلاد الشام.

^(١٧) وثب الظاهر سيف الدين برقوق الشرکسي على الصالح صلاح الدين حاجي الثاني فاستولى على الحكم سنة ٧٨٤هـ لكن المماليك استطاعوا إعادة حاجي سنة ٧٩١هـ فحكم إلى سنة ٧٩٢هـ تحت اسم المنصور ناصر الدين حاجي. استجمع المماليك الشرکسة قواهم، واستطاعوا أن يسيطروا على الموقف سنة ٧٩٢هـ / ١٣٩٠ م.
^(١٨) استولى السلطان العثماني سليم الأول على سورية سنة ٩٢٢هـ = ١٥١٦ م ثم استولى على مصر سنة ٩٢٣هـ = ١٥١٧ م.

^(١٩) أحسن مرجع لهذه النقود ما كتبه بالوغ

Balog, P.: The Coinage of the Mamluk Saltans in Egypt and Syria, New York, 1964.

Zambuor: Die Munzprägungen des Islams, Wiesbadenm 1968 (c).^(٢٠)

مصنف النقود العربية الإسلامية المضروبة في فلسطين

سأتبع في تصنيف النقود المضروبة في فلسطين الأسس التالية:

١ — تسلسل الدول:

العهد الأموي، العهد العباسي، الطولوني، العباسي الثاني، الإخشيدى، العباسي الثالث، العباسي الحمداني، القرمطي، تداخل القرمطي والفاطمي والبويهى، الفاطمي، الصليبي، الأيوبي، المملوكي، العثماني.

٢ — سأفصل في كل عهد — إن وجد — الذهب عن الفضة عن النحاس.

٣ — إذا اقتضت الضرورة أن أجعل التاريخ أساساً، فسأتبع التسلسل الزمني.

٤ — في عرض فلوس العهد الأموي اضطررت أن أتبع مبدئين:

أ — بيان تطور الفلوس من شكلها البيزنطي، والتقدم في تعريبها تدريجياً إلى أن أصبحت عربية خالصة.

ب — إحصاء الفلوس الأموية حسب التصنيف الأبجدي لمدن الضرب مع مقدمة صغيرة عن كل مدينة.

النقود المضروبة في فلسطين في العهد الأموي

ملاحظة التطور التدريجي في تعريب الفلوس المضروبة بفلسطين:

كنا ذكرنا في الصفحة التاريخية أن العرب لم يضربوا في فلسطين دنانير ولا دراهم، وإنما ضربوا الفلوس فقط. والفلوس على قلتها في فلسطين تمثل إلى حد ما تطور النقود في شكلها البيزنطي إلى التعريب النهائي. لتسهيل البحث سنعطي درجات التطور أرقاماً:

١ — يعتبر أقدم فلس ضربه العرب في فلسطين هو الفلس المضروب بطبرية والذي يحمل اسم (خالد)، كتاباته جميعها يونانية حتى اسم خالد فقد كتب Xaled وكتبت طبرية THABERIA.

من هو خالد؟ لا شك أنه خالد بن الوليد، لأن فلساً آخر مشابهاً يحمل اسم (عمر) باللغة الرعية.

نشرها ووكر^(٢١) لكنه يشك بصحة دراستها Walker, II, pp. 46 - 50: لذا لن أدخلها في التصنيف.

* * *

٢ — في أول درجات التطور قلد العرب الفلوس البيزنطية كما قلدوا الدنانير البيزنطية^(٢٢)، وكان التقليد غير دقيق، ووضعوا عليها أسماء المدن الشامية، ولم يكن البيزنطيون يضعون على نقودهم أي اسم مدينة شامية ما عدا إنطاكية لمقامها الديني عندهم.

أقدم فلس من التقليد يحمل اسم (بيسان) باليونانية ويلفظ باللاتينية SCYTHOPOLIS.

هذا الفلس هو تقليد لفلس جوستان الثاني وصوفيا (٥٦٥ - ٥٧٨ م). واسم مدينة الضرب الأصلية NIKO وهو مختصر (نيكوميديا)، لكنه ذكر باليونانية (سيتوبوليس) مجزأ في طرفي وجه الفلس، ولم يكن دقيقاً في كتابة Niko إذ زلق الحرف O إلى ما تحت التاريخ المكتوب عمودياً. يقدر ووكر تاريخ ضرب هذا الفلس المقلد سنة ٦٥٠ م.

في اللوح صورة الفلس الأصلي والمقلد ١ — ٣ Walker, II pl. I

* * *

^(٢١) سنذكر جميع المراجع باختصار، وسنعطي أسماءها كاملة في ثبت أخير مع المختصرات.
^(٢٢) راجع بحثي المشار إليه سابقاً، "النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن" (مؤتمر بلاد الشام — عمان ١٩٧٤).

Traces du Classicism dans la Numismatique Arabe- Islamique (AAAS. vol. 23 (1971), pp. 304- 5).

٣ — في هذه المرحلة لم يقلد العرب تقليداً أعمى — كما حصل في المرحلة الثانية — وإنما قصدوا ضرب الفلوس على النسق البيزنطي، واحتفظوا بعناصره: صورة العاهل البيزنطي واقفاً مع شاراته المسيحية في الوجه، أما في الظهر فقد وضعوا حرف M وفوقه الشارة المقدسة +، وكتبوا إلى يسار M اسم المدينة باليونانية THBEPIADO بحيث تشغل اليسار والأسفل، وكتبوا إلى يمين الحرف باللغة العربية طبرية.

Walker, II, p.11, no. p4, pl. III.

في هذه المرحلة بالذات وعلى النسق نفسه وضعوا صورة هرقل (هيراكليوس) وولديه مع شاراتهم المسيحية في الوجه. أما الظهر فلا يختلف عن الشكل الأول إلا بالشارات فقط^(٢٣). Walker, II, p15, nos-43-51, -pl. III

يمكن أن نعد من هذه المرحلة أيضاً فلساً مشابهاً للفلس السابق الذي يحمل صورة العاهل هرقل وولديه في الوجه. أما في الظهر فلم تكتب (طبرية) باليونانية وإنما كتبت OIA من الأعلى إلى الأسفل، وكتبت (طبرية) بالعربية إلى اليمين كالسابق، ولكن كتب M كلمة مصري. هي بلا شك مصري.

هذا الفلس محفوظ في المتحف الوطني بدمشق، وكنت نشرته في بحث ألقى في مهرجان الألفي لمدينة القاهرة سنة ١٩٦٩، تحت عنوان: "مصر، القاهرة على النقود العربية الإسلامية"^(٢٤).
اطلعت حديثاً على فلس مماثل، لكن كاتبه المقال لم يستطيعاً تفكيك كلمة (مصري)^(٢٥).

* * *

(٢٣) سببن هذه الشارات وتنوعها في المصنف التالي.
(٢٤) نشرت وزارة الثقافة في الجمهورية العربية المتحدة أبحاث المهرجان في أربعة أجزاء، بخشي في الجزء الثاني بين الصفحتين ٩٠٥ — ٩٩٥. أشرت إلى هذه الفلس في حاشية الصفحة ٩٠٨ تحت الرقم (٢).
(٢٥) Metcal and Payne: Some Byzantine and Arab- Byzantine Coins obtained in Jerusalem (Spink Son's Numismatic Circular, June- December 1965).

٤ — استغنى العرب عن رسم الامبراطور البيزنطي، ووضعوا عوضاً عنه رسم الخليفة الأموي في الوجه، مثلوه واقفاً، يرتدي ثوباً منمقا، يضع يده اليمنى على مقبض سيفه الذي يسند به يده اليسرى، ويبدو مائلاً إلى يساره. كتب إلى يمين رسم الخليفة بالخط الكوفي (محمد ر) وإلى يساره (سول الله). نقش على ظهر الفلوس حرف m وكتب إلى يسار الحرف (ايليا) وإلى يمينه (فلسطين).

من ضرب الفلوس، ولم يذكر اسمه؟ يرجح علماء النقود أنه ضرب قبل عهد عبد الملك بن مروان. أظن أن معاوية بن أبي سفيان هو الذي ضربه. ذلك لأن المقرئزي^(٢٦) ذكر: "معاوية ضرب دينار عليها تمثاله متقلداً سيفاً". لم يعثر حتى الآن على دينار لمعاوية يحمل صورته، ولكن يحتمل أن يكون ضرب فلوساً يحملها. يوجد عدد كبير من هذه الفلوس المضروبة قبل عبد الملك بن مروان الذي ذكر اسمه صراحة مع صورته.

Walker, II, p22, nos. 73- 79 and ANS. 5.

* * *

٥ — كانت خطوة عبد الملك بن مروان جريئة جداً، فقد عرب الدينار ووضع صورته عليه والتاريخ ٧٤هـ^(٢٧)، واستمر بضرب هذا النمط حتى أواخر سنة ٧٧هـ — حيث ضرب أول دينار عربي خالص^(٢٨). وعرب عبد الملك أيضاً الفلوس، ووضع صورته واقفاً على نحو ما وصفنا، وكتب حول شخصه (لعبد الله عبد الملك أمير المؤمنين) أما الظهر فقد بدا في وسطه الصليب البيزنطي المحوّر^(٢٩) مرفوعاً ثلاث درجات وكتب إلى يساره كلمة (واف) يعني صحيح الوزن والضربة. وإلى يمينه جبرين^(٣٠).

Walker, II, p.33, no. 105, pl. VII.

* * *

^(٢٦) المقرئزي: "شذور العقود في ذكر النقود" اقتطف الأب أنستاس ماري الكرمل في كتابه المعلومات الهامة عن النقود، وذكر ما يخص المقرئزي في ص ٣١ — ٣٤، وذكر هذه الجملة ص ٣٤.
^(٢٧) انظر صورته الواضحة في بحثي Traces اللوح (١١) XCII، الرقم ١٩.
^(٢٨) انظر صورته في بحثي الآنف الذكر في اللوح نفسه الرقم ٢٠.
^(٢٩) نقصد بالحوّر أن أزيلت عارضة الصليب، ووضع فوق قائمته حلقة أو كرة صغيرة.
^(٣٠) يوجد عدد كبير من هذه الفلوس من ضرب: دمشق، حمص، بعلبك، قنسرين...

٦ — وهي المرحلة الأخيرة فقد زال كل تأثير في النمط البيزنطي، وغدت الفلوس بمأثوراتها العربية خالصة، تتضمن معلومات مفيدة: مكان الضرب، التاريخ، أحياناً، بعض رسوم الحيوان، غصن النخيل، زهرة... سنرى في المصنف التالي أنواعاً من هذه الفلوس المضروبة في المدن الفلسطينية.

* * *

نعمد في هذا المصنف لدراسة فلوس العهد الأموي^(٣١) على مجموعة المتحف الوطني بدمشق وعلى كتاب ووكر: الجزء الثاني، الذي أشرنا إليه سابقاً لأنه جمع في كتابه المصادر سنة ١٩٥٦ كل المعلومات المذكورة في المصادر السابقة، وتقحاً وصححها وأحسن تصنيفها وترتيبها، ولقد ظهر بعد نشره الكتاب نقوداً فيها شيء من الطرافة. سأعرض هذه الفلوس حسب الترتيب الأبجدي لأسماء المدن.

١ — الأردن:

لن أتكلّم عن الفلوس التي سكّت في شرقي الأردن، لكن الأردن، ويقصد به كور الغور وحوالي البحيرات جميعاً، صار له كيان بعد الفتح الإسلامي أطلق عليه (جند الأردن)، وهو يضم طبرية والسامرة (نابلس) وبيسان وفحلّ وجرش، وعكّا وقدس وصور، والغور^(٣٢).

أ — غير مؤرخ من النمط العربي.

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

^(٣١) نذكر العهد الأموي، ولكن يجب ألا نتجاهل أن بعض الفلوس التي ضربها العرب حسب النمط البيزنطي قد سكّت قبل العهد الأموي، ونخص منها الفلوس المضروب بطبرية ويحمل اسم (عالم) باليونانية.

^(٣٢) ذكر هذا ابن الفقيه. نشر هذه النصوص لوسترانج

Le Strange, G.: Palestine under the Moslems, London, 1890.

ترجم الكتاب السيد محمود عمايري: فلسطين في العهد الإسلامي، عمان ١٩٧٠، وقد اعتمدنا على الترجمة. نص ابن الفقيه ص ٤٧.

المدار غير واضح، يظهر من الماثورة كلمة
(محمد) المدارة: بسم الله ضرب بالأردن

في أسفل الوجه عند ووكر Walker, II, p128, no. 743: no. 745

ب — مؤرخ سنة ١١٠هـ —
هذا الفلوس محفوظ في المتحف الوطني بدمشق تحت الرقم ع/ ٢٠٦٠ (القطر ٢٣ مم).

٢ — إيليا:

هذا الاسم أتى من التسمية الرومانية AELIA، فقد أنشأ الامبراطور هارديان سنة ١٣٠م مستعمرة أطلق عليها Aellias Haderianus، وقد ضربت فيها النقود من عهد هادريان إلى عهد هوستليان^(٣٣)، لكنها لم تذكر على النقود البيزنطية.

هذا الاسم (إيليا) ظهر باللغة العربية مع (فلسطين)، ولوحده، وهي تعتبر حاضرة فلسطين في العهد العربي، وأطلق عليها (قدس) أو (القدس) أو (بيت المقدس) وقد ورد هذا الاسم في جميع المصادر التاريخية القديمة على أنه هو (القدس)، وقد ذكر كتاب الصلح الذي كتبه الخليفة الثاني عمر بن الخطاب إلى أهل إيليا^(٣٤) سنة ١٥ هجري. أقدم فلوس ضرب بإيليا فلسطين عربي متأثر بالنمط البيزنطي، مثل عليه شخص الخليفة واقفاً (في الوجه)^(٣٥)، وحرف m (على الظهر).

هذا الفلوس ضرب قبل عهد عبد الملك بن مروان، لأن فلوس عبد الملك أكثر إتقاناً، وخاصة في نقش صورته، وقد كتب عبد الملك على فلوسه اسمه — كما مر معنا. نشر ووكر عدداً من الفلوس المشابهة، مع اختلاف بسيط ببعض الإشارات (ووكر ٧٧) اللوح ١ Walker, II, p.22, nos. 73- 79 and ANS. 5.

^(٣٣) وقد عرفت أيضاً. Hill: BMC, Palesyine, pp. 82, ff. (Aelias Capitalinas).

^(٣٤) الكيري: تاريخ الأمم والملوك، ج ١ ص ١٥٩، المطبعة الحسينية المصرية.

^(٣٥) سأصِف الوجه في الجهة اليسرى، والظهر في الجهة اليمنى مراعاة لما هو منشور باللغات الأجنبية، حتى لا يحصل التباس.

٣ - إيليا (النمط العربي):

ليس على هذا الفلس أي أثر للنمط البيزنطي.
 في الوسط ضمن حرز في الوسط ضمن طوقين
 محمد لا إله
 رسول إلا الله
 الله وحده

Walker, II, p235, no. p 124, pl. XXVI.

* * *

٤ - بيسان (بفتح الباء وتسكين الياء):

هذه المدينة — كما ذكرت في مقدمة هذا الفصل — معروفة قديماً، وكانت حاضرة فلسطين الثانية في التقسيم الإداري الوارد في قانون جوستينيان^(٣٦) في القرن السادس الميلادي.

أقدم فلس يحمل اسمها باليونانية، ويلفظ (سيتوبوليس)، وهو يعتبر في أول مرحلة التعريب، وقد أشرنا إلى ذلك. الفلس البيزنطي الأصيل الخالي من اسم المدينة سيتوبوليس: * (وكرر الرقم B) اللوح ١.
 (صورة جوستينيان الثاني)

الفلس العربي تقليد البيزنطي ويحمل اسم بيسان باليونانية على الوجه: * (وكرر الرقم ١) اللوح ١.

صورة جوستينيان الثاني وصوفيا
 كتبت كلمة (سيتوبوليس) باليونانية مجزأة من الطرفين

* هذه الإشارة تعني أن للنقد صورة ويشار إلى اللوح.
^(٣٦) لوسترانج (مترجم) ص ٤٣.

Walker, II, Prototype: No, B: Arab- Byzantine: Nos. 1-3, and A.2.

* متحف دمشق ع/ ١٦٨٦٩ اللوح (يشبه ووكر ١٠٢)، ولكن الصورة تمثل هرقل وولديه.

الفلس العربي تقليد البيزنطي ويحمل اسم بيسان بالعربية (بيسن)
(صورة جوستينيان الثاني وصوفيا)

Walker, II, p.2, no. Bel. 2.

عهد جوستينيان الثاني وصوفيا ٥٦٥ — ٥٧٨ م، وهو مضروب في السنة الثامنة من حكمه أس ٥٧٢ م، أما الفلس فإن ووكر يقدر تاريخه بسنة ٦٥٠ م أي حوالي سنة ٢٩ هـ.

* * *

٥ — بيت جبرين أو جبرين:

ورد اسم هذه المدينة على الفلوس الأموية بهذين الشكلين. يبدو أن هذا الاسم يمكن أن يكون بيت جبريل^(٣٧)، وقد دعاها المؤرخ يوسيفوس (بيتوجابرا)، لكن البيزنطيين أطلقوا عليها (ELEUTHEROPOLIS)، وهو اسم معروف في العهد الروماني، وقد ذكره هيل^(٣٨).

أ — جبرين — عبد الملك (بن مروان) وهو من المرحلة الخامسة المتطورة.
المدار: (لا إله إلا) اله وحده (شخص عبد الملك)
محمد رسول الله المدار: لعبد الله (عبد الملك أمير المؤمنين)

^(٣٧) لوسترانج (مترجم) ص ٣١٠.

^(٣٨) Hell: BMC (palestine), p. XV

Walker: II, p. XCH.

Walker. II, p.33. no. 105, pl. VII, p. 33, no, 105, pl. VII.

بيت جبرين — غير مؤرخ — النمط العربي

محمد لا إله

رسول إلا الله

الله وحده

المدار: ضرب هذا الفلس بيت جبرين

Walker. II, p.239 and 240, no 791 and th 14.

ج — مثل الفلس ب ولكن (جبرين)

Ibid, no 782.

* * *

د — جبرين — مؤرخ ولكن لا يبدو من التاريخ إلا () نقدر الأحاد [] []
[أي أن التاريخ يجوز أن يكون ٩٤ أو ١٠٤ هـ.

★

محمد لا إله إلا

رسول إله وحده

الله لا شريك له

المدار: .. [الفلس..] س بجبرين سنة [أ] رد...

هذا الفلس وحيد، لم ينشر مثله وهو محفوظ في المتحف الوطني بدمشق تحت
الرقم ع/ ١٦٦٠١.

* * *

٦ - حطين:

لم يذكر أحد من علماء النقود العربية الإسلامية هذا الاسم لكنه واضح على الفلس الذي ندرسه. ذكر ياقوت قرية^(٣٩) بهذا الاسم تقع بين أرسوف^(٤٠) وقيسارية على الساحل الفلسطيني، ونسب إليها الرجل الصالح الزاهد هياج محمد بن عبيد بن حسين الحطيني. ثم ذكر موضع حطين الذي جرت فيه المعركة الشهيرة التي انتصر بها المسلمون بقيادة صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين، وهو يقع بين طبرية وعكا. هذا الفلس من المرحلة الخامسة التطورية باسم عبد الملك

(شخص عبد الملك)

المدار: لا إله إلا (الله وحده) محمد رسول
* هذا الفلس وحيد ومحفوظ في المتحف الوطني بدمشق^(٤١) الرقم (ع/ ١٤٣٦٨)
اللوحة ١.

* * *

٧ - الرملة:

وهي في جند فلسطين، تقع على بعد ٢٥ ميلاً عن القدس.
أنشأها سليمان بن عبد الملك قبل توليه الخلافة وأقام فيها منذ سنة ٩٠هـ وكان يقيم فيها غالباً بعد الخلافة سنة ٩٦هـ.

^(٣٩) ياقوت: معجم البلدان ج ٢، (نشر دار صادر بيروت) ص ٢٧٣.
^(٤٠) أرسوف هي يافا الصغيرة حسب تعريف المقدسي وعين أبو الفداء مكانها بدقة: تبعد ١٢ ميلاً عن الرملة و ٦ أميال عن يافا و ١٨ ميلاً عن قيصرية. ص ٢٣٩. (لوسترانج — مترجم ص ٣١٨).
^(٤١) أسجل هنا شكري وعرفاني للأستاذ محمد الخولي محافظ الآثار الإسلامية في المتحف الوطني بدمشق لتعاونيه المخلص.

أ — الرملة غير مؤرخ

لا إله

محمد

إلا الله

رسو (كذا)

وحده

اله

المدار: بسم الله ضرب — (...) بالرملة في مكان المدار بخطوط قطرية IIII
* متحف دمشق ع/ ١٧١١٩ (٢٣م، ٤٠٩٢ غ) اللوح ١.

Walker, II, no. 853 and ANS.

ب — شبيهة بالسابق لكن غصن النخيل إلى يمين مأثورة الوسط، ولا توجد
حبيبة في الأسفل.

Walker, II, no. 846.

ج — المأثورتان في الوسط في الوجه والظهر هي نفسها ولكن دون غصن النخيل
المدار: ضرب بالرملة لله الملك فلس واف

Walker, II, p 255, no. p. 132.

د — غير مؤرخ

في الوسط

لا إله إلا الله وحده

المدار: ضرب هذا (...) بالرملة

Walker, II, no. 855.

هـ — مؤرخ سنة ١١٦هـ

نشره ستیکل^(٤٢) لكنه اعتبره مضروباً في (الرقعة) ووكر وجد أنه مضروب بالرملة
لكن مكان الضرب كتب دون لام أي (الرملة).

Walker, II, p, 259, footnote 2.

و — مؤرخ سنة ١١٧هـ

(٤٣)

Stickel: ZDMG, 1885, p 39. ^(٤٢)

المدار: بسم الله ضرب هذا الفلس
بالرملة سنة سبع عشرة ومئة
(الوجه)

عبد الرحمن فهمي: الموصوعة. الرقم ٩٧٣.

ز — المؤرخ سنة ١١٨هـ —

مثل الفلس السابق: فهي الرقه ٩٧٤، لكن التاريخ ١١٨هـ.

* * *

٨ — صفورية:

تقع قرب طبرية في جند الأردن، وكان اسمها في العهد الروماني SEPHORIS
وضرب فيها النقود، ورد اسمها أيضاً على الفلس الثاني (صفورية).

النمط العربي

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

المدار: بسم الله

ضرب هذا الفلس بصفورية

Walker, II, p. 266, nos. p.135 and 884.

في متحف دمشق مثال جيد (الرقم ع/ ١٥٢١٣)

* * *

(٤٣) نعتي بهذا الخط أن المأثورة الوسطى هي العادية المألوفة ولكن تحتها كلمة أو إشارة، الكلمة هي (يسخ) وهي للاستحسان وتقدير الجودة.

٩ — طبرية:

لعبت طبرية دوراً كبيراً في التاريخ قبل الإسلام وبعده بسبب موقعها الاستراتيجي. ضربت فيها النقود العربية المتأثرة بالنمط البيزنطي في وقت مبكر. أليكم منها ثلاثة أمثلة:

أ — النمط البيزنطي، صورة العاهل البيزنطي^(٤٤) واقفاً:

شخص العاهل مع شعاراته المسيحية

Walker, II, p.11, no. p4, p1. III

ب — النمط البيزنطي صورة العاهل هرقل وولديه

الأشخاص الثلاثة همراكلوس وولده

مع شعاراتهم المسيحية

كالسابق لكن الشارات مختلفة

مع اختلاف وضع الهلال

* (وكرر ٤٨) اللوح ١. Walker, II, p. 15, nos. 43-51.

ج — النمط البيزنطي: صورة العاهل هرقل وولديه مع كلمة (مصري).

الأشخاص الثلاثة

مع شعاراتهم المسيحية

لا ندرى ماذا يقصد بكلمة (مصري) هل ضرب هذا الفلوس في مصر أو أن

ضاربه يحمل نسبة (مصري)؟.

* الفلوس محفوظ في المتحف الوطني بدمشق تحت الرقم ع/ ١٠٤٦٨ (١٩م—م،

٣٠١٨ غ) اللوح ١.

* * *

د — النمط العربي مع صورة رأس كبش ذي قرنين بشكل محور أو تعبير زخرفي:

^(٤٤) من مقارنة الفلوس العربية البيزنطية بالنقود البيزنطية لم يكن الجزم بالشخص المقصود من الأباطرة أن يكون المقصود في التقليد موريس تير يوس (٥٨٢ — ٦٠٢م).

المدار: محمد رسول الله لا إله إلا الله وحده

Walker, II, p. 267, no. p.137.

هـ — النمط العربي مع غصن

ضرب	لا إله
طيرية	إلا الله
	وحده

Walker, II, p. 267, no. p.51

و — فلوس طيرية:

بسم	بسم
لله محمد	لله فلو
رسول	س طبر
لله	ية هـ

Walker, II, p. 267, no.885.

ز — صورة طائر في أعلى الماثورة

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

المدار: بسم الله ضرب هذا الفلوس بطيرية

Walker, II, p. 267, no.886.

يوجد مثل هذا الفلوس ولك عوضاً عن الطائر —————
* متحف دمشق ع/ ١٧٠٩٠ اللوح ١.

ح — غصن نخيل:

محمد	الله أ
رسول	حد الله
الله	الصمد

المدار: بسم الله ضرب هذا الفلّس بطبرية

Walker, II, p. 269, no 898.

ط — أسد رابض مؤرخ سنة ١١٠هـ —

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

(بسم الله ضرب)

بطبرية سنة عشر ومئة (أمر) أمير المؤمنين بالوفا

Walker, II, p.270. no. ANS 42.

* يوجد في متحف دمشق الوطني منه (الرقم ع/ ١٤٨٢٣) ولكن أمر به عبد الله أمير المؤمنين اللوح ١.

ي — ذكر اسم أمير (رستم؟) مؤرخ سنة ١٢٠هـ —

محمد	لا إله
رسول	إلا الله
الله	وحده

بسم الله ضرب بطبرية

عشرين مئة (كذا) أمير رستم؟

Walker, II, p.270, no. Zamb 1.

* * *

١٠ — عسقلان

مدينة ساحلية تقع إلى الشمال من غزة على بعد عشرة أميال منها وقد كانت من جند فلسطين. المدينة القديمة ومشهورة في العهد الروماني وقد ضربت فيها نقود رومانية وكان اسمها ASCALON كتب اسمها على النقود العربية (عسقلان) أ — عسقلان فلسطين

محمد
رسول
اله
ضرب بعسقلن فلسطين
لا إله
إلا الله
وحده
لله الملك، فلس واف

Walker, II, p. 273, no 903.

ب — مثل الفلس السابق ولكن ذكر فيالمدار عسقلن فقط. ولا توجد مأثورة في الوجه.

Walker, II, p.274, no. p.139.

١١ — عكا:

مدينة ساحلية مشهورة بموقعها الحصين. كان اسمها في العهد الكلاسيكي - ACE
PTOLEMAIS وقد ضربت فيها نقود في العهد الروماني.
تعتبر في العهد العربي من جند الأردن. وقد لعبت دوراً كبيراً في العهود الإسلامية
وخاصة في أيام الصليبيين

محمد
رسول
الله
لا إله
إلا الله
وحده

بسم الله ضرب هذا الفلس بعكا

Walker, II, p 274, no.904.

* * *

١٢ — فلسطين:

ورد اسمها مع إيليا سابقاً وورد مع عسقلان وغزة.
أ — النمط العربي المتأثر بالنمط البيزنطي وعليه رسم الخليفة قبل عبد الملك بن
مروان كتب اسمها (فلسطين) كذا. Walker, II, p.25, no. p.5.

نشر أيضاً ووكر تحت الرقم ٧٥ مثله، لكن (فلسطين) إلى اليسار ومن الأعلى إلى الأسفل

ب — النمط العربي مع غصن في المدار:
 محمد لا إله
 رسول إلا الله
 الله وحده
 ضرب بفلسطين الله الملك فلس واف
 توجد أنواع أخرى. Walker, II, p. 276, no.910.
 * * *

١٣ — فلسطين غزة:

تعتبر من جند فلسطين، تقع على الطريق الرئيسي إلى مصر — كان لها مكانة في العهد الكلاسيكي، وضرب فيها النقود في العهد الروماني.
 وردت على الفلوس الأموية مركبة للتدليل على أنها تابعة لجند فلسطين
 محمد لا إله
 رسول إلا الله
 الله وحده
 المدار: ضرب بفلسطين بغزة
 الله الملك فلس واف
 Walker, II, p. 275, no. 908.
 * * *

١٤ — لُد أو اللُد

تقع في الجنوب الشرقي من يافا على طريق القدس، وهي عاصمة فلسطين القديمة، وظلت كذلك في العهد العربي الإسلامي الأول لكنها تنازلت عن مكانها بعد بناء الرملة في العهد الأموي.
 كان لها ماض مهم في العهد الكلاسيكي، وكان اسمها DIOSPOLIS.
 أ — فلسطين بلد

محمد
رسول
الله
المدار: ضرب فلسطين بلد
لا إله
إلا الله
وحده
لله الملك، فلس واف
Walker, II, p. 280, no.924.
ب — كُد:

محمد
رسول
الله
بسم الله ضرب هذا الفلس بلد
Walker, II, o. 280. no.925.

* * *

١٥ — يُبْنَى

تقع بين يافا وعسقلان على الساحل الشامي، ويظن أنها هي التي ضربت فيها
النقود. يوجد مكان في البلقاء بهذا الاسم أيضاً، ورد ذكره في موقعة مؤتة على عهد
الرسول (ص).

محمد
رسول
الله
بسم الله (ضرب هذا الفلس) في يبنى
لا إله
إلا الله
وحده

Walker, II, p. 288, no. th.17.

* * *

النقود المضروبة في فلسطين في العهد العباسي

لاحظنا أن النقود المضروبة في فلسطين في العهد الأموي كانت فلوساً نحاسية فقط، وقد ورد عليها أسماء مدن عديدة في فلسطين، وهي مهمة من الناحية التاريخية والجغرافية ودراسة المسكوكات.

نجد في العهد العباسي دنانير ودرهم وفلوس ضربت في فلسطين

١ — النقود العباسية ضربت في ثلاث فترات:

أ) في الدور الأول ضربت فلوس فقط في فلسطين.

ب) بعد انقراض الدولة الطولونية بين سنتي ٢٩٣ و ٣٣١هـ ضربت دنانير ودرهم.

ج) في أثناء ضعف حكم الدولة الإخشيدية في فلسطين سنة ٣٥٥هـ فقط.

د) بعد دخول الفاطميين إلى فلسطين وضربهم النقود سنة ٣٥٩هـ.

تغلب القرامطة على فلسطين، وقد والوا الخليفة العباسي المطيع لله ثم ضربوها بعد اتفاقهم مع الفتكين التركي، وهذا ضرب نقداً بويهياً سنة ٣٦٧هـ آملاً في التقرب من عضد الدولة.

١ — ذكر على النقود الذهبية والفضية اسم فلسطين وطبرية فقط، لكن الفلوس حملت الأسماء التالية: الرملة، غزة، طبرية.

٣ — الدنانير كثيرة لكن الدرهم والفلوس المعروفة حتى الآن قليلة. سأفصل في المصنف الدنانير عن الدرهم عن الفلوس.

* * *

الدنانير المضروبة في فلسطين

١٦ — ذ — فلسطين — ٣٩٢هـ — المكتفي بالله — مثال
 لله
 لا إله إلا
 محمد
 الله وحده
 رسول
 لا شريك له
 الله
 المدار الداخلي: بسم الله ضرب هذا
 المكتفي بالله
 المدار: محمد رسول الله
 وتسعين ومائتين
 المكتفي بالله
 المدار الخارجي: لله الأمر من قبل ومن بعد
 أرسله المشركون
 يومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله.

Zambour: Wien (NZ, LV, 1922)

* * *

١٧ — ذ — فلسطين — ٢٩٤هـ — المكتفي بالله — ٤ أمثلة^(٤٦)
 لله^(٤٥)
 المكتفي بالله
 يلاحظ حبيبات حول المائورة الوسطى
 المتحف الوطني بدمشق الرقم ع/ ٢٦٧١ (٢٥م، ٤٠٣ غ)

١٨ — ذ — فلسطين — ٢٩٥هـ — المكتفي بالله — ٥ أمثلة^(٤٧)

ذ = ذهب.

^(٤٦) أكتفي بعرض مثال واحد وأشير إلى عدد الأمثلة المعروفة فقط وأذكرها مختصرة في الحاشية
 Zambour: Baghdader. ; Allan (NC, IV. XIX < p.197.).
^(٤٥) النقود العباسية متشابهة من حيث المائورات لذا سأعرضها مختصرة وأقصد بالخط الأفقي (المائورة الوسطية المتكررة) وأذكر ما فوقها وما تحتها، أما مائورات المدار فلن أكررها إلا إذا كان هناك مشاكل أو اختلاف.
^(٤٧) متحف دمشق ع/ ٥٨٨٦. عراقي مهاب ٦٩١٣. زمباور NZ, LV, Baghdader. :
 يكتفي بالإشارة إلى Baghdader. وهو كثر حضر الياس نشره النقشبندي في سومر ١٠ ج ٢.

لله

المكتفي بالله

* متحف قطر الوطني (٢٢م، ٤٠٢٥ غ) — اللوح ٢.

١٩ — ذ — فلسطين — ٢٩٥ — المقتدر بالله — مثالان

فهيمى — ٢٤٦٥ (٢٢م، ٤٠٥١ غ)^(٤٨)

Lavoix, I, no, 1123 (- 3.78).

* * *

٢٠ — ذ — فلسطين ٢٩٦هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة^(٤٩)

* متحف دمشق ع / ٥٣٤٩ (٢٣، ٣٠٤٥) اللوح ٢.

٢١ — ذ — فلسطين — ٢٩٧هـ — المقتدر بالله — مثال

* متحف دمشق ع / ١٥٨١ (٢٤، ٢٠٨٢) اللوح ٢.

٢٢ — ذ — فلسطين — ٢٩٨هـ — المقتدر بالله — ٨ أمثلة^(٥٠)

متحف دمشق ع / ٢٦٩٧ (٤٢، ٤٠١٥)، ع / ٨٨٤ (٢٥، ٣٠٥٤).

* متحف قطر (٢٥، ٣٠٨١) اللوح ٢.

لله

أبو العباس بن أمير المؤمنين

المقتدر بالله

٢٣ — ذ — فلسطين — ٢٩٩هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة

^(٤٨) تذكر المراجع مختصرة سنشير إلى المختصرات في آخر البحث — نقصد بفهمي (عبد الرحمن فهمي، ر =

الرقم، تذكر بين قوسين القطر بالمليحترات والوزن بالغرامات دون ذكر مم، غ فيما بعد. ذ = ذهب.

^(٤٩) Lane Poole, BMC, I, no. 412 (24, 3.65) Zambour: Baghdader..

^(٥٠) Lane Poole: op. cit, no 713 (24., 4.66)' Zambour: op. cit.

عراقي — مهاب ٦٨٩٧، مجموعة الصراف ٢٦٢، السيوفي.

Soret: RNB, IV, 2a serie (1857); Tlesenhäusen: Khallfes..;

Zambour: Baghdader..

* * *

٢٤ — ذ — فلسطين — ٣٠٠هـ — المقتدر بالله

مثالان — عراقي — مهاب ٢٨٩٨ (٢٥، ٣٠١) و. Zambour: Baghdader..

* * *

٢٥ — ذ — فلسطين — ٣٠١هـ — المقتدر بالله — أربعة أمثلة^(٥١)

عراقي (مجموعة الصراف) ٢٥٨ (٢٤، ٣٠١٠).

* * *

٢٦ — ذ — فلسطين — ٣٠٢هـ — المقتدر بالله

مثال وحيد كتر خضر الياس Zambour: Baghdader..

* * *

٢٧ — ذ — فلسطين — ٣٠٣هـ — المقتدر بالله

مثال وحيد: كتر خضر الياس Zambour: Baghdader..

* * *

٢٨ — ذ — فلسطين — ٣٠٤هـ — المقتدر بالله — مثالان

عراقي (مجموعة الصراف) ٢٦٦ (٢٧، ٤٠٣)

كتر خضر الياس Zambour: Baghdader..

* * *

^(٥١) Lane Poole: Calverst's Coll. and Khed. no 678 (13.90).

٢٩ — ذ — فلسطين — ٣٠٥هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة^(٥٢)

Lane Poole: BMC. IX, p.76, no. 413 (26., 4.15)

* * *

٣٠ — ذ — فلسطين — ٣٠٦هـ — المقتدر بالله — ثلاثة أمثلة^(٥٣)

عراقي — مهاب ٦٨٩٩ (٢٥، ٤٠٠)

* * *

٣١ — ذ — فلسطين — ٣٠٧هـ — المقتدر بالله — أربعة أمثلة^(٥٤)

عراقي مهاب ٦٨٧٦ (٢٤.٥ — ٣.٠٥)

* * *

٣٢ — ذ — فلسطين — ٣٠٨هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة

* متحف دمشق ع / ١٨٩٥٩ (٢٥، ٣.٨٨)، متحف قطر (٢٤.٢، ٣.١٧)

اللوحي ٢.

عراقي — مهاب ٦٩٠٢ (٢٣، ٤٠٩)

* * *

٣٣ — ذ — فلسطين — ٣٠٩هـ — المقتدر بالله — ٥ أمثلة^(٥٥)

متحف دمشق ع / ٤٥٢٧ (٢٤، ٤.١٢) اللوحي ٢.

* * *

٣٤ — ذ — فلسطين — ٣١٠هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة^(٥٦)

^(٥٢) السيوفي وكثر خضر الياس.. Zambour: Baghdader.

^(٥٣) السيوفي و Lavoix, I, no. 1124 (- 3.50) BMC. IX, p.76, no 413h (26, 4.21)

^(٥٤) Lane Poole: Khed. no. 642; Rogers: N.c> III

Allan: N.C. XIX, p. 197.

^(٥٥) عراقي — مهاب ٦٨٧٩ (٥٤، ٤.٠٨)، مجموعة الصراف ٢٦٣ (٢٦، ٣.٠٧).

Zambour: Baghdader.. السيوفي وكثر خضر الياس

Lane Poole: BMC. I. no.414 (24., 3,45).

* * *

٣٥ — ذ — فلسطين — ٣١١هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة^(٥٧)
عراقي — مهاب ٦٨٨٠ (٢٤، ٤٠٠)

* * *

٣٦ — ذ — فلسطين — ٣١٢هـ — المقتدر بالله — مثالان
متحف دمشق ع/ ٥٥٠٦ (٢٤، ٣٠٧٢)
الله
٥

المقتدر بالله
أبو العباس بن
أمير المؤمنين

Lane Poole: BMC. I. no. 415 (23., 3.65).

* * *

٣٧ — ذ — فلسطين — ٣١٣هـ — المقتدر بالله — مثالان
السيوفي، كثر خضر الياس
Zambour: Baghdader..

* * *

٣٨ — ذ — فلسطين — ٣١٤هـ — المقتدر بالله — مثالان
* متحف دمشق: ع/ ١٦٠٩ (٢٤، ٢٠٨٠) كالسابق دون حبيبات، اللوح ٢
Zambour: Neue (Wiener NZ, LV)

* * *

^(٥٦) السيوفي وكثر خضر الياس .Ibid

^(٥٧) السيوفي وكثر خضر الياس .Ibid

٣٩ — ذ — فلسطين — ٣١٧هـ — المقتدر بالله — مثالان

السيوفي Laviox< I. no. 1152(- 4.18)

* * *

٤٠ — ذ — فلسطين — ٣١٨هـ — المقتدر بالله — مثال

Zambour: Neue (Wiener, NZ, LV)

* * *

٤١ — ذ — طبرية — ٣١٩هـ — المقتدر بالله — مثالان

* متحف دمشق ع / ٥٣٥٠ (٢٦، ٤٠٩٢) اللوح ٢.

Zambour: Neue (Wiener, NZ, LV)

* * *

٤٢ — ذ — فلسطين — ٣١٩هـ — المقتدر بالله — مثال

Zambour: Neue (Wiener, NZ, LV)

* * *

٤٣ — ذ — فلسطين — ٣٢٠هـ — المقتدر بالله — أربعة أمثلة^(٥٨)

* متحف قطر (٢٥٠١، ٣٠٩٣) اللوح ٢.

متحف دمشق ع / ٥٤٢٠ (٢٥، ٣٠٦٥)

لله

أبو العباس بن
أمير المؤمنين

* * *

المقتدر بالله
عميد الدولة

Vasmer:... Pereyaslago..., Berlin, I^(٥٨)

٤٤ — ذ — فلسطين — ٣٢٢هـ — القاهرة بالله — مثال
السيوفي

* * *

٤٥ — ذ — فلسطين — ٣٢٣هـ — الراضي بالله — مثال
Berlin, I

* * *

٤٦ — ذ — فلسطين — ٣٢٥هـ — الراضي بالله — ٣ أمثلة
Berlin, I; Markov: Inventarny...; Allan (N.C. XIX, p.198).

* * *

٤٧ — ذ — فلسطين — ٣٢٩هـ — الراضي بالله — مثال
Lane Poole: BMC. I, no. 456 (22., 3.25).

* * *

٤٨ — ذ — فلسطين — ٣٥٥هـ — المطيع لله — ٦ أمثلة^(٥٩)
متحف دمشق ع/ ١١٢٩٤ (٢٣، ٤٠١٥) كتبت (- خمس) اللوح ٢.
متحف دمشق ع/ ٢٨٢٥ (٢٣، ٣٠٨٠)
لله

المطيع لله

هذا النقد مهم لأنه يدل على أن العباسيين استعادوا فلسطين من الإخشيديين
بعض الوقت بعد موت علي بن الإخشيد لكن كافور استطاع تسوية الأمر.

^(٥٩) متحف دمشق ع/ (٢٨٢٦)

Lavoix, I, no. 1269 (- 3.50)

Rogers: Dinars Abbasid, p. 32, Tornberg, Symbolae, IV, p.48.

النقود الفضية المضروبة في فلسطين

في العهد العباسي

٤٩ — ف — فلسطين — ٢٩٧هـ — المقتدر بالله — مثال
لله

المقتدر بالله	أبو العباس بن
المدار: محمد رسول الله	أمير المؤمنين
أرسله ... المشركون	١. بسم الله ضرب هذا الدرهم بفلسطين
	سنة سبع وتسعين ومائتين.
	٢. لله الأمر من قبل وبعد...

sednuF refohshcirdeirF :remsaV ١٩٢٨.

* * *

٥٠ — ف — فلسطين — ٣١٧هـ — المقتدر بالله — مثال
متحف دمشق ع/ ٥٢٢٥ (٢٥٠، ٢٥)

٥١ — ف — فلسطين — ٣٢٠هـ — المقتدر بالله — مثال
413h (28, 2.20). on ,v٩,p ,XI .CMB ;I ,nilreB
* * *

٥٢ — ف — فلسطين — ٣٢٢هـ — القاهر بالله — مثال
Berlin, I

* * *

ف = فضة

النقود النحاسية في العهد العباسي

٥٣ ن — الرملة — التاريخ ناقص — الرشيد — مثال

لله

جعفر

وهو جعفر بن يحيى البرمكي، يمكن تقدير تاريخ النقد بين ١٧٦ — ١٨٧ هـ —
فهمني ٧٦٦، ر ٢٧٤٣ (١٨، ٢٠٣٢).

٥٤ ن — الرملة — ٢٠٥ هـ — المأمون — ٤ أمثلة

(....) سرح

المدار: ضرب هذا الفلس بالرملة على يدي بسم الله مما أمر به الأمير سعيد بن

السرح

أبي الزباء []

الأمير سعيد بن السرح حكم الرملة سنة ٢٠٥ هـ، ذكر هذا في كتاب العيون^(٦٠)
* متحف دمشق: ع/ ١٩٢٢ (١٧٠٥، ١٠٩٤) اللوح ٣.

Lavoix, I, no. 1586 (160, 1.70) Zambour: Inventar - Katalog.

مثال لافوا ينقص اسم الضارب (أبي الزباء) فهمني ٢٧٤٤ (الفلس ناقص)

* * *

ن = نحاس

ر = رقم

J. de Goeje et P. de Jong: Fragmenta Historicorum Arabicorum, p.363. ^(٦٠)

أشار إلى ذلك لافوا ص ٤٣٦.

٥٥ — ن — الرملة — ٢١٠هـ — المأمون — مثالان

Tiesenhausen Khalifes... no. 2596

Soret: Letters... a' Dorn, 2, no. 13.

* * *

٥٦ — ن — الرملة — ٢١٧هـ — المأمون — ٦ أمثلة

بخ

بالرملة سنة سبع عشرة ومائتين

Lavoix, I, no. 1587 (18., 2.88)

ب

...

بخ

Lavoix, I, no. 1585 (19., 2.60).

* * *

٥٧ — ن — غزة — ٢١٧هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة

بخ

Miles: RIC, nos. 384- 5 (21-2. 82, 19, 2.67)

Miles: op. cit., no. 386 (21, 2.64)

٥٨ — ن — الرملة — ٢١٨هـ — المقتدر بالله — ٣ أمثلة

بخ

Miles: RIC, nos. 374-5 (20-21, 2.3- 310)

السيوفي: ص ٦٣.

* * *

٥٩ — ن — طرية — ١٨١هـ — هارون الرشيد — مثال
* متحف دمشق ع / ١٦٣٨٤ (٢١، ٤٠٥) اللوح ٣.

عدل
المدار: مما أمر به عبد الله هرون أمير
سنة احدا
المؤمنين نصره الله
(كذا) وثمنين [و] مئة.

* * *

٦٠ — ن — طرية — التاريخ ناقص — ؟
متحف دمشق ع / ١٩٩٨٥ (يجوز أن يكون أموياً) على الأرجح.

الدنانير المضروبة في فلسطين في العهد الطولوني

٦١ — ١ — فلسطين — ٢٧٧هـ — المعتمد على الله — حمارويه بن أحمد —
٨ أمثلة^(٦١)

لا إله إلا الله	الله
محمد رسول الله	محمد
المفوض إلى الله	رسول
	الله
١. بسم الله هذا الدين	المعتمد على الله
	بفلسطين سنة
سبع وسبعين ومائتين	حمارويه بن أحمد

^(٦١) كثر خضر الياس Lavoix, III, p.11, nos. 23-4: Zambour: Baghdader...
السيوفي. Samma: (Al_ Abhath< XXIV, p.26, nos. 1-3).

المدار: محمد رسول الله أرسله ...
... المشركون

* متحف قطر (٢٢٠٨، ٤٠٣٣) اللوح ٣.

* * *

٦٢ — ذ — فلسطين — ٢٧٨هـ — المعتمد على الله — حمارويه بن أحمد —
ه أمثلة

السيوفي، 4-7 = Shamma, 27 (- 4,20) = Lavolx III, no.

فهـ ٢٩٨٣

* * *

٦٣ — ذ — فلسطين — ٢٧٩هـ — المعتضد بالله — حمارويه بن أحمد — ٣
أمثلة^(٦٢)
لله

المعتضد بالله

حمارويه بن أحمد

* متحف قطر (٢٢٠٨، ٤٠٣٣) اللوح ٣

* * *

٦٤ — ذ — فلسطين — ٢٨١هـ — المعتضد بالله — حمارويه بن أحمد — ٤ أمثلة

كتر نخضر الياس Shamma, op. cit, nos. 10-11; Zambour: Baghdader

Istanbul: Sultan Ahmet.

* * *

^(٦٢) Shamma: op. cit, no.9; Bmunc. (23, 4.06) = Grabar, no.55.

٦٥ — ذ — فلسطين — ٢٨٢هـ — المعتضد بالله — خمارويه بن أحمد —

مثالان

Shamma, op. cit., no.13 = ANS (20. 4.03)

Paris, Unc. (22.2. 89)

* * *

٦٦ — ذ — فلسطين — ٢٨٥ — المعتضد بالله — هرون بن خمارويه — ٤

أمثلة^(٦٣)

Lane Poole: BMC. II, no. 228; Rogers: Tuluni, nos. 96-7

ANS. UM = Shamma, no.15 (22., 4-29).

* * *

٦٧ — ذ — فلسطين — ٢٨٧هـ — المعتضد بالله — هرون بن خمارويه — ٣

أمثلة

Istanbul: Sultan Ahmet (22., 3.31) = Shamma, no.22.

السيوفي، كثر خضر الياس

٦٩ — ذ — فلسطين — ٢٩٠هـ — المكتفي بالله — هرون بن خمارويه — ٥

أمثلة^(٦٤)

متحف دمشق (١) ع / ٩٦٤٨ (٢٣.٦، ٤.٢٢)

(٢) ع / ١٥٧٥ (٢١.٥، ٤.١٤)

* متحف قطر (٢٢.١، ٣.١٦) اللوح ٣.

Zambaur: Baghdader.. ; Markov, p. 928, no.136. ^(٦٣) كثر خضر الياس

Istanbul: Sultan Ahmet (21., 3.75) = Shamma, no.21.

Lane - Poole: Khed., p.141. no. 939; Rogers: Tuluni, no. 113. ^(٦٤)

٧٠ - ذ - فلسطين - ٢٩١هـ - المكتفي بالله - هرون بن خمارويه - ٦
أمثلة^(٦٥)

* متحف قطر (٢٢.٤، ٣.٧٢) اللوح ٣.

* * *

الدنانير الإخشيدية المضروبة في فلسطين

٧١ - ذ - فلسطين - ٣٣١هـ - المتقي لله - الإخشيد - ٥ أمثلة^(٦٦)
لله

أبو منصور بن

أمير المؤمنين

المتقي لله

الإخشيد

المدار: محمد رسول الله أرسله.. ١.. بفلسطين سنة حدى (كذا) وثلاثين
وثلاثمائة

٢. لله الأمر...

المشركون

* متحف دمشق ع/ ١٤٧٣٢ (٢٣.٢، ٣.٨٧) اللوح ٣.

ع/ ١٤٧٣٣ (٢٢.٨، ٣.٥٤)

ع/ ٢٠١٦ (٢٤.٣، ٢.٩٤)

٧٢ - ذ - فلسطين - ٣٣٢هـ - المتقي لله - الإخشيد - ٩ أمثلة^(٦٧)

متحف دمشق ع/ ٧٠٧٧ (٨.٢٢، ٤.١)

متحف قطر (٢٥.٥، ٤.٥٣)

^(٦٥) Shamma, no.26; ANS- UM (22., 3.63); Markov p.49.

Zambaur (Wiener NZ, LV, p.9); Forter (N.C. 5th Series, p. 324).

^(٦٦) Shamma, 2 (Al- Abhath, AUB, XXII, 3-4) -ANS (24., 2-38) Nassar: PAM, III, 12=

Shamma,3.

^(٦٧) Lane - Poole; BMC. IX, no. 230t, Idem: Khed. no. 937

السيوطي، مجموعة خاصة (22., 2-55) Lavoix. III, no. 48

النقشبندى (سومر م٣، ج٢) ص٢٧٩ مغلان.

٧٣ — ذ — فلسطين — ٣٣٣هـ — المتقي لله — الإخشيد — ٩ أمثلة^(٦٨)
متحف دمشق ع/ ١٦١٠ (٢٣.٥، ٣.٩٠)
ع/ ٢٨٢٠ (٢٢.٢، ٥.٣١)

* * *

٧٤ — ذ — فلسطين — ٣٣٤هـ — المستكفي بالله — الإخشيد — مثال
* متحف دمشق ع/ ١٠٢٩٥ (٢٣.٣، ٣.٩٠) اللوح ٣.

* * *

٧٥ — ذ — فلسطين — ٣٣٥هـ — المطيع لله — الإخشيد — مثال
لله

المطيع لله

الإخشيد

متحف دمشق ع/ ١٣٥٢ (٢٢.٦، ٤.٥٣)

* * *

٧٦ — ذ — فلسطين — ٣٣٥هـ — المطيع لله — أبو القسم بن الإخشيد —
١٨ مثالا^(٦٩)
أ — لله

^(٦٨) الصراف (٤٥٣)

Lane- Poole: BMC. II, nos. 231 and 232; Lavoix. III, no.49.

النقشبندی: سومر ٢/٣ ص ٢٧٩، مجموعة خاصة.

^(٦٩) متحف دمشق ٤ أمثلة أخرى متنوعة

Zambaur: Inventar- Katalog

Paris Unc. (23., 4-58)

شما ٣٠-٣٤ وغيره كثير BMC. IX, no232

المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد

متحف دمشق ع/ ١٦١٢
ب — . لله .

صلى الله عليه
المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد
متحف دمشق ع/ ٢٨٢١ (٢٣، ٤٠١٩)، متحف قطر (٢٣.٢، ٣٠٨٥)
اللو ح ٣.

* * *

٧٧ — ذ — فلسطين — ٣٣٦هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال
لله

المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد

Lane-Poole: Khed., no.938.

٧٨ — ذ — فلسطين — ٣٣٧هـ — المطيع لله — أبو القسم — ٤٣ مثالاً^(٧٠)
متحف دمشق ع/ ١٤٣٧٥ (٢١، ٤٠٠٣)
لله
و

المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد

^(٧٠) شما ٤٩ - ٥٥، ٦٠ النقشبندی، السيوطي، مجموعة خاصة. فهمي ٣٠١٨ (دون زخرف)
ANS; BMC, II, no.233; Khed. nos. 339-40; Lavoix, III, 51-2; AUB; Wien, no. 7815...

* متحف قطر (نصف عيار) (٢٠، ٢٠٤٣)

* * *

٧٩ — ذ — فلسطين — ٣٣٩هـ — المطيع لله — أبو القسم — ٦ أمثلة^(٧١)
لله

صلى الله عليه
المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد
* متحف قطر (٢٢.٢، ٣.٣٠) اللوح ٤.
متحف دمشق ع/ ٣٧٩٩ (٢٢.٢، ٣.٨٥) بفلسطين (كذا)
لله

صلى الله عليه
المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد
شما ٧٦ (٢٢، ٣.٥٧)
لله

صلى الله عليه
المطيع لله
أبو القسم بن
الإخشيد
* * *

٨٠ — ذ — فلسطين — ٣٤٠هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان

Gagarine: Weyl Coll. no. 426; Private Coll.

* * *

٨١ — ذ — فلسطين — ٣٤١هـ — المطيع لله — أبو القسم — ٨ أمثلة^(٧٢)

^(٧١) النقشبندي (22., 3.57) ANS; BM unc.

متحف دمشق ع/ ٧٠٠٩ (٢٠٠٥، ٢٠٢٣) لا توجد زخارف
ع/ ١٦٩٣٦ (٢٣، ٣٠٣) لا توجد زخارف
* متحف قطر (٢٤، ٣٠٥٠) اللوح ٤.

* * *

٨٢ — ذ — فلسطين — ٣٤٢هـ — المطيع لله — أبو القسم — ٣ أمثلة^(٧٣)
متحف دمشق ع/ ١٤٧٤٠ (٢٣٠٥، ٤٠٨٦٠).

* * *

٨٣ — ذ — فلسطين — ٣٤٣هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال
السيوفي

* * *

٨٤ — ذ — فلسطين — ٣٤٥هـ — المطيع لله — أبو القسم — ٢٠ مثال^(٧٤)
متحف دمشق ع/ ١١٣٠٢ (٢٢، ٣٠٩٤) دون زخرفة
ع/ ١٤٧٤١ (٢٣٠٥، ٤٠٥٢) دون زخرفة.
* متحف قطر (٢٣، ٣٠٥٨) اللوح ٤.

* * *

٨٥ — ذ — فلسطين — ٣٤٦هـ — المطيع لله — أبو القسم — ١٤ مثال^(٧٥)

^(٧٢) Lane- Poole: Khed, no. 971; BM unc. (27., 3.81)

ANS; Shamma, no. 90; Wien, no. 7868.

Tiesenhausen {RNB (1875), no.145} ^(٧٣)

Zambaur: Neue (Wiener NZ, LV).

BMC, II, no.235; Lavoix, III, nos. 53-4 (3.70 et 3.40) ^(٧٤)

ANS = Shamma, 105; BM unc. (23., 4.50) = Shamma, 99; Shamma, 106 (22., 4.68);

Blau et Stickel, no. 51.

^(٧٥) متحف دمشق ثلاث أمثلة أخرى، النقشبندي، فهمي ٣٠١٩ (٢٣، ٣٠٠٣)

Tiesenhausen (RNB, XXXI, no.146); Markov: Inventarny..

Casanova: Prencessa Ismail: Gagarine, no.427; Balog Coll., Shamma, 116 (23., 3.15).

متحف دمشق ع / ١٤٧٤٣ (٣.٨٦، ٢٣)
* متحف قطر (٣.٣٤، ٢٢.٦) اللوح ٤.

* * *

٨٦ — ذ — فلسطين — ٣٤٧هـ — المطيع لله — أبو القسم — ٧ أمثلة^(٧٦)
متحف دمشق ع / ١٤٧٤٦ (٣.٠٨، ٢١)

* * *

٨٧ — ذ — فلسطين — ٣٤٩هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال
لله

المطيع لله
أبو القسم بن
أمير المؤمنين
* متحف قطر (٣.٩٥، ٢٣) اللوح ٤.

* * *

٨٨ — ذ — فلسطين — ٣٥٠هـ — المطيع لله — علي الإخشيد — ١٠
أمثلة^(٧٧)
لله

صلى الله عليه
وعلى آله
المطيع لله

متحف دمشق: ع / ١٤٧٤٨ (٣.٧٨، ٢٢)

^(٧٦) متحف دمشق مثالان آخران

Lavoix, III, no.55 (, 3.45)

Teisenhauesn: (RNB, XXXI, no.147; Johnston: Catalogue... 1906; Gotha-Schluman, no.1006.

^(٧٧) متحف دمشق يوجد أربعة أمثلة أخرى، فهي ٣٠٤٢ (٢٢، ٤.٧٥)، مجموعة خاصة.

ANS = Shamma, 138, Lane - Poole; Khed., no.943 (4.15). Lavoix. III, no.57 (3.18).

٨٩ — ذ — فلسطين — ٣٥١هـ — المطيع لله — علي ابن الإخشيد — ٩
أمثلة^(٧٨) متحف دمشق ع / ٧٠٩٥ (٢٢، ٣٠٣)، ع / ٢٨٢٣ (٢٢، ١٧٣) = مثل
الرقم ٨٨.

* * *

٩٠ — ذ — فلسطين — ٣٥٣هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد — ١٧
مثالاً^(٧٩)

متحف دمشق ع / ١٦١٣ (٢٤٤، ٧٠٣) ع / ١٦١٤ (٢٤٤، ٤٢٣)
متحف قطر (٢٤، ٦٥٣)

* * *

٩١ — ذ — فلسطين — ٣٥٤هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد — مثالان
Castiglione: Milano..., Soert: (RNB, IV, 2e serie, p.59)

* * *

٩٢ — ذ — فلسطين — ٣٥٥هـ — المطيع لله — كافور — ٧ أمثلة
لله

صلى الله عليه
على آله
المطيع لله

Lane- Poole: Khed. nos. 945-6; Lavoix, III, no.58 (, 3.50)

(٧٨)

Tiesenhausen: RNB, XXXI, no.149: Gagarine, no429.

الصراف ٤٢٥ (٢٤، ٣٠٢)، بغداد ٤٥٥ (٢٤، ٣٢٠).

(٧٩) النقشبندی، السيوفي، شما ١٦١ (٢٢، ٨٦٣)

Lavoix, III nos. 59-61. BMC, II, 237; Khed. no. 947; Markov, no.5, Gagarine, no430...

يلاحظ أن الدينار الإخشيدى المضروب سنة ٢٥٥هـ خال من اسم الأمير الإخشيدى، لكنه يحمل الحرف كـ، وهو مذكور على دنانير أبي القاسم وعلي بن الإخشيد سابقاً. هذا الحرف يرمز^(٨١) إلى الحاكم الحقيقى وهو كافور الإخشيدى. وقد كان الحكم بيده بعد موت الإخشيدى لأن ولدى الإخشيد أبا القاسم وعلياً كانا صغيري السن، وقد ماتا ميتة بشعة. وبعد موت علي سعى كافور الإخشيدى لدى الخليفة، فاعترف به أن يكون صاحب مصر: لكنه لم يحكم إلا سنتين: ٣٥٥ و ٣٥٦هـ ومات^(٨١).

ألفت النظر هنا إلى أنه يوجد دنانير عباسية مضروبة في فلسطين سنة ٣٥٥هـ — وقد ذكرتها تحت الرقم ٤٨ من هذا المصنف. يعنى هذا تدخل الدولة المركزية في فلسطين لشعورها بضعف الدولة الإخشيدية، وخاصة بعد موت علي بن الإخشيد وشغور منصب الإمارة، لكن يبدو أن كافوراً استطاع أن يطمئن أصحاب الأمر في بغداد (وهم الخليفة وونوبويه) وثبت مركزه في مصر وفلسطين.

إليك الدنانير الإخشيدية المضروبة سنة ٣٥٥هـ^(٨٢)
متحف دمشق ع/ ٤٤٨٧ (٣.٧٦، ٢٢.٣)

* * *

٩٣ — ذ — فلسطين — ٣٥٨هـ — المطيع لله — أحمد بن علي والحسين بن عبيد الله — ١١ مثلاً^(٨٣)
أ — لله لا إله إلا الله

^(٨٠) من الجدير بالذكر أن اسم الأستاذ كافور ظهر كاملاً على فلس لا يحمل مكان الضرب ولا التاريخ فهى ٣٠٤٥ وقد ظهر اسمه أيضاً على دينار وحيد في (مدينة رسول الله) سنة مجلة سمر شما: مجلة العربي العدد ٢٣٢ ص ١٢٠.

^(٨١) ابن الأثير: ج ٨ ص ١٩٢ ذكر موته سنة ٣٥٦هـ.

^(٨٢) Lane- Poole: Khed. no. 949; Idem: BMC. II, no.239; ANS;

Nassar: QDAP XIII (PAM. H. 19.40); AUB, no.c. 8761;

^(٨٣) Lavoix, III, no.63, no.64; Zambaur: Inventar- Katalog: Tiesenhausen, no.150; Wien,

no,7866; BM unc. (24., 2.78); ANS; Balog Coll.

محمد
رسول الله صلى
الله عليه وعلى آله
المطيع لله
أحمد بن علي
متحف دمشق ع/ ١٥٧٦٩ (٢٢، ٥٠٠٥)

ب —
طفج

متحف دمشق ع/ ٢٨٢٤ (٢٤٠٣، ٤٥، ٤٠).

بعد موت كافور تولى الحكم أبو الفوارس أحمد بن علي وكان عمره إحدى عشرة سنة وكان الوصي الحسين بن عبيد الله الإخشيدى. وقد وضعت كلمة (طفج) في أسفل الكتابة الوسطى من الظهر للدلالة على جد الأسرة الحاكمة. لم يكن الحكم مستقراً في مصر، فقد اضطربت الأمور بعد موت كافور وشحت السع، وارتفع سعر الخبز ارتفاعاً كبيراً... وكانت هذه الحالة هيء ظرفاً ملائماً لتدخل الفاطميين.

* * *

الدرهم الإخشيدى في العهد العباسي

ضرب الإخشيدى محمد بن طفج قبل سنة ٣٣١هـ دراهم بعضها يحمل مكان الضرب (مصر)، وبعضها غفل منه وهي: مصر ٣٢٤هـ^(٨٥)، مصر ٨ [٣٢]هـ وهو يمثل الحاكم على عرشه^(٨٦)، ٣٢هـ^(٨٧) (الأمير الإخشيد، محمد بن طفج)، ٣٢٩

^(٨٤) لا أدري لماذا يذكر الدكتور فهمي عبد الرحمن اسمه (الحسن بن عبيد الله) ص ١٨٤ مع أن كلمة (الحسين) واضحة على النقود.

^(٨٥) Bacharach and Shamma (RN, t. XVII (1975): p.140. no.1).

^(٨٦) محمد أبو الفرج العشي. Traces.. مجلة الحوليات الأثرية العربية السورية ٢٣ ص ٣١١. الصورة ٤٧أ.

^(٨٧) Lavois, III, p. 22, no.50.

(محمد شكر؟ الإخشيد يشكر)^(٨٨). هذه الدراهم فريدة وهامة وهي تختلف بمأثوراتها عن الدراهم النظامية التي سكت حسب النمط العباسي منذ سنة ٣٣١هـ، وهي تخلو من اسم الخليفة. ترى، هل كان الإخشيد يترع إلى الاستقلال الحقيقي في تلك الفترة ٣٢٣ — ٣٣١هـ التي أثبت بها كفاءته في صد الهجوم الفاطمي على مصر؟^(٨٩) أو لأنه لم يتلق الإمارة من الخليفة رسمياً.

٩٤ — ف — فلسطين — ٣٣١هـ — المتقي لله — الإخشيد — مثال
 لله
 لا إله إلا
 محمد
 رسول الله
 أبو منصور بن
 المتقي لله
 الإخشيد
 أمير المؤمنين

المدارات: المأثورات المعروفة

NASSAR, PAM, no.111.12 = Shamma.3.

* * *

٩٥ — ف — فلسطين — ٣٣٢هـ — المتقي لله — الإخشيد — ٥ أمثلة^(٩٠)
 متحف دمشق ع/ ٢٠١٦ (٢٤٠.٣، ٢٠٩٤)

* * *

٩٦ — ف — فلسطين — ٣٣٣هـ — المتقي لله — الإخشيد — مثال

Lavoix, III. no.49.

* * *

^(٨٨) متحف دمشق ع/ ١٣٢٩ (٢٠، ٣٠٢٨).

^(٨٩) يلاحظ على الدرهمين الأولين المضروبين في سنتي ٣٢٤ و ٣٢٨ أنهما خاليان من لقب (الإخشيد) الذي يذكر بعراقة أصل محمد بن طغج التركي في ما وراء النهر.

^(٩٠) Nassar, PAM. no.111.13; AUB; ANS; ULLA: Shm. 23242 Go.

٩٧ — ف — فلسطين — ٣٣٤هـ — المستكفي بالله — الإخشيد — ٣ — أمثلة^(٩١)

لله
محمد
رسول الله
المستكفي بالله
الإخشيد
لا إله إلا
الله وحده
لا شريك له

* * *

٩٨ — ف — طبرية — ٣٣٥هـ — المطيع لله — أبو القسم بن الإخشيد — مثال

Nassar: PAM, 111.20.

* * *

٩٩ — ف — فلسطين — ٣٣٥هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال

Paris unc. (27., 4.45) = Shamma. 39.

* * *

١٠٠ — ف — طبرية — ٣٣٦هـ — المطيع له — أبو القسم — ٣ أمثلة

BM. unc. (25., 3.14); Paris unc. (25., 2.64); ANS unc. (25., 3.12) =

Shamma, 43-45.

* * *

١٠١ — ف — فلسطين — ٣٣٦هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال

لله
محمد
لا إله إلا
الله وحده

Nassar, PAM, no. H.19.15; ULLA, Shm. %^(٩١) Go; AUB.

رسول الله
صلى الله عليه
وعلى آله
المطيع لله

لا شريك له
أبو القسم بن
الإحشيد

ANS. unc. (29., 3.39) = Shamma, 42.

* * *

١٠٢ — طبرية — ٣٣٧هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان

Nassar: PAM, no. 111.32 = Shamma, 70.

Tegner, p. 109 = Shamma, 17.

* * *

١٠٣ — ف — فلسطين — ٣٣٧هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان
لم يذكر علي (وعلى آله)

متحف دمشق ع/ ١١٠٢٥ (٢٩، ٣٠٤٥).

Lavoix, III, no.56 (23., 4.00) = Shamma, 69.

* * *

١٠٤ — ف — طبرية — ٣٣٨هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال

Nassar: PAM, no. 111.23 = Shamma, 72.

* * *

١٠٥ — ف — فلسطين — ٩ (٣/٤) ٣هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال
متحف دمشق ع/ ١١٠٠١ (٢٨، ٣٠٢١)

* * *

١٠٦ — ف — طبرية — ٣٤٠هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال

Lemiere = Shamma, 83.

* * *

١٠٧ — ف — فلسطين — ٣٤٠هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان^(٩٢)

ANS unc. (24., 2.38) = Shamma, 81.

ULLA: Shm. 6203 Go = Shamma, 82.

* * *

١٠٨ — ف — طبرية — ٣٤١هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان
متحف دمشق ع/ ١٠٩٧٠ (٢٨، ٣.٨٠٥) = سنة أحد وأربعمائة وثلاث

شماثة. Tegner, p.109 = Shamma, 93.

* * *

١٠٩ — ف — فلسطين — ٣٤١هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان
متحف دمشق ع/ ١٠٩٩٥ (٢٧، ٣.٦١) سنة ١ [٤]هـ

ANS unc. (23., 2.48) = Shamma, 92.

* * *

١١٠ — ف — فلسطين — ٣٤٤هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان
متحف دمشق ع/ ١٠٩٧٥ (٢٦، ٢.١٨)

* * *

١١١ — ف — فلسطين — ٣٤٥هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان
متحف دمشق ع/ ١٠٩٦٧ (٢٤، ٣.٣٨)

Anderson, no.336 = Shamma, 109.

* * *

١١٢ — ف — فلسطين — ٣٤٦هـ — المطيع لله — أبو القسم — ٤ أمثلة^(٩٣)

^(٩٢) على هذا النحو رسمها الأستاذ سمير شما أعتقد أنها وهي (ص)

^(٩٣) متحف دمشق ع/ ١٠٩٧١ (٢٤، ٢.٨٥)

AUB. ULLA. Shm. 8503; Blek = Shamma, 122.

متحف دمشق ع/ ١٠٩٩٣ (٢٨، ٣٠٧١).

* * *

١١٣ — ف — فلسطين — ٩ [٤] ٣هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال

متحف دمشق ع/ ١١٠٠١ (٢٨، ٣٠٢١)

* * *

١١٤ — ف — طبرية — (٩) ٣٤هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثالان

متحف دمشق ع/ ١١٠١٠ (٢٦، ٢٠٨١)

ع/ ١٤٤٠٣ (٢٧، ٢٠٥٣) التاريخ غير مقروء، ولكن يلاحظ اللقب (أنوجور)
على مأثورة الوجه

أبو القسم أنوجور

بن الإخشيد

* * *

١١٥ — ف — فلسطين — (٩) ٣٤هـ — المطيع لله — أبو القسم — مثال

متحف دمشق ع/ ١١٠٩٩٢ (٢٦٠٥)

* * *

١١٦ — ف — فلسطين — ٣٥٠هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد —

مثال

علي بن الإخشيد

وعلى آله

المطيع لله

يلاحظ طوال حكم علي بن الإخشيد ظهور الحرف (كـ) للدلالة على
الحاكم المستبد كافور الإخشيد

Naasar. PAM, no. H. 19.29 = Shamma, 141.

١١٧ — ف — فلسطين — ٣٥١هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد — ٤
أمثلة.

متحف دمشق ع/ ١١٤ (٢٤، ٣٠١٥)
ع/ ١٠٩٦٩ (٢٦، ٢٠٨٠)
ع/ ١١١٥١ (٥، ٣٠٢٧) التريخ ١ [٣٥]هـ
لله

_____ لله
_____ ك
_____ ك
_____ .

AMS. unc = Shamma, 150.

* * *

١١٨ — ف — فلسطين — ٣٥٢هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد —
مثالان^(٩٤)

متحف دمشق ع/ ١٨٠٠٥ (٢٣.٥)

Tegner, p.110 = Shamma, 153.

* * *

١١٩ — ف — طرية — ٣٥٣هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد — مثالان

BM unc. (25., 3.18) = Shamma, 175.

ANS unc. (24., 2.65) = Shamma, 176.

* * *

١٢٠ — ف — فلسطين — ٣٥٣هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد — ١٠
أمثلة^(٩٥)

^(٩٤) صحح الأستاذ سمير شما التاريخ فجعله ٣٥٢هـ بعد أن كان ٣٥٥هـ خطأ.

متحف دمشق ع/ ١١٠١٥ (٢٥، ٣٠٧)
لله

ك

BMC, II, no.238 = Shamma, 169.

* * *

١٢١ — ف — فلسطين — ٣٥٤هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد —

مثال

AUB = Shamma, 179.

* * *

١٢٢ — ف — فلسطين — ٣٥٥هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد —

مثالان

AUB, c. 8763 (21., 1.66)

نصف درهم = Shamma, 188.

Lane- Poole: BMC. II, no.239 (23., 4.65)

* * *

١٢٣ — ف — طبرية — ٣٥هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد — مثال

متحف دمشق ع/ ١٤٤٠٨ (٢٥، ٢٠٦١)

* * *

Tornberg: Symbolae, IV, 148; Blau: Nachlese, p.26; ^(٩٥)

ANS unc. (25., 3.41) = Shamma, 172; BM unc. (25,3,06) + Shamma, 170.

متحف دمشق أربعة أمثلة أخرى.

١٢٤ — ف — فلسطين — ٣٥هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد —

مثالان

Copenhagen Mus. (25., 2.90) = Sh.191.

AUB. = Sh. 208.

* * *

١٢٥ — ف — فلسطين — ٣٥٧هـ — المطيع لله — علي بن الإخشيد —

مثال

لا إله إلا	لله
الله وحده	محمد
لا شريك له	رسول الله صلى
الحسين	الله عليه وعلى آله
بن عبيد الله	المطيع لله
(زخرفة)	أحمد بن علي
	طغج

في موضع الزخرفة كان كافور يضع رمز اسمه كـ. خلو الدرهم المؤرخ ٣٥٧هـ من رمزه يدل على أن كافوراً كان قد مات. وهذا يثبت ما ذهب إليه ابن الأثير أن كافوراً مات سنة ٣٥٦هـ خلافاً لما هو مذكور في مراجع أخرى (أنظر الحاشية ٨١ من هذا البحث وما يتعلق بها).

Nassar, PAM, H. 19.42 = Shamma, 190.

* * *

١٢٦ — ف — فلسطين — ٣٥٨هـ — المطيع لله — أحمد بن علي — ٤

أمثلة^(٩٦)

ANS unc = Shamma, 204; Nassar: PAM, H. 19.43 = Sh.204. ^(٩٦)

لله

المطيع لله
أحمد بن علي
الحسين
بن عبيد الله
متحف دمشق ع/ ١٠٩٣٣ (٢٦، ٢٠٩٠)
لله

المطيع لله
أحمد بن علي
الحسين
بن عبيد الله
طغج
متحف دمشق ع/ ٢٧٥٣ (٢٦.٥، ٣.٧).

* * *

النقود العباسية الحمدانية المضروبة في فلسطين

في أثناء الحكم الإخشيدي وفي أول عهده، ضربت النقود الإخشيدية في فلسطين منذ سنة ٣٣١هـ — كما مر معنا — العجب أن يضرب درهم عباسي في فلسطين سنة ٣٣١هـ في الوقت الذي كان يشغل به الزعيمان الأخوان الحمدانيان ناصر الدولة أبو محمد وسيف الدولة أبو الحسن منصب أمير الأمراء في بغداد.

أنا في الواقع أعد النقود التي ضربها ناصر الدولة وسيف الدولة نقوداً عباسية، إلا أن الأمر يختلف عندما يكون الضرب في فلسطين. ذلك لأن سيف الدولة أمير حلب كان يتمنى من كل قلبه أن يستولي على كل بلاد الشام، وقد حاول مراراً، ودخل دمشق وفلسطين، لكنه لم يستقر بسبب مشاغله في مجاهدة الروم البيزنطيين، لذا اعتبر هذا الدرهم هاماً جداً.

١٢٦ — ف — فلسطين — ٣٣١هـ — المستكفي — ناصر الدولة وسيف

الدولة — مثال

لا إله إلا الله

الله

وحده لا شريك له

محمد رسول الله

سيف الدولة

صلى الله عليه وسلم

أبو الحسن

المستكفي بالله إمام الحق

ناصر الدولة أبو محمد

.. بفلسطين (كذا) سنة إحدى

المدار: محمد رسول الله أرسله

وثلاثين وثلاثمائة

Lane - Poole: BMC. 111, p.5, no.6 (26., 3.36).

* * *

نقود القرامطة المضروبة في فلسطين

عاشت بلاد الشام، وخاصة فلسطين، فترة من الاضطراب العنيف في أثناء الغزو الفاطمي لمصر والشام، وأصبحت مطعماً لكل طامع بين ٣٥٨ و ٣٦٧هـ. كان والي الشام وفلسطين الحسن بن عبد الله بن طغج الإخشيدي. عندما سقطت مصر بيد الفاطميين حالو المقاومة، فجعل مقره الرملة استعداداً لملاقاة الفاطميين. لما سافر جوهر الصقلي بمصر^(٩٧) وثبت قدميه سير جعفر بن فلاح الكتامي إلى الشام في جمع كبير فيبلغ الرملة وبها أبو محمد الحسن بن عبد الله بن طغج. تغلب عليه جعفر وأسره مع غيره من القواد، فسيرهم إلى جوهر، وسيرهم جوهر إلى المعز بأفريقية ودخل ابن فلاح البلد عنوة.. وسار إلى طبرية فرأى ابن ملهم قد أقام فيها الدعوة للمعز لدين الله فسار عنها إلى دمشق فقاتله أهلها، ولم تهدأ دمشق إلا بعد صراع طويل.

^(٩٧) ابن الأثير ج ٨ ص ١٩٤ و ١٩٥.

كان الحسن بن عبد الله بن طغج، قد تعهد لقرامطة البحرين بدفع مبلغ سنوي قدره ثلاثمائة ألف دينار، فلما ملكها جعفر، وعلموا أن المال يفوتهم^(٩٨) فعزموا على قصد الشام، وصاحبهم حينئذ الحسن بن أحمد بن بهرام القرمطي، فأرسل إلى عز الدولة بختيار (البويهى صاحب الأمر في بغداد) يطلب منه المساعدة بالسلاح والمال فأجابته إلى ذلك. وساروا إلى دمشق سنة ٣٦٠هـ فاستهان بهم جعفر بن فلاح فلم يشعر بهم حتى كبسوه بظاهر دمشق وقتلوه وأخذوا ماله وسلاحه ودوابه وملكوا دمشق وأمنوا أهلها، وساروا إلى الرملة واستولوا على جميع ما بينهما^(٩٩)...

ظل القرامطة في دمشق وفلسطين ما بين ٣٦٠ و ٣٦٣هـ وضربوا النقود في السنتين ٣٦١ و ٣٦٢هـ. حاول القرامطة الاستيلاء على مصر سنة ٣٦٣هـ متفقين مع بعض القبائل العربية البدوية لكنهم أخفقوا وانسحب الحسن بن أحمد القرمطي إلى بلاده ودخل الفاطميون فلسطين ودمشق وضربوا النقود سنة ٣٦٤هـ، لكنهم أساءوا معاملة أهل دمشق فالتفوا هؤلاء حول قائد تركي اسمه (الفتكين) كان لجأ إلى بلاد الشلم بعد الاضطراب العنيف الذي حصل في العراق بين آل بويه (بين بختيار وعضد الدولة) — تعاهد الفتكين مع أعيان دمشق على النصر والحماية فاستطاع الفتكين طرد الفاطميين مستعيناً بالحسن بن أحمد القرمطي، وبقيت سيادتهم إلى سنة ٣٦٧هـ. يبدو أن الفتكين ضرب ديناراً بويهياً في فلسطين ليطمئن عضد الدولة على موالاته. لكنه في السنة نفسها سنة ٣٦٧هـ انحاز إلى الخليفة الفاطمي العزيز بالله بعد أن تضعضع موقفه^(٩٩).

يبدو أن الحسن بن أحمد القرمطي كان طامعاً بدمشق وفلسطين قبل الغزو الفاطمي سجل زيباور ديناراً قرمطياً ضرب في فلسطين سنة ٣٥٧هـ وهو

١٢٧ — د — فلسطين — ٣٥٧هـ

Zambaur: Neue (Wiener NZ, LV)

^(٩٨) المرجع نفسه ص ٢٠٣ ذكر اسم الزعيم القرمطي (الحسين) بينما هو على النقود الحسن.

^(٩٩) يوجد درهم قرمطي ضرب بدمشق سنة ٣٦٠هـ سأنشره في بحث "دمشق على النقود العربية الإسلامية" إن شاء الله.

^(٩٩) ابن الأثير ج ٨ ص ٢١٧ — ٢١٩.

لم نستطع حالياً الاطلاع على البحث لنعطي وصفاً لهذا الدينار وإنما أشار إليه
 زمباور في كتاب: Die Munzpragnugen des Islam.
 وهو دينار هام يدل على ما ذكره ابن الأثير من أن الحسن القرمطي كان متفقاً
 مع الحسن الإخشيدي صاحب دمشق وفلسطين على جعل سنوي يؤدي إليه قبل الغزو
 الفاطمي.

* * *

١٢٨ — ذ — فلسطين — ٣٦١هـ — المطيع لله — الحسن بن أحمد — ٥
 أمثلة^(١٠٠)

لا إله إلا الله	لله
وحده	محمد رسول الله
لا شريك له	صلى الله عليه
السادة	وعلى آله
الرؤسا	المطيع لله
	الحسن بن أحمد

المدار محمد رسول الله أرسله .. المشركون . بفلسطين سنة إحدى وستين
 وثلاثمائة

متحف دمشق ع/ ١٤٧٨ (٢١٠٥، ٣٠٥٢)
 متحف قطر (٢٣، ٤٠١٧)
 يلاحظ لقب (السادة الرؤسا) الذي يدل على أن الحسن بن أحمد كان يحكم من
 خلال مجلس الثورة.

١٢٩ — ذ — فلسطين — ٣٦٢^(١٠١)هـ — المطيع لله — الحسن بن أحمد —
 مثالان

^(١٠٠) Blau: (Wiener, NZ. VI- VII); Lane - Poole: Khed., p.337;

Zmabaur: Neue (Wiener NZ, LV)

^(١٠١) سجل زمباور درهماً ضرب في فلسطين سنة ٣٦٢هـ من المؤكد أنه قرمطي

Zambaur: Inventar - Katalog.... (مخطوطة)

لله

المطيع لله
الحسن بن أحمد
السيد
الرئيس
يبدو أن سلطة الحسن بن أحمد قد تزايدت حتى وضع لقباً مفرداً.
متحف دمشق ع/ ١٥٧٧١ (٢١، ٤٠٣٧)
Lane- Poole: Khed. p.337.

* * *

١٣٠ — ذ — فلسطين — ٣٦٥هـ — الطابع لله — ٤ أمثلة

Rogers: Dinars of Abbased..;

Vasmar and Zograph:

Dr. Otto Blau Coll. Munzforscher, p.140;

Zambaur: Neue (Wiener NZ, LV);

Blau and Sticke! (ZDMG, XI, p.450, no.18).

* * *

١٣١ — ذ — فلسطين — ٣٦٦هـ

يوجد الدينار في مجموعة المكتبة الأهلية في باريس ذكر في مخطوطة محفوظة ليس
لدينا حالياً وصفاً له.

* * *

١٣٢ — ف — فلسطين — ٣٦٧هـ

أشار زمباور Die Munzprägungen des Islam إلى أحمد ظيا الذي ذكر هذا
الدرهم، لم نستطع أن نعثر على المرجع للتأكد منه.

* * *

دينار بويهى

١٣٣ — د — فلسطين — ٣٦٧هـ

ذكر هذا الدينار زمباور Die Munzprägungen des Islam لكنه لم يشر إلى المرجع. ليس من المعروف حتى الآن أي نقد بويهى ضرب في بلاد الشام أو فلسطين، لكنه لا نستغرب أن يضرب الفتكين التركي هذا الدينار لإظهار موالاته إلى عضد الولة.

* * *

الدلائير* الفاطمية المضروبة في فلسطين

كل النقود الفاطمية المعروفة هي من الذهب ما عدا قطعة واحدة فضية مضروبة في طبرية سنة ٣٧٤هـ. الدراهم الفضية نادرة جداً في المشرق. وكذا الفلوس النحاسية، إلا أن الدراهم وافرة في المغرب.

كما أئحنا إلى دخول الجيش الفاطمي بقيادة جعفر بن فلاح الكتامي واستلائه على فلسطين ودمشق ٣٥٩هـ، لكن الفاطميين اضطروا إلى إخلائها تحت ضغط القرامطة برهة من الزمن.

سأعرض هذه النقود تبعاً للتسلسل الزمني:

١٣٤ — ذ — فلسطين — ٣٥٩هـ — المعز لدين الله — ٤ أمثلة^(١٠٢)

وضعت المآثورات في ثلاثة مدارات نبدأ بالداخلي وهي تحيط بدائرة صغيرة مركزية

١ — المعز لدين الله أمير المؤمنين لا إله إلا الله محمد رسول الله

٢ — دعا الإمام معد لتوحيد الله الصمد وعلي أفضل المؤمنين ووزير خير

المرسلين

٣ — بسم الله ضرب هذا الدينر بفلسطين سنة محمد رسول الله أرسله

بأهدى ودين الحق

* بينها درهم فضي مضروب بطبرية سنة ٣٧٤هـ.

^(١٠٢) Lavoix, III, p.47, no.98 (21., 3.95), Markot: Invertarny...

Miles: Fatimid Coins, no.28.

تسع وخمسين وثلاثمائة
ليظهره على الدين كله ولو كره
المشركون

* متحف دمشق ع/ ٢٨٢٧ (٢٠٠٥، ٣٠٦٣) اللوح ٤.

* * *

١٣٥ — ذ — فلسطين — ٣٦٤هـ — المعز لدين الله — مثالان^(١٠٣)

متحف دمشق ع/ ٣٠٥٧ (٢٢، ٤٠٢٤).

* * *

١٣٦ — ذ — فلسطين — ٣٦٤هـ — المعز لدين الله (ربع دينار)

BMC. IV., no.42 (15., 100)

* * *

١٣٧ — ذ — فلسطين — ٣٦٨هـ — العزيز بالله — مثال

Frahn: Nova Supplementa.

* * *

١٣٨ — ذ — فلسطين — ٣٦٩هـ — العزيز بالله — مثالان

المأثورات محصورة في مدارين حول دائرة مركزية: نبدأ بالمدار الداخلي:

١ — عبد الله ووليه نزار الإمام لا إله إلا الله محمد رسول

الله علي خير

صفوة الله

العزيز بالله أمير المؤمنين

محمد رسول الله أرسله ..

٢ — بسم الله ضرب هذا الدين

المشركون

بفلسطين سنة تسع وستين وثلاثمائة

Lane- Poole: BMC. IV, no.54 (23., 4.12)

Lavoix, iii, no.99. ^(١٠٣)

Idem: Khed. no.1007.

* * *

١٣٩ — ذ — فلسطين — ٣٧٠هـ — العزيز بالله — مثال
* متحف قطر (٢٤، ٤٠١٥) اللوح ٤.

* * *

١٤٠ — ذ — فلسطين — ٣٧٣هـ — العزيز بالله — مثالان

Blau: (Wiener, NZ, VI-VII)

Zambaur: Cintribution, lie partle (NZ. XXXVI- XXXVII).

* * *

١٤١ — ذ — فلسطين — ٣٧٤هـ — العزيز بالله — مثال
* متحف قطر (٢٢، ٤٠١٠) اللوح ٤.

* * *

١٤٢ — ف — طبرية — ٣٧٤هـ — العزيز بالله — مثال

Johnston: Catalogue.. 1906.

* * *

١٤٣ — ذ — فلسطين — ٣٧٥هـ — العزيز بالله — مثالان
متحف دمشق ع/ ٣٧٣١
متحف قطر (٢٢٠٥، ٤٠٠٨) اللوح ٤.

* * *

١٤٤ — ذ — فلسطين — ٣٧٦هـ — العزيز بالله — مثالان
متحف دمشق ع/ ٣٧٢٢ (٢٢، ٣٠٣٩).

Lane- Poole: BMC, IV. no.60 (23., 4-10)

* * *

١٤٥ — ذ — فلسطين — ٣٨٣هـ — الحاكم بأمر الله — مثال

Lane- Poole: BMC, IV. no.65 (21.5, 4.18)

١٤٦ — ذ — طبرية — ٣٩٥هـ — الحاكم بأمر الله — مثال

ضمن دائرة

محمد رسول الله

الحاكم بأمر الله

علي ولي الله

أمير المؤمنين

لا إله إلا الله وحده لا شريك له

المدار ١ — عبد الله ووليه المنصور

محمد رسول الله أرسله ..

أبو علي الإمام

المشركون

٢ — بطرية سنة خمس وتسعين وثلاثمائة

Lavoix, III, no. 167 (4.11)

* * *

١٤٧ — ذ — فلسطين — ٣٩٩هـ — الحاكم بأمر الله — مثال

لم يذكر القياس Lane- Poole: Khed. no. 1045.

* * *

١٤٨ — ذ — فلسطين — ٤٠١هـ — الحاكم بأمر الله — مثال

* متحف قطر (٢٢.٥، ٣.٩٦) اللوح ٤.

* * *

١٤٩ — ذ — فلسطين — ٤٠٤هـ — الحاكم بأمر الله — مثالان

عزت باشا: مسكوكات قديمة Lane- Poole: Calvert's Coll

* * *

١٥٠ — ذ — فلسطين — ٤١٢هـ — الظاهر لإعزاز دين الله — مثال

Johnston: Catalogue.. 1906..

١٥١ — ذ — فلسطين — ٤١٧هـ — الظاهر لإعزاز دين الله — مثال

Zambaur: Inventar- Katalog. (مخطوطة)

* * *

١٥٢ — ذ — فلسطين — ٤١٨هـ — الظاهر لإعزاز دين الله — مثال

* متحف قطر (٢٤، ٠١، ٤) اللوح ٥.

* * *

١٥٣ — ذ — فلسطين — ٤٢٣هـ — الظاهر لإعزاز دين الله — مثال

المأثورات ضمن ثلاث مدارات حول دائرة مركزية فيها الحرف ز- في

الوجهين:

١ — الظاهر لإعزاز دين الله أمير المؤمنين	محمد رسول الله علي ولي الله
٢ — عبد الله ووليه علي أبو الحسن الإمام	لا إله إلا الله وحده لا شريك له
٣ — .. بفلسطين سنة ثلاث وعشرين	محمد رسول الله أرسله ..
واربعة مائة	المشركون

Lane - Poole: BMC, IV, no.119 (21.5, 4.18).

* * *

١٥٤ — ذ — فلسطين — ٤٢٤هـ — الظاهر إعزاز دين الله — مثال

المدارات حول في الوجهين

* متحف قطر (٢٤، ٩٢، ٣) اللوح ٥.

* * *

١٥٥ — ذ — فلسطين — ٤٢٨هـ — المستنصر بالله — مثال

الإمام	لا إله إلا الله
معد أبو تميم	وحده لا شريك له
المستنصر بالله	محمد رسول الله
أمير المؤمنين	علي ولي الله

المدار: محمد رسول الله بسم الله الرحمن الرحيم ضرب هذا الدينير بفلسطين

سنة

أرسله المشركون ثمان وعشرين وأربعمائة

Lane- Poole: Khed., p. 174, no.1101.

* * *

١٥٦ — ذ — فلسطين — ٤٣٢هـ — المستنصر بالله — مثال

* متحف قطر (٢٢.٢، ٤.١٥) اللوح ٥.

* * *

١٥٧ — ذ — فلسطين — ٤٣٤هـ — المستنصر بالله — مثالان

متحف دمشق ع/ ١١٢٨٧ (٢٤.٥، ٤.٠٦).

متحف دمشق ع/ ٣٧٣٦ (٢٣، ٣.٦٦)

* * *

١٥٨ — ذ — فلسطين — ٤٣٥هـ — المستنصر بالله — مثالان

Lane- Poole, BMC IV. no.133 (23., 4.30).

* * *

١٥٩ — ذ — طبرية — ٤٣٦هـ — المستنصر بالله — مثالان

معد علي

ولي الله

* متحف دمشق ع/ ١٣٥٧ (٢٢، ٣.٩١) اللوح ٥.

Lane- Poole: BMC IV, no.135 (23., 4-16).

١٦٠ — ذ — فلسطين — ٤٣٦هـ — المستنصر بالله — ثلاثة أمثلة

* متحف قطر (٢٣، ٤.١٠) اللوح ٥.

Lane -Poole: BMC IV, p321, no 135a (22.5, 4.34)

Ibid, IX, p.322, no. 135 (22.5, 3.88).

* * *

١٦١ — ذ — فلسطين — ٤٣٨هـ — المستنصر بالله — ٣ أمثلة
* متحف قطر (٢١، ٣.٦٥) اللوح ٥.

Lane- Poole: Khed. no 1122; Idem: Calvert's Coll.

* * *

١٦٢ — ذ — طبرية — ٤٣٩هـ — المستنصر بالله — مثال
الإمام

علي ولي الله

Lavoix, III, no.337.

* * *

١٦٣ — ذ — فلسطين — ٤٣٩هـ — المستنصر بالله — ٣ أمثلة
* متحف دمشق ع / ١٥٧٤ (٢٢، ٣.٥١) اللوح ٥
متحف دمشق ع / ٩٧٥٠ (٢٢.٨، ٣.٩١)

Lane- Poole: BMC, IX.

* * *

١٦٤ — ذ — فلسطين — ٤٢١هـ — المستنصر بالله — مثال
مجموعة الصراف (المسكوكات ٢، ص ٦٢، الرقم ٤٨٤)

* * *

١٦٥ — ذ — طبرية — ٤٤٢هـ — المستنصر بالله — مثالان
المأثورات نظمت في ثلاثة مدارات حول دائرة مركزية في الوجهين
من الداخل:

- ١ — المستنصر بالله أمير المؤمنين لا إله إلا الله محمد رسول الله
٢ — دعا الإمام معد لتوحيد الإله الصمد وعلي أفضل الوصيين ووزير خبير المرسلين
٣ — بسم الله ضرب هذا الدينير بطيرية محمد رسول الله أرسله ..
المشركون (كلدا)
سنة اثنين وأربعين وأربعمائة
* متحف دمشق ع/ ٤٥٣١ (٢١، ٤٠٠) اللوح
السيوفي.

* * *

- ١٦٦ — ذ — فلسطين — ٤٤٢هـ — المستنصر بالله — ٣ أمثلة
متحف دمشق ع/ ١٢٨٥ (٢٢، ٣٠٦)؛ مجموعة الصراف ٤٨٦.
Lane- Poole: BMC, IV, no.46 (21.5, 4.31).

* * *

- ١٦٧ — ذ — فلسطين — ٤٤٣هـ — المستنصر بالله — نصف دينار — مثال
* متحف قطر (١٩٠٢، ٢٠٦) اللوح

* * *

- ١٦٨ — ذ — فلسطين — ٤٤٤هـ — المستنصر بالله — ٣ أمثلة
متحف دمشق ع/ ١١٢٨٥ (٢٢، ٣٠٦)
Lane- Poole: Khed. p.179., no 1141; Markov: Nachtrag I-II

* * *

- ١٦٩ — ذ — طبرية — ٤٤٧هـ — المستنصر بالله — مثال
Miles: Fatimid, p.50. أشار إليه
١٧٠ — ذ — فلسطين — ٤٤٧هـ — المستنصر بالله — مثال

Lane- Poole: Khed. p.180, no.1153.

* * *

١٧١ — ذ — فلسطين — ٤٤٩هـ — المستنصر بالله — مثالان
متحف دمشق ع/ ٩٧٥٢ (٢٣.١، ٤.٠٥)

Casanova: Princesse Ismail Coll.

* * *

١٧٢ — ذ — طبرية — ٤٦٠هـ — المستنصر بالله (ربع دينار) — مثال
الإمام

علي ولي الله

المدار: بسم الله ضرب هذا الدينار
بطبرية سنة ستين وأربعمئة

مأثورة الضرب مكررة في هذا

الوجه

وهذا خطأ نادر

Lavoix, III, no. 338 (, 0.98) = Miles, p.50.

* * *

١٧٣ — ذ — عكا — ٤٦٢هـ — المستنصر بالله — مثال
معد علي

ولي الله

...سنة ثنين (كذا)..

Lavoix, III, 349 (3.48).

* * *

١٧٤ — ذ — عكا — ٤٧٣هـ — المستنصر بالله — مثال

... المشركين (كذا)

Lane- Poole: BMC. IV, no.173 (26., 3.84).

* * *

١٧٥ — ذ — عكا — ٤٦٤ هـ — المستنصر بالله — مثال
* متحف قطر (٢٣٠.٨، ٢٠.٦٥) اللوح ٦

* * *

١٧٦ — ذ — عكا — ٤٦٥ هـ — المستنصر بالله — مثال
ضمن دائرة:

عبد الله ولي
عهد المسـ
مين
علي
ولي الله

المدار ١ — الإمام معد أبو محمد المستنصر بالله لا إله إلا الله محمد رسول

الله

أمير المؤمنين
٢ — ضرب عكا سنة خمس وستين محمد رسول الله أرسله

.. المشركون

وأربعمائة

* مجموعة خاصة (٢٢٠.٥، ٢٠.٩١) اللوح ٦

* * *

١٧٧ — ذ — عكا — ٤٦٦ هـ — المستنصر بالله — مثال

Miles: Fatimid Coins, p.50.

* * *

١٧٨ — ذ — عكا — ٤٧٢ هـ — المستنصر بالله — مثال

Miles: Op. cit, p.50.

١٧٩ — ذ — عكا — ٤٧٣هـ — المستنصر بالله — مثال
Ibid, p.50.

* * *

١٨٠ — ذ — عكا — ٤٧٤هـ — المستنصر بالله — مثال
Lane- Poole: Khed. no. 1178.

* * *

١٨١ — ذ — فلسطين — ٤٧٥هـ — المستنصر بالله — مثال د
Johnston: Catalogue de Vente, 1906.

* * *

١٨٢ — ذ — عكا — ٤٧٦هـ — المستنصر بالله — مثال
Karabacek: ZDMG (1867), p.622.

* * *

١٨٣ — ذ — عكا — ٤٧٨هـ — المستنصر بالله — مثال
Karabacek: ZDMG (1867), p.623.

* * *

١٨٤ — ذ — عكا — ٤٨٣هـ — المستنصر بالله — مثال
Ibid. p. 624.

* * *

١٨٥ — ذ — عكا — ٤٨٤هـ — المستنصر بالله — ٤ أمثلة
* متحف قطر (٢٣.٥، ٣.٦٣) اللوح ٦

Gagarine: Weyl, Berlin; Karabacek: op. cit, p.624;

Lane- Poole: Khed. no. 1188.

١٨٦ — ذ — عكا — ٤٨٥هـ — المستنصر بالله — مثال

* متحف قطر (٢٣.٥، ٣.٩٢) اللوح ٦

* * *

١٨٧ — ذ — عكا — ٤٨٦هـ — المستنصر بالله (ربع دينار) — مثال

* متحف دمشق ع / ١٥٢٦٠ (١٥.٥، ٠.٩٢) اللوح ٦

* * *

١٨٨ — ذ — عكا — ٤٨٧هـ — المستنصر بالله — مثالان

* متحف قطر (٢٥، ٤.٠٠) اللوح ٦

Lavoix, III, no.350 (,4,10).

* * *

١٨٩ — ذ — عكا — ٤٨٨هـ — المستعلي بالله (ربع دينار) — مثالان

متحف دمشق ع / ٢٠١٠١٢ (١٥، ٠.٩٣)

متحف دمشق ع / ١٨٩٨٤ ()

* * *

١٩٠ — ذ — عكا — ٤٩٠هـ — المستعلي بالله — ٣ أمثلة

* متحف قطر (٢٣.١، ٤.٤٠) اللوح ٦

السبوي Karabacek: ZDMG (1867), p.625.

* * *

١٩١ — ذ — عكا — ٤٩٣هـ — المستعلي بالله — مثال

Miles: Fatimid ...p. 50.

* * *

١٩٢ — ذ — عكا — ٤٩٥هـ — المستعلي بالله

* متحف قطر (١٠.١٥، ٠.٩٣) = ربع دينار، اللوح ٦

Lavoix, III, no. 411.

* * *

١٩٣ — ذ — عسقلان ، ٣٠٥هـ — الأمر بأحكام الله — مثالان

Lane- Poole: BMC IV, no. 203 (23., 4,10)

Idem: Khed, no.1218.

(لا يوجد قياس)

* * *

١٩٤ — ذ — عسقلان ، ٥٠٤هـ — الأمر بأحكام الله — مثال

عالم غاية

الإمام المنصور

المدار ١ — أبو علي الأمر بأحكام الله لا إله إلا الله محمد رسول الله علي

ولي

الله

أمير المؤمنين

محمد رسول الله أرسله ...

٢ — ... الدينر بعسقلان

سنة أربع وخمسمائة

Lavoix, III, p.157, no.417 (3.77).

قرأ لاقوا عسقلان خطأ (عسقلان) وهي مرسومة ()

وقرأ التاريخ خطأ ٥٠٧ وهو (٥٠٤) وهي مرسومة () ولا يمكن أن تقرأ

(سبع)

* * *

١٩٥ — ذ — عسقلان ، ٥٠٥هـ — الأمر بأحكام الله — ثلاثة أمثلة

* متحف قطر (٢٢.٢، ٣.٩٦) اللوح ٦

Beyram Bey: Catalogue de Vante (schulman, 1909).

* * *

١٩٦ — ذ — عسقلان — ٥٠٦هـ — الأمر بأحكام الله — مثال

قرأها لين بول (عسقلان) Lane- Poole: Khed.

* * *

١٩٦ أ — ذ — عسقلان — ٥٠٧ هـ — الأمر بأحكام الله — مثال
* متحف دمشق ع / ٤٥٣٨ () اللوح ٦

* * *

١٩٧ — ذ — عكا — ٥٠٧ هـ — الأمر بأحكام الله — مثال
* متحف قطر (٢٣، ٣٠٨٠) اللوح ٦

* * *

١٩٨ — ذ — عسقلان — ٥٠٩ هـ — الأمر بأحكام الله — مثالان
* متحف قطر (٢١، ٣٠٨٢) اللوح ٧

Johnston: Catalogue de Vante, 1906.

* * *

١٩٩ — ذ — عسقلان — ٥١٠ هـ — الأمر بأحكام الله — مثالان
Zambaur: Contribution... lie partie (Wiener NZ, XXXVI et XXXVII).

Johnston: catalogue de Vante, 1906.

* * *

النقود الصليبية المضروبة في فلسطين

تقليد النقود الفاطمية:

٢٠٠ — ذ — طرابلس — ٤٣٧ هـ — المستنصر بالله — مثال

معد	علي
عبد الله ووليه	لا إله إلا الله
الإمام أبو تميم	وحده لا شريك له

المستنصر بالله
أمير المؤمنين
بسم الله الرحمن الرحيم ضرب
هذا الدينر سنة سبع وثلاثين
وأربعمائة
هذا وصف الدينار الفاطمي الأصيل، قلده الصليبيون، وبالرغم من دقة التقليد،
لكن كلمات كثيرة لا يمكن قراءتها.

Lavoix;... Croises, pp. 37-9, nos. 6 et 7.

* * *

٢٠١ — ذ — مكان الضرب والتاريخ غير موجودين ولكن T للدلالة على
طرابلس: Tripoli
الدينار المقلد من عهد المستنصر بالله أيضاً، وقو حوى في رأس الماثورة الوسطى
حرف B وهو بلا شك يرمز إلى ملك طرابلس الصليبي Bertrand (١١٠٩ —
١١١٢م).

الخط رديء جداً، صليب يبدو في مركز الوجه.
* متحف دمشق ع/١٤٠٦ () اللوح ٧ ولكن * بدلاً عن T.

Lavoix;... Croises, pp. 39-40, nos. 8 et 9.

* * *

٢٠٢ — ذ — عكا — ٤٥٤هـ — المستنصر بالله — تقليد حسن
* متحف دمشق ع/٥٨٩٧ (٢٢٠٢، ٣٠٢٨) اللوح ٧.

* * *

٢٠٣ — ذ — مصر، ٦ [٥٠]هـ — الأمر بأحكام الله — مثالان
كتب التاريخ على الدينار الصليبي المقلد (سنة ...) أي سنة ٥٠٦ أو ٥١٦، أو
٥٠٧ أو ٥١٧هـ.

* متحف دمشق ع/ ١٥٣٢٠ () اللوح ٧.

Lavoix:.. Croises, p.35, no2- Balog et Yvon: Deux Tresors, p. 299, no.17

(22., 3.91).

مثال آخر: التاريخ = ٥٠٦هـ — Ibid, no 18.

* * *

٢٠٤ — ذ — مصر — ٥١٤هـ — الأمر بأحكام الله — مثال:

Lavoix:.. Croises,, p.34, no1.

* * *

٢٠٥ — ذ — فلسطين؟ — التاريخ غير مقروء — الأمر بأحكام الله — مثالان:

متحف دمشق ع/ ١٦٧٧٥ (٢٢.٥، ٣.١٨) كتب مكان الضرب

ع/ ١٦٧٧٦ (٢٢.٥، ٣.١٥)

* * *

تقليد النقود الأتابكية والأيوبية^(١٠٤)

تقليد الدينار الذي ضربه صلاح الدين الأيوبي في القاهرة سنة ٥٦٦هـ — باسم الأتابك الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي وباسم الخليفة المستضيء بأمر الله الإمام الحسن.

الدينار الأصيل هام ونادر. وقد ضرب مثله في الاسكندرية. إليكم وصف الأصيل، وقد ضرب حسب النمط الفاطمي:

الإمام عال

^(١٠٤) كنت أشرت في المقدمة أن الصليبيين قلدوا دراهم الصالح إسماعيل ملك دمشق الأيوبية المضروبة في دمشق سنة ٦٤٣هـ، وأعطيت ثلاثة أنماط لها، لا أرى ضرورة لإيرادها اختصاراً للبحث. أحب أن أشير إلى أن بعض علماء النقود اعتبروا الدراهم الأيوبية المضروبة بحلب بعد موت الملك الظاهر غازي والملك العادل أبي بكر أنها تقليد صليبي وكتبت بحثاً عن هذا الموضوع ألقته في مؤتمر النقود المنعقد في لندن (نيسان/ إبريل) ١٩٧٦، أنكرت فيه أن تكون تلك الدراهم من تقليد صليبي.

محمد
بن زنكي
المدار: السلطان الملك العادل
المؤمنين
وسلم
٢ — محمد رسول الله صلى الله
لا إله إلا الله وحده لا شريك له
محمد
عليه وعلى آله
٣ — محمد رسول الله أرسله..
رسول الله
بسم الله الرحمن الرحيم ضرب
هذا الدين
كله
وخمسمائة
بالقاهرة سنة ست وستين

الانحطاط في الدينار المقلد:
= أمير المؤمنين
رسول الله = لم تكتب
= الرحمن الرحيم
= ست (وستين) وخمسمائة
(من مجموعة خاصة)

* * *

٢٠٧ — تقليد دينار صلاح الدين يوسف بن أيوب المضروب في القاهرة سنة
٥٧١هـ، الدينار الأصيل مضروب أيضاً حسب النسق الفاطمي:

الأغلاط كثيرة حتى أن (سبعين) كتبت أشبه ما تكون بـ (اربعين) (من مجموعة
خاصة).

٢٠٨ — تقليد دينار أيوبي باسم صلاح الدين يوسف بن أيوب ضرب سنة ٥٨٦هـ، ولم يذكر على الدينار المقلد مكان الضرب.

Balog et Yvon: RN (1958) pp. 152-3, no52. (22., 3.31).

* * *

النقود الصليبية الأصلية بالعربية:

٢٠٩ — ذ — عكا — ٥ [٤] ١٢ مم — مثال وحيد

إلاه واحد

المدار: ضرب بعكا سنة ألف

ومائتين وخمس

مأثورة المدار غير واضحة يتخللها

صليب نقدر أن تكون (الأب والابن

والروح القدس)

Lane-Poole: Khed., p.351.

قدر لين بول التاريخ ١٢٤٥م لأن هذا الدينار بدائي الضرب، وهو لا يشبه أبداً الدينار المضروب سنة ١٢٥٥م بمأثوراته.

* * *

٢١٠ — ذ — عكا — ١٢٥١م

المدار: + نفتخر بصليب ربنا يسوع

+ ضرب بعكا سنة ألف

ومائتين أحد

المسيح الذي به سلامتنا وتحيثنا

وخمسين لتجسد

٢ — + وقيامتنا وبه تخلصنا وعفينا

+ الأب والابن والروح القدس

* متحف دمشق ع/ ٥٣٥٤ (٢٣، ٣٠١٧) اللوح ٧

متحف دمشق ع/ ٥٨٨٧ (٢٢، ٣٠١٦) نقص بالتاريخ

Lavoix:.. Croises, p53, no.10.

مع اختلاف ومأثورة الضرب كاملة (تجسد ربنا المسيح)

Balog et Yvon: RN (1958), p.158, no.70 (23., 3.30).

* * *

٢١١ — ذ — عكا — ١٢٥٣ م.

Lavoix:.. Croises, p.54 (23., 3.39)

Nassar: PAM, C. 3346 (23., 3.12)

BM unc. (22.,) = Balog et Yvon, p.159.

* * *

٢١٢ — ذ — عكا — ١٢٥٤ م

Paris unc., F. 1102 (23., 3.15)

Paris - Vogue 855 (21., 2.83) = Balog et Yvon. p.150.

Lavoix:.. Croises, p54.

* * *

٢١٣ — ذ — عكا — ١٢٥٥ م

Balog et Yvon, p. 159= Collection Pflieger

* * *

٢١٤ — عكا — ١٢٥٦ م

Balog et Yvon, p.159:

1- Collection Balog (22., 3.55)

2- Paris unc., D. 3581, (23., 3.13).

* * *

٢١٥ — ذ — عكا — ١٢٥٧ م

Lavoix:.. Croises,.. pp. 54-5.

ذكر لافوا أنه شاهد عند صديقه سوفير Souvaire ديناراً صليبياً مؤرخاً من سنة ١٢٥٧ أو ١٢٥٩م

BM unc. (23., 3.63).

* * *

٢١٦ — ذ — عكا — ١٢٥٨م

Balog et Yvon, p. 159 = BM unc. (22., 3.30)

* * *

النقود الفضية الصليبية العربية:

٢١٧ — ف — عكا ١٢٥١م

الله اجد	ضرب بعكا
الأب والابن	الله واحد هو
والروح القدس	الإيمان واحد
إلاه واحد	المعمودية واحدة

* متحف دمشق ع/ ١٨٩٨١ (٢٣،) وست أمثلة أخرى — اللوح ٧

Lavoix... Croises, p55, no.1.

توجد دراهم أخرى شبيهة Balog et Yvon, p.160
ولكن تختلف من حيث ترتيب كلمات المأثورات والإشارات

* * *

٢١٧ — ف — عكا — ٥١ [١٢]م — نصف درهم

* متحف دمشق ع/ ٢١١٢ اللوح ٧

إلاه واحد	ضرب بعكا
والروح	الاب
القدس	والابن

٢١٨ — ف — عكا — دون تاريخ — أنصاف دراهم

الله واحد

والروح

الاب والابن

Lavoix... Croises, p.57, no.12.

متحف دمشق ع/ ١٨٢١٢ (١٧، ١٠٥٢).

* * *

النقود الصليبية العربية من النحاس والخليطة:

٢١٩ — ن — عكا — دون تاريخ

Balog et Yvon, p. 167, fig.50 = Paris unc. (14., 2.48).

* * *

٢٢٠ — خليطة: قد[س] — دون تاريخ

هذه الخليطة مكونة من ٧٥% نحاس، و ٢٥% فضة اسمها بالفرنسية Billon

Ibid = Paris unc. (11.2, 0.76).

* * *

النقود الصليبية الفرنجية:

٢٢١ — ذ — (القدس) Jerusalem — بودوان^(١٠٥) BALOVIN — دون تاريخ.

في المركز

BALOVINS REX

Jerusalem المدار

Yvon: Monnaies et Sceaux (R.N. t. VIII, 1966, p.92, p1. III.3).

^(١٠٥) تكتب بالفرنسية BAUDOUIN وهو واحد من خمسة ملوك حكموا مملكة القدس بهذا الاسم. يرجح الأستاذ شلوميرجه أن يكون هذا الملك بودوان الثالث (١١٤٣ — ١١٦٣م) ويوجد بمتحف دمشق عدد من نقوده الفضية المضروبة في القدس: تحمل حروفا أرمنية وهي مسجلة بين الرقمين: ع/ ١٨٠٤٢ — ع/ ١٨٠٤٩.

٢٢٢ — ذ — (القدس) Jerusalem — (هنري) Henri ملك القدس وقبرص.

HENRI REX DE

المدار Jerusalem

Miles: Some Hoards of Crusader Bezants (ANS. MN. 13 (1967), p.202.

* * *

النقود المضروبة في غزة في العهد الأيوبي^(١٠٦)

٢٢٣ — ف — غزة — ٦٢٣هـ — الخليفة العباسي المستنصر بالله — الملك

الكامل محمد — مثال

بسم الله	لا إله إلا
الإمام المنصور	الملك الكامل
أبو جعفر	أبو المعالي
المستنصر بالله	محمد بن أبي
أمير المؤمنين	بكر بن أيوب
متحف دمشق ع/ ١٣٣٦٧ (٣٢.٥، ٢.٧٧)	

* * *

٢٢٤ — ف — غزة — ٦٢٤ أو ٦٣٤هـ — المستنصر بالله — الملك الكامل

— ٣ أمثلة (مثل السابق مع اختلاف في توزيع الكلمات). رقم العشرات غير واضح، أرجح أن تكون هذه الدراهم مضروبة سنة ٦٢٤هـ.

* متحف دمشق ع/ ١٨١٠٤ (٢١، ٢.٩٨) اللوح ٧

ع/ ١٠٠٧٣ (٢١.٥،)

ع/ ٢٩٥١ (٢١،)

Lowick: Spink's Numismatic Circular, Oct. 1971, p.359.

ذكر لويك درهماً أيوياً للكامل ضرب بغزة، لكن التاريخ غير مذكور لنقصه.

٢٢٥ — ف — غزة — ٥ [٦٢]هـ — المستنصر بالله — الكامل — مثال

^(١٠٦) لم تضرب النقود الأيوبية إلا بغزة، وكلها دراهم وأنصاف دراهم.

* متحف دمشق ع/ ٢٩٤٨ (٢١٠٥) كتب التاريخ ناقصاً ٥ [٦٢] هـ —
اللوحة ٧.

* * *

٢٢٦ — ف — غزوة — ٦٣٥ هـ — المستنصر بالله — الكامل — مثال
متحف دمشق ع/ ١٤١٨٠

* * *

٢٢٢ — ف — غزوة — التاريخ ناقص — المستنصر بالله — الكامل — مثال
(نصف درهم).

ضرب بغزة	لا إله إلا
الإمام	الملك
[المستنصر]	الكامل
متحف دمشق ع/ ٣٠٢٦ (١٦٠٥) (

* * *

النقود المضروبة في غزوة في العهد المملوكي (١٠٧)

في حد علمنا لم يسجل حتى الآن في دراسات النقود أي نقد ضرب في فلسطين
في العهد المملوكي. لكننا عثرنا في متحف دمشق على درهم واحد.

٢٢٨ — ف — غزوة — التاريخ مبهم — أبو سعيد برقوق — مثال
[الملك] الظاهر [ضرب] بغزة

لا إله إلا الله	سيف الدنيا والدين
محمد رسول الله	[أبو سعيد برقوق]

(١٠٧) ذكر زمباور Die Munzprägungen des Islam (ص ١٧٨) نقداً ضرب بمكة سنة ٦٧٨ هـ أي
في العهد المملوكي وذلك في سياق النقود الأيوبية لم اسجله في هذا البحث لأنني أعتقد أن هناك خطأ. لم
يذكر المرجع حتى نتأكد من موضوعه.

خلد الله
[ملكه]
[أر] سله بالهدى ودين
[الحق]

متحف دمشق ع/ ١٤٠٠٦ (١٨.٥) .

* * *

النقود المضروبة في عكا في العهد العثماني

٢٢٩ — ف — لم نعث على نقود ضربت في فلسطين في العهد العثماني، ولكن ذكر لين بول أوسمة ضربت في عكا سنة ١٢٥٦هـ باسم السلطان عبد المجيد تكريماً للضباط^(١٠٨) والجنود الذين أبلوا بلاءً حسناً في إخراج محمد علي باشا من الشام.

رسم قلعة عكا

١٢٥٦ طغراء عبد المجيد

برية الشام وقلعة عكا

BMC. VIII, p.353, no.lx (28m.m) and 1x4 (17.4. 84).

* * *

٢٣٠ — (برونز). Ibid. p.354 no. x (28m.m).

* * *

^(١٠٨) ذكر لين بول أن الأوسمة سكنت من الذهب والفضة والبرونز، ولكن لم يعثر حتى الآن على وسام ذهبي.

المصادر العربية والشرقية

- ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ٨، مصر سنة ١٣٠٣هـ.
- اسماعيل غالب: موزه همایون: مسكوكات قديمة إسلامية قتالوغي قسطنطينية ١٣١٢هـ.
- الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج ١، المطبعة الحسينية المصرية (دون تاريخ) عبد الرحمن فهمي محمد: موسوعة النقود العربية وعلم النميات.
- ١ — فجر السكة العربية، القاهرة ١٩٦٥م.
- عزت باشا: مسكوكات قديمة إسلامية، استامبول ١٣١٨هـ.
- (أبحاث الندوة الدولية لتاريخ القاهرة — مارس/أبريل ١٩٦٩ ج ٢ مطبعة دار الكتب (١٩٧١).
- محمد أبو الفرج العشي: النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن (مؤتمر بلاد الشام المنعقد في عمان في شهر نيسان ١٩٧٤).
- محمد باقر الحسيني: دليل لمجموعة عبد الله شكر الصراف (المسكوكات ٢ ص ٤٨ — ٨١).
- المقريزي: شذور العقود في ذكر النقود.
- مهتاب درويش لطفي: الدينار العباسي في المتحف العراقي (المسكوكات ٧ ص ٤٤ — ٨٨).
- ناصر الدين النقشبندي: الدينار الإسلامي في المتحف العراقي — بغداد ١٩٥٣.
- ناصر الدين النقشبندي: الدينار الإسلامي للملك الطوائف. (سومر ٣، ج ٢ ١٩٤٧).
- ناصر الدين النقشبندي: كثر نحضر الياس (سومر ١٠ ج ٢ ١٩٥٤).
- وهو نشر لمخطوطة Zambaur... Baghdader...

مختصر أسماء الدوريات والمؤسسات العربية

AAAS	Annales Archeologiques Arabes - Syriennes
ANS	American Numismatic Society in New York
AUB	American University of Beirut
BIE	Bulletin de L'Istitut d'Egypte
BM unc	British Museum (uncatalogued coins)
BMC	British Museum Catalogue
Coll.	Collection
JRAS	Journal of the Royal Asiatic Society, London
MN	Museum Notes (edited by ANS)
NC, or Nchr	Numismatic Chronicle (London)
NN-M	Numismatic Notice and Monograph - (edited by ANS)
NZ	Numismatische Zeitschrift, Wien.
Paris or P.	Cabinet des Medailles de Paris
PAM	Palastine Archaeological Museum
QDAP	Quarterly of the Department of Antiquities in Palastine
RN	Revue Numismatique (Paris)
RNB	Revue Numismatique Belge
UM	University Museum (Philadelphia)
ZDMG	Zeitschrift der Deutschen Morgenlandischen

ZN Gesellschaft, Leipzig
Zeitschrift für Numismatik, Berlin

- Allan, J., *Unpublished Coins of the Califate*, (N. Chr., Vol. XIX (1919) pp. 197-8.
- Anderson, W., *Der Munz-fund von Vaabina*, (Ann. Litt. Soci, Esthonicae, I, 1973, pp. 1-84).
- Al. USH, M.A., *Traces du Classicism dans la Numismatique Arab - Islamique* (AAAS. 23 (1971), pp. 303- 327).
- Bacharach, J. et Les Premiers Dirhams, Ikhshidides (RN, t, XVII, (1975)).
Shamma's
- Balog, P., *Dinars Ikgshidites trouves a Assiout en Automne ,1954* (RNB, t. 101, (1055) pp. 303-327).
- Balog, P., *Tables de References des Monnaies Ikhshidites*, (RNB, t, 103. (1957)).
- Balog, P., *The Coinage of the Mamluk Sultans in Egypt and Syria*, New York, 1964.
- Balog, P. et, *Monnaies a Legendes Arabes de L'Orient Latin*.
- Yvon, J., (RN. (1958), pp. 133-168).
- Balog, P. et, *Deux Tresors de Monnaies d'or des Croises*.
- Yvon, J., (ANS. MN- XI).
- Behzad Batuk, *Resimli Turk Paralarina EK*, Istanbul, (Abbased and Mamluk).
- Beyram By, M., *Catalogue de Vente* (Schluman, J. 1909).
- Blau und Stickel, *Zur Muhammedamschen Numismatik, und Epigraphik*, vol. I.
- Blau, O., *Nachlese Orientalischer Munzei; Zuel Teile* (Wiener NZ. VI- VII, 1874-5).

- Casnova P., Inventaire Sommaire... des Monnaies Musulmanes... ,de la Pricesse Ismail, 1896.
- Castiglione, C.O. Monete Cufich dell' J.R. Museo di Milano, 1819.
- Cottevielle.(R.N. (1935)).
- Giraudet, R.
- Frauhn, C.M.,Nova Supplementa (Opusculorum Postumorum Pars I (1855), II (1877)).
- Gagarin, F.,Verkaufs Katalog A. Weyl, Berlin, 1885.
- Gotha- Schluman Catalogue de Venta, 22 mai, 1928.
- Garbar, O.,The Coinage of the turunides, New York, 1957.
- Hill,Catalogue of the Roman Coins in the British Museum ,(Palastine).
- Johnston, J.M.C. Catalogue de Venta (Sotheby), London, 1906.
- Lane - Poole, S. Catalogue of Oriental Coins in the British Museum vols. I,II,III,IV and 1876- 1889.
- Lane - Poole, S. Fasti Arabici: II Calverst's Collection (N. Chr. 1885).
- Lane - Poole, S. Catalogue of the Arabic Coins.. in the Khedivial Library at Cairo, 1897.
- Lane - Poole, S. Muhammadan Dynasties, London, 1894.
- ترجمة محمد صبيحي فرزات تحت إشراف الأستاذ محمد أحمد دهان "الدولة الإسلامية" دمشق ١٩٧٣.
- Lavoix, H., Monnaies a' legendes Arabes frappes en Syrie par ,es Croises 1877.
- Lavoix, H., Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliotheque, vols. I et III 1887 , et 1895.
- Lematre, P.,Muhammadan Coins in the Convent of the ,Flagellation, Jerusalem (N. Chr., XVIII (1938), pp. 295-9).
- Le Strange, G.,Palastine under the Moslems, London, 1890.

- ترجمة محمود عمايري "فلسطين في العهد الإسلامي" عمان ١٩٧٠.
- Markov, A., *Inventory Katalog Musulmanskich Monet*, St. Petersburg, 1896.
- Markov, A., I, II Nachtrag.
- Miles, G.C., *Rare Islamic Coins* (ANS, NN-M. 118) New York. 1950.
- Miles, G.C., *Fatimid Coins* (ANS- NN-M> 121) New York, 1951.
- Miles, G.C., *Some Hoards of Crasnader Bezants* (ANS. MN. 13, 1967).
- Miles, G.C., *Additions to Zambaur's Munzprägungen des Islam* (ANS. MN. 17/971).
- Nassar, N.G., *The Arabic Mints Palastin and Trans- Jordan* (QDAP. , XIII (1978), pp. 121-7)
- Nutzel, H., *Königliche Museen Zu Berlin: Katalog der Orientalischen Munzen*, Vol. I, 1898.
- Rogers, E. Th., *Dinars of the Abbaside Dynasty* (J. ARS, VII (1874) p. 262).
- Rogers, E. Th., *The International Numismats Orientale Coins Of the Tuluni Dynasty*, 1877.
- Rogers, E. Th., *Catalogue of a collection of Muhammadan Coins* (N. Chr. III, 1883).
- Bacharach, J.et (RN, t, XVII, 1975).
- Shamma, S., *The Ikhshidid Coins of Filastin* (AUB, Al- Abhath, XXII, 3-4, Doc 1969).
- Shamma, S., *The Coins of the Tulunids in Falastin* (AUB, Al- Abhath).
- Siouffi, N., *Tables Numismatiques*, Moussol, 1879- 1880.
- Soret, F. , *Letters sur la Collection*, II (a' Sawalife) (RNB, IV, 2e Serie, 1854).
- Soret, F. , *Letters sur la Collection*, III (a' Dorn). (RNB, VI, 2e Serie, 1856).
- Tegner, E., (Kgl. Vitterhets Historie Och Antiquitets Akademiens *Manadsblad*, 1883, pp. 97- 119).
- Teisenhausen, W. *Monnaies des Khalifes Orientaux*, St. Petersburg, 1873.

- Teisenhausen, W. *Melanges de Numismatique Orientale* (RNB, 1875. pp. 239- 379).
- Tornberg, C.J., *Symbolae ad Rem Nummariam Muhammedanorum*, vol IV, 1862.
- Linder- Welin
- Ullas, S., *Musée National de Stockholm*.
- Vasmer, R., *Kuficeskia Moneti Pereyaslago Klads*, St. Petersburg, 1914.
- Vismar, R., *Über dreizehn in Privatbesitz verballene Münzen des Friedrichshofer Fundes*, 1928.
- Vismar, R. und
- Zograph. A., *Dr. Otto Blau Münzforscher*, Leipzig, 1928.
- Yvon, Jacques , *Monnaies et sceaux de l'Orient Latin* (RN, t. VIII, 1966).
- Zambaur, E., *Contribution a' la Numismatique Orientale, Ite Partie*. (Wiener NZ, XXXVI et XXXVII).
- Zambaur, E., *Inventar- Katalog Seiner Sammlung* (manuscript).
- .0Zambaur, E., *Inventar- Katalog des Baghdader Goldmünzenfundes und Anderer Mohammadanischen noch nicht veröffentlichten Münzen des Museums in Top- Sarai in Istanbul, aufgenommen 1916* (manuscript).
- نشرة ناصر الدين النقشبندی: کتر خضر الیاس (سومر ۱۰ ج ۲ ۱۹۵۴).
- Zambaur, E., *Neue Khalifenmünzen* (Wiener NZ, LV, 1922).
- Zambaur, E., *Inventar- Katalog der Bestände der Wiener ,Öffentlichen und Privat-Sammlungen an Mohammedanischen Münzen* (manuscript).
- Zambaur, E., *Die Münzprägungen des Islam*, edited by Jaeckel, P. Wiesbaden, 1968.
- Zia, Ahmad , *Catalogue of Islamic Coins*, Istanbul, 1910.
- Zia Ahmad , *Bibliothèque Nationale de Paris* (manuscript).

اللوحة - ١



٤
Walker, B



٢
Walker, 77



٤
Walker, 1



٤



١ - ٧



٦



٩ - ج



٩ - ب
Walker, 48

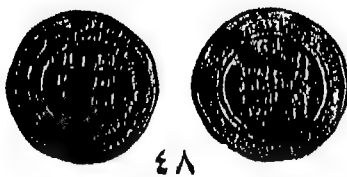
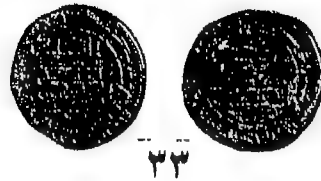
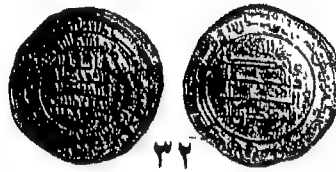
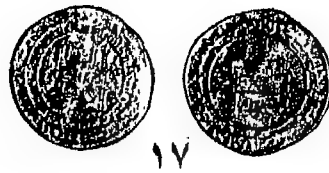


٩ - ط

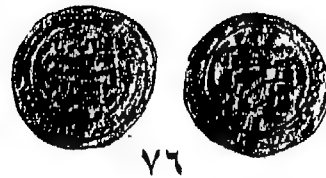
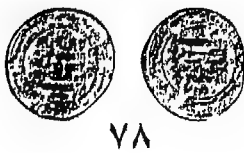
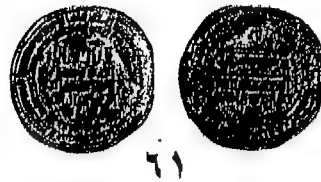


٩ - ح

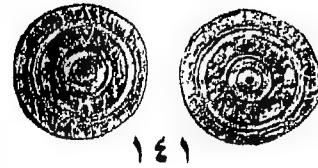
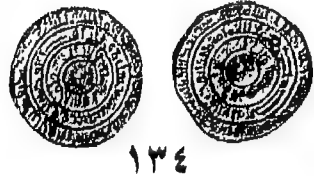
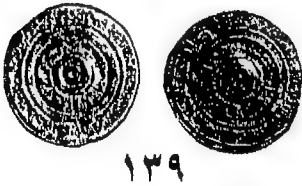
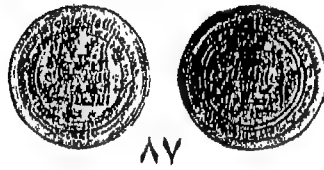
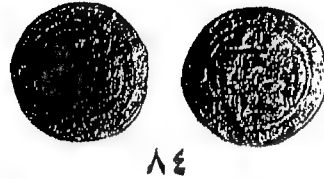
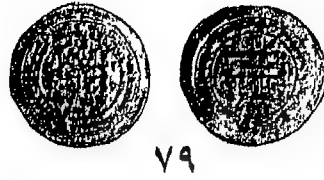
اللوحة - ٢



اللوحة - ٣



اللوحة - ٤



اللوحة - ٥



١٥٢



١٤٨



١٥٦



١٥٤



١٦٠



١٥٩



١٦٣



١٦١

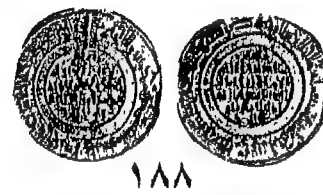
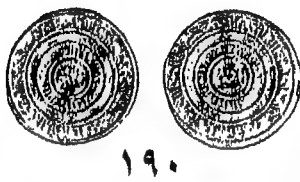
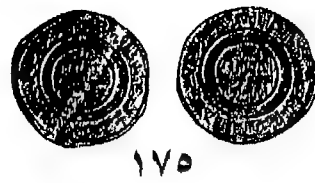


١٦٧

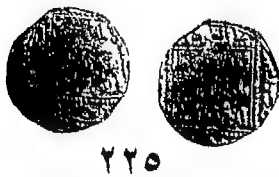
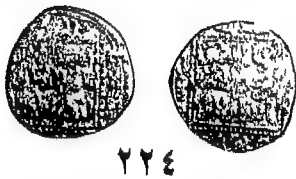


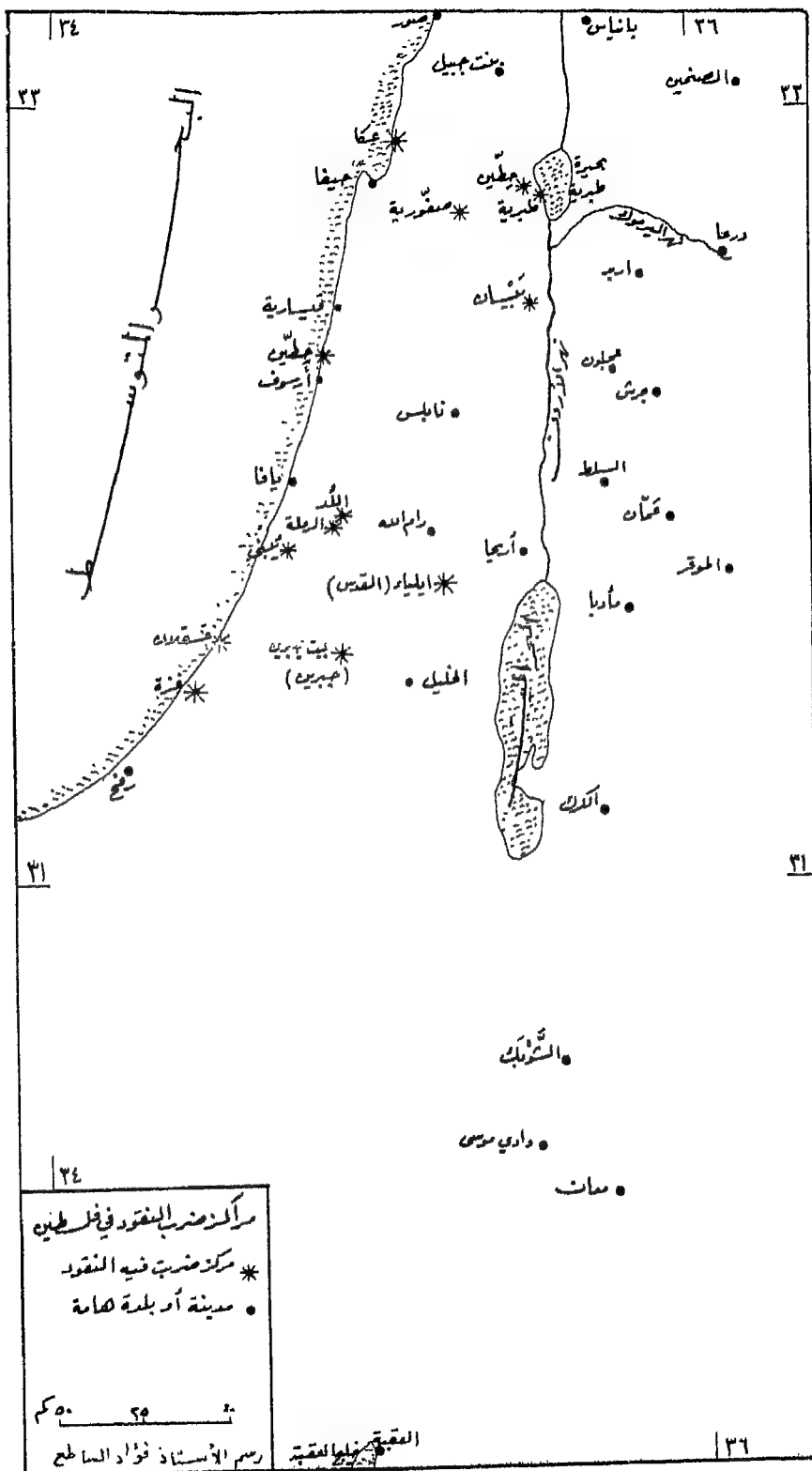
١٦٥

اللوحة - ٦



اللوحة - ٧





الفنون الإسلامية المبكرة في فلسطين

الدكتور: صفوان خلف النل

تمهيد:

لقد حبت القدرة الإلهية أرض فلسطين العربية بخصائص ومميزات جعلتها ترفل بالعز والطهر والقداسة منذ بزوغ فجر الإسلام عليها، حيث حمل المسلمون مشاعل النور إلى أرضها بعد أن حطت رحال رسول الله فيها قبل عروجه إلى السماء، يبارك أرضها، ويشرف حرمها، ويهلل اسم الله في سمائها، ويؤمل شعبها بالتححرر من العبودية والظلم. وكان وعد الله حق عندما فتحت أبواب القدس إلى خليفة المسلمين عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، ودخل الناس دين الله أفواجا..، مستهلين بعودة الحرية والكرامة إلى الأمة بعد أن دام استعبادها رديحا طويلا من الزمن، وقاسى سكانها من ويلات الحروب والاحتلال على أيدي الدول الكبرى الممثلة بامبراطوريات اليونان والرومان والفرس.

دخل الإسلام إلى فلسطين في عهد الخليفة الفاروق عمر بن الخطاب، وفتحت أبواب القدس الشريف، وسجل التاريخ لنا صفحة مذهلة من الأخلاق الكريمة التي عكست أصالة العروبة وسماحة الإسلام، وكان ذلك إثر صدور العهد العمري الذي جاء فيه ما يلي:

((بسم الله الرحمن الرحيم، هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان، أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبهم، وسقيعها وبريئتها وسائر ملتها، أنه لا تسكن كنائسهم ولا تهدم، ولا ينقص منها ولا من خيرها، ولا من صلبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم، ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الروم واللصوص، فمن خرج فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن، وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية، ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلي بيعهم وصلبهم فإنهم آمنون على أنفسهم حتى يبلغوا مأمنهم، ومن كان بها من أهل الأرض، فمن شاء رجع إلى أهله، لا يؤخذ

منهم شيء، حتى يحصد حصادهم. وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخلفاء وذمة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية)).

ورقع الخليفة عمر بن الخطاب على هذه الوثيقة، وشهد عليها كل من خالد بن الوليد وعمر بن العاص وعبد الرحمن بن عوف ومعاوية بن أبي سفيان وكان ذلك بتاريخ ١٥ للهجرة النبوية^(١).

وفي عهد الخلفاء الراشدين (٦٣٨ — ٦٦١) انصهرت عروبة فلسطين في بوتقة الإسلام، وشاع في ربوعها الأمن والسلام. وكان هم العرب الأول في هذه الفترة المهمة هو نقل الرسالة الإسلامية إلى أقاصي الأرض، وكانت هذه المهمة الهدف الأسمى والأمل المرتجى ابتغاء مرضاة الله، وسعيًا إلى توفير السعادة والرخاء لشعوب المسلمين. وعليه كانت محصلة الاتجاهات الإسلامية هي اتجاهات روحية إنسانية.

ومع انتقال عاصمة الخلافة من الجزيرة العربية إلى بلاد الشام، كانت معظم المهام الروحية قد اكتملت، وبدأت الخلافة الأموية في دمشق أسلوباً جديداً في مواجهة الحياة الاجتماعية ومتطلبات العصر، وخاصه بعد أن وصلت الدعوة الإسلامية إلى أسوار الصين شرقاً والمحيط الأطلسي غرباً. وبطبيعة الحال انعكست الأساليب الجديدة على الرقعة المحيطة بالعاصمة الأموية دمشق لتشمل منطقة جغرافية عربية متكاملة سميت بلاد الشام^(٢). ونلاحظ أن البذور الجديدة التي شهدتها الأرض العربية في منطقة بلاد الشام كانت أول التعارب لتحديد الاتجاهات الجديدة، فدار الخلافة في دمشق، وقبله المسلمين الأولى في القدس، والقصور في الأردن. ومن خلال هذه الامتيازات الخاصة لهذه الأقاليم، يمكن أن نحدد المعالم والانجازات الفنية التي شهدتها أرض فلسطين العربية إبان هذه الفترة المجيدة.

ونتيجة لاعتلاء الخليفة معاوية بن أبي سفيان على كرسي الخلافة، وما أعقبه انشغاله بالمصاعب والتحديات الداخلية، كانت الفرصة متاحة بشكل أوسع، إلى حد ما، في عهد الخليفة عبد الملك بن مروان، حيث تمكن من قطف ثمار الجهود السالفة لحكمه، وبدأت في أيامه مظاهر جديدة في أساليب الدولة الحضارية من حيث الشكل والمضمون. وكان لإقليم فلسطين وافر من الاهتمام والرعاية وبشكل خاص مدينة القدس^(٣).

شهدت مدينة القدس بناء أقدم صرح إسلامي فوق موقع الصخرة المشرفة (لوحة ٢٤١) في وسط الحرم الشريف. واستقطب عبد الملك بن مروان كل المهارات العربية المحلية لإقامة بناء قبة الصخرة، ولا شك أن هذا البناء يمثل قلادة كريمة على صدر فلسطين، يحفظ لها الامتيازات الكريمة التي نمت على أرضها العربية المسلمة، ويسجل بالفخر والاعتزاز ثمار الجهود والطاقت العلمية والفنية الكامنة في شخصية الإنسان العربي في فلسطين وبقية أقاليم بلاد الشام. وفي الوقت الذي كان الخليفة عبد الملك منشغل بإدارة العالم الإسلامي في دمشق كان أبنائه الأمراء الوليد وسليمان ويزيد وهشام يجوبون بلاد الشام سعياً في مشاركة والدهم في الاطلاع على شؤون البلاد، وللتدرب على مهارات العرب في الفروسية والآداب كانت أرض فلسطين مرتعاً ومصيفاً جميلاً لهم حتى إذا ما تربع أحدهم على كرسي الخلافة نشط في رفد هذا الإقليم بالبناء والإعمار في كل مناحي الحياة^(٤)، فأقيمت المدن والمساجد والقصور والسدود والطرق والصناعات، كما ضربت النقود في كثير من مدنها الهامة حتى بدت فلسطين إقليماً مميزاً بأسلوب مبانيها وفنونها العربية الجميلة.

وبعد ما شهدته القدس من اهتمام عبد الملك كان الخليفة سليمان سابقاً إلى وضع مخطط بناء لأول مدينة إسلامية في فلسطين وهي مدينة الرملة. كما كان يزيد وهشام سابقين إلى بناء أول قصر أموي متكامل قرب مدينة أريحا وهو قصر خربة المفجر المشهور.

وهكذا كان الخلفاء الأمويون يتبارون في إقامة العمائر الدينية والمدنية، وأصبحت آثارهم قمة في تاريخ الفنون الإسلامية في فلسطين وبقية أقاليم العالم الإسلامي.

ومن الجدير بالملاحظة أن عدداً كبيراً من مؤرخي الفن المستشرقين قد أسهبوا في الإشارة بمقالاتهم أو مؤلفاتهم عن الفن الإسلامي وعلاقته المباشرة بالفن البيزنطي أو الفن الكلاسيكي (اليوناني والروماني)، وبشكل خاص الفنون الإسلامية المبكرة التي نمت وترعرعت في بلاد الشام. ويبدو أن التركيز على هذا الاتجاه عدم استيعاب البعض للرابطة العربية التي ربطت بلاد الشام بالجزيرة العربية. وكذلك لم يكن العرب في بلاد الشام مجرد ناقلين أو مقلدين بل هم أنفسهم الذين ساهموا في وضع الفنون العربية

المسيحية (البيزنطية) قبل الإسلام، وهم أنفسهم الذين وضعوا الأسس الفنية لدينهم الجديد. لقد كان تقبل العرب في بلاد الشام للدين الإسلامي أثره العظيم في صمود الدعوة وانتشارها وتحقيق ركائز الدولة السياسية والاقتصادية والدينية والأدبية. لقد كانت بلاد الشام كلها مستعمرة للدول الغربية والشرقية، وقد سيطرت هذه القوى (اليونانية والرومانية والفارسية) في فترات طويلة عليها، ولكن هذه السيطرة لم تنته إلى نخل العرب من جذورهم، بل على العكس فقد ساهم الشعب العربي في هذه البلاد في كل مجالات الحياة الدينية والدنيوية خلال جثوم الاستعمار على أرضه، هذه الأرض التي شهدت منذ أقدم الفترات سلسلة طويلة من أحداث التاريخ المؤلم الذي طوق أهلها وسرق خيراتها وإنجازاتها في كل ميدان.

لعله من الأجدر أن نطلق على الفنون التقليدية في بلاد الشام قبل الإسلام اصطلاح (الفنون العربية) سواء أكانت فناً مبتكرة أو مختلطة مع التقاليد الوافدة، ولطالما استعمل مؤرخو الفنون اصطلاحات كهذه على حساب الفنون الشرقية والغربية حين أطلقوا عليها اسم الفنون الهلنستية. إن الفنون الرومانية هي التي عمّت في الأصل جمهورية روما ومستعمراتها القريبة منها. ولا ننكر أن النماذج الهامة ذات الطابع الرسمي والديني قد تم نقلها إلى المستعمرات في الإمبراطورية الرومانية الواسعة، ولكن الشعوب التي كانت تخضع تحت نفوذها كانت أيضاً ذات حضارة محلية وتقاليد وطنية، وعليه لا يمكن إنكار وجود هذا التراث وهذه التقاليد إلا إذا قبلنا أن المستعمرات الرومانية كانت خالية من شعوبها. لم يكن الاستعمار الروماني للمشرق العربي سوى جيش محتل، فرض نفوذه بالقوة، ولكن الشعب العربي قاومه بكل الوسائل المادية والفكرية حتى تمكن من دحر المعتقدات الوثنية الرومانية عندما ظهرت المسيحية في فلسطين وامتدت إلى المشرق والمغرب والتي امتدت إلى روما نفسها وأطاحت بالإمبراطورية الوثنية. ولعل هذه الصورة تتكرر في القرن السابع الميلادي عندما ظهرت الدعوة الإسلامية وأسدت الستار على تاريخ الإمبراطورية الرومانية البيزنطية في المنطقة.

وفي بلاد الشام لم تكن بذور الحضارة الإسلامية غريبة عن ديار العروبة، فالمشرق العربي هو الذي احتوى الدعوة الإسلامية منذ أيامها الأولى، ولم تكن هذه الدعوة محصورة

للعقيدة والفكر فحسب بل عملت بكل شجاعة وحماس إلى تحرير الأرض العربية من ربة الاستعمار والعبودية.

لقد كان للعرب حضارتهم الواقعية، وكان لهذه الحضارة أثرها الفعال في تاريخ الشعوب المجاورة لهم، والحضارة السليمة هي الحضارة التي تأخذ وتعطي وتتفاعل، وبلاد العرب، من الناحية الجغرافية، تتوسط العالمين الشرقي والغربي، وهي تتمتع بموقع جغرافي استراتيجي يعتبر جسراً للشعوب وللحضارات المتنوعة، ومن خلال هذا الواقع سعت القوى العالمية إلى فرض سيطرتها عليه خلال التاريخ القديم والحديث.

كانت أرض فلسطين العربية ترفل بالحضارة والثقافة وال عمران، كما كانت الصناعات الحضارية تنتشر على سواحلها وجبالها وسهولها مثل بقية أقاليم بلاد الشام. كانت المعابد والكنائس والأديرة والقصور والحمامات والموانئ والقلاع تعج بالفنون وبالتقاليد المحلية ذات الطابع الأصيل. وتم توجيه هذه المعالم وهذه الصناعات إلى خدمة المجتمع الدولي طوال قرون عديدة من الزمن، ومع دخول الإسلام إلى فلسطين وبقية أقاليم المشرق العربي تحولت هذه الصناعات والتقاليد والفنون الجميلة إلى خدمة الدين بأسلوب خاص وبعيد عن الفوضى والارتجال. لقد سعت الدولة الإسلامية إلى ضبط التقاليد القديمة. وبناء على فلسفة الإسلام واجتهاد العلماء ثم اختيار نماذج معينة من الفنون العربية المحلية، ثم ضبطها وتوزيعها بأسلوب جديد مميز عن أساليب وأنماط الفنون القديمة كلها.

لقد تم استعمال العناصر الشائعة في الفنون القديمة كالعماير والزخارف الخاصة بهـ كالنحت أو الفسيفساء أو الجصين أو كالرسوم الزيتية والمعادن الجميلة والخشب والخزف والكتابات وغيرها. لقد كانت زخارف الفسيفساء من أكثر الزخارف والفنون شيوعاً في بلاد الشام، وقد شهدت أرض الأردن وفلسطين أكبر مجموعات فسيفسائية عرفت الحضارة الإنسانية^(٥). ولعل هذه الصناعة من أعز الفنون في فلسطين، وخاصة بعد أن حظيت القدس بإقامة أول صرح إسلامي كبير فوق الصخرة المشرفة إذ كانت زخارفه من الفسيفساء الزجاجي الملون، كما ازدهرت صناعة الفسيفساء في موقع إسلامي آخر في فلسطين وهو المعروف بقصر خربة المفجر أو قصر هشام، بالقرب من

مدينة أريحا، فكانت الأساليب على النماذج مشبعة بالحركة والحياة، كما كانت متأثرة بالأساليب المحلية القديمة.

لقد كان العرب في بلاد الشام مؤهلين من الناحية الفنية ولهم في فنون تاريخهم الحضاري موهبة جمالية انطلقت من الجزيرة العربية لغة وأدباً وشعراً، وانسجمت في بلاد الشام مع متطلبات أدوار التاريخ على الصناعات الفنية التي انتظمت في معابدهم أو كنائسهم أو قصورهم تسجل روائع خالدة في الآداب والفنون الإنسانية. وحفظ لنا التاريخ نماذج نادرة في صناعة الأفسيفساء في كم مأدبا وجرش وبيسان وبيت لحم وإنطاكية والشهباء وتدمر وغيرها، وكان لا بد من قيام مدرسة فكرية وجمالية جديدة تحتل موقعها المناسب على جسم الحضارة الإسلامية الجديدة في المنطقة.

فسيفساء قبة الصخرة في القدس ٧٢٢هـ | ٦٩١م.

تعتبر الفنون والزخارف الجدارية المصنوعة من الفسيفساء داخل بناء قبة الصخرة في القدس من الأمثلة الفريدة لأصول فن الزخرفة في العمارة الإسلامية. ولم تكن هذه الزخارف نماذج خيالية أو عشوائية بل كانت ذات منطق إسلامي صريح نابع من فلسفة الإسلام ومنسجمة مع نهج الرسول الكريم. ولعل المهندسين الذين وقفوا على زخرفة بناء قبة الصخرة، من حيث التوزيع الملائم للبناء، أو من حيث المواضع، أو من حيث الأسلوب، قد أدركوا القيمة المعنوية لهذا البناء، فعملوا بذلك على وضع الأصول المناسبة للزخارف الإسلامية وخاصة ضمن بناء ديني له اعتباره الروحي الكبير^(١). ولذا كان لا بد من الحيلة والحذر لكي لا يقع خطأ ما يتنافى مع التعاليم الإسلامية أو يتعارض مع ذوق المسلمين.

ولما كانت مدرسة الفنون العربية قبل الإسلام تزخر بنماذج فنية، ذات طابع ديني، كثيرة ومتشعبة، كان لا بد من ابتكار مدرسة جديدة للفنون الإسلامية، لها شخصيتها المستقلة ولها طابعها الخاص المميز عن بقية المدارس والأساليب التي شهدها المنطقة عبر تاريخها الطويل. وبالفعل تم استنباط نماذج جديدة شكلاً ومضموناً لتناسب العقيدة الإسلامية ولكي تعكس الشخصية المستقلة للدولة القوية القائمة.

كانت جدران بناء قبة الصخرة الداخلية هي المكان المناسب لتطبيق الأفكار والأساليب الفنية الإسلامية الأولى. وكان ذلك في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان (٦٨٥ — ٧٠٥). فمن حيث نوع الفسيفساء فقد تم اختيار النوع الزجاجي والملون بالألوان الرئيسية ومشتقاتها، بالإضافة إلى قطع صغيرة من الصدف، أما من حيث المواضيع فقد تم اختيار نماذج نباتية خالصة، أو متحدة كالشجر الكثيف الأوراق والقليل الأغصان الذي ينطلق من منابت خصبة، أو بشكل مزهريات محشوة بالأغصان والأزهار، أو لفائف متسلقة من الأغصان المنتشرة على مساحات واسعة بشكل لولبي متكرر. أما المواضيع الأخرى فكانت النماذج الهندسية المتكررة التي اعتمدت الإطارات الهامشية المحيطة بالمناظر المصورة. ومن المواضيع الأخرى الشائعة ما يسمى بأسلوب (الارابسك)، حيث كان التوزيع الهندسي هو الهيكل للنماذج النباتية أو بالعكس.

أما أسلوب هذه اللوحات الفسيفسائية فلقد اعتمد المركزية لكل موضوع ولعل التوازن والتناظر في توزيع الشكل كان أسلوباً تقليدياً، كما أن الأسلوب قد اعتمد مبدأ المبالغة والتكرار وملء الفراغ والجمود والابتعاد عن العمق الفني. لوحة ٣.

إن النماذج النباتية تمثل القسم الأكبر من لوحات الفسيفساء الزجاجية الملونة. إن هذه النماذج تمثل أغصاناً وأوراقاً وأزهاراً وثماراً ضمن شريط طويل له إيقاع فني جميل، ولعل التناظر في توزيع الأغصان أو الأوراق أو الثمار على النموذج الواحد يوحى وكأننا حيال الأوزان الشعرية المنتظمة والمنسجمة التوزيع. وكثيراً ما نلاحظ أغصاناً منتظمة الحركة تنطلق من مركز محدد ثم تتوزع باتجاه واحد أو باتجاهين متناظرين أو بحركة دائرية منتظمة تمكن الفنان من تعبئة الفراغ. (لوحة ٤، ٥).

إن هذا الأسلوب يمثل ظاهرة صوفية في الفن الإسلامي فهو يستقطب المسلم روحياً ويعزله تماماً عن مظاهر الحياة المادية. لقد سيطر على رواد الفنون الإسلامية شعور عميق ضد تصوير جميع المخلوقات ذات الأرواح، ولعل هذا الشعور ينسجم مع آراء الرسول الكريم نحو الصور والمصورين، كما كان شبح الوثنية لا يزال ماثلاً للذاكرة حين ساد الاعتقاد بأن رسوم المخلوقات كانت تحتوي على الأرواح ولها امتيازات خاصة وطقوس خفية شجعت السحر والخرافات^(٧).

لقد نجح الأوائل في الفنون الإسلامية في وضع أسس فنية جديدة ليس للمسلمين فحسب بل للحضارة الإنسانية كلها. ولعل زخارف الفسيفساء الجدارية المصنوعة من الزجاج الملون كانت عنصراً جيداً لإثبات هذه الحقيقة داخل بناء قبة الصخرة في القدس. إن دخول الضوء الطبيعي من نوافذ الجدران والقبة كانت كفيلة لأن تجعل المكان قبة ساطعة بالنور المتشابهة مع ألوان طيف الشمس وبقية الألوان. وهذا بطبيعة الحال، يجلب المسرة والراحة والاعتزاز في نفوس المصلين داخل البناء. (لوحة ٦، ٧).

نلاحظ توزيع النماذج والوحدات الفنية على واجهات الجدران الداخلية وعلى الأقواس المحمولة وعلى عنق القبة الداخلي المطل على الصخرة المشرفة. بينما تم تغطية بقية الأجزاء بصفائح من الرخام المعرق والملون المصقول. ويمكن لنا وضع الخصائص الفنية للرسم الإسلامي من خلال دراستنا لجميع النماذج الفنية في بناء قبة الصخرة. إن الخصائص الفنية قد انحصرت ضمن هذه الشروط:

- ١ — انطلاق المنظر من مركز اللوحة.
- ٢ — التوزيع المتناظر حول النماذج المصورة.
- ٣ — انتشار الأغصان بطريقة التموجات المنتظمة لتعبئة الفراغ في اللوحة.
- ٤ — الأشكال والخطوط الهندسية ذات طبيعة نباتية، أو النباتات تتوزع بشكل هندسي.

- ٥ — الجمود والسكون يسيطران على معظم المناظر الفنية.
 - ٦ — المبالغة الغير طبيعية في التوزيع النباتي من حيث الحجم أو اللون.
 - ٧ — الاعتماد على البعد الأول في التصوير.
 - ٨ — نخلو الأشكال البشرية وكافة صور المخلوقات من اللوحات والمناظر الفنية.
- اعتمدت الفنون والزخارف الإسلامية في معظم صناعاتها على المهارة في الرسم، ولا بد أن تتم عملية الرسم قبل المباشرة في صناعة أي عمل فني^(٨). لقد كانت خصائص الفنون الإسلامية المبكرة في فلسطين وفي أقاليم بلاد الشام الأخرى تخضع لمعظم الشروط التي تم حصرها، وخاصة في فنون بناء قبة الصخرة في القدس. غير أن هذه الشروط لم تستمر طويلاً بعد الخليفة عبد الملك بن مروان، ولنا من العالم الفنية الكثيرة التي خلدها أبناؤه الوليد وهشام ما يخرج عن القاعدة الفنية وحتى ما هو خارج عن التعاليم والتقاليد

الإسلامية^(٩). غير أن الزخارف المجردة وذات الأسلوب المشترك بين الأشكال النباتية والهندسية بقي محافظاً على حاله ومستمراً ونشطاً عبر العصور الإسلامية كلها، وهذا الأسلوب دفع كثيراً من مؤرخي الفن إلى تسميته بـ (الأرابيسك) أي الفن العربي الذي تناوله الفنان المسلم في جميع أقطار العالم الإسلامي بدون استثناء^(١٠). لوحة (٨،٧).

وفي زخارف بناء قبة الصخرة، كانت أهم الخصائص تنصب على اختيار مركز اللوحة ومحورها، فكان غالباً ما يتكون من شجرة أو مشربة تنطلق منها الأغصان والأزهار والأوراق ويتم توجيه هذه الأغصان بطريقة متناظرة ومنظمة، تحقق انتشاراً طبيعياً في أنحاء اللوحة والمكان. كما استعمل الفنان نماذج من أوراق الخرشوف البري (الأكانتوس) وقد تمكن من تحقيق صورة طبيعية لهذه النباتات بواسطة عناصر الضوء والظل في الرسم، فكانت أوراق الخرشوف تبدو يانعة وندية تنطلق منها أغصاناً متموجة بشكل لولبي منظم. وهذه النماذج وهذه الخصائص تم توزيع المناظر النباتية المرسومة على جدران بناء قبة الصخرة الداخلية كلها. ولا شك أن استعمال الفسيفساء الزجاجية والصدف قد جعل لهذه اللوحات بريقاً خاصاً يجسج بين عصرية المنظر وبين صخب الألوان الحادة والمتعددة.

وزيادة في تأكيد قداسة المكان ونقاء الزخارف تم تخصيص إطار امتد على قمة الجدران الداخلية يحتوي على آيات من القرآن الكريم، وقد تضمن هذا الشريط كتابة تذكارية تشير إلى الباني وسنة البناء. ورغم أن سنة البناء قد سجلت السنة ٧٢ للهجرة غير أن تحريفاً لاسم الباني قد حصل في وقت لاحق حيث تم استبدال اسم الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان باسم الخليفة العباسي المأمون. إن الشريط الكتابي المشار إليه يمثل نموذجاً لأقدم أساليب الكتابة العربية الإسلامية، وهو الأسلوب الكوفي البسيط الذي ازدهر في الكتابات الإسلامية المبكرة. وقد بلغ طول هذا الشريط الكتابي حوالي ٢٤٠ متراً^(١١).

ذكرت بعض المصادر التاريخية الإسلامية أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قد أوعز إلى كل من رجاء بن حيوة ويزيد بن سلام للإشراف على تنفيذ بناء قبة الصخرة وزخرفتها، وقد عرف من المصادر أيضاً أن أحدهما من مدينة القدس والآخر

من مدينة بيسان في فلسطين. لا بد أن لهذين المشرفين علاقة وثيقة بأعمال التصميم والتنفيذ^(١٢). نلاحظ في تاريخ العمارة القديمة أن بعض الأشخاص قد اقترنت أسماؤهم ببناء العمائر الضخمة كما في تاريخ العمارة الرومانية أو البيزنطية وحتى في تاريخ العمارة الإسلامية فيما بعد، ومن هنا نلاحظ الصفة الخاصة لمثل هؤلاء في التصميم أو التنفيذ للعمائر التي اقترنت أسماؤهم معها.

وخلاصة لمفهوم الفن الإسلامي المبكر في زخارف قبة الصخرة الداخلية نلاحظ أن الفنان العربي المسلم قد استمد من تراثه القديم أسلوباً خاصاً وجديداً ينسجم مع الفلسفة والتقاليد الإسلامية بحيث استطاع أن يضع المسلمون داخل هذا البناء في جو خاص منعم بالطبيعة المجردة ذات الألوان الزاهية والبريق الحاد، وكأنه قصد بهذا الأسلوب تحويل المكان إلى جنة أو حديقة غناء. فالأشجار والأغصان والأزهار والثمار كلها عناصر ذات طابع شولي مجرد، وبعيدة عن المظاهر المادية الخاصة بالإنسان. ولطالما كانت هذه العناصر الفنية مبادرة رائدة في كافة الفنون الإسلامية في مختلف العصور.

الفنون والزخارف في خربة المفجر (قصر هشام) (٧٢٤ - ٧٤٣).

بالقرب من مدينة أريحا تم اكتشاف قصر أموي كبير يدعى خربة المفجر. وقد أطلق عليه بعض المؤرخين اسم قصر هشام. ويتكون هذا القصر من مجموعة من المباني والغرف والساحات، وهي بمثابة قصر الخليفة الخاص والحمام والمسجد وتوابعها. كما كان يحيط هذه المباني جميعها أسوار محصنة بالقلاع والأبواب، وقد تم توزيع هذه المرافق توزيعاً هندسياً محكماً انسجم مع الأسلوب الأموي الشائع في عمارة بلاد الشام. ولعل بناء هذا القصر من حيث التنظيم الهندسي أو من حيث الموقع يعكس رغبة الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك، في الاستقلال عن حياة المدن الكبيرة والابتعاد عن شتاء العاصمة البارد، ولقضاء فصول الشتاء على سواحل البحر الميت، وقرب حدائق أريحا الدافئة^(١٣).

ويبدو أن الدولة الأموية قد جهدت في استقطاب خيرة المهندسين والنحاتين والفنانين لبناء هذا القصر وجعله قمة في الفنون الإسلامية. لقد شهدت ساحات هذا القصر وأرضيات معظم المرافق أكبر ساحة مرصوفة بالفسيفساء الحجري والرخامي الملون

على سطح الأرض. ولوحظ أن زخارف الفسيفساء الأرضية قد أكدت المقدرة الكبيرة التي عرفها الإنسان العربي في فلسطين، منذ عدة أجيال. لقد تم توزيع أرضيات القصر الخاص بالاستقبال وكذلك أرضية الحرم الضخم توزيعاً هندسياً جذاباً بحيث كانت مرصعة على الأرض وكأنها مجموعة من السجاد المزخرف، والمفروش بانتظام في جميع الأماكن. وكان لكل سجادة أسلوب خاص في زخرفتها، ولو أن جميع هذه الزخارف كانت تعتمد الأسلوب الهندسي الخالص. لقد أصبح الأسلوب الهندسي يمثل اتجاهاً جديداً في تاريخ الفنون الإنسانية تبناه المسلمون طوال تاريخهم الحضاري. ولا شك أن اعتماد الأسلوب الهندسي في زخارف الصروح الإسلامية قد فتح آفاقاً جديدة ومتعددة في الفن الإسلامي، كما أكد مقدرة العرب العلمية والفنية. ولعل الأسلوب الهندسي كان هدية العرب لحضارة الدولة الإسلامية الناشئة.

إن زخارف الفسيفساء الأرضية في خربة المفجر تمثل طابعاً هندسياً عاماً (لوحة ١١)، ولكن طبيعة هذه الأشكال والخطوط كانت تتكون من عناصر أو نماذج فنية صغيرة وهي في معظم الحالات من النباتات أو الأزهار. ولذلك اقتضى الأمر أن تكون هذه العناصر الصغيرة من حجارة الفسيفساء الصغيرة جداً. ففي بعض اللوحات نجد أن مساحة ١٠ سم^٢ منها تحتوي على ١٦٥ قطعة من الفسيفساء وأحياناً نجد ٦٠ قطعة في مثل هذه المساحة، وبطبيعة الحال تكون الحجارة أو القطع صغيرة في الحجم كلما كان النموذج المرسوم دقيقاً ومعبراً^(١٤).

تمكن الفنان المسلم في خربة المفجر من تحديد أنماط الأشكال الهندسية في زخارف الفسيفساء، فانطلق يرسم المثلث والمربع والمستطيل والشكل الخماسي والسداسي والسباعي والثماني، وكذلك الدائرة أو أجزاء منها، وقد تمكن أيضاً من دمج هذه الأشكال مع بعضها بشكل دقيق، وهذا العمل جعل الأشكال المحدثة غزيرة ومتنوعة. وربما يتصور أحدنا أن الأشكال الناتجة عن تقاطع الخطوط هو عمل بسيط يعتمد على التكرار، ولكن في الواقع أن هذا العمل يحتاج إلى دقة متناهية في الحساب والهندسة حتى يتمكن الفنان من استنباط نماذج جميلة تستحق الثناء والتقدير. وبالإضافة إلى الأشكال الهندسية كان هنالك مجموعة كبيرة من الأشكال الفنية الأخرى مثل اللوائف الحلزونية

والشبائك والجدائل والأشكال الصدفية والأشرطة المتموجة، وكذلك مجموعات كبيرة من نماذج الورود والأوراق والثمار، وقد ساهمت الألوان المتعددة في تحقيق مستوى جيد من التعبير والأداء الفني وخاصة في إبراز طبيعة الضوء والظل على هذه النماذج^(١٥).

وفي خضم هذا العدد الكبير من اللوحات الأرضية التي تمثل الأشكال الهندسية الصامتة والنماذج النباتية المتعددة تم العثور على لوحة فريدة من الفسيفساء تمثل صورة شجرة ضخمة وقد ظهر تحتها أسد يهاجم ثلاثة غزلان^(١٦)، ولعل هذا المنظر هو أول عمل فني إسلامي مصنوع من الفسيفساء يصور منظرًا للمخلوقات، كالأسد والغزلان (لوحة ١٢). وتعتبر هذه اللوحة هي المنظر الوحيد الذي تجاوز رسوم الزخارف في هذا القصر من حيث الأسلوب والموضوع، ولذلك اختلف عدد من مؤرخي الفن في تفسير أبعادها الفنية، وكما عزاها البعض إلى تفسيرات رمزية لقضايا اجتماعية أو سياسية، وخاصة لوجود هذه اللوحة في قاعة الديوان الخاص بحمام الخليفة^(١٧). إن الأسلوب الفني الإسلامي لا يشابه الأسلوب الفني الغربي في تصوير الأفكار بالرموز. لقد كان الفنان المسلم بعيداً في سعيه هنا عن إبراز أي صيغة للرمزية ولم يكن سعيه في الواقع إلا البحث عن الجمال الصوفي والتكامل الفني الذي يعكس مقدرته على الإبداع والتجديد.

لقد كانت مدارس فنون الفسيفساء في كل من الأردن وفلسطين تعكس المقدرة والمهارة الفنية من جهة وتعكس أبواباً متعددة في المواضيع الدينية والأدبية من جهة أخرى. ومن خلال استعراضنا للفنون العربية المسيحية التي شاعت في كل من مأدبا وجرش وبيسان وبيت لحم يمكن لنا متابعة التنوع في الأساليب والمواضيع ضمن الإطارين الديني والأدبي. ومع ظهور الإسلام في فلسطين وبقية أقاليم بلاد الشام نلاحظ أن الفنون قد تم ضبطها في البداية ضمن إطار محدود ينسجم مع الفلسفة الإسلامية والتعاليم الدينية.

ويبدو أن الفنون في خربة المفجر قد تجاوزت الإطار المشار إليه، وقدمت نماذج مذهلة في الفنون الجديدة على مواد مختلفة من الفسيفساء أو الجبصين أو الحجارة أو الرسوم الزيتية. لقد تجاوزت فنون خربة المفجر كثيراً من القيود وخاصة فيما يتعلق بتصوير المخلوقات ولا شك أن الرسوم الزيتية الموجودة على جدران قصير عمرة شرقي

عمان كانت البداية الأولى للجريئة لمثل هذا التجاوز^(١٨). وشملت رسوم هذا القصر صوراً متعددة من الواقع والخيال للمخلوقات الآدمية والحيوانية وسواها، فكانت صورة الخليفة ورسوم ملوك العالم ورسوم النساء السافرات ورسوم الحيوانات والطيور وغيرها. ويبدو أن التجربة الأولى في إخراج الفنون الإسلامية عن صمتها قد تمت في قصر عمرة بالأردن، وقد تم متابعة النشاط الجديد وبشكل موسع وكبير في خربة المفجر بفلسطين. لقد احتوى قصر خربة المفجر أنواعاً متعددة من الصناعات الفنية وكانت لوحة شجرة البرتقال والغزلان من أول النماذج التي تصور المخلوقات على أرضية الحمام الفسيفسائية.

ومن المواد الجديدة التي أدخلها الفنان المسلم في فلسطين هي مادة الجبصين، فقام بتغطية جدران القصر الداخلية بالألواح كبيرة تمثل زخارف من الجبصين المحفور (لوحة ١٤، ١٣) أو المصنوع ضمن قوالب خاصة تمثل تشكيلات هندسية ونباتية متنوعة^(١٩)، وقد تم ترميم أقسام كثيرة منها. ولم يكتف بهذه النماذج بل توسعت الفنون في إنتاج نماذج للإنسان والحيوانات والطيور، وعلى سبيل المثال كان لتمثال الخليفة هشام، وهو يقف فوق قاعدة عليها أسدين، ضجة كبيرة في تاريخ الفن الإسلامي، ولأول مرة يبدو خليفة مسلم في تمثال من الجبصين وهو واقف يرتدي حلة (لوحة ١٦) مهية ويضع يده على مقبض سيفه، تماماً كما هو مألوف في رسوم والده الخليفة عبد الملك بن مروان^(٢١) على واجهات النقود الأولى التي صكها في دمشق سنة ٧٦ — ٧٧ هـ. وفي أرجاء قاعلت القصر والحمام نجد نماذج خيالية للأطفال والنساء وللطيور والحيوانات وكل منها يأخذ موقعاً مناسباً مع هندسة المكان وغايات استعماله. (لوحة ١٥).

إن العناصر الفنية لزخارف الجبصين في خربة المفجر متعددة جداً وهذا يمكن لنا القول إن الفنان العربي المسلم في فلسطين قد أثرى الفنون الإسلامية المبكرة بأكثر مجموعة فنية من حيث المادة والموضوع والأسلوب. وباعتبار قصر الخليفة هشام قد أسهم في وضع مادة الجبصين لاستعمالات إنشائية وزخرفية في العمارة الإسلامية، ومنه انتشر إلى بلاد الشام كلها. ولوحظ أن الأساليب الفنية التي ابتكرها الفنان المسلم في فلسطين قد عزاهها بعض مؤرخي الفن إلى مصادر أجنبية.. فأحياناً يتم ربطها مع الفنون الكلاسيكية وأحياناً

تم ربطها مع الفنون الفارسية وبحماس كبير^(٢٢). وللأسف تم تجاهل مقدرة الإنسان العربي في إنتاج هذه الأساليب الراقية التي سبق وشهدت في نماذج الفسيفساء والحجارة والمعدن التي أبدعها العرب قبل الإسلام بفترة ليست بعيدة. لم يكن الفنان العربي في فلسطين بعيداً عن المدارس الفنية العربية التي شاعت في كل أقاليم سورية إبان الحكم الروماني والبيزنطي. فقد ساهم مساهمة نشيطة ومباركة في وضع الخطوط العريضة لصناعة الفنون الإسلامية منذ أيام الإسلام المبكرة.

زخارف بناء المسجد الأقصى

شهد بناء المسجد الأقصى في القدس عدة تغيرات وإضافات عبر أحداث التاريخ التي شهدتها فلسطين. ولا شك أن أساس البناء أموي يعود تاريخه لأيام الخليفة الوليد بن عبد الملك، وشهد البناء توسيعاً في بداية العصر العباسي (لوحة ١٧)، واستمر التجديد والإعمار فيه أيام الفاطميين والأيوبيين والمماليك والعثمانيين. وقد كان البناء ضحية لتغيرات شاملة إبان احتلال الفرنجة لمدينة القدس من سنة ١٠٩٩ ولغاية ١١٨٦. ولعل الاحتلال الفرنجي قد أتى على معظم المعالم الفنية التي أقامها الأمويون والعباسيون داخل هذا البناء، حيث استعمله الفرنجة مكاناً لإقامتهم ولمساكنهم ومخازن لقوتهم. ويبدو من الآثار والفنون التي سلمت من العبث مجموعة من الجسور الخشبية أو الدعام المخرقة التي أقامها الفاطميون عندما تم تحديد السقف أيام الخليفة الحاكم في مطلع القرن الحادي عشر الميلادي^(٢٣). (لوحة ١٨، ١٩، ٢١).

تنحصر الجسور الخشبية الممتدة فوق تيجان الأعمدة بين صحن المسجد المتوازية، وتبلغ أطوال الألواح الخشبية هذه حوالي ١٣ متراً، وقد تم رسم الزخارف على واجهاتها المطلّة على صحن المسجد وقوام هذه الزخارف الدهان الزيتي بألوان حادة تمثل زخارف نباتية وهندسية تتناسب أسلوباً مع الزخارف الأموية الشائعة في فلسطين، كما نجد في موقع آخر من المسجد ألواحاً خشبية كبيرة الحجم تم تغليفها بصفائح خشبية رقيقة من خشب الصنوبر وعليها نماذج في غاية الدقة والكمال. إن الصفائح المحفورة هذه تشكل مدرسة فنية إسلامية تمتد في جذورها إلى الأساليب المبتكرة في الفن

الإسلامي، وتعتبر هذه اللوحات من أجمل النماذج الإسلامية المحفورة على الخشب بشكل نافر وعميق^(٢٤). (لوحة ٢٢-٢٦).

إن أسلوب النحت على واجهات هذه الجسور الخشبية يمثل المركزية في كل لوحة، ويعتمد المنظر على مزهية متوسطو تنطلق منها الأغصان والأزهار باتجاهات منتظمة يحكمها التوازن والتناظر. كان تنويع اللوحات يحافظ على الأسلوب العام من حيث التكرار في رسم النماذج أو التنويع في أشكالها. ولعل دمج الأسلوب النباتي بالأسلوب الهندسي يوفر فرصة كبيرة للتنويع أو التشكيل أو التكرار. إن الأشكال الفنية التي صممها الأمويون داخل بناء قبة الصخرة سواء من الفسيفساء أو على الألواح المعدنية تذكرنا بأصالة الأسلوب، وكذلك الأشكال الفنية التي وجدت بكثرة في السواح الجبسين بقصر هشام في أريحا، تؤكد العلاقة الوطيدة بين صانعي النماذج، فهم سواء في العصر الأموي أو العصر الفاطمي من أبناء فلسطين. أن التشكيلات الفنية التي تم حصرها في قصر هشام الأموي تعتبر المصدر الأصيل للفنون الإسلامية التقليدية. ونتيجة لمقارنة الزخارف والفنون الإسلامية المبكرة نلاحظ أن هذه النماذج متشابهة وكأنها مصنوعة بيد واحدة أو تحت إشراف فنان واحد. ولو أن التاريخ السائد لزخارف المسجد الأقصى الخشبية قد تم حصره في بداية العصر العباسي، وأحياناً في عهد الفاطميين، غير أنني لا أريد أن أتحدث عن القناعة بأن صانع هذه اللوحات الخشبية هو من أبناء أو أحفاد الفنانين الفلسطينيين الذين ساهموا في زخرفة بناء خربة المفجر في أريحا. إن الزخارف النباتية المنتظمة في لوحات الجبسين التي كانت تغطي جدران القصر الداخلية في خربة المفجر تتكرر من جديد في زخارف المسجد الأقصى المحفورة على جسور الخشب، وتتكرر التجربة ذاتها على صفائح من النحاس في بناء قبة الصخرة الذي بني قبل المسجد الأقصى وقبل خربة المفجر بعدة سنين. (لوحة ٧).

الفنون الإسلامية في العصور المتوسطة والأخيرة.

لقد ساهمت الفترة الأيوبية بجهود كبيرة في زخارف المباني الإسلامية وبشكل خاص مباني مدينة القدس. فقد حرص صلاح الدين الأيوبي على إعادة الأماكن الإسلامية إلى سابق عهدها، وقام بترميم وإضافة أقسام جديدة عليها، ولا شك أن عهده يتسم

بالإعمار والإصلاح فهو منقذ القدس ومحرر فلسطين، ولا بد أن تنعكس آثار دوره البطولي على المباني المقدسة والعزيزة على جميع المسلمين. كان من أول أعماله صيانة المسجد الأقصى وإزالة الأنقاض والأقسام التي أضافها الفرنجة داخل البناء. كما أمر بترميم أقسامه ورصف ساحاته وواجهاته بالرخام الجميل، ورصع بعض الأقسام بالفسيفساء المذهب والملون، كما جدد محراب المسجد وزخرفه بالفسيفساء وبالنقوش التذكارية وأهمها النص الذي خلده فوق المحراب وفيه الكتاب التالية^(٢٥):

((بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد هذا المحراب المقدس وعمارة المسجد الأقصى الذي هو على التقوى مؤسس، عبد الله ووليه يوسف بن أيوب أبو المظفر الملك الناصر صلاح الدين عندما فتحه الله على يديه في شهر سنة ٥٨٣ وهو يسأل الله إدامة شكر هذه النعمة وإجزال حظه من المغفرة والرحمة)) .

ولعل أشهر آثار صلاح الدين في المسجد الأقصى هو إحضاره للمنبر المشهور (لوحة ٢٠)، الذي بناه نور الدين محمود قبل حوالي عشرين عاماً من تحرير القدس، والذي كان حليماً يرأده ليقدمه هدية إلى المسجد الأقصى يوم تحرير القدس، ولكن ذلك لم يتحقق إلا على يد صلاح الدين. وقد تم عمل هذا المنبر الجميل في مدينة حلب وبقي في مسجدها الكبير طيلة هذا الوقت بانتظار اليوم الموعود لوضعه داخل المسجد الأقصى، وقد حشد نور الدين لهذا العمل أشهر الصنائع والنقاشين فكان مثلاً فريداً للفنون الإسلامية فهو مصنوع من خشب أرز لبنان، وتم ترصيع أقسامه بالعاج والأصداف، كما تم ربط أجزائه ربطاً محكماً بخيوط من الذهب والفضة، وقد نقش على جوانبه كتابات قيمة منها الكتابة التاريخية التالية^(٢٦):

((بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بعمله العيد الفقير إلى رحمته، الذاكر لنعمته، المجاهد في سبيله، المرباط لأعداء دينه، الملك العادل نور الدين، فكر الإسلام والمسلمين، ومنصف المظلومين من الظالمين، أبو القاسم محمود بن زنكي أبو سيف ناصر أمير المؤمنين، أعز الله أنصاره، وأدام اقتداره، وأعلى مناه، ونشر في الخافقين ألويته وأعلامه، وأعز أولياء دولته، وأذل كفار نعمته، وفتح له وعلى يديه، وأقره بالنصر، وارحمنا برحمتك يا رب العالمين، وذلك سنة ٦٥٤)) .

وهناك كتابة أخرى على جانب المنبر اليميني، تجاه الخراب، كتب عليها الآية الكريمة التالية:

((بسم الله الرحمن الرحيم، في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغد والآصال، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقامة الصلاة وإيتاء الزكاة)) .

كما تم كتابة آية أخرى على جهة المنبر اليسرى جاء فيها:

((إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وأتى الزكاة ولم يخش إلا الله، فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين)) .
هذا وقد أحيطت جوانب المنبر بآية الإسراء:

((سبحانه الذي أسرى بعبد له ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا أنه هو السميع البصير)) .

ولعل بناء المسجد الأقصى وما احتواه من آثار إسلامية فريدة تمثل سجلاً كاملاً لتاريخ الإسلام في فلسطين. ولما كانت معظم موجوداته الفنية من الخشب قامت الحركة الصهيونية بدفع عميل للقيام بحرق المسجد الأقصى بتاريخ ٢١ / ٨ / ١٩٦٩، وذلك سعيًا وراء طمس تاريخ العرب والمسلمين في هذا البناء العزيز^(٢٧).

ومن جهة أخرى كان من أهم أعمال صلاح الدين تجديد قبة الصخرة الداخلية، حيث تم تجديد الخشب وزخرفته بالنقوش النباتية وبالكتابات النافرة المطبوعة بماء الذهب، وقد كتب في القبة الداخلية^(٢٨) (لوحة ٦):

((بسم الله الرحمن الرحيم، أمر بتجديد وتذهيب هذه القبة الشريفة مولانا السلطان الملك الناصر العادل صلاح الدين يوسف بن أيوب تغمد الله برحمته وذلك في شهور سنة ست وثمانين وخمسمائة)) .

استمرت أعمال الإعمار والبناء أيام حكم الأيوبيين (١١٧١ — ١٢٤٩)، واستمر الاهتمام في مباني القدس الإسلامية في أيام المعظم عيسى ابن أخ صلاح الدين الأيوبي، ولكن الحركة المعمارية والفنية في فلسطين تضاعفت إبان حكم المماليك (١٢٥٠ — ١٥١٦). لقد جدد هؤلاء الصروح الإسلامية المهمة في القدس، كما أقلموا

القلاع والحصون والمزارات والمقامات على أضرحة الأنبياء والصحابة والمجاهدين، وذلك احتراماً لهم ووفاءً لذكراهم، وسعيًا لتوثيق الأمة بأرضها وتاريخها الحافل، ولنا من مقامات النبي صالح في الرملة، والنبي موسى بين القدس وأريحا، والنبي روبين في يافا، ووادي النمل في عسقلان، والمنطار في غزة وغيرها الكثير، حيث كان المسلمون يجتمعون حول هذه المقامات في المناسبات الدينية. لقد ترك المماليك كتابات ونقوش عديدة على معظم إنجازاتهم والتي تسجل لهم أعمالهم القيمة بأحرف من نور. ومن أهم هذه الإنجازات قلاع صفد ورأس العين ويافا وعمائر القدس وغزة ونابلس والخليل وطبريا والنبي موسى وغيرها من مدن فلسطين.

ولعل امتداد حكم المماليك على مصر وبلاد الشام طيلة قرنين ونصف من الزمان تقريباً قد ساهم في مضاعفة النشاط العمراني والتجاري، وهذا وفر للدولة إمكانيات مادية كبيرة للإصلاح وأعمال البناء. وهناك أعداد كبيرة من المباني كالجوامع والزوايا والأضرحة والمدارس والجسور والبرك وغيرها من الآثار القيمة على أرض فلسطين، ومن أشهر السلاطين المماليك الذين أسهموا في رعاية الصروح والمباني في فلسطين كان الظاهر بيبرس (١٢٦٠ — ١٢٧٧) الذي عرفته المنطقة كفارس شجاع وسلطان حكيم، وله يعود الفضل في بناء باب الأسباط في مدينة القدس حيث تم نحت صورة أسدين على طرفي الباب وهما شعار الملك الظاهر بيبرس وهذا الشعار موجود على معظم المباني التي أقامها بيبرس في فلسطين والأردن وفي مصر والشام^(٢٩).

وفي ساحة الحرم الشريف نجد عدداً من المباني التي أقامها المماليك كالمآذن المربعة والأقواس والقباب المزخرفة كقبة المعراج المباركة^(٣٠).

لقد ترك العهد العثماني آثاراً كثيرة في فلسطين، وكانت في مجملها صروحاً دينية وعسكرية ومرافق عامة كالمساجد والزوايا والمدارس والقلاع والأسوار والبرك، وقد تركزت معظم هذه المباني في مدينة القدس بصفة خاصة، وفي مدن الساحل الفلسطيني بصورة عامة. وقد مهد السلطان سليم (١٥١٢) حكم ولايات المشرق العربي لابنه السلطان سليمان القانوني (١٥٢٠ — ١٥٦٦) الذي كان له دور عظيم في إقامة المباني وازدهار صناعة الفنون الزخرفية. ومن أشهر ما عرف عن السلطان سليمان اهتمامه

بمدينة القدس فجدد أسوارها وأبوابها، وزخرف بناء قبة الصخرة (لوحة ٩، ١٠) بأجمل أنواع الخزف الزجاج والملون ذي التشكيلات النباتية والهندسية. لقد تذوق السلطان سليمان الفنون والزخارف الإسلامية وشجعها، وتأثر بالمهندسين والفنانين الأتراك المسلمين الذين أقاموا مصانع خاصة بالخزف في أنحاء متعددة من الأناضول. وفي ميدان العمارة كان على راس المهندسين العاملين في قصره المهندس سنان الذي أقام وصمم عدداً كبيراً جداً من المباني الدينية والمدنية المتنوعة في أرجاء الامبراطورية العثمانية^(٣١).

إن تغطية واجهات بناء قبة الصخرة بالبلاط المزجج قد ساهم في حفظ البناء أولاً، كما جعل لبناء القبة منظراً سامياً خالداً يضاهي جمالها الداخلي، ويجعل من البناء جوهرة ساطعة في وضوح النهار بتأثير انعكاس الشمس على البناء، وقد أضاف على الزخارف التقليدية كتابات قرآنية من البلاط المزجج أيضاً عليها سورة (يس) مكتوبة باللون الأبيض فوق أرضية زرقاء غامقة. لقد كانت القبة والسقف مغطاة باشرطة من الرصاص غير أن ترميماً شاملاً قد تم للقبة الرصاصية باستبدالها بقبة أخرى من الألمنيوم المطلي بالذهب وذلك قبيل احتلال القدس عام ١٩٦٧.

لقد ساهم السلطان سليمان القانوني بتحديد النوافذ القديمة ووضع بدلها نوافذ مطلية بالذهب، كما جدد الأبواب الخارجية للقبة. ويبدو أن السلطان سليمان حشد فريقاً ضخماً من المهندسين لزخرفة البناء، وجاء في كتابة ذهبية فوق لوحة نحاسية موضوعة فوق الباب المعروف بباب الجنة جاء فيها:

((جدد بحمد الله قبة الصخرة من بيت المقدس الفائقة ببناؤها في ظل دولة السلطان الأعظم والخاقان الأكرم واسطة عقد الخلافة بالنصر والبرهان أبي الفتوح سليمان خان)) .

لقد لوحظ اهتمام ملوك وأمراء المسلمين وسلاطينهم تركز في مدينة القدس وذلك لقداستها الخاصة ولاعتبارها الأدبي في الدولة الإسلامية، فمنذ ظهور الإسلام كانت القدس ملتقى الأنظار بعد مكة والمدينة في قلب الجزيرة العربية، وعندما دب الضعف في الدولة العباسية وحدث الانقسام والتصدع في أقاليم الامبراطورية الإسلامية، بدأت القوى الاستعمارية تركز سهامها نحو القدس، وبالفعل كانت أوروبا تقذف

بجيوش الفرنج نحو القدس وبقية فلسطين في حملات مدمرة، فكان أولها احتلال القدس سنة ١٠٩٩، وكان آخرها سنة ١٢٩١ عندما سقطت مدينة عكا بأيدي الجيوش الإسلامية، وكانت حينئذ آخر معاقل اللاتين في الشرق^(٣٢).

ولم تقف الأحداث عند هذا بل كانت فلسطين وبقية المشرق العربي تتعرض لضربات مؤلمة من التتار والمغول القادمين من الشرق، وكانت معركة عين جالوت سنة ١٢٦٠ بداية لموسم جديد من الحروب في تاريخ فلسطين وبقية المشرق العربي، واستمرت الحروب مع المغول خلال حكم المماليك حتى بداية القرن الخامس عشر. ونتيجة لهذا الوضع المتأجج بالحروب الخائفة التي استمرت قرابة ثلاثة قرون من الصراع المستمر، أصبح إقليم فلسطين العربي ساحة قتال مستعرة انعكست نتائجها على طبيعة المباني والفنون، فأصبح الأسلوب العام للبناء يعتمد على المتطلبات العسكرية والاستراتيجية، وعليه كان مجال الفنون الزخرفية ضيق جداً في هذا المضمار. ولما أعلنت فلسطين إقليماً من أقاليم الامبراطورية العثمانية بدأت مدينة القدس تستعيد شخصيتها في مجال الفنون الإسلامية، ولنا من إنجازات السلطان سليمان القانوني خير مثال على اعتزازه بالمدينة الخالدة.

ولا شك أن الإنجازات الفنية المتعددة التي خلدها المسلمون على الصروح والمباني المختلفة في فلسطين لدليل قوي على اعتزاز الأمة العربية والإسلامية بهذا الجزء العزيز طوال التاريخ الإسلامي. ولعل هذه الإنجازات الفنية تؤكد الطاقة الكامنة التي تمتعت بها الأجيال العربية في فلسطين، وتؤكد الثقة بالعودة إلى ربوعها استناداً إلى سنة التاريخ...

الفخار والخزف الإسلامي في فلسطين

ازدهرت صناعة الفخار والخزف الإسلامي في فلسطين منذ إعلان الدولة الأموية في دمشق، حيث كانت أرض فلسطين والأردن من الأجناد العربية الإسلامية التي أقرتها الدولة الإسلامية منذ أيام الخليفة عمر الفاروق^(٣٣).

وبطبيعة الحال كانت الصناعات العربية في فلسطين إبان الحكم البيزنطي على بلاد الشام تلبي حاجة المجتمع، واستمر إنتاج هذه المواد في مدن بلاد الشام الكبرى، وقد

لمع في إقليم فلسطين في كثير من الصناعات والفنون الصغرى بشكل ملحوظ. لقد ازدهرت صناعة الفخار الفلسطيني في العصور القديمة بحيث لعبت هذه الصناعة دوراً هاماً في تحقيق دراسات مستقصية عن التطور الحضاري للإنسان العربي في هذا الإقليم^(٣٤). وأثناء مرحلة التأسيس للدولة الإسلامية (في العهدين الراشدي والأموي)، نلاحظ استمرار مراكز الصناعة في الانتاج، شأنها بذلك شأن كثير من الصناعات والعادات المألوفة منذ العهد البيزنطي وقبله. لقد استمرت الدولة الإسلامية تراعي الأوضاع والتقاليد العربية الموروثة في كثير من الصناعات، وتركت كثيراً من التقاليد السائدة للظروف المناسبة. وعلى سبيل المثال، كانت التقسيمات السياسية للأقاليم، ونظام الدواوين والإدارة، وكل ما له علاقة بالمظاهر المادية المألوفة، لا تتعارض مع طبيعة الدين الإسلامي، واستمر استخدام كثير من هذه التقاليد حتى قيام الدولة الأموية. ومع انتقال الحكم إلى دمشق، بدأت التغييرات الحاسمة تأخذ دوراً بارزاً في طبيعة المجتمع الإسلامي، وكان ذلك منذ أيام الخليفة عبد الملك بن مروان، الذي استمر في استعمال النقود البيزنطية العربية وانتهى إلى تعريبها في سنة ٧٦هـ/٦٩٥م، وهكذا حصل في الدواوين، وبكل ما يتعلق في تحديد هوية الحكم العربي الإسلامي.

أما فيما يتعلق بالصناعات الخفيفة كالفخار والمواد المعدنية وسواها فقد بقي محافظاً على أسلوبه العربي الكلاسيكي من حيث طبيعة المواد، وأحياناً من حيث طريقة التشكيل. غير أن الإضافات وبعض اللمسات الفنية المضافة عليها أصبحت هي موضع المراقبة والمتابعة بحيث لا يمكن قبول أي لمسات دينية أو رمزية على هذه الصناعات تتعارض مع فلسفة الدين الإسلامي ومفهوم الفن في المجتمع الإسلامي الجديد. ولهذا نجد أن أنماطاً كثيرة من الخزف والفخار التي عايشنا القرن السابع إبان الحكم البيزنطي، قد تكرر إنتاجها واستمر في العهد الأموي، وعليه نجد أن المواصفات لهذه الصناعات ذات طابع مشترك. غير أن الأسلوب الزخرفي والفني لهذه الصناعات قد تحول في القرن الثامن إلى أسلوب إسلامي محافظ، عمادة التشكيل الهندسي والنباتي والكتابي. وقد أظهرت الحفريات في فلسطين نماذج جيدة للفخار الإسلامي المبكر^(٣٥). (لوحة ٢٧).

ومع انتقال العاصمة الإسلامية من دمشق إلى بغداد نجد أن أقاليم بلاد الشام، ومنها إقليم فلسطين، قد حافظ على الأسلوب الأموي، ولم تحدث خطوات جديدة في عالم هذه الصناعة التي كانت تزدهر بشكل ملموس في مراكز السلطة والخلافة والثروة. وفي العصر العباسي ازدهرت صناعة الخزف والفخار، ووصل إلى أعلى مراحل الرقي مع تطور صناعته إلى الطلاء الزجاجي ذو الريق المعدني، وما انبثق عنه من أساليب متعددة في الرسم والتصوير فوق الطلاء أو تحته، فأصبحت هذه الصناعة الراقية تحظى برعاية الدولة المباشرة، وظهر في كل من العراق وإيران أسلوب إسلامي راق، امتاز بالسلوب المشترك لطبيعة الرسوم، كما ازدهر في سورية أسلوب مشابه للأسلوب العباسي، وكان مقره مدينة الرقة^(٣٦).

وبعد ظهور دولة الأيوبيين ومن ثم المماليك في العصور الوسطى، اتخذ الخزف الإسلامي أسلوباً بسيطاً اعتمد على التشكيل الهندسي والزخارف النباتية المحورة (اللوحات ٢٨، ٢٩، ٣٠)، هذا وقد عثر على أوان فخارية تحمل الكتابات التاريخية والرموز السياسية، وقد انتهجت هذه الصناعة أسلوباً بسيطاً وبدائياً وذلك نتيجة للحروب التي فرضها الغرب والشرق على المنطقة ممثلة بالحروب مع الفرنج أو مع المغول. ويمكن اختصار خصائص صناعة الفخار والخزف في العصور الوسطى بأنها اكتسبت طابعاً جافاً نتيجة للسرعة في إنجازها، ونتيجة لطبيعة الظروف السياسية والاقتصادية التي كانت تواجه أقاليم بلاد الشام في تلك الفترة. ولعل الموصفات الفنية في صناعة الخزف والفخار كانت مشتركة وذات طبيعة متجانسة في معظم أقاليم العالم الإسلامي وفي معظم العصور، وعليه نجد الفخار والخزف في إقليم فلسطين يمثل الأسلوب الإسلامي العام الذي ازدهر في أقاليم بلاد الشام والعراق. ويمكن أن نحدد موصفات الفخار والخزف الإسلامي بشكل عام ضمن العناصر التالية:

١ — تجانس التشكيل من التراب الخاص.

٢ — التشابه في استعمال الأفران.

٣ — الصقل والطلاء بالألوان.

٤ — الزخارف بالدهان البسيط.

٥ — الزخارف بالتشكيل المباشر على الأواني.

٦ — استعمال الطلاء المعدني فوق أو تحت الرسوم التشكيلية.

أما الزخارف الخارجية، فقد اعتمدت الزخارف الهندسية والنباتية والحيوانية والكتابية والرموز والرنوك، كما ازدهر نقش الكتابات التاريخية والدينية بالتشكيل بالقالب أو باليد. وتكون الأواني المزججة متعددة الألوان أو ذات لون واحد، ويغلب عليها اللون الأزرق والأسود فوق الأرضية البيضاء، وتكثر الألوان الرمادية والبرتقالية والبنية والسوداء فوق الأواني غير المزججة والتي ازدهرت في الفخار الأيوبي والمملوكي.

وفي القرن السادس عشر استحدث الأسلوب العثماني أنواعاً جديدة من الخزف المزجج، وقد استمر الأسلوب الهندسي والنباتي والكتابي على نماذج الفخار والخزف العثماني. لقد كانت مصانع هذا الخزف قريبة من استانبول مركز الخلافة العثمانية، ومركز الثقافة والثروة في العالم الإسلامي. وقد أقيمت مراكز صناعة الخزف في كل من مدينة أزنك وقوتاهية، وكذلك في دمشق، وتم تصدير هذه الصناعة الثمينة إلى أنحاء العالم الإسلامي^(٣٧). كما تم تغطية بناء قبة الصخرة في القدس بأرقى أنواع البلاط العثماني المزجج.

المراجع والملاحظات

Duncan, Allstair, The Noble Sanctuary, portrait of a Holy Place (١) Arab Jerusalem, Norwich, p22.

العابدي، محمود، مأساة بيت المقدس، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون والمقدسات الإسلامية، عمان ١٩٦٩، ص ١٣.

(٢) سترانج، لي، فلسطين في العهد الإسلامي، (ترجمة محمود عمايري)، منشورات دائرة الثقافة والفنون، عمان ١٩٧٠، ص ٣٣.

(٣) يعتبر بناء قبة الصخرة في مدينة القدس أقدم صرح إسلامي قائم في العالم الإسلامي، راجع تفاصيل هذا البناء في

Creswell, K.A.C. Early Muslim Architecture, vol. 1,2, Oxford 1965,

Grabar, O., The Umayyad Dome of the Rock, Ars Orientalis, vol 3, 1959.

(٤) نلاحظ أن آثار الأمراء والخلفاء من أبناء الخليفة عبد الملك قد انتشرت في الصحراء الأردنية، وبادية الشام، مثل قصر عمرة وقصر البرقع وقصر المشي والحلابات وقصر الحير، كما نلاحظ الاهتمام الكبير في ربوع فلسطين عندما بنى الخليفة سليمان مدينة الرملة، وعندما ابتنى الخليفة هشام قصره الكبير في خربة المفجر قرب مدينة أريحا.

(٥) Hamilton, R.W. Khirbat al-Mafjar, Oxford 1959,

Creswell, Early Muslim Architecture, vol I. Bagatti, "Significato del mosaici della scuola di Madaba", Riv. di arch. crist., 1975. pp139.

Krealing, C., Gerasa, City of the Decapolis, New Haven 1938, pp251.

Avi Yonah, Q.D.A.P., Vol II-III, 1933 1934. Saller - Bagatti, The town of nebo, Jerusalem 1949,

Sejourne, P.M. "Madaba", Revue biblique, 1982.

(٦) سترانج، لي، ص ١٢٣-١٤٠.

(٧) محمد حسن، زكي، التصوير عند العرب، القاهرة ١٩٤٢، ص ١١٩، ١٢٨.

(٨) Ettinghausen, R. Arab painting, Skira 1962. pp20.

(٩) تعتبر الرسوم الزيتية الموجودة على جدران قصر عمرة بالأردن والمنسوب إلى الخليفة الوليد بن عبد الملك سنة ٧١١ من أقدم الرسوم التي تصور الأشخاص والمخلوقات في الفن الإسلامي، واستمر الخليفة هشام سنة ٧٢٤ في قصره المشهور قرب أريحا في فلسطين في إبراز وتشجيع الصور والتماثيل.

(١٠) الأرابيسك هو ابتكار جديد في فن الزخرفة الإسلامية، اعتمده العرب في صلب الفنون الإسلامية المبكرة، ويتركز هذا الفن على توجيه الأشكال النباتية وخاصة الأغصان والأوراق، وتوزيعها توزيعاً هندسياً دقيقاً وتفرع وتمتد كالشباك على مساحات كبيرة، وقد تم تنفيذ هذا الأسلوب على معظم الصناعات الفنية الإسلامية.

(١١) سترانج، لي، فلسطين في العهد الإسلامي، ص ١٢٣ — ١٣٩.

Van Berchem, Corpus Inscriptionum Arabicum: Syria du sud, p. 237, la caire 1920.

(١٢) سترانج، ص ١٤٥.

(١٣) Baramki, D.C., "Excavations at Khirbat el-Mefjer" Q.D.A.P. vol V.VI, pp132.; pp157;

Hamilton. R.W. Khirbat al-Mefjer, Oxford 1959.

(١٤) Baramki, (Ibid), pp164.

(١٥) Hamilton, (Ibid), pp329; Baramki, (Ibid), pp157, pl, LXI, LXII.

(١٦) Hamilton, "A Mosaic Carpet of Umayyad date at Khirbat al-Mafjar", Q.D.A.P. Vol XIV, pp120, pl. XLVI;

Ettinghausen, R., Arab Painting, pp36.

(١٧) Grube, E., The World of Islam, pp26;

Rice, D.T., Islamic Art, pp56.

(١٨) إن قصر عمرة أقدم من قصر خربة المفجر، فالأول يعود إلى أيام الخليفة الوليد الأول وربما بناه الوليد قبل أن يتولى الخلافة، أما الثاني فقد نسب إلى الخليفة هشام وللخليفة يزيد الثالث سنة ٧٤٤م.

(19) Hamilton, Khirbat al-Mafjar, pp162.

(٢٠) (Ibid), pp 213, p1. LV.

(٢١) العرش، أبو الفرج، "النقود العربية الإسلامية مصدر وثائقي للتاريخ والفن"، المؤتمر الدولي الأول لتاريخ بلاد الشام، عمان الأردن، (بيروت ١٩٧٤) ص ٢٦٧ — ٢٩١؛ الحديدي، عدنان، "فلوس نحاسية أموية من عمان"، حولية دائرة الآثار الأردنية، العدد ٢٠، ص ٩ — ١٢.

(٢٢) يلاحظ على مطالعات الأستاذ هاملتون (مدير الآثار الفلسطينية في عهد الانتداب البريطاني) في مقالاته المتعددة في حولية الآثار الفلسطينية، وخاصة في كتابه (خربة المفجر)، ربطه للفنون والزخارف العربية الإسلامية بالفنون والمؤثرات الكلاسيكية الغربية، أو بالفنون والمؤثرات الفارسية والساسانية الشرقية. ويتكرر هذا الربط في كل مناسبة متجاهلاً وجود أسلوب عربي وإسلامي محلي في المنطقة.

راجع:

Hamilton. "The Sculpture of Living Forms at Khirbat al-Mafjar", Q.D.A.P., vol.XIV, pp100.

(٢٣) أشار عدد من المؤرخين المسلمين إلى أن الخليفة عمر بن الخطاب قد بنى المسجد الأقصى، ولكن لم يذكر القدامى منهم أمثال البلاذري والطبري أي شيء عن ذلك. إن أقدم وصف وصلنا عن المسجد الأقصى هو ما ذكره المقدسي عام ٩٨٥، أما التغيرات الكثيرة التي حصلت على هذا البناء الهام، وأهمها الزلزال الذي حدث في عام ٧٤٦، فقد ذكره الثوري، وذكر أن الخليفة المنصور قد صلى في المسجد الأقصى، كما ذكر الطبري أن الخليفة المهدي قد صلى في الأقصى سنة ٧٨٠.

(٢٤) **Hamilton, R.W.**, The Strutual History of the Aqsa Mosque, London 1949, pp74.

(٢٥) سترانج، لي، ص ١١٧؛ العابدي، محمود، مأساة بيت المقدس،
Combe, Repertoire chro. Epl. Arabe, vol. IX. p159. ص ٤٦.

(٢٦) العابدي، ص ٤٧ — ٤٩،

(٢٧) تقوم لجنة إعمار المسجد الأقصى ووزارة الأوقاف الأردنية بمتابعة أعمال الصيانة والترميم في المسجد الأقصى، كما يقوم الفنان جمال بدران بإعادة تصميم منبر صلاح الدين، بعد أن أصبح المنبر بعد جريمة إحراق المسجد الأقصى عام ١٩٦٩ قطعاً صغيرة من الحطام المحروق.
(٢٨) سترانج، ص ١٣٧.

(٢٩) غوامة، يوسف درويش، تاريخ شرقي الأردن في عصر دولة المماليك الأولى، عمان ١٩٧٩، ص ٦٩، ٨٣، حتي، فيليب (وآخرون)، تاريخ العرب (مطول)، ج ٢، بيروت ١٩٦١، ص ٧٩٣.

(٣٠) **Duncan, A.**, The noble sanctuary..., pp60.

(٣١) **Duncan, (Ibid)**, pp64.

(٣٢) حتي، تاريخ العرب، ص ٧٧٨ — ٧٧٩.

(٣٣) حتي، فيليب (وآخرون)، تاريخ العرب (مطول)، ج ١، ط ٣، بيروت ١٩٦٩، ص ٢٠٦ — ٢٠٨.

(٣٤) **Lapp. P. W.** Palestinian Ceramic Chronology. 200B. C. A. D. 70.;New haven 1961.

Albright, W.E., Archaeology of Palestine, London 1949. pp 65 -132.

Kenyon. K. M., Archaeology in the Holy Land, New York 1960. pp58 -239.

(٣٥) **Day, F.E.** "Early Islamic and Christian Lamps", VII, 1942. pp 65.

Johns .C.N. "Excavations of Pilgrims Castle Atil" Q.D.A.P.I.1932. pp137 -144.

Philon. H., Early Islamic Ceramics, Vol I, Athens, 1980. p7. fig 52.

(٣٦) **Atil**, Esin ceramics from the world of Islam. Washington., 1973. pp 2-11.

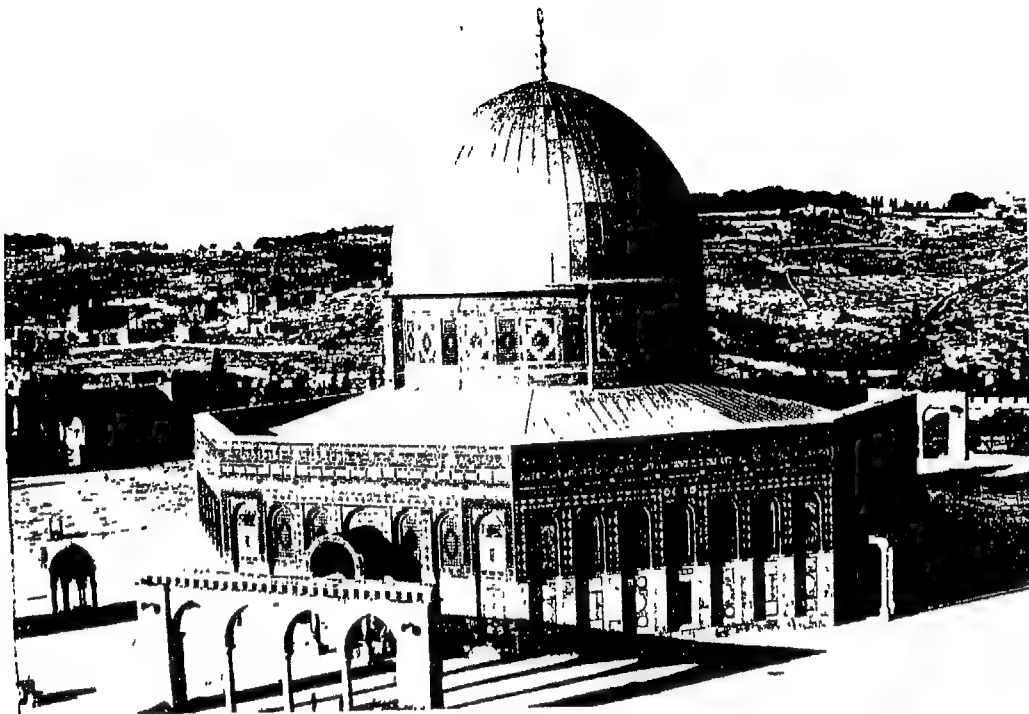
Grube, E. The World of Islam, New York, 1966, pp35, 55, 101.

(٣٧) **Aslanapa, O.** Turkish Art and Architecture, London, 1971. pp 275 -285.

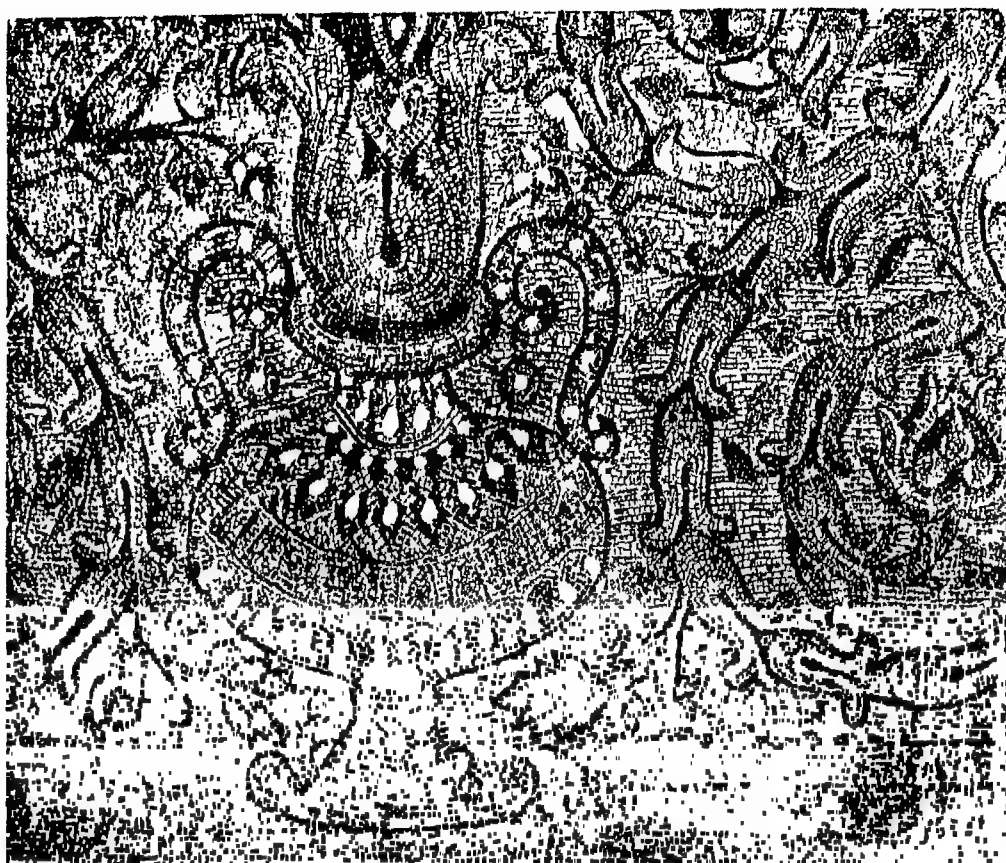
مرزوق، محمد عبد العزيز، الفنون الزخرفية الإسلامية في العصر العثماني، القاهرة ١٩٧٤، ص ٨٥ — ٩٥.



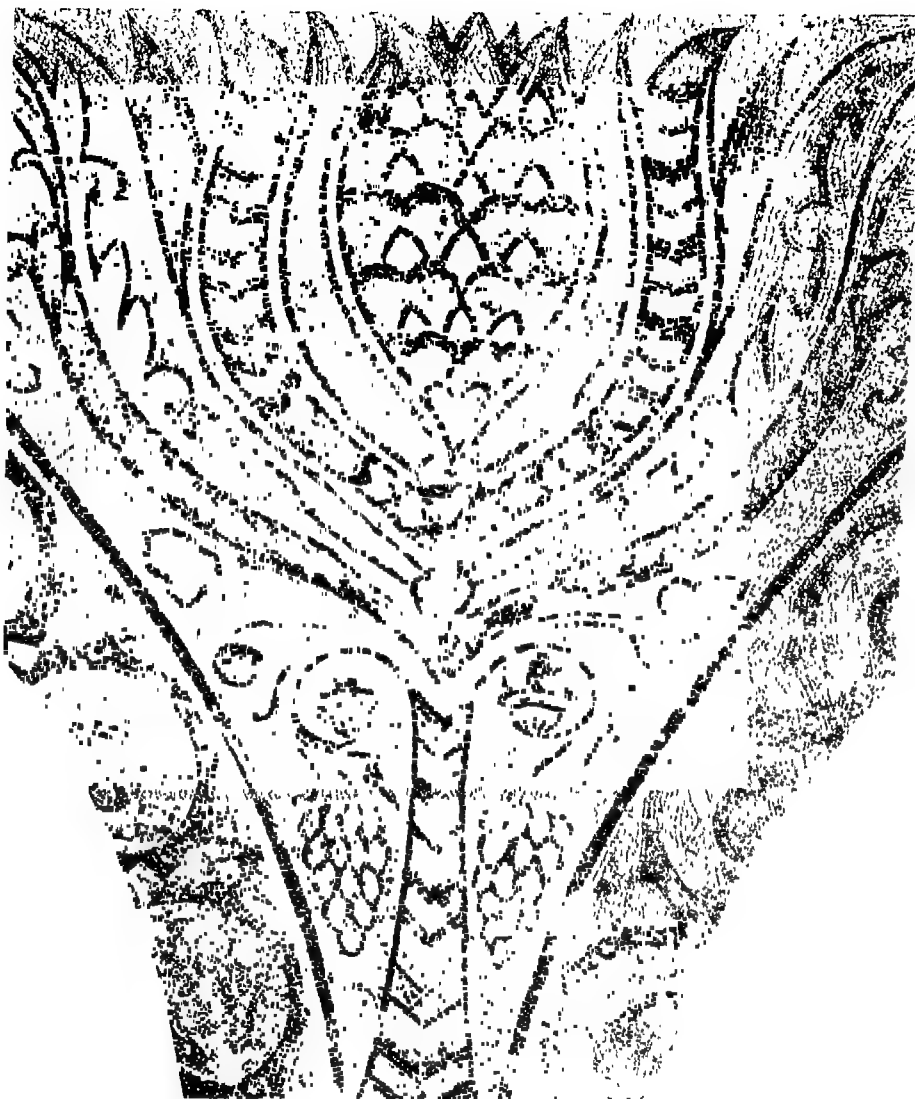
لوحة (١) منظر عام لساحة الحرم الشريف بالقدس.



لوحة (٢) بناء قبة الصخرة في القدس.



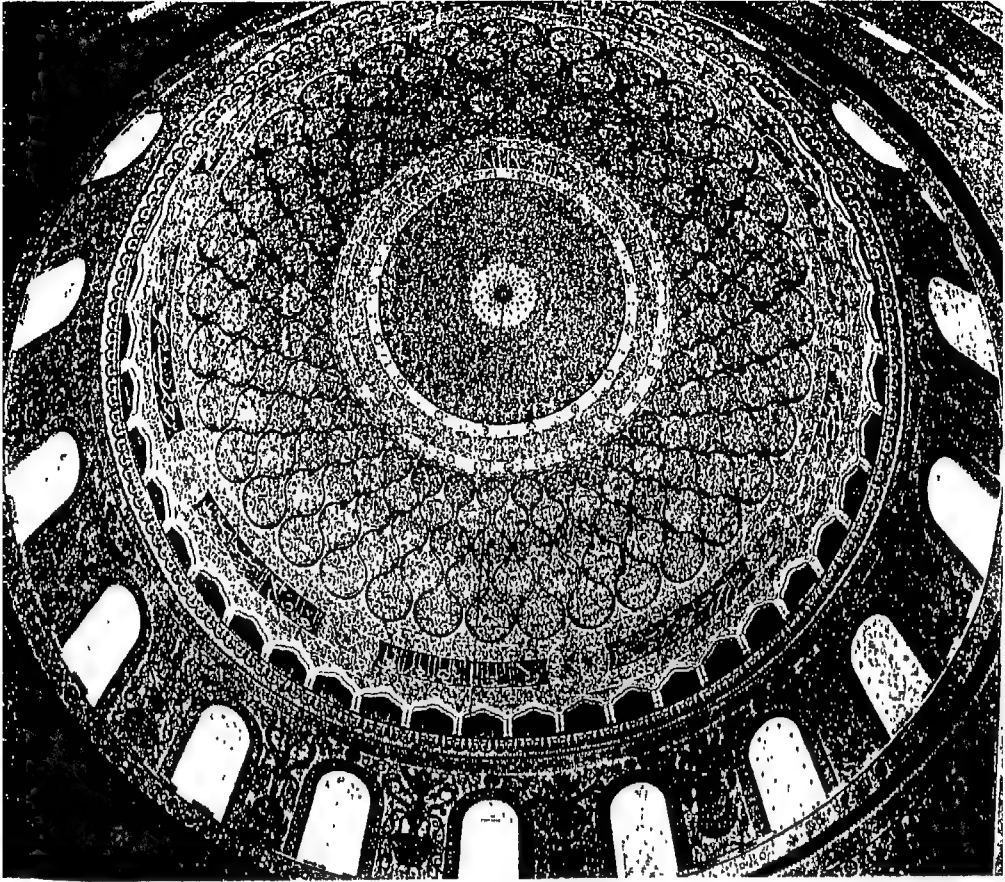
لوحة (٣) فسيفساء زجاجي ملون على جدران قبة الصخرة الداخلية.



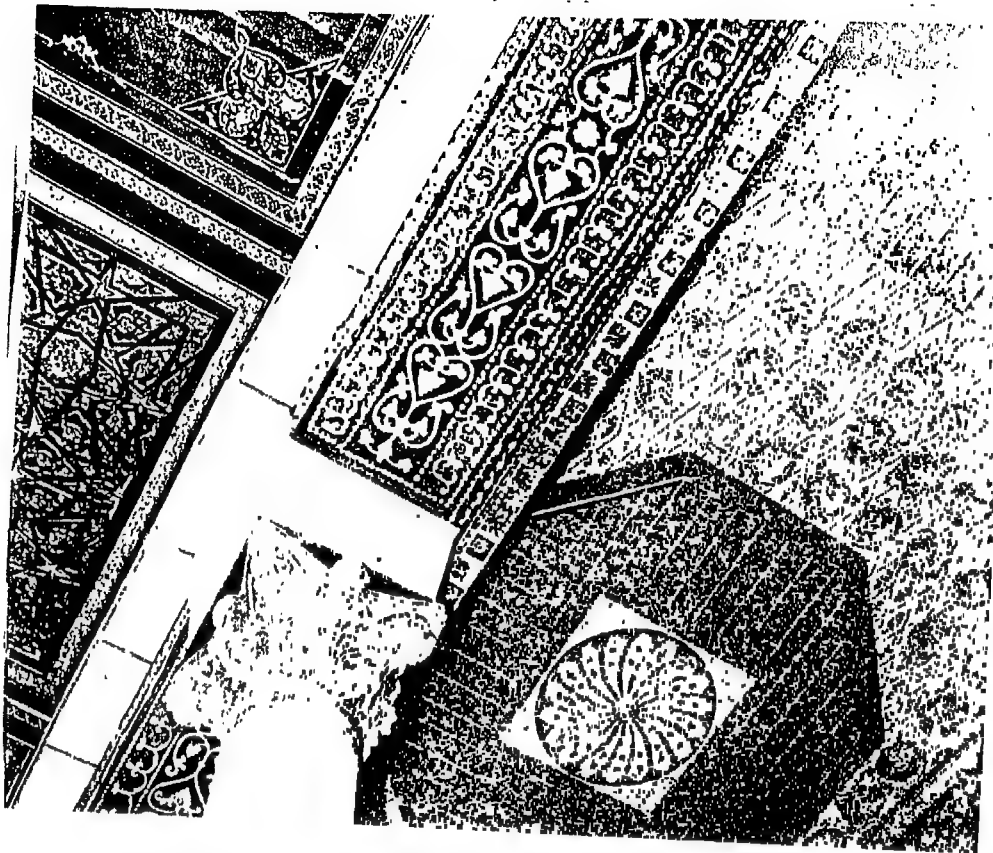
لوحة (٤) فسيفساء زجاجي ملون في بناء قبة الصخرة.



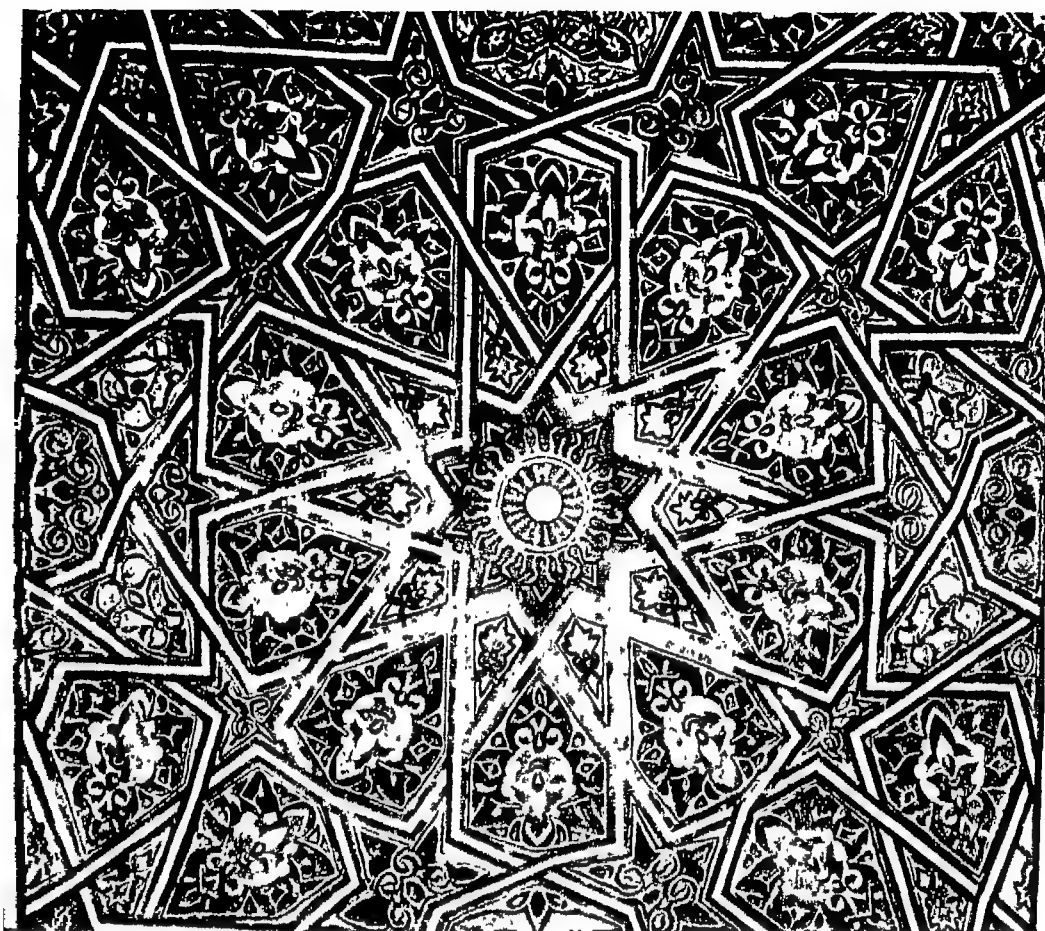
لوحة (٥) فسيفساء جداري داخل قبة الصخرة.



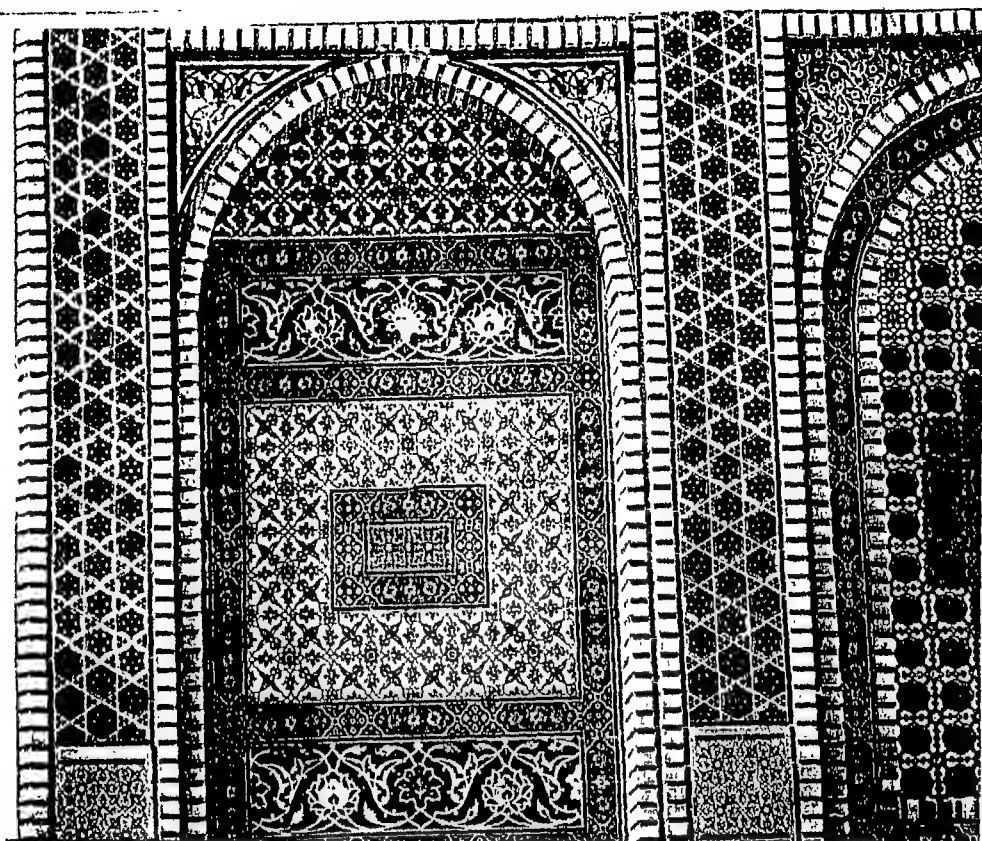
لوحة (٦) القبة من الداخل: قبة الصخرة في القدس.



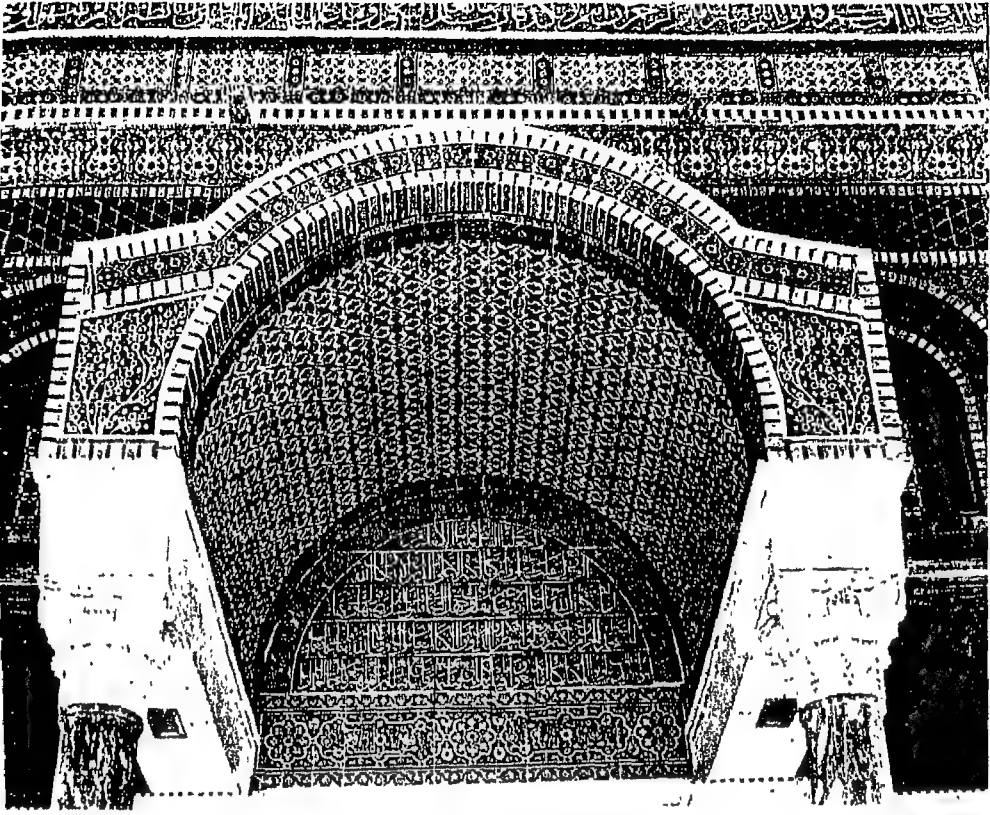
لوحة (٧) صفائح المعدن المطروق بالزخارف النباتية تغطي
حلوق الجسور الداخلية في قبة الصخرة.



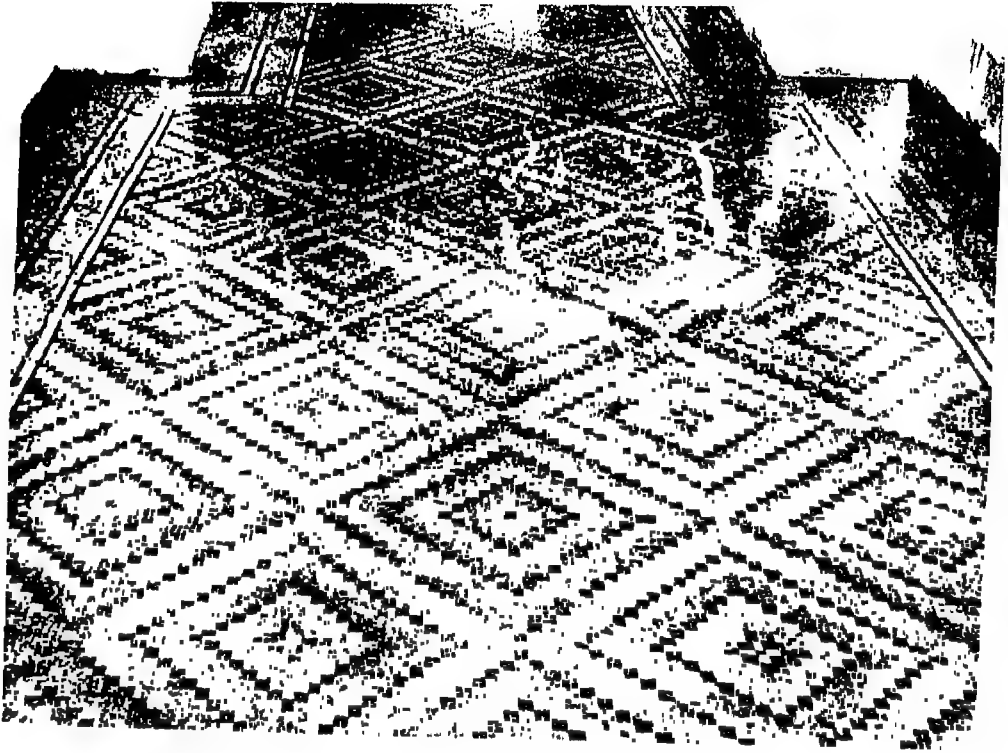
لوحة (٨) السقف الخشبي المزخرف داخل بناء قبة الصخرة.



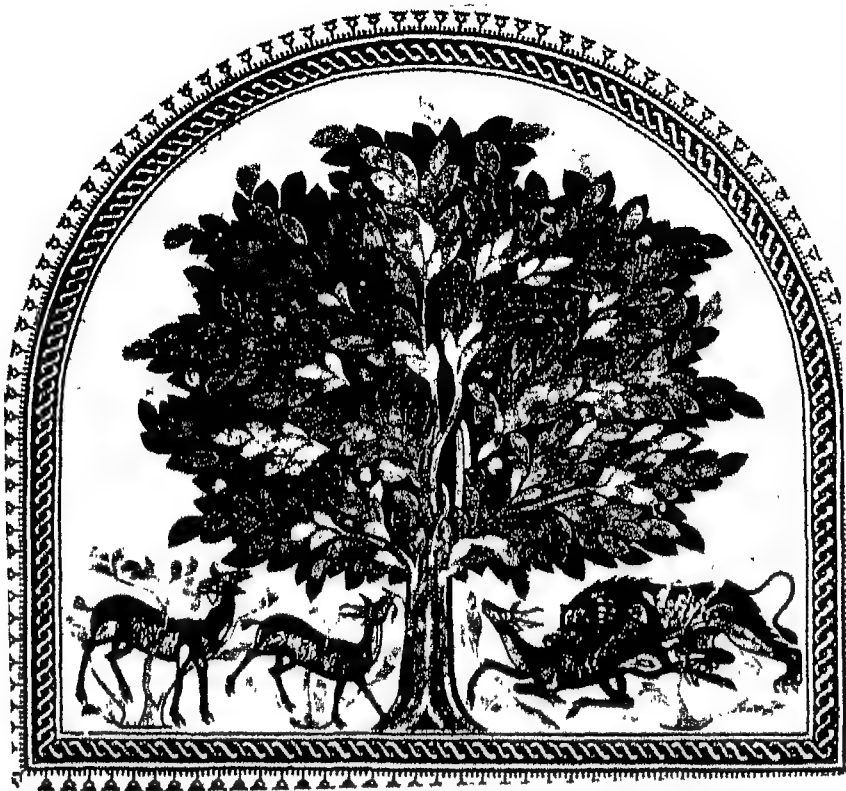
لوحة (٩) جدران قبة الصخرة الخارجية مغطاة بالقاشاني الملون المصقول.



لوحة (١٠) احدى بوابات قبة الصخرة تعلوها كتابة قرآنية.



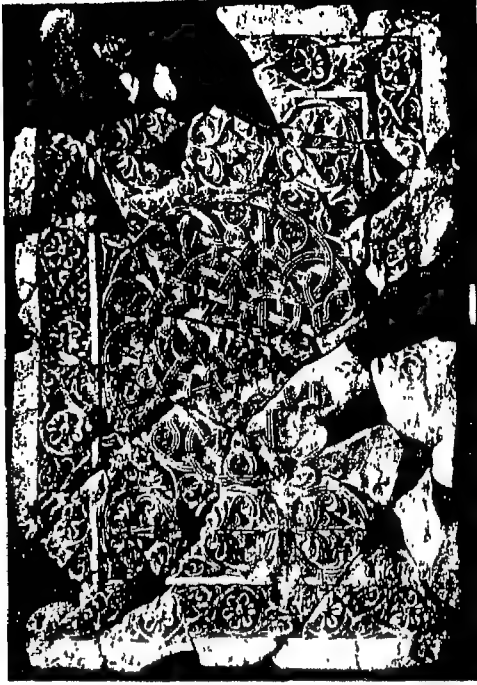
لوحة (١١) فسيفساء أرضية قصر هشام الملونة في خربة المفجر قرب أريحا.



لوحة (١٢) لوحة الأسد والغزلان في قاعة حمام الخليفة في خربة المفجر.



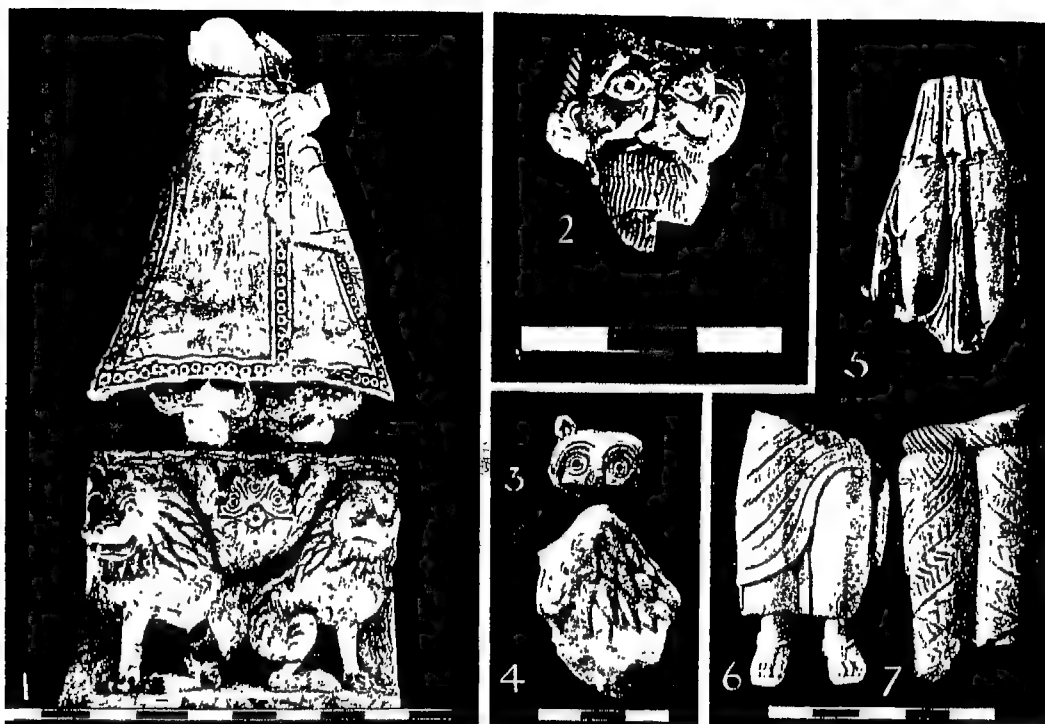
لوحة (١٣) جدران مقر هشام مغطاة بصفائح من الجبس المزخرف.



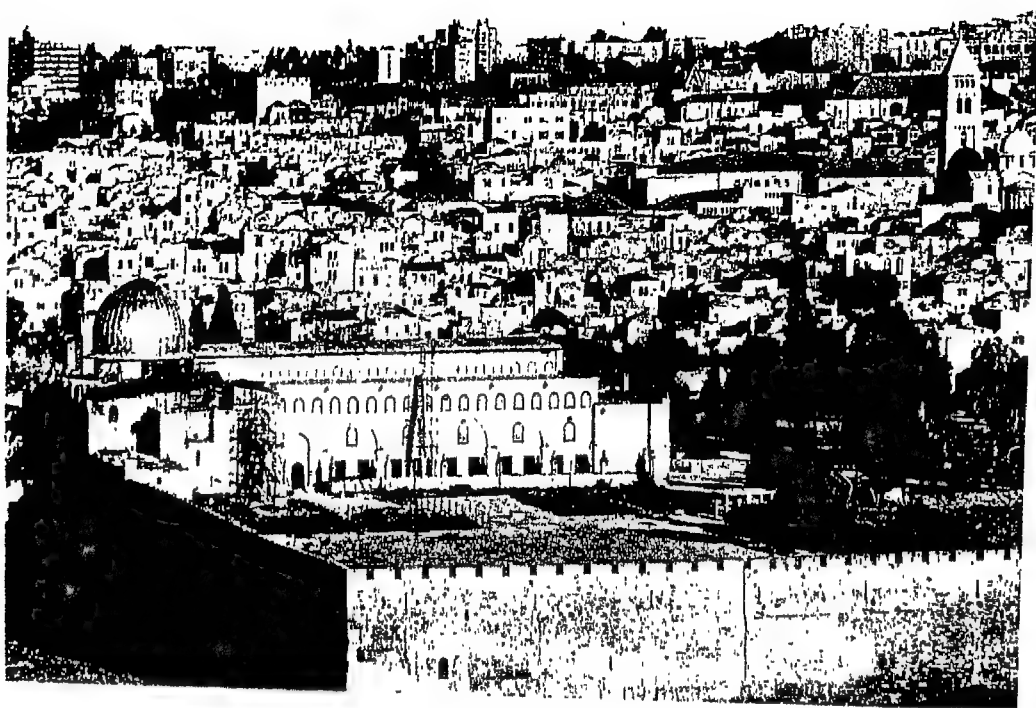
لوحة (١٤) لوحات من الجبس المزخرف كانت تغطي
جدران القصر الداخلية، خربة المفجر.



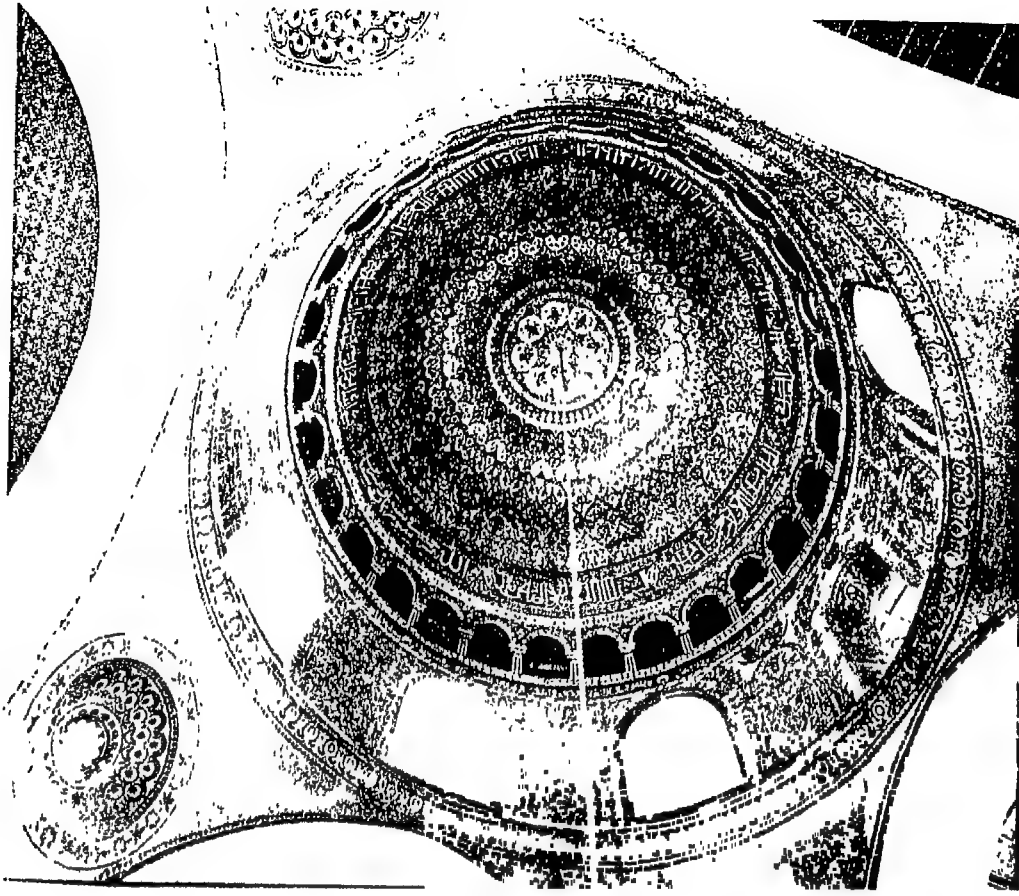
لوحة (١٥) نماذج من التماثيل لمستخدمي القصر في خربة
المفجر وهي من الجبصين.



لوحة (١٦) تمثال الخليفة ورأسه (١ - ٢) وقطع أخرى
من الجبصين (٣- ٧) خربة المفجر / اريحا.



لوحة (١٧) بناء المسجد الاقصى في ساحة الحرم الشريف بالقدس.

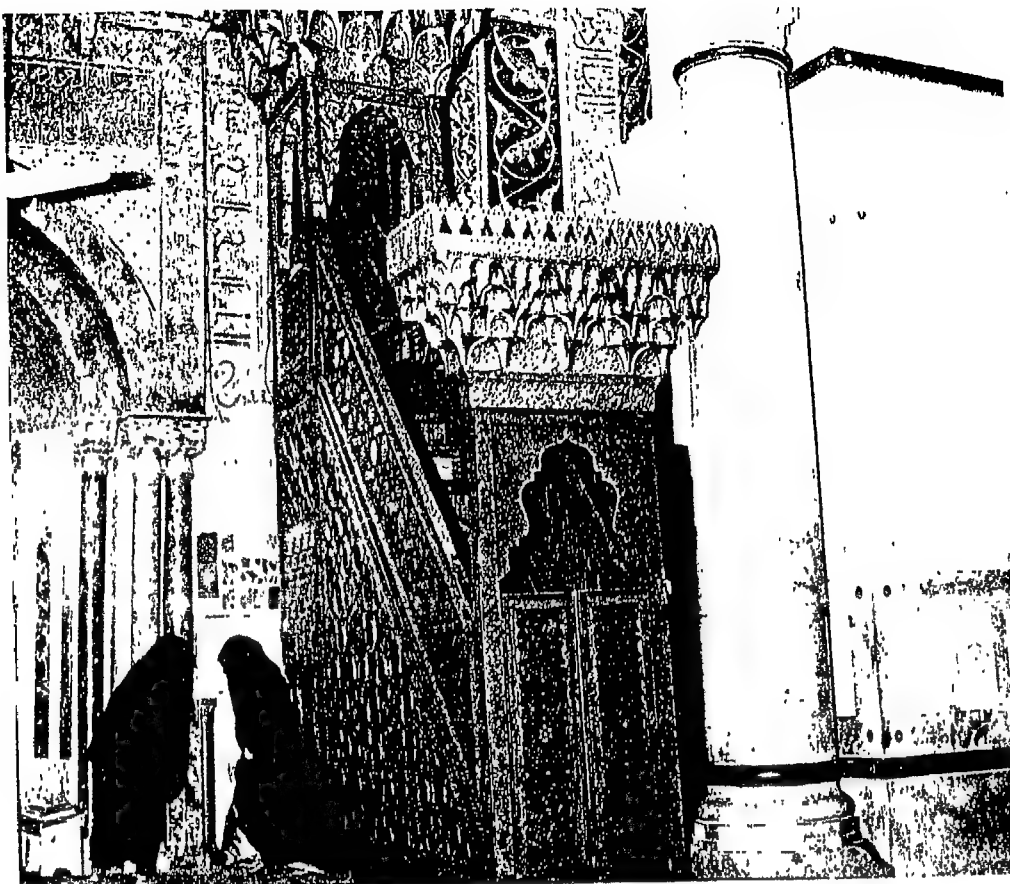


لوحة (١٨) القبة المعلقة المجاورة للمحراب في بناء المسجد الأقصى بالقدس.

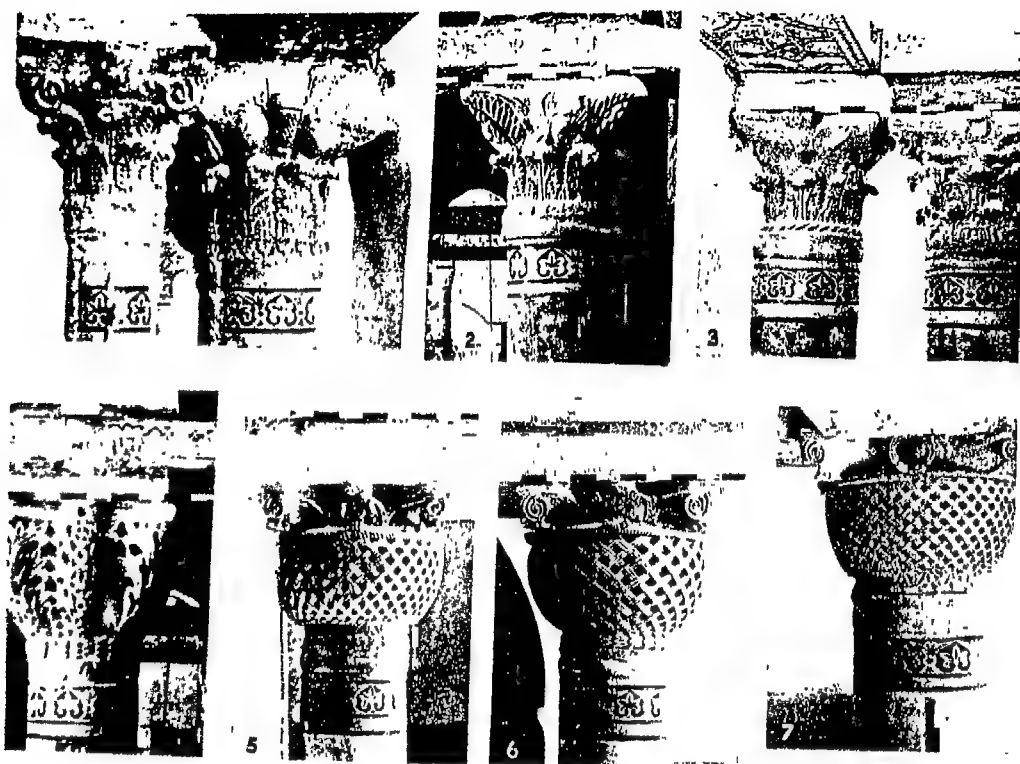


لوحة (١٩) العوارض الخشبية المزخرفة التي تحمل سقف بناء المسجد

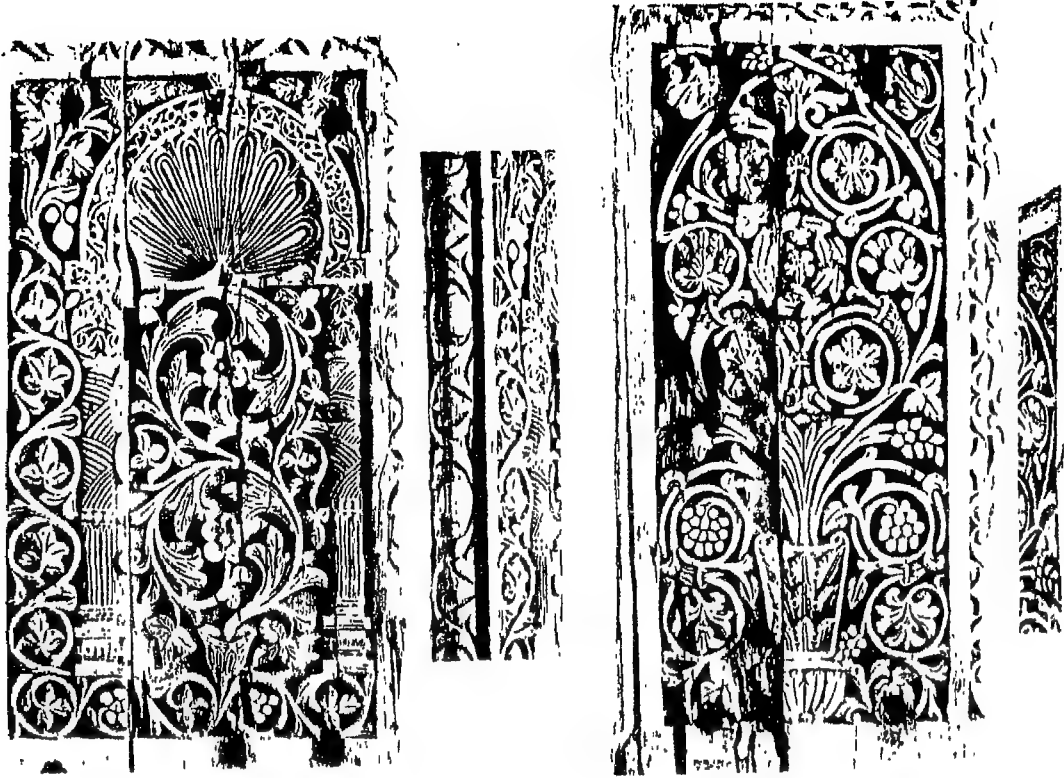
الاقصى في القدس



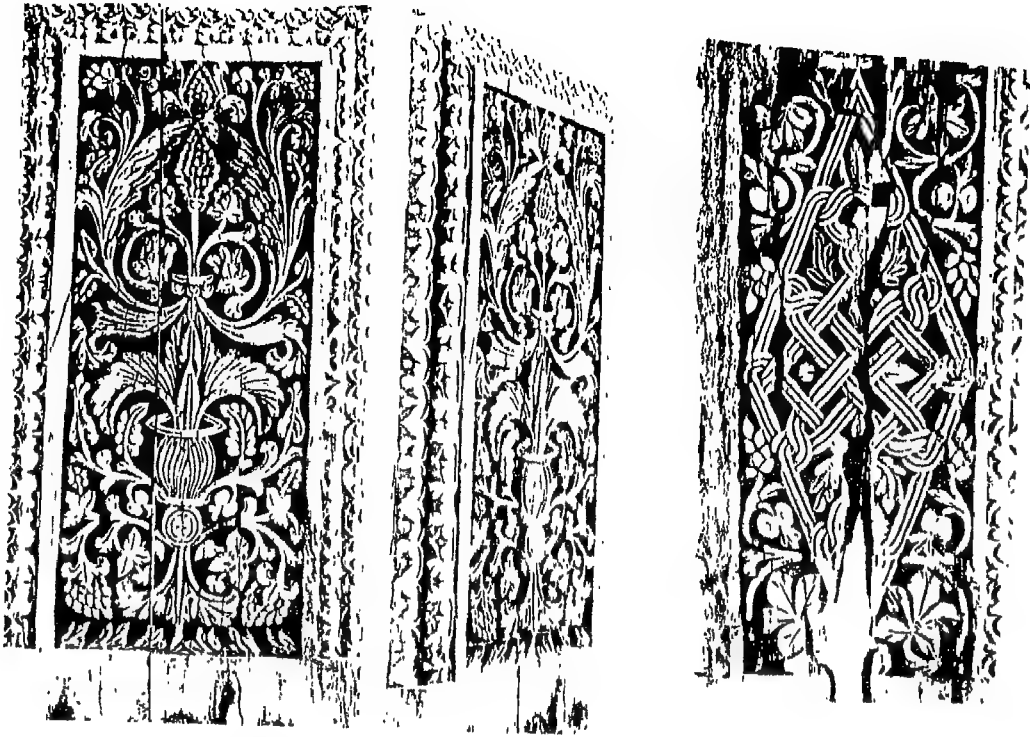
لوحة (٢٠) منبر نور الدين زنكي الذي أحضره
صلاح الدين من مدينة حلب بعد عودة القدس.



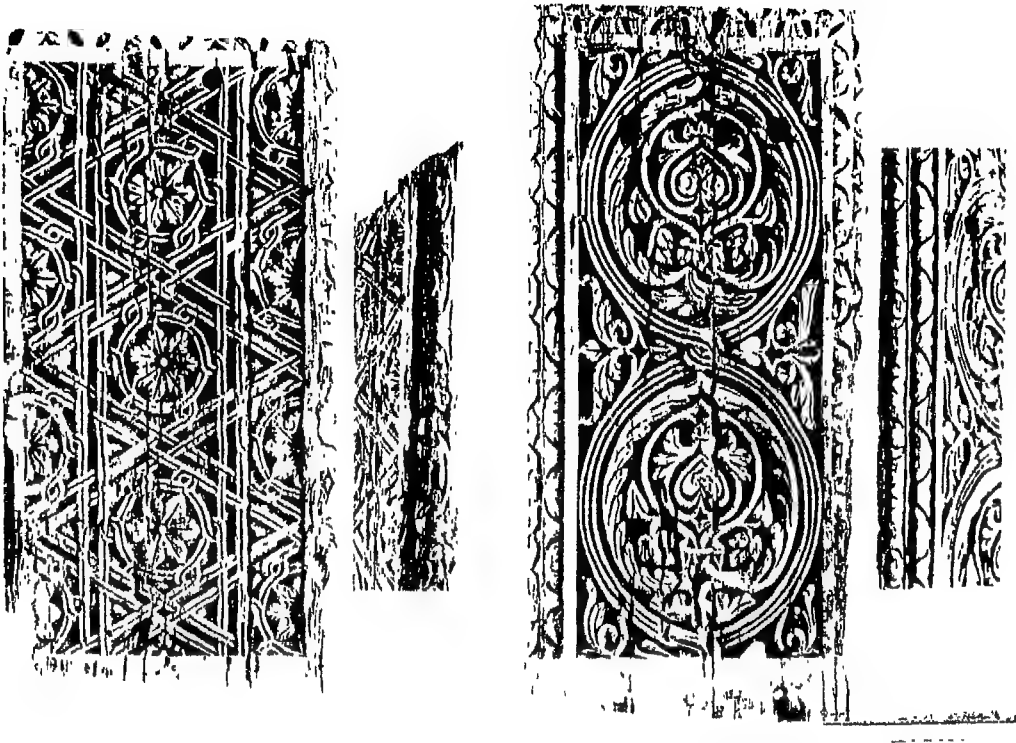
لوحة (٢١) عدد من تيجان الاعمدة التي استعملت في بناء المسجد الأقصى.



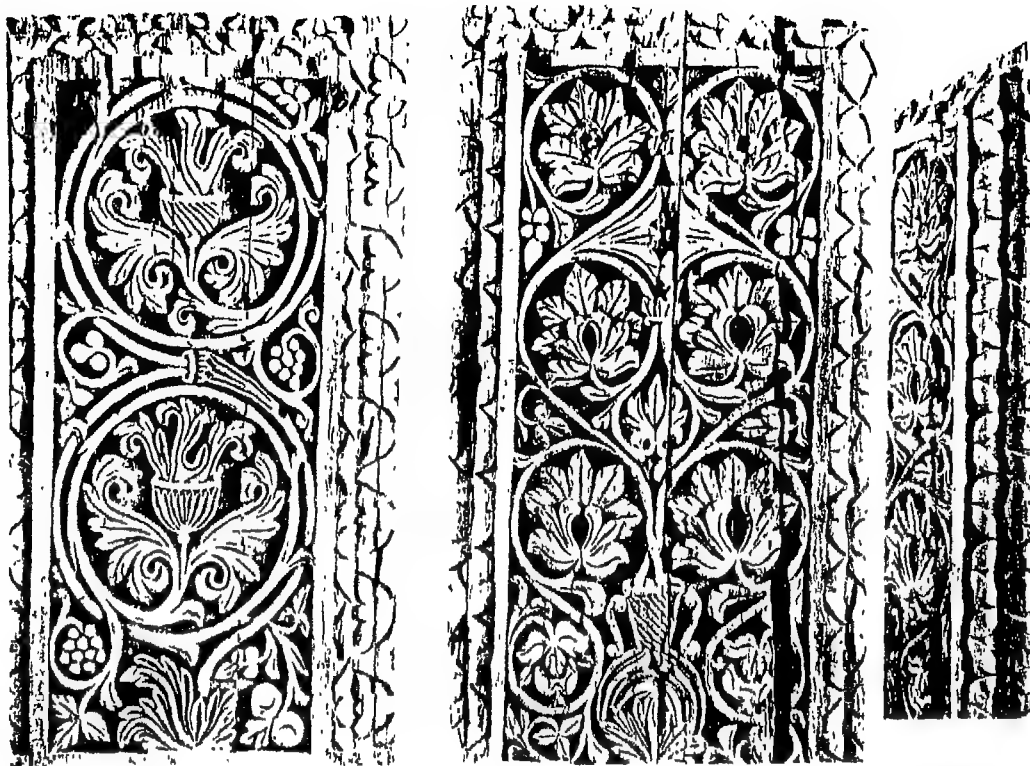
لوحة (٢٢) الزخارف المحفورة على الخشب والتي تغطي
الجسور الخشبية في سقف المسجد الاقصى.



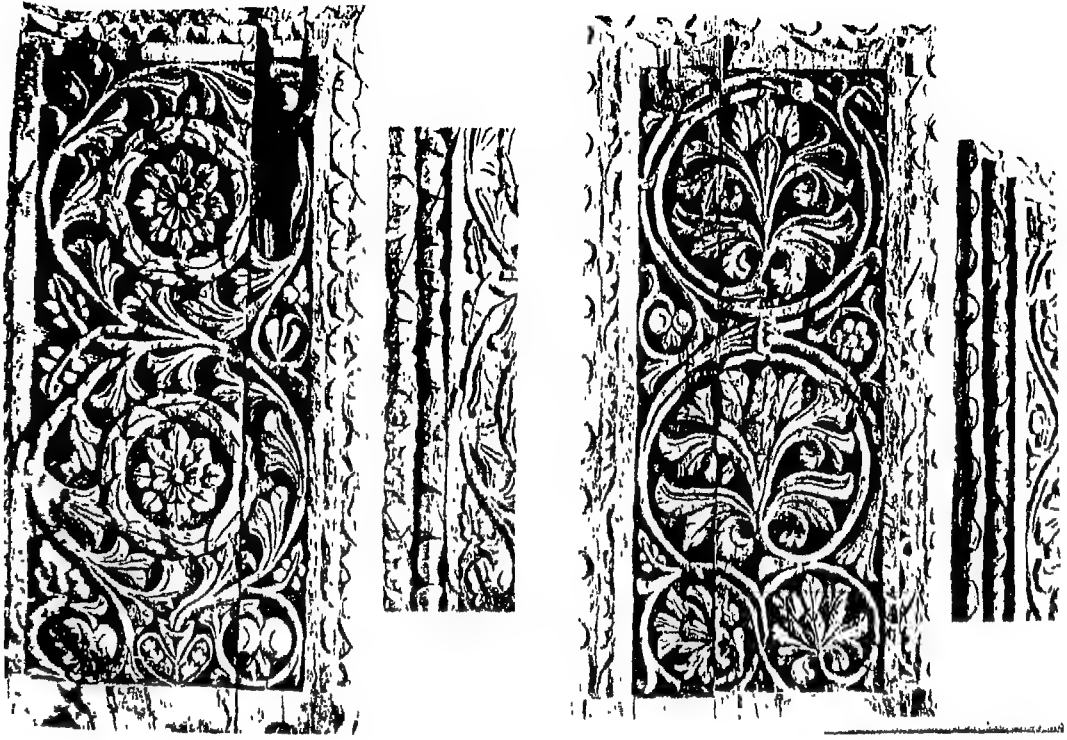
لوحة (٢٣) صفائح الخشب المحفورة على واجهات سقف المسجد الاقصى
(الزخارف النباتية).



لوحة (٢٤) صفائح الخشب المحفورة تمثل نماذج هندسية
على سقف المسجد الأقصى الداخلي.



لوحة (٢٥) نماذج نباتية على الجسور الخشبية في المسجد الاقصى.



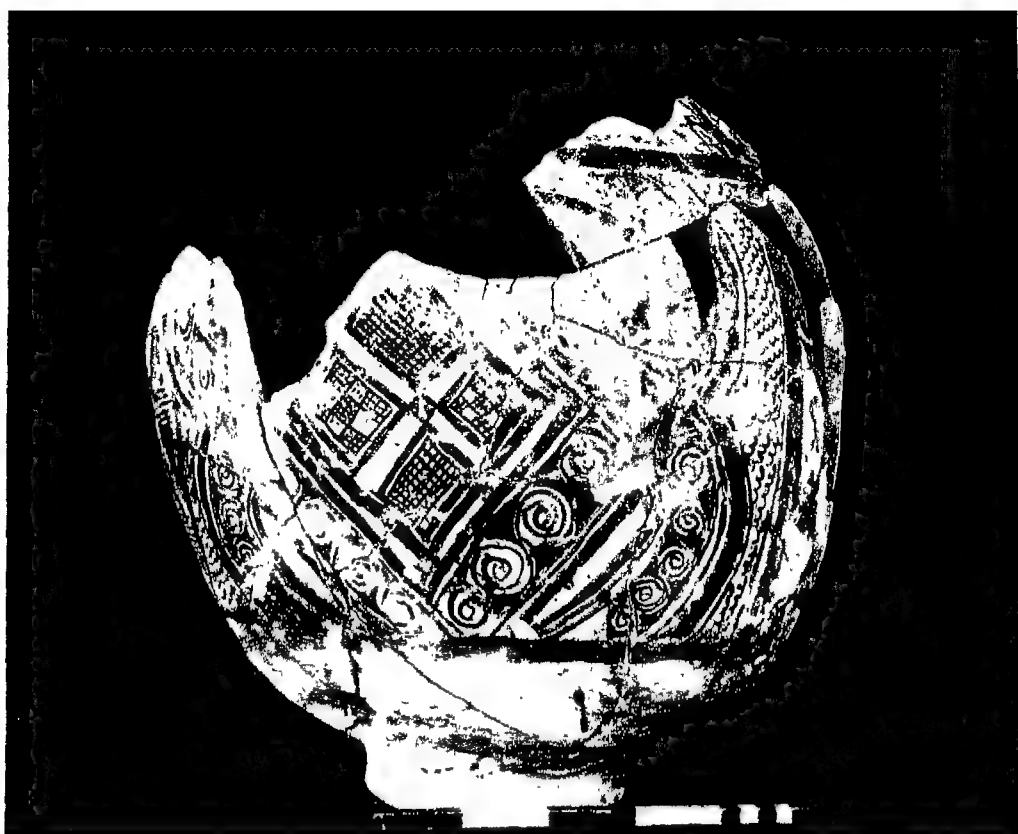
لوحة (٢٦) نماذج نباتية واشربة متداخلة منحوتة على
الجسور الخشبية في المسجد الاقصى.



لوحة (٢٧) سراج زيت من الفخار، وقطعة من جرة فخارية مزخرفة بالكتابة والاشكال الهندسية، عثر عليهما في حفريات الحرم الشريف في مدينة القدس.



لوحة (٢٨) مجموعة من القطع الفخارية تمثل الاسلوب المشترك
في زخارف الفترتين الايوبية والمملوكية



لوحة (٢٩) جرة فخارية مزخرفة بالرسوم التجريدية باسلوب هندسي
تمثل الاسلوب الايوبي والمملوكي في بلاد الشام.



لوحة (٣٠) مزهرية أيوية الاسلوب من الفخار المزجج الذي ازدهر في جنوب سوريا (فلسطين والاردن)، من عين الباشا شمال غربي عمّان.

الأسواق والخنات في فلسطين في العهد الإسلامية

(دراسة أولية)

الدكتور عبد العزيز محمود

لقد حددنا الدراسة بموضوع السوق والخان كونهما يمثلان نموذجان معماريان عربي وإسلامي، ولإظهار قيمة هذا الصرح وتمييزه عن باقي الأبنية التاريخية وباعتبار الخان وثيقة مادية تظهر مدى التطور الحضاري الذي عرفته فلسطين في مختلف مراحلها، وكون الخان أيضاً يعتبر مؤسسة اقتصادية وذات نفع عام وذو وظيفة خدمية، وحضوره الوافر في مدن وعلى طرق فلسطين وباقي المناطق السورية، هو دليل على عراقية هذه المدن.

ومساهمة منا تضاف لتلك الجهود التي تبذلها الجهات المعنية والتي تعمل للمحافظة على تراث المدن التاريخية ومعالمها العمرانية، كالأحياء القديمة والأبنية التاريخية للمحافظة عليها من خطر الهدم والزوال.

وهنا تبرز خصوصية وضع المدن الفلسطينية وأبنيتها التاريخية والتي تتعرض لعلملين من عوامل التغير وخطر الزوال:

العامل الأول، ودوافعه سياسية ناتجة عن سياسة الاحتلال الإسرائيلي ومخططاته في الأرض المحتلة، والتي تستهدف تغيير وطمس المعالم التاريخية والتراثية العربية والإسلامية في المدن المحتلة لتهويدها، يكفي هنا أن نشير إلى ما تتعرض له مدينة القدس من خطر هدم معالمها التاريخية.

والعامل الثاني، ويمكن أن نعبر عنه بالعامل الطبيعي، الناتج عن التغيرات التي تطرأ على الوضع أو البناء التاريخي بفعل عوامل الزمن إلى جانب فعل الإنسان وسلوكه اتجهه بيئته وما يدخله من تغيرات بدافع الاستغلال المادي وغير المادي.

فهذه الدراسة الأولية تعتبر كدعوة لمزيد من الدراسات التي تتعلق بتاريخ فلسطين الحضاري والعمراني والاقتصادي والاجتماعي، وكونها أيضاً تحذيراً موجهاً للمعنيين ولفت نظرهم للأخطار التي تواجه هذه الصروح التاريخية والتراثية بعد أن بدأت فعلاً معاول الهدم والتهويد بالانقضاض عليها.

الخانات، تسمياتها، وظائفها وتطورها^(١):

لقد كان النشاط التجاري يتمركز إضافة إلى الأسواق في منشآت خاصة تشاد خصيصا للأغراض التجارية ولاستقبال القوافل والمسافرين من تجار وحجاج فبعضها يشاد داخل المدن والآثر على أطرافها، أو على الطرق وكان يطلق عليها أحيانا فنادق Funduq، أو قيساريات Kaisariya، وخانات Khan وهي ذات هندسة معمارية خاصة ووظائف متشابهة (شكل ١).

إن هذه التسميات تعتبر غير عربية ولكنها عربت ومستخدمة منذ عدة قرون، فتسمية فندق Funduq من أصل لاتيني دخلت عن طريق الحروب الصليبية ولقد ورد في الموسوعة الإسلامية بأن أصل الكلمة يوناني Pandokeion وقد استعملت أكثر في المغرب العربي^(٢).

أما القيسارية Kaisariya فهي أيضا من أصل يوناني وتعني البناء الملكي أو الإمبراطوري ذلك لأن السوق كان من الأملاك العامة التابعة للدولة، أي أنها ذات صفة ملكية، وتعرف باللاتينية Caesarum، أما كلمة خان Khan فأصلها فارسي وتعني القصر أو البيت.

وقد أطلق العرب على المنشآت الحصينة Castrum في بادية الشام "خانات" فالبلاذري "توفي ٢٧٩هـ / ٨٩٢م" وصف الثغور الإسلامية بـ "وكانت منازلها كالخانات" فهذا أقدم ما عثر عليه من استعمال لكلمة خان في المصادر العربية.

منذ القرن السادس الهجري/ الثالث عشر الميلادي أخذت تظهر ألفاظ فندق وقيسارية وخان كأسماء للأبنية المخصصة لتزول القوافل ولممارسة أنواع النشاط التجاري والصناعي.

أما اصطلاح وكالة Wakala والتي استعملت في مصر بمعنى خان ولا سيما في العهد المملوكي واستمرت حتى العهد العثماني بمعنى خان أيضا المخصص للتجارة. يقول المحي "توفي ١٦٩٩م" في كتابه "خلاصة الأثر..." — والوكالة اسم للخان في عرف المصريين، والدمشقيون يسمونه قيسارية^(٣).

وقد استمر إطلاق اسم خان وقيسارية على المنشآت التجارية ومحطات القوافل طوال العهد العثماني. لكن كلمة فندق قل استعمالها بعد العهد الأيوبي إلى أن ظهرت حديثا كبديل لكلمة Hotel. فالمباني الموجودة على طول الطرق التي تؤدي إليه لفترة من الزمن القوافل التجارية والمسافرين والتي تباع فيه السلع يعرف بالخان الذي يعادل اسمه Caravanserai فظهوره يرجع للحاجة إلى الركون والراحة وللحفاظ على أمن وسلامة قوافل التجارة والمسافرين، وهذه المؤسسة عرفت ازدهارا كبيرا ابتداء من القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي^(٤).

إن دراسة الخانات لم تحظ باهتمام كبير على رأي J. Sauvaget وخصوصا تلك التي على الطرق المهجورة لأنها لا تساعد على تقديم تسهيلات لدراساتها بالنسبة لعلماء الآثار بعكس ما يقدمه مثلا المسجد أو المدرسة أو القصور^(٥).

لقد لعبت الخانات دورا كبيرا في الحياة الاقتصادية، فهذا النوع من العمارة قدم مثالا هاما بالنسبة لدارسي الفن المعماري كونها تمثل نموذجا فريدا وذا أهمية في دراسة العمارة الإسلامية، وهي تقدم خدمة ثمينة لدراسة التاريخ الاقتصادي والاجتماعي. فقد كانت تنتشر هذه المؤسسات — العماثر على طول طرق التجارة والحج ووظائفها الاقتصادية منذ القرون الوسطى إلى العصور المتأخرة لم تتبدل.

فعلى المستوى المعماري فالخان يمثل نموذجا من القدرة الإنسانية على الأعمال الفنية، فالوظيفة الاقتصادية للخان فرضت نوعا محددا من التصميم المعماري وفرضت توزيعا مناسباً للعناصر المعمارية.

فالمخطط العام للخان يكون مربع أو مستطيل الشكل. ويتألف البناء من مستويين علوي وسفلي، فالطابق العلوي غرفة مخصصة لمبيت التزلاء بالخان، والغرف السفلية مخصصة لخزن البضائع، ويتوسط الخان صحن تتوسطه بجرة (بركة ماء)، وتفتح غرف الطابق الأرضي إما مباشرة على الصحن أو يتقدمها رواق. ويدخل إلى الخان من باب واسع يفتح في منتصفه تماما، يلي المدخل دهليز معقود من على يمينه ويساره يوجد مدرج يؤدي إلى الطابق العلوي ليصل من خلاله للغرف العلوية التي تفتح على رواق

يتقدمها ويحيط بالصحن. ويغطي صحن الخان أحيانا بالقباب، وفي معظم الأحيان يكون مفتوحا على السماء.

يعتبر هذا المخطط بدئية عند إنشاء هذا الخان، وقد روعي لتحقيق سهولة الحركة في الخان عند التصميم الداخلي على تحقيق سهولة الاتصال بين الغرف والانتقال بين الأروقة والاتصال بالساحة الرئيسة للخان — الصحن — والغرف إما أن تكون بحجم واحد أو مختلفة حسب موضعها ودورها، أما الممرات والعقود وسماكة الجدران تتلاءم وحجم الخان، ووزعت الفتحات والمداخل بشكل يوفر المناخ الملائم في فصل الحر والبرد^(٦).

وقد روعي على توفير جو الراحة في المكان، فداخلها هناك النور والظلمة، والمنخفض والعالي، والسماكة والرقة، والصغير والكبير، والفسيح والضيق، في تناسب منسجم.

وتلقى الخان العناية الفائقة بتهذيبه وتزيينه، وذلك حسب حجمه وغناه. فكانت العناية بالزخرفة المعمارية فائقة وتركزت على واجهات الخان الرئيسة وحول المدخل الرئيس. ونفذت بمواضيع هندسية ونباتية وكتابية، تبرز بوضوح تاريخ البناء ومؤسس الخان وتمجد الخان بأدعيات الخير والبركة للمكان.

وقد حليت المداخل بالمقرفصات والمنحنيات والشرفات التي تفتح على الباحة الرئيسة المغطاة بالقباب.

أما الغرف بين الخانات التي وجدت داخل المدينة وتلك التي بنيت على طرق القوافل، فكلما النوعين يقومان بنفس الدور مع زيادة بفاعلية واستمرارية نشاط تلك التي في المدن، كونها تستمد نشاطها من حركة أسواق المدينة، وتحتوي على بعض الحرفيات بداخلها. أما على المستوى المعماري، فتلك التي على الطرق تكون أكبر حجما وتكون من مستوى واحد أرضي وذات باحة فسيحة وأبواب وغرف واسعة وذلك لاستيعاب القوافل وتزود أحيانا بأبراج.

وإمعانا في توفير كافة وسائل الراحة والخدمات فقد حرص على أن يلحق بالخلن، سوق ومصدر ماء ومسجد وحمام ومرافق صحية وجناح لحشر الدواب كل حسب

جنسه. الشيء الذي يجعل من بعض الخانات سببا في نشوء وتطور عمراي بالقرب منه، كما هو الحال في مدينة خان يونس^(٧).

والخان يتميز عن باقي العمارة الإسلامية بميزة "Tipe" معمارية أتت ملائمة لدور ووظيفة الخان. الشيء الذي ميزه عن باقي العماير الإسلامية.

ففي العهود الباكورة للدولة الإسلامية فرضت الناحية الدينية نوعا من العمارة تتمثل بالمسجد، وتطور الدولة وأجهزتها الدينية والإدارية والعسكرية ظهرت أبنية كثيرة: كدار الإمارة والأسوار والقلاع. ومع التطور السياسي والفكري ابتداء من القرن الحادي عشر ظهر نموذج المسجد — المدرسة. وبتساع رقعة الامبراطورية الإسلامية وتطورها الاجتماعي والسياسي ظهرت عمارة ذات أهداف خيرية تقوم على رعايتها فئات عقائدية تمثلت بعمارة الربط والتكايا والخانقاوات والزوايا، بالإضافة إلى البيمارستان والحمام.

ومع التطور الاقتصادي والاجتماعي وتأكيدا لسلطة الحكام في فترة النهوض المحلي وكبار التجار والميسورين تطورت عمارة القصور، وانتشرت الخانات وتوسعت الأسواق في القرون الثلاثة الأخيرة.

وقد عرف عن الخانات في فترة التبادل التجاري بين الشرق والغرب ابتداء من القرن السابع عشر، بأن تخصصت بعض الخانات بخزن وبيع نوع محدد من السلع ويستدل على هذه الخانات من تسمياتها، كخان الحرير بدمشق، والصابون بحلب والزيت في القدس، والقهوة بغزة...

ومع انتهاء الحروب الصليبية في القرن الخامس عشر وفي ظل التحولات السياسية والاقتصادية والاجتماعية، تطورت وتعقدت وظيفة الخان وخرج عن تقليديته الأولى كماوى للقوافل والمسافرين. فكان تعبيرا لتبادل الآراء بين الأفراد والجماعات الذين جاؤوا من كل حذب وصوب والعمليات التجارية الكبرى في ميدان الاستيراد والتصدير كانت تتم في الخانات^(٨). فالجاليات الأوروبية وقناصلها كانت تسكن أحيانا في الخانات حتى أن بعض الخانات سميت بأسماء الجاليات التي تقطنه كخان البنادقة بحلب نسبة لرعايل البندقية الإيطالية. وقد تأسست الوكالات التجارية بالخانات، ففي عكا مثلا عمل

البنادقة والجنويون على تنشيط الحركة التجارية فيها وبنوا أسواق وبيوت لخن البضائع بها وحصلوا على قطعة أرض لبناء سوق في القدس مقابل دفع الضريبة. واشترى بعض التجار الفرنسيين في عام ١١٥٢م نصف عسقلان، وأعطى أحد أمراء الصليبيين الفرنسي الأصل تجار موندليه الفرنسية رخصة بعمارة أسواق في عكا^(٩). وفي مطلع العهد العثماني، أي منذ القرن السادس عشر، بدأت تتوسع التجارة الخارجية، وعلى إثر ذلك وقعت الاتفاقيات والامتيازات مع الوكالات الأجنبية، فازدهرت عمارة الخانات في مدن المنطقة، وفي كل من دمشق وحلب وحماه وعكا والقدس.. فأغلب الخانات بنيت في هذا العهد، فالقوانين السياسية والاقتصادية والاجتماعية للسلطين والأمراء المحليين وكبار التجار تتسابق وبشكل منظم وبوتيرة سريعة للتأكيد على سلطتهم المحلية، فإن مصالح هؤلاء أعطت الدافع لبناء الخانات كونها مؤسسات اقتصادية تستثمر بالتجارة وخلال مواسم الحج^(١٠).

بعض المظاهر الاجتماعية في خانات فلسطين

لقد أسهب الرحالة الأوروبيون في القرون المتأخرة في وصف الأرض المقدسة ومعالمه التاريخية وقد توقعوا كثيرا عند الخانات العريضة لديهم لما توفره من راحة وأمن في حلهم وترحالهم^(١١).

فما ذكر كوصف لهذه الخانات .. «منذ القدم يعتبر منزل الشيخ وخيمته كانا يقومان مقام الخان كملجأ لاستقبال المسافرين وعابري السبيل فاعتبرت أفضل مكان في البلدة وأكثرها أمنا لما يتمتع به الشيخ من سلطة.

وقد عمد المحسنون العرب من الأمراء والشيخوخ من أصحاب الثروة والجاه إلى بناء الخانات. فمن الممكن مشاهدة الكثير من هذه الخانات في ضواحي القدس وقرب وادي اللطرون وفي أريحا وسهول البحر الميت. وتمتاز هذه الخانات بأنها منشآت للإحسان والمنفعة العامة لذلك كان لها صفة التقديس حتى أيام الحروب كان هنالك اتفاق على عدم المساس بها. وكان يقوم الخان بدور المستشفى في بعض الأحيان، والأمراء والحكام يعتنون ببنائها وفقا لأصول الفنون المعمارية السائدة، وكان للخان صفة تماثل في بلاد الشرق المحكمة، أو دار البلدية في الغرب.

ففي الخانات كان يشاهد الرجال يودون الصلاة، وفي الساحة يجلس التجار إلى جانب رزم البضائع حيث يأتي العنبر من بحر البلطيق، والحلى الذهبية من القاهرة، والشالات من الهند والبهارات من اليمن، والعطور من مؤاب، وهناك رجال يغسلون أيديهم قبل أن يجلسوا لتناول الطعام، وهناك حلاق يقص شعر أحدهم وهناك فلاح ينام في الظل وفي الخان حركة دائبة^(١٢).

لقد كان هناك خان في بيت لحم قرب المغارة التي ولد بها السيد المسيح، وأيضا في منتصف الطريق بين القدس وأريحا هناك خان آخر. وربما يكون السيد المسيح قد توقف في هذا المكان ليأخذ قسطا من الراحة وفي أجواء هذا المكان قدم المثل الإنساني للناس جميعا. وكذلك خان المنية قرب طبريا، وخان التجار الذي يقع على طريق عكا، وقد روعي أن تكون المسافة بين الخان والآخر مسيرة نهار الراجل.

وفي بعض الأحيان أصبحت الخانات نوعا من المزارات الذي يجب المحافظة على سلامتها وهدونها حيث أن الناس لا يحاولون نقل حجارتها، ويتمتع الخان بطول العمر مثله مثل المسجد، والأرض التي يقوم عليها تصبح ذات اعتبار واحترام كأراضي الوقف^(١٣).

بعض الخانات في فلسطين:

بعد هذه الجولة، سنلقي بعض الضوء على خانات فلسطين في العهود الإسلامية، فمن الصعوبة بمكان أن نحصر جميع خانات فلسطين من حيث تاريخ إنشائها زمنيا، ومسحها مكانيا وحالتها الراهنة كذلك، لأن ذلك يتطلب بحث مدقق في كتب التراث الإسلامية والمصادر الأخرى بالإضافة إلى دراستها على الواقع. لكن نتوخى بإثارة الموضوع على أن يكون دافعا ومقدمة لدراسات أخرى لاحقة. فمن الخانات الموجودة بالقدس: خان الظاهر بيبرس ٦٦١ هـ / ١٢٦٢ م، بناه الملك الظاهر بيبرس، وذكره ابن شداد بكتابه "الأعلاق الخطيرة.." «وبني بخارج البلد خانا للسبيل ونقل إليه

* للباحث دراسة "مخطوطة" عن خانات دمشق في العهد العثماني، وصف وتحليل معماري وتاريخي. تمت الدراسة بموقع هذه الخانات في صيف ١٩٨١، ١٩٨٣.

الباب الذي كان على دهليز القصر الذي يدخل منه إلى البيمارستان بالقاهرة، وبني فرنسا وطاحونا ووقف عليه ثلاث قراريط ابلطرة من أعمال دمشق، وثلاث أرباع قرية المشلوفة ونصف قرية من أعمال القدس وشرط أن يعرف ذلك في جتروفلوس وإصلاح زرايسل من يبيت في هذا الخان من المسافرين»^(١٤).

خان وحمام الأمير تنكز بالقدس، أو "خان أوتزير Otuzbir" وتعني بالتركية خان "الإحدى والثلاثين"، يقع الخان ضمن سوق القطانين، ويتكون من طابقين ويتوسطه صحن عرضه عشرون مترا تقريبا يقسم إلى قسمين، الأول يحتوي على غرفة معقودة والثاني يحتوي على غرفة أكبر حجما.

فان برشيم V. Berchem الذي درس الموقع يشير إلى وجود مطبخة للقمح ضمن الخان وبناء على وصف آشي Ashbe'e يذكر المطبخة، ويذكر أن الغرفة المعقودة عرفت بـ Classroom، والغرف التي تطل على الصحن تسمى Dyeing and Spining والغرف التي تطل على القسم الثاني من الصحن تسمى Reserved for glass work فمن الممكن الاستنتاج أن هذه الغرف استخدمت من قبل الحرفيين^(١٥).

وفي القدس أيضا خان السلطان، يقع إلى الجانب الشرقي لطريق باب السلسلة والخان مربع الشكل يستعمل كدكاكين وغرف لإيواء التجار، وقد ذكره مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل .." بأنه مبنى واسع وهو من أوقاف الحرم. وذكرت الكتابة التي على مدخله بأنه جددت هذه القيسارية على يد السلطان برقوق ٧٨٨ هـ / ١٣٨٦ م^(١٦).

في عكا، ذكر من خاناتها، خان الفرنج نسبة للتجار الفرنجة الأوروبيين ويعتبر من أقدم الأبنية التجارية فيها، ويقع إلى الشمال الشرقي من خان آخر يسمى خان العمندان، وكان يستعمل خان الفرنجة في العهد العثماني مستودعا لبضائع التجار الفرنجة وهو مكون من طابقين: الأرضي مخازن واسطبلات والعلوي غرف معدة للسكن^(١٧).

بني خان العمندان في عهد الجزائر ١٨٧٥ م قرب الميناء ويسمى أحيانا بخان الجزائر، ويحتوي على صحن تتوسطه بحرة رخامية ويحيط بها أروقة محمولة على أعمدة^(١٨). ويوجد

بالقرب منه خان الشونة بني في عهد ظاهر العمر ١٦٩٥ — ١٧٨٢م. وفي عكا أيضا خان الحمير بناه علي باشا الخزندار ١٨١٠م، وقد كانت تربط به البهائم القادمة إلى عكا. وهناك خان آخر يدعى خان الشوادة "التسمية محرفة عن الشوفاليه أي الخيالة"، يقع بين باب البحر والميناء وهو عبارة عن بناء كبير ذي أروقة يتوسطه صحن واسع وبه سبيل^(١٩).

وفي غزة، فقد ذكرت وثائق محكمتها الشرعية في القرن التاسع عشر، عدة خانات منها خان الزيت، وخان الكتان، وخان الجمالي، وخان القهوة، وكان يطلق عليها تسمية وكالة كما هو الحال بمصر^(٢٠).

وبغزة أيضا بني الخزندار تنكز ١٣١٢ — ١٣٤٠م خاناً، هذا وقد عرف عن تنكز بقيامه بكثير من الأعمال العمرانية في سورية وفلسطين، فقد بنى في صفد يمارستان وفي القدس رباط وحمامين وقياسر وخان في جلجولية.

وفي صفد: ذكر الرحالة التركي أوليا شليي ١٦٧١م أنه نزل في خان الباشا والذي يتألف من عدة طوابق ويتسع لكثير من الزلاء، وكأنه القلعة بتحصينه وبابه الحديدي..^(٢١)

وفي قاقون بقضاء غزة بني سنجر الجاولي "توفي ١٣٤٥م" خاناً، وعن غزة فقد ذكرت وثائق القرن السابع عشر، عن دار الوكالة، التي تخزن فيها البضائع القادمة من الرملة وبضائع أخرى مثل الأرز والبلح والحنة وعصير العنب والثوم والبصل الناشف وبعض هذه المواد يأتي عن طريق البحر وتباع في أسواق المدينة^(٢٢).

وفي خان يونس، حاضرة في قضاء غزة تنسب إلى يونس النوروزي السودار "المتوفي عام ١٣٨٨م"، بني الخان سنة ١٣٨٧م على شكل قلعة متينة الأركان عالية الجدران لا يزال بعض أبراجه ظاهراً، فالخان كانت تمر به القوافل التجارية الذاهبة إلى مصر^(٢٣).

وفي الخليل ذكرت وثائق القرن السابع عشر عن خان الأمير وخان الفحم وخان الشعراء الذي أوقف لصالح قبة الصخرة^(٢٤).

أما النوع الثاني من الخانات، تلك التي على طرق القوافل والمسافرين، فمن أشهرها في فلسطين خان المنية، بناه سيف الدين تنكر ١٣٢٨م نائب السلطنة المملوكية في دمشق ١٣١٢ - ١٣٤٠م. وقد وصفه كثير من الرحالة الأوروبيين فقد مر به الرحالة السويسري بيركهاردت Burckhardt في مطلع القرن التاسع عشر، فقال فيه: «.. خان متهدم بناؤه كبير وحسن الإنشاء»^(٢٥).

وقد وصفه أيضا طومسون Thomson الذي زار المنطقة عام ١٨٣٦م بأنه يحتوي بوسطه حامل وعقود ومخازن على كل جانب وله سبيل للشرب وقد أقيمت فيه غرف لحماية البضائع وإقامة المسافرين.

ويوجد بالقرب من خان المنية، خان التجار، بني في سنة ١٤٤٠م وأعيد بناؤه ورمم إبان ولاية سنان باشا ١٦٦٥م، أقيم الخان لراحة القوافل والمسافرين بين دمشق والقدس وقد وصفه طومسون Thomson في مطلع القرن التاسع عشر فقال: «.. مساحته حوالي ١٠٠ متر مربع وله ابراج ذات ثمانية أضلاع ويستعمل كقرل وحصن وكان أصحاب حوانيت طبرية يذهبون إليه صباح كل اثنين للمشاركة في السوق الذي يقام قرب الخان»^(٢٦).

وهناك خان الدوير إلى الشمال من صفد، وخان جب يوسف يقع على الطريق بين عكا ودمشق فقد نزل بهذا الخان صلاح الدين الأيوبي ١١٧٨م في طريقه إلى حطين وقد مر به ابن بطوطة ١٣٥٥م وذكره عبد الغني النابلسي ١٦٨٩م في كتابه "الحضرة الأنسية..". بأنه خان عامر البناء يأمن فيه من يخاف^(٢٧). ومر به بيركهاردت Burckhardt ١٨١٢م وقال فيه: «.. بأنه في سهل ضيق وهو آخذ بالانهيار وعلى مقربة منه بركة ماء وفيه جب يقال بأن أبناء يعقوب ألقوا أخاهم يوسف فيه، ويقام فيه ستة من الجنود المغاربة وعائلاتهم يزرعون الحقول القريبة منه»^(٢٨).

وهناك بقايا خان قرب قرية لوبيا قرب طبرية، وخان بيسان من بناء سنجر الجاولي ١٣٠٨م نائب السلطنة المملوكية في غزة، وقد مر به بيركهاردت أيضا وذكر بأن القوافل التي تسلك طريق القدس دمشق تستريح به.

وبين القدس وأريحا يقع الخان الأحمر ويعرف الموقع باسم St.Euthymius نسبة لهذا القديس الذي أسس في المكان دير وكنيسة ٤٢٨ م. وقد اتخذ هذا الموقع مثلاً للتجار والحجاج السائرون إلى الغور^(٢٩).

وفي ناحية أريحا أيضاً وإلى الجنوب من عين القلط يوجد خان الحشورة وهو الموقع الذي نقل إليه السامري الصالح جريحه وأوصى به صاحب الفندق (النجيل لوقا ١٠: ٣٧).

وهناك خان آخر ببيت إكسا قرب القدس، وخان السهل قرب القدس أيضاً وخان البيرة في قضاء رام الله، وخان يعرف بأبي الحاج فارس^(٣٠). وفي قضاء الجليل توجد خربة الخان وهي محطة قوافل بين القدس وبيت جبرين.

الأسواق القديمة في فلسطين، تاريخها، وتوزيعها:

إن مصدر كلمة سوق كما ذكرت الموسوعة الإسلامية، مأخوذ من الآرامية، والكلمة تستعمل للإشارة إلى المكان الذي يقام في السوق. والسوق موضع البضاعة والأمتعة وسميت بذلك لأن التجارة تجلب إليها وتساق نحوها المبيعات^(٣١). ومن الجدير بالملاحظة أن مجمل الجوانب التي ترتبط بمشكلة السوق لها علاقة وثيقة الصلة بالتاريخ الاجتماعي والاقتصادي والقانوني في الإسلام.

فيذكر الجغرافي الألماني E. Wirth في بحثه حول البازار والسوق أنه في أغلب الأحيان يوجد السوق في وسط المدينة، حيث يكون له هيكل معماري يسمح له بتلبية الحاجات الاقتصادية، لدرجة أنه حتى الآن لم يشهد السوق تأثيرات كبيرة دخيلة تغير من خصوصيته، أما على مستوى دراسات الأسواق فحتى نهاية القرن التاسع عشر لم تكن هنالك معلومات محددة ومتخصصة عن طبيعة الحركة الاقتصادية داخل هذه الأسواق، حتى الحرب العالمية الأولى لم يحظ هذا الموضوع بدراسته. فالسوق والبازار في الشرق يعادل المركز التجاري في الغرب وهو مركز صناعي ومصرفي ضمن الاقتصاد العمراني الحضري، وينتشر السوق في معظم المدن الإسلامية^(٣٢).

فالملاحظ لدينا أن كل ما كتب عن هذه المسألة لا يعني دور وأهمية السوق، فوجود السوق له علاقة بالحفاظ على المدينة واستمرارية نموها وتطورها فكل مدينة

تحتوي على سوق رئيس وهذه بديهيّة منذ العهود الرومانيّة، بالإضافة إلى الأسواق الفرعية في الأحياء لتسهيل المعاملات اليوميّة، وتسمّى هذه بسويقة، وأحياناً ربيع^(٣٣).

لا تخلو المصادر المتنوعة من ذكر للأسواق ودراساتها ومن الممكن الرجوع إلى الأدب الذي له صلة بالدين والتاريخ والجغرافيا والفلسفة التطبيقية وأدب الرحلات، والمصادر التي لم تتكلم عن السوق فهي في أغلبها أعمال لغوية وفلسفية نظرية.

إن أهمية فلسطين الدينية والحضارية وقديسيّة مدنها جعلتها مراكز حضريّة وعمرانية مأهولة بالسكان يؤمها الحجاج والسياح الشيء الذي ساهم في نشوء وتطور أسواقها وتنوع سلعتها.

فيذكر لنا بالمناسبة الرحالة الإنجليزي كينغليك Kinglek الذي زار القدس سنة ١٨٣٣ م.. بأن في يافا كان الحجاج النصاريّ يستأجرون الجمال والخيول لتحملهم إلى المدينة المقدسة فإن وصلوا أسرعوا بعرض بضائعهم التي حملوها معهم في ساحة الكنيسة التي تتحول إلى سوق، وكذلك سكان القدس وما جاورها يعرضون في هذا السوق منتوجاتهم^(٣٤).

فمن أسواق القدس ذكر مجير الدين الحنبلي في كتابه "الأنس الجليل" بأن الخليفة عمر بن الخطاب عندما قدم لفتح القدس ٦٣٧م وقف على راس السوق فقال: لمن هذا الصف، يعني سوق البزازين، فقالوا للنصارى، فقال: لمن الصف الغربي الذي فيه الحنمل، فقالوا: للنصارى، فقال: بيده هكذا هذا لهم — يعني للنصارى — وهذا لنا مباح يعني السوق الأوسط الذي بين الصنفين^(٣٥).

سوق القطانين: لقد درس السوق من قبل ل. جولفان Golvin. L، فذكر بأن السوق كان قد وصف من قبل المؤرخين العرب المسلمين. فالعمرى عام ١٣٤٧م في كتابه "مسالك الأبصار في ممالك الأمصار" قال فيه: «من أبواب السوق نصل إلى القيسارية التي شيدت أخيراً وهي عبارة عن دكاكين منها ما هو وقف على الحرم ومنها لصالح المدارس». وهو من أقدم الذين ذكروه.

يعطينا مجير الدين الحنبلي في "الأنس الجليل" وصفا موجزا للسوق فيقول «.. وهو في غاية الارتفاع والاتقان»^(٣٦).

إن تسمية سوق القطانين ترجع إلى تجارة القطن الشائع في ذلك المكان، وعلى باب السوق يشاهد كتابة مفادها أنه قد رمى ١٣٣٥ م على يد السلطان الناصر محمد بن قلاوون.

وقد ذكر فان برشيم V. Berchem بأن السوق أعد لتجار القطن منذ القرن الخامس عشر، وبانتهاء القرن التاسع عشر كانت قد أفقرت الدكاكين وخصوصا تلك الموجودة على الجانب الأيمن من الحرم ومنذ ذلك الحين لم يعد السوق إلا ركاما ولم يبق منه إلا بعض الدكاكين الموجودة في أقصى الشرق. فالأبنية التي حوله كانت وقفا لصالح مؤسسات يمتلكها تنكر. ولقد لحق بالسوق مؤسسات اقتصادية أخرى ذات خدمات اجتماعية مثل خان اوتزبر Otuzbir، المار ذكره والذي يحتوي على مطحنة قمح وحمامين، حمام العين وحمام الشفاء^(٣٧).

وقد تحدث الحنبلي مجير الدين، حول الأسواق الثلاثة المجاورة لسوق القطانين أحدهما بالقرب من باب المحراب "باب الخليل" وهي بناء الروم. الأول منها بالقرب من سوق العطارين وهو وقف الملك صلاح الدين ٥٣٢ - ٥٨٩ / ١١٣٨ - ١١٩٣ على المدرسة الصلاحية والذي يليه إلى الوسط مخصص لبيع الخضراوات والذي يليه إلى الشمال مخصص لبيع الأقمشة وهما وقف على مصالح المسجد الأقصى. وقد ذكر المسافرون أنهم لم يروا مثل هذه الأسواق الثلاثة في الترتيب والبناء، وذلك من محاسن بيت المقدس^(٣٨).

وذكر الحنبلي أيضا عن سوق المعرفة بآخر المسجد من جهة الشرق وقد عرف هذا المكان بالمعرفة لربما لترغيب أولئك الزوار ليعودوا دراويش المكان مدعو المعرفة، ونقل بعض المؤرخين أن باب التوبة كان في هذا المكان وأن بني إسرائيل كانوا إذا أذنب أحدهم ذنبا أصبح مكتوبا على باب داره فكان يأتي إلى هذا المكان ويتضرع ويتوب إلى الله ولا يبرح المكان حتى يغفر الله له^(٣٩).

وذكر ناصر خسرو عن القدس في ١٠٤٧ م بما أسواق جميلة، وأبنية عالية وكل أراضيها مبلطة وفي المدينة صناعات كثيرون لكل جماعة منهم سوق خاص^(٤٠).

وفي سنة ١٤٧٨م مر بالقدس الرحالة اوييدا حنا Obadiah Jane واستقر بها حتى وفاته ١٥٠٠م فذكر أن بالقدس أربعة أسواق جميلة مما لم أر له من قبل شبيها، كلها مسقوفة بالقباب وتحتوي جميع أنواع المتاجر وهذه الأسواق الأربع هي سوق التجار وسوق العطارين وسوق الخضار وسوق الأطعمة المطبوخة والخبز^(٤١).

وفي القدس بنى شمس الدين بن عجور ١٨٧٨ سوق الطبائخين وجعل عليه قناطر معقودة على الحوانيت للتخفيف من مشقات فصل الشتاء.

وقد زار القدس التركي أوليا شليي نحو ١٦٧٠م ومما جاء في وصفه: «.. وفي القدس ألفين وخمسة وأربعون دكان مبنية بالحجارة والعقود المنقطة وفيها ستة خانات عظيمة، وأسواق كثيرة منها: سوق السلطان وهو أشهرها، والمسؤول عن إدارة السوق، المختسب ويلقب بالآغا، ومن واجباته أن يحفظ سجلا يدون فيه أسماء التجار وأصحاب الدكاكين، وللسوق خان تحفظ فيه جميع البضائع والأمتعة القيمة.

ومن أسواق القدس: السوق الطويل تباع فيه الصحنون، والفناجين وأدوات الطهي، وأدوات المنزل، وسوق الحلاجين ويعمل فيه الحلاجون والندافون وتجار القطن وسوق الغلال وتعرض فيه جميع أنواع الحبوب والغلة، وسوق الحرير، والسوق القريب من باب السلسلة وسوق البزارين وله باب حديد، وفيها عدد غير قليل من الصياغ وتجار الحلبي والمجوهرات. وجميع هذه الأسواق مسقوفة بالعقود المنقطة ومرصوفة بالبلاط النقي والطريق الكاتبة بين سوق الغلال وكنيسة القيامة والمسجد العمري مرصوفة بالبلاط من القطع الكبير^(٤٢).

وعن بيت لحم ذكر ياقوت الحموي "توفي ١٢٢٦" في كتابه "معجم البلدان" بأنها مدينة عامرة وفيها سوق وبيارات.

ومن قصبات فلسطين العامرة منذ العهد الإسلامي الأول، مدينة الرملة، وقد وصفها الإدريسي "توفي ١١٦٥" مدينتا الشام هما الرملة وبيت المقدس فالرملة مدينة حسنة العمارة وبها أسواق وتجارات، تدخل وتخرج.

أسست المدينة في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك ٧١٥م فبنى فيها دار الإمارة، ولما استقرت في أحيائها القبائل بنيت الدور والحوانيت والأسواق، والراجح أن

الأسواق الرئيسية وضعت إلى جانب الجامع وأما نظمت على أساس توزيعها بين البضائع والحرف المختلفة^(٤٣).

وقد وصفت الرملة في حدود ١١٠٦م بأنه كان يحيط بها سور، ولها قلعة وأثناسا عشر بابا ولها أربعة أسواق متصلة مع أربعة أبواب إلى وسطها وبها مسجد ومن أسواقها سوق القماحين وهو متصل بسوق البصاليين، وهذه الأسواق حسنة وتباع فيها كل أنواع السلع وهناك سوق متصل بباب القدس هو سوق القطانين ومشاطي الكتان وسوق العطارين وسوق الحبايين والخرازين ثم البقالين ويتصل بباب آخر سوق الصياقلة ثم سوق السراجين ولم يبق أثر لتلك الأوصاف التي بالرملة وقد زالت أسوارها وأسواقها باستيلاء الصليبيين عليها^(٤٤).

وصف أحد الرحالة الأوربيين سوق الرملة في القرن الخامس عشر بقوله: لقد جاءنا الباعة يحملون الفراخ والحليب المطبوخ والمعجنات والأرز المصنوع بالحليب وأرغفة الخبز الممتاز الأبيض والعنب الحلو، والمان والتفاح والبرتقال والبطيخ والتين الكبير والصغير، والمكسرات المصنوعة من اللوز والعسل والتين المجفف والمكسرات المصنوعة من التمر واللوز والسكر والماء البارد وجاء بعضهم بقوارير جلدية وبها شراب طيب يغني عن الخمر يستعمله أشرف المسلمين وبعد الغداء زرنا أسواق المدينة التي تحتوي على كل المتاجر، ودخل بعضنا الحمام^(٤٥).

زار فولني Volney الرحالة الفرنسي المنطقة في نهاية القرن الثامن عشر وذكر عن الرملة بأنه كان يقام بها سوق يتوافد عليه أهل القرى المجاورة لبيع القطن المغزول.

أما عن عكا: فالمقريري "توفي ٨٤٥ / ١٤٤٢" ذكر في كتابه "السلوك في معرفة دول الملوك" يصف عكا: «... لعكا سوق عظيم ذا مساحة فسيحة فيه مائة وأربعين دكان بيطار، ولقد عدت عند طباخ واحد ثمانية وعشرين قدرا كل قدر يتسع لرأس غنم، وكنت أحفظ عدد الدكاكين لأنها مدونة لدى أمين السوق وأظنها سبعة آلاف دكان. أما سوق البحر العتيق والجديد فشيء يهر العقل وهناك الكثير من الحمامات يتولاها مغاربة^(٤٦).

وعن عكا يتحدث أيضا فولني Volney عند مروره بالمدينة سنة ١٧٨٥م أيام الجزائر ١٧٧١ - ١٨٠٤م، فذكر بأن الجزائر قام بأعمال عمرانية في المدينة فبنى جامعاً جميلاً وسوقاً مسقوفة لا تقل شأنًا عن سوق حلب، وقد أخذ بتقوية حصونها وأبراجها وأسوارها، وذلك بأن أنشأ بها العمارات وأقام بها سوق وحمام وخان العمندان وذكر بلن للفرنسيين في عكا قنصل وللتجار ستة وكالات.

ومن أسواق عكا الشهيرة، السوق الأبيض، شرقي جامع الجزائر، ويتألف من صفين من الحوانيت المعقودة يفصلها ممر عريض مسقوف إلى اليمين من مدخله سبيل ماء ويعود تاريخ هذا السوق إلى عهد الوالي سليمان باشا العظمى ١٨٠٤ - ١٨١٨م كما تشير بذلك النقوش المكتوبة عليه، ويسمى اليوم بالسوق الشرقية، تباع فيه الخضار والفاكهة، والمجوهرات والتحف التذكارية التي تصنع يدوياً^(٤٧).

أما مدينة يافا، فيذكر أبو الفداء "توفي ١٣٣١" في كتابه "تقويم البلدان" في وصفها بأنها كانت حصناً كبيراً فيه أسواق عامرة ووكلاء تجار وبها ميناء كبير ترسي فيه السفن الواردة إلى فلسطين.

وعندما مر الرحالة ابن بطوطة "توفي ١٣٧٧م" بغزة ذكر بأنها مدينة حسنة متسعة الأقطار كثيرة العمارة حسنة الأسواق وبها مساجد عديدة وعليها الأسوار. هذا وقد أسهب الرحالة في القرون المتأخرة بوصف المدن والأوبد الفلسطينية وتجمع المصادر بغنى وشهرة الأسواق الفلسطينية كذلك الموجودة داخل القصبات أو التي تعقد على أطرافها حيث تقام الأسواق الأسبوعية والموسمية.

ويذكر فولني الفرنسي Volney (١٧٨٣) عندما مر بغزة يذكر بأن القوافل الرائحة والغادية بين مصر وسورية تعتبر مصدر ربح لسكان المدينة فمنها تبتاع تلك القوافل الطحين والزيت وما تحتاجه من مواد تموينية في خلال الأيام التسعة التي تقضيها في اجتياز الصحراء.

وكما عرف عن المدينة في القرن التاسع عشر، بأن كانت قافلة الحج الشامي تمر بها في بعض السنوات أثناء عودتها من الحجاز لتحاشي هجمات البدو، وسميت بالطريق الغزاوي، وقد صقلت غزة بفاعليات اقتصادية مختلفة على مر العصور. ويستدل على

ذلك من أسماء الخانات والأسواق فيها، وكان بها أسواق تتخصص بنوع واحد من السلع وتتنوع على الحارات^(٤٨). فقد ذكرت وثائق القرن السابع عشر بأن أشهر أسواق غزة، سوق الغزل والصبغة وأسواق أخرى تباع بها الدواب وكباقي المدن الفلسطينية^(٤٩). وفي أواخر العهد العثماني اعتبرت المدينة مركز تجاري للقرويين والبدو الذين كانوا يأتون إلى أسواقها لشراء ما يلزمهم وكانت أشهر حاصلات سهولها وسهول منطقة بحر السبع، الشعير والذي كان يصدر بكميات كبيرة لأسواق العالم وخاصة بريطانيا لتصنيع البيرة، عن طريق مينائها^(٥٠).

رفع من قصبات غزة، ذكرها أبو الحسن الهلي "توفي ٣٧٦هـ / ٩٨٦م" بقوله: «لها مدينة عامرة فيها سوق وجامع ومنبر وفنادق وقد خربت بعد ذلك، وعادت أهميتها في عهد الانتداب البريطاني، واشتهرت بزراعة الحبوب وبعض الخضار والفاكهة والأشجار المثمرة لوفرة مياه آبارها، وكان يعقد بها كل ثلاثاء سوق عام تؤمه الناس من غزة وخان يونس وبئر السبع يباع ويشترى فيه سلع كثيرة ودواب وخاصة الجمال^(٥١).

وعند مرور الرحالة التركي أوليا شلي في صيف ١٦٧١ نزل في سوق سنان باشك وقد وصف بيركهات Burkhardt صيف بأنه كان يعقد فيها كل يوم جمعة سوقا تؤمه جموع الفلاحين من القرى المجاورة.

ومر بيركهات أيضا بالخليل وذكر أن أهل الخليل اشتهروا بأنهم تجار مغامرون وهم ليسوا بمخادعين وقد كانت القوافل التجارية تسير بين الخليل والعقبة في رحلة تستغرق تسعة أيام حاملة على ظهورها مختلف أنواع السلع كما وأن الباعة من أصل خليبي كانوا يتجولون ويتوغلون في الصحراء العربية، ومنهم من يبقى على مدار السنة للتجارة.

وذكر محير الدين الخليلي في كتاب "الأنس الجليل" بأن في الخليل حارة الدارسة غرب المسجد وبها أسواق البلد ومنافعها وهي أحسن الحارات، وذكر إن سوق الحصريقة والزياتين وسوق الغزل^(٥٢).

وقد وصفت مدينة حيفا، في أواخر العهد العثماني بأنها قصبة داخلها لطيف وهي تشبه بيروت من حيث الحوانيت حيث باعة التبغ والمقاهي وبها سوق عملت فيه

تصليحات وأحدثت فيه المحلات ومخازن بقالية للأجانب والقصابين وباعة الأقمشة والمينافاتورة وأمثالها، ويمكن للزائر المتجول أن يعيش الساعات القليلة قرونا متباعدة من التاريخ فالبلدة القديمة بها المسجد الكبير والسوق العام والمحلات التي تحتفظ بطابعها الشرقي ومن أسواقها السوق الأبيض وسوق الشوام لكثرة التجار السوريين، وقد ضمت عام ١٨٠٨ تسعة مئة وثمانية وعشرين حانوتا وأربعة مئة وثلاث وعشرون مخزن^(٥٣).

وأما مدينة الناصرة، فقد ذكرت ١٩٠٥ بأنها مدينة زاهرة وكانت بندرا وسوقا وفيها الحدادين والصناع والطارين والبقالين والسروجين وصنوف التجار، ما يكفي حاجات المنطقة وكانت تؤم من قبل القرويين المحيطين بها لشراء حاجاتهم^(٥٤). وقد ذكر المقدسي "توفي ٣٨٠هـ / ٩٩٠م" في "أحسن التقاسيم.." عن قصبة طبرية بأن لها سوق من الدرب ولها جامع وسوق كبير. وذكرت المدينة مؤخرا بأن سوقها يحتوي على إثني عشر حانوتا يبيع لسكان القصبة وبلاد الغور ومنطقة صفد، وقد صنفت في مطلع هذا القرن بأنها تحتوي على مئة حانوت^(٥٥).

وعن أسواق القدس المتأخرة فقد ذكر عارف العارف، بأنها كانت سنة ١٨٧٦ تحتوي على ألف وثلاثمائة وعشرون دكان يعمل بها ألف وتسعمائة وعشرون شخصا من كافة ارباب المهن والحرف، وفيها أسواق عديدة جلها مرصوف، بعضها يقوم على قبو مرتفع، والأسواق التي داخل المدينة معوجة وضيقة ويزدحم الناس بها بكثرة في مواسم الأعياد^(٥٦).

مدينة يافا ذكرت أيضا في مطلع هذا القرن بأن وسعت شوارعها من قبل حاكمها حسن بك الجبالي فأزيل السوق القديم الذي بني في أوائل القرن التاسع عشر، وبقي من أسواقها:

سوق بسترس: نسبة إلى صاحبه اسكندر عوض بسترس، ويبدأ من جوار دار الحكومة وينتهي عند الطرف الجنوبي من شارع جمال باشا.
سوق الدير: وهو من أوقاف الروم الأرثوذكس.
سوق البلاسة: ومعظم تجاره يعودون بأصلهم إلى بلبس في مصر ويقع بجوار الجامع الكبير، والقرب منه يقع سوق النحاسين. وهناك سوق الحبوب وسوق المنشية

وسوق الإسعاف: وهو أحدث أسواق يافا أقيم على بقعة المقبرة الإسلامية القديمة. هذا وقد ذكرت الصحف العبرية الصادرة بتاريخ ١١/١٢/١٩٤٨ "هابوكير" أن اليهود هدموا مئات العمارات العربية في يافا، ومنها ما هو ذو أربعة وخمسة طوابق، ثم هدموا سوق البلاسة وسوق النحاسين وحي المسلخ وغيرها^(٥٧).

ومن الأسواق الأسبوعية: فقد كان يعقد في قرية العباسية في قضاء يافا كل يوم سبت سوق يومه سكان القرى المجاورة، وسوق آخر في قرية أسدود بين يافا وغزة، فقد كان يعقد كل أربعاء يومه فلاحو وبدو المنطقة. وفي عسقلان التي وصفت قديماً بأنها كثيرة المغارس والفاكهة وذات أسواق حسنة، وكذلك الفالوجة التي اشتهرت بزراعة الحبوب والخضار واشتهرت بكثرة الدواجن فيها، وصناعة الأواني الفخارية الملونة، ونسائها تجيد الطرز وغزل الصوف وصبغه اشتهرت بين القرى، فقد كان يعقد فيها كل أربعاء سوق يستمر إلى ظهر يوم الخميس^(٥٨).

وسوق يعقد كل سبت في بيت ساحور قضاء القدس يحضره عرب الناصرة والبيدية ويبيعون فيه منتجاتهم من الحبوب والماشية والدواجن ويشتررون كل ما يحتاجون إليه من سكر وقماش وأرز^(٥٩).

فهذه الأسواق الأسبوعية والموسمية، كانت تقام في إحدى أيام الأسبوع في قرى وربوع فلسطين، ويستمر عقد السوق نهاراً كاملاً، ومن المتعارف عليه أن هذه الأسواق موزعة بشكل منتظم على مدار الأسبوع وبأماكن متفرقة بحيث تضمن استمرار الحركة الاقتصادية للأسواق قائمة ومستمرة، فكان يقام كل يوم إثنين سوق في اللد، ويوم الجمعة في كل من القدس والخليل ويافا وغزة والمجدل ونابلس، ويوم الأربعاء في كل من بئر السبع والناصرة والرملة.

وهذه الأسواق لم تكن حكراً على ممتهي التجارة فقط، فقد كان كل شخص أو عائلة تستطيع المشاركة بالسوق، وقد كان الناس يستعدون للتحضير له قبل موعد عقده، ويراعى أن يعقد السوق في منطقة متوسطة بين جموع القرى أو في ضواحي

القصبات وعلى مساحة فسيحة يسهل الوصول إليها، ويتوفر بالقرب منه مصدر ماء، وبعض الخدمات وكانت غالبا ما تقام قرب بناء قدم أو خان.

وتعرض هذه الأسواق كل أصناف المواد والغلال والمنتجات اليدوية والحرفية وتعرض بها المواشي والدواب.

ولا شك أن الأسواق الشعبية كانت تتيح الفرصة لانتقال العادات والتقاليد والاطلاع على الأخلاق الاجتماعية والتقاليد الفلكلورية. وكان يسمع من أفواه الباعة الأهازيج الشعبية، وتعدّ الجلسات للمداولات والأحاديث في شتى صنوف الأدب الشعبي، وتتناقل فيها أخبار القصبات من أمور اجتماعية وسياسية وكثيرا ما كان يبلغ عن الأوامر والقوانين الرسمية في الأسواق بسهولة انتشارها.

هذا وربما اختلف راويين من المحدثين حول حكاية شعبية أو بعض الاييات الشعرية فيقوم أحد المطلعين بدعوة الجميع إلى بيته أو إلى ديوان القرية ودون سابق معرفة وهناك يتحف السمار بحكاياته وأشعاره. وتعدّ بالسوق الدبكات والرقصات الشعبية وتغنى الأغاني في أثناء العمل في حال التهيئة للسوق بالتحميل والتريل.

ومن نداءات الباعة، تسمع نداء البائع الفلسطيني الذي اشتهر بصوته الحنون وبكلماته المعبرة ويتجلى الإيمان بندائه كأروع ما يكون فتسمع أحيانا من بائع يضع على رأسه شيئا لا تعرف ما هو، تسمعه يقول: خلي اعتمادك على الله..!، أو يا غني يا كريم..! فتكتشف بعد ذلك أنه يبيع نوعا من الحلوى الذي صنعه يده!

وأحيانا يلفظ كلمة واحدة فقط ليدل على ما يبيع كأن يقول، بالمسمن! وأحيانا يعبر عن أصل السلعة ليعلن عن جودتها كأن يقول: يا فاوي يا برتقال، خليلي يا عنب، وريحاوي يا موز..! (٦٠).

منذ مطلع القرن التاسع عشر نقل لنا الرحالة طومسون Thomson وصفا حيا ودقيقا للسوق الذي كان يقام كل إثني عند خان المنية، فقال: «... المكان يصبح بساعات قليلة حيا ورائعا ومفعما بالحياة وتعطي هذه التجمعات فرصة ممتازة لمراقبة الأخلاق والعادات والأزياء في المنطقة وكذلك للتعرف على المنتجات وأصنافها، فآلاف الناس يتجمعون من جميع أنحاء البلاد إما للبيع أو التجارة أو للشراء، فقد كان يأتي بالجن

واللبن والسمن والعسل وما شابه. ثم هنالك أصناف جيدة من الدجاج والبيض، والتين والزيت والتفاح والبطيخ والعنب، وأما الخضار والفاكهة فيؤتى بها في فصول نضجها ويضع الباعة المتجولون ما يحملونه من أقمشة مغرية ويعرض الجوهري بضاعته القليلة القيمة "تقليدية" والحلي الطريفة ويأتي الخياط بملبوساته الجاهزة وصانع الأحذية بصنادله الخشبية فضلا عن الأحذية الصفراء والحمراء. وكذلك نجد البيطار بأدواته ومساميره وحذواته وهو يقوم بعمل مفيد وصانع السروج بأكياسه الخشنة وهكذا الحال بالنسبة لجميع المهن.

والضوضاء لا تنقطع وهي تبدو عن بعد وكأنها أصوات مياه كثيرة، فهذا رجل ينادي على أدواته بأعلى صوته، وتسمع صياح الدجاج والديوك، ونهيق الحمير، وتتشاجر الكلاب، فكل كائن حي يضفي شيئا إلى هذا الضجيج المتنوع النغمات وكأنها ملهاة متنوعة يقوم بها كل ممثل بدوره راضيا كل الرضى. ويجد الناس عدة أسباب للحفاظ على هذه الاجتماعات القديمة والحديثة فكل رجل وامرأة وكل صبي لديه الرغبة للمتاجرة وتلقي هنا بالطبع جميع الطبقات والفئات في هذه البورصة الكبيرة، للتحديث عن أحوال السوق من سعر الخيار إلى سعر القطن أو سعر الحصان الخوراني وكل عربي سياسي فتنجمع الناس على جوانب الحشر للتباحث بما تقوم به الدول المتحالفة ضد محمد علي باشا — والي مصر — وآخر فرمان أصدره السلطان والضريبة الجديدة التي يطلبها الحاكم.

وإذا انتقلنا إلى الأمور العادية فإننا نجد أن هذه الأسواق أمكنة كبيرة للتحديث فالأصدقاء يقابلون بعضهم البعض ويتبادلون أخبار الزواج والمواليد والوفيات وجميع الحوادث المتنوعة بتعبير آخر إن هذه الأسواق تعتبر الجريدة اليومية للأحداث، لأنه يعقد ، في العادة، واحد منها في كل يوم من أيام الأسبوع ضمن منطقة يبلغ محيطها أربعون ميلا. وهي تشكل مكتب تبادل للأخبار السياسية والاجتماعية كما تشمل الاحتفالات والمهرجانات وفوق كل ذلك هنالك فكرة الربح واردة.

هكذا يكون الحال في خان التجار صباح كل إثنين، ولكن قبل مغيب الشمس بوقت لا تجد أياً من هذا المشهد، فالجميع يعودون إلى منازلهم أو يلجؤون إلى قرى مجاورة»^(١١).

هذه الجولة نكون قد ألقينا بعض الأضواء على أسواق وخانات فلسطين في العهود الإسلامية.

فاستطعنا بذلك تقديم صورة عامة عن جانب من تاريخ فلسطين الاقتصادي والاجتماعي والمعماري.

ربما هذه الدراسة سدت بعضاً من النقص حول هذا الموضوع الهام، فمن خلال الأسواق والخانات والنماذج المعروضة وقفنا على وظائفها والحركة الاجتماعية بها ووصفها المعماري وتوزعها الطبوغرافي.

فلسطين تمنح البحثة أغنى الوثائق التاريخية لدراسة جوانب متعددة ومواضيع مختلفة سواء أكانت معمارية، كالمساجد والمدارس والحمامات والخانات والمزارات أو الديارات، أو دراسات اقتصادية واجتماعية وفنية، كالخزفيات والصناعات اليدوية.. مثلاً. أو دراسات اتنوغرافية أو اتنولوجية كدراسة التوضعات السكنية لقبائل قرى، مدن... تبقى المهمة الأساسية الكشف عن هذه الوثائق من خلال المحفوظات (الأرشيفات) المتعددة، لكن الصعوبة التي تطرح مع بدء العمل مشكلة توزع هذه الوثائق على المكتبات ودور المحفوظات المختلفة وفي أنحاء متعددة ومتباعدة، فتطرح بذلك صعوبة وصول الدارسين لها، وأحياناً لأسباب أخرى متعددة.

الهوامش

١ - حول كل ما يتعلق بالخانات، وإشكاليات دراستها ومصادرها يراجع ما

يلي:

- Muller, K, Die Karawanseral in Vorderen Orient, Bauwissenschaftlich Beitrage, Band C. Berlin 1920.

- Erdmann, K, Das antolische Karavansaraay des 13. Berlin 1961.

- Sauvaget, J, Caravanserais Syriens du hadjdj de Constantinople dans, Arts Islamic IV, (1937) 98-121 et Caravanserais du moyen- Age Ibid VI (1939) 46-55.

- Foud Yahia, Inventaire Archeologique de Caravanserais de Damas (These) de 3em Cycle, Un, de Provence Centre d'Aix (1981).

أنظر أيضا

عبد القادر الرجاوي، خانات مدينة دمشق، الحوليات الأثرية السورية — مجلد ٢٥

(١٩٧٥).

حيب الزيات، خانات دمشق القديمة، نشر مخطوط، يوسف بن حسن بن عبد الهادي "الإعانات على معرفة الخانات"، مجلة المشرق — المطبعة الكاثوليكية — بيروت (١٩٣٨) ص ٦٦.

٢ — عبد القادر الرجاوي، خانات مدينة دمشق، الحوليات الأثرية السورية — مجلد

٢٥ (١٩٧٥)، ص ٥١.

٢ — محمد المحيي: خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر، أربعة أجزاء، المطبعة الوهية، القاهرة ١٢٨٤هـ — ١٢٨٦٧م، ج ٤ صفحة ٣٥٦.

٣ — لقد ذكرت المصادر بأن الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز ٦١ — ١٠١هـ / ٦٨١ — ٧٢٠م. كان أول من اتخذ من الخانات مكانا لإيواء القوافل.

وجاء في الموسوعة الإسلامية، الطبعة الفرنسية (باريس ١٩٧٣) بأن أول خان ظهر في سورية، خان العقبة ٦١٠هـ / ١٢١٣م.

5- Sauvaget, J. Caravanserais Syriens du moyen- Age, Artislamic IV (1937) p.46.

٦ — دراسة هامة عن خانات دمشق القديمة تلك الواقعة بين سوق مدحت باشا

وسوق البزورية.

George Saba et Klous Saizweda Typologie de Caravanserais dans la ville de Damas dans les cahiers de la recherche Architecturale 10-15 2em trimest. Paris (1983) pp. 52-59.

٧ — حول خان يونس أنظر مصطفى مراد الدباغ بلادنا فلسطين بيروت، دار الطليعة

(١٩٧٣). الجزء الأول. صفحة ١٣٥، ١٤٤. (سندكره بعد ذلك بالدباغ فقط)

حول خان يونس أنظر أيضا:

Abukhalaf. F, Marwan. Khan Yonus and the Khan of Palestine
Juor: (Levant) vol:XV pp 178-186, Jerusalem - Amman (1983).

٨ — مرجع أساسي لدراسة اقتصاد سورية وفلسطين في القرن الثامن عشر، راجع:

Charles Raux Francois les Echelles de Syrie et de Palestine en XVIII. Paris (1927).

أنظر أيضا:

Heyd. W. Histoire du Commerce du lavant an moyon- Age. Lipzig 1936. p93.

٩ — حول الامتيازات والعلاقات الدولية، وعلاقة الامبراطورية العثمانية مع الدول

الأوروبية. أنظر:

Pellissie de Kausas le Regem des Capitalation dans l'empire Ottoman Paris (1902) p.25.

١٠ — حول قافلة الحج الشامي ودورها في سورية، راجع:

Sauvaget, F. Esquisse d'un Histoire de le vie de Damas R. des etude Islamique (1934) p.469.

لقد كانت القافلة كما وصفت في نهاية القرن الثامن عشر تعد من ثلاث إلى أربعة آلاف رجل، وهي تعمل على تنشيط الحركة التجارية بين الأناضول وطوال الطريق إلى مكة عبر سورية. وكانت القافلة تنزل بالخانات المنتشرة على هذه الطريق. أنظر وصف للقافلة ذكره الرحالة الفرنسي فولني Voleny.

Voleny. M. C.V Voyage en Syrie et en Egypt. Paris (1959).

هذا ونفس الدور كانت تلعبه قوافل الحج المسيحي القادمة من أوروبا إلى الأراضي المقدسة فتعمل على تنشيط الحركة التجارية في المدن الفلسطينية، وخصوصا في مواسم الأعياد الدينية، فكما هو معروف كان الحجاج يدفعون ضريبة دخول معلومة. وقد بقيت الخانات مركز استقبال لهؤلاء الحجاج حتى نهاية القرن التاسع عشر. حيث أخذت الأديرة تقوم مقام الخانات كقول. وقد سميت مركز استقبال الحجاج المسيحيين بالموسيس hospices، وبلغ عددها في فلسطين ٤٨ نزلا، وهي مماثل من حيث الدور التكايا الإسلامية.

ذكرت هذه المراكز عند:

Guinet Vital. Syrie Liban et Palestine. Paris (1896) p.546.

١١ — لقد زار المشرق العربي كثير من الرحالة الأوروبيين خلال القرنين الثامن

والتاسع عشر وتعتبر أوصافهم وإنتاجاتهم مصدر هام من مصادر دراسة تاريخ المشرق في تلك الفترة. ومن أشهر هؤلاء الرجال:

Voleny, Lortet, Burkardt, Thoson, Robeinson... ets.

١٢ — لقد جاء هذا الوصف المذكور، عند الرحالة ولیم هـ دكسون ترجمة سليمان موسى، رحلات في الأردن وفلسطين والأرض المقدسة. عمان ١٩٨٤ (نشر كمقال في جريدة الرأي ٣١/١٢/١٩٨٥).

١٣ — سليمان موسى، المصدر السابق.

١٤ — ابن شداد، عز الدين الحلبي المتوفى ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م. الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة. تحقيق سامي الدهان — دمشق ١٩٦٢، صفحة ٢٣٧.
١٥ — انظر دراسة عن سوق القطانين في القدس:

Galvin L. , Quelques notes sur suq al Qattanin et ses Annexes a' Jerusalem B.E.O tom XX (1967) pp 101-117.

انظر أيضا:

Ashbee. Jerusalem- 1918 -1920 Crop- New Industries. p30.

حول تسمية أوتزبر Otuzbir، ذكر أن بالقاهرة يوجد خان يحمل نفس الاسم ربما يرجع أصل التسمية إلى وحدة عسكرية تركية.

انظر أيضا:

M. Van. Berchem Materiaux Pouruncorpus in scriptioun arabicarum 1- Jerusalem (Ville), le Caire (1922) p.265.

١٦ — مجمر الدين الحنبلي. الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل. النجف — العراق، ١٩٦٨، صفحة ٧٨، ج ٢. انظر أيضا:

M. Van Berchem. Materaux.. p.300.

١٧ — الدباغ. الجزء السابع، ص ٣١٦.

١٨ — الدباغ. الجزء السابع، ص ٣١٦.

١٩ — الدباغ. الجزء السابع، ص ٢١٧.

٢٠ — درست وثائق غزة التي تعود إلى منتصف القرن التاسع عشر من قبل الدكتور عبد الكريم رافق، جوانب من التاريخ العمراني والاجتماعي والاقتصادي في غزة ١٢٧٣- ١٢٧٧هـ / ١٨٥٧ — ١٨٦١م. من خلال الوثائق الشرعية، نشرت: في مجلة دراسات تاريخية، العدد ٨، دمشق نيسان ١٩٨٢ (٧ — ٤٩). العدد ٩ و ١٠ دمشق تشرين ١ / ١٩٨٢ (٥ — ٣٩).

فسجل محكمة غزة محفوظ في مديرية الوثائق التاريخية بدمشق، وتألف من ٤٥٩ صفحة ويحتوي على حوالي ٣٧٤٥ وثيقة. (صفحة ٥).

٢١ — الدباغ. الجزء الخامس، صفحة ١٠٠.

٢٢ — وثائق حول المدن الفلسطينية واقتصادها، للقرن السابع عشر مستخلصة من الأرشيف العثماني. درست في كتاب:

Lewis Bernard et cohen Amnon Poptiation and Revence in the Towns of Palestine the XVII. un- New Jersey (1978) p.55.

٢٣ — الدباغ. الجزء الأول، صفحة ١٣٢.

Lewis, B. Poptiation.. p113.

— ٢٤

حول الوقف هو حبس عقار (مال غير منقول) وصرفه لجهة، وغيرها والخان كونه مؤسسة اقتصادية يعتبر من أكثر العقارات عائدا للدخل الذي يصرف ريعه لجهة خيرية لصالح مسجد أو مدرسة أو رباط، هذا وقد ورد في كتاب: Lewis, B "ذكر سابقا"، بالأرقام عن عائدات وكالات وخانات في القدس والخليل في القرن السابع عشر.

وذكر من الخانات الموقوفة: لقد أوقف صلاح الدين ٥٨٣هـ / ١١٨٧م حوانيت في منطقة الدباغة وخان الزيت في القدس لصالح الخانقاه الصلاحية وفي القرن الحادي عشر، أوقف خان بسوق القطانين — الغادرية — لصالح المدرسة الغادرية وكان يحتوي على علوي وسفلي ومخازن ودكاكين، وخان الحبالين بغزة أوقف لصالح المدرسة المالكية بالقدس ٧٥٧هـ / ١٣٥٦م، وقد أوقف على مدرسة السلطان الملك الناصر بن أيوب ٥٥٨هـ / ١١٩٢م، أوساق العطارين وخان في باب حطة بالقدس.

لقد ذكرت هذه الأوقاف في كتاب: كامل جميل العسلي، معاهد العلم في بيت المقدس، عمان ١٩٨١ (ص: ٦٤، ٢٠٧).

Burkhardt, John Lewis Travels in Syria and in the Holy Land. London — ٢٥ 1822. p.319.

٢٦ — الدباغ، صفحة ٤١٢

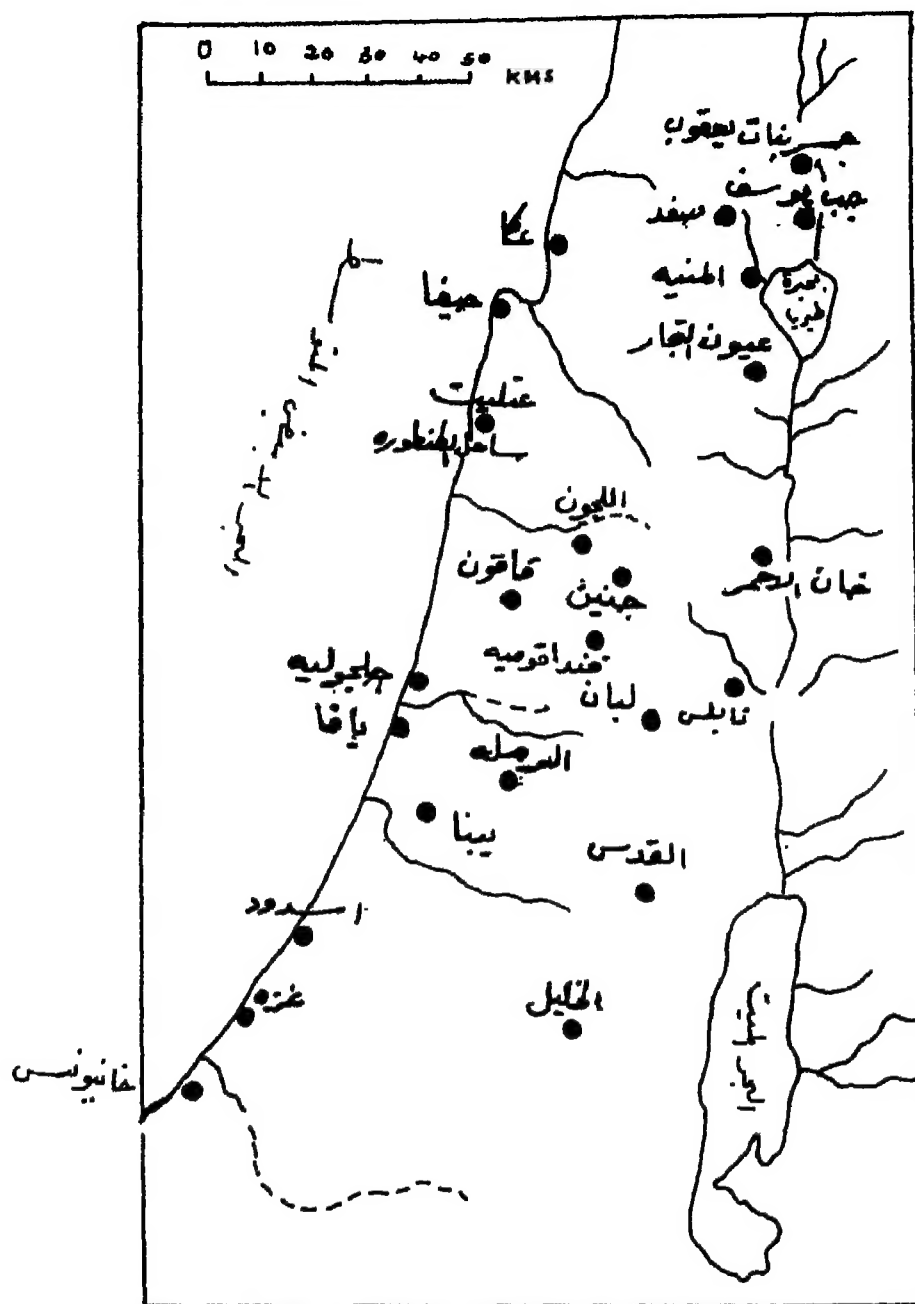
Thomson W.M. The Land and The Book. London (1893). أنظر أيضا

٢٧ — الدباغ: الجزء السادس، ص ١٧٧.

أنظر أيضا: عبد الغني النابلسي "توفي ١٦٨٩م" الحضرة الأنسية في الرحلة القدسية / ٦ وذكره أيضا المقدسي ٣٨٠هـ / ٩٩٠م. في كتابه "أحسن التقاسيم على معرفة الأقاليم" أنظر أيضا ابن بطوطة، الرحلة

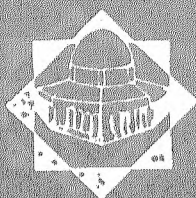
- Burkhardt. J. Travales.. p.343. — ٢٨
- ٢٩ — الدباغ: الجزء الثامن، صفحة ٣٨٤
- ٣٠ — الدباغ: الجزء الخامس، صفحة ٢٧٢.
- ٣١ — حول دراسة الأسواق وكل ما يتعلق بها: راجع المصادر المذكورة في الموسوعة الإسلامية (الطبعة الفرنسية) ١٩٣٤ الجزء الرابع (Suk pp.31-32)
- حول البازار والسوق في الشرق والعالم الإسلامي انظر:
- Wirth. E. Zum rpoplolem Bazar (suq- Carzi) dans, der Islam (no51 (1974) (pp260- 303) et, 52 (1975) (pp6- 46).
- Wirth. E: der Bazar von Isfahan wles baden 1978.
- أنظر أيضا دراسة هامة عن أسواق القاهرة في القرن الخامس عشر، تلك التي وردت في كتاب المقريري أحمد بن علي "توفي ١٤٤٢م" الخطط المقريرية، المواعظ درسها:
- Raymond, A et Wlet. a les marches du caire tradetion Annotee de text de Maqrizi. I.F.A.O. de Caire (1979)
- أنظر أيضا: Golvin (ذكر سابقا) ودراسته حول سوق القطنين بالقدس. نشر في مجلة Bultan etudes Orientale.
- Writh. E Der Bazar von Isfahan Wies badan 1978 p. 215. — ٣٢
- Raymond, Andree les marchee du Caire. p36. — ٣٣
- ٣٤ — الدباغ: الجزء العاشر صفحة ٦٩.
- ٣٥ — مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل: الجزء الثاني صفحة ٥٠.
- Golvin. L. Quelque notes.. p101. — ٣٦
- Golvin. L. Quelque notes.. p112 — نفس المصدر: ٣٧
- ٣٨ — مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، الجزء الثاني صفحة ٥٠.
- ٣٩ — مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، الجزء الثاني صفحة ٣٠٤.
- ٤٠ — ناصر خسرو (زار القدس ٣٤٨هـ / ١٠٧٤م)، سفرنامه — ترجمة د. يحيى الخشاب، بيروت ١٩٨٣. انظر أيضا الدباغ: الجزء التاسع صفحة ١٣٦.
- ٤١ — الدباغ: الجزء التاسع/ قسم ٢ صفحة ٣٠٧.
- ٤٢ — أوليا شلي. رحال تركي (١٦٢١ — ١٦٧٩م) زار القدس نحو ١٦٧٠م، ورد هذا الوصف عند الدباغ: جزء العاشر صفحة ٥٥-٥٦.

- ٤٣ — الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٤٠٩.
- ٤٤ — مجير الدين الحنبلي: الأنس الجليل، الجزء الثاني صفحة ٦٨.
- ٤٥ — الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٤١٢.
- ٤٦ — المقرئ، أحمد بن علي. السلوك في معرفة الملوك.
- تصحيح محمد مصطفى زيادة، دار الكتب المصرية ١٩٣٤، صفحة ٩٤.
- ٤٧ — الدباغ: الجزء السابع، صفحة ٢٤٩.
- لقد بنى الوالي العثماني سليمان باشا، خاناً في دمشق في سوق مدحت باشا ١٧٣٢
دعي باسمه وأحياناً عرف بخان الحماضة.
- ٤٨ — د. عبد الكريم رافق، جوانب من التاريخ ومجلة دراسات تاريخية — دمشق عدد
تشرين أول ١٩٨٢ (٩، ١٠) صفحة ٨.
- ٤٩ — Lewis. B Popalation.. p53, 131.
- ٥٠ — الدباغ: الجزء الأول، صفحة ١٠٠.
- ٥١ — الدباغ: الجزء الأول، صفحة ٣٠١، ٣٠٥.
- ٥٢ — مجير الدين الحنبلي. الأنس الجليل، الجزء الثاني، صفحة ٧٨.
- ٥٣ — الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٤٩٥.
- ٥٤ — الدباغ: الجزء السابع، صفحة ٥٠.
- ٥٥ — الدباغ: الجزء السادس، صفحة ٣٢٠.
- ٥٦ — عارف العارف، تاريخ القدس، دار المعارف، القاهرة ١٩٥١ / صفحة ١٢٥، ٢٠٩.
- ٥٧ — الدباغ: الجزء الرابع، صفحة ٢٢٠.
- ٥٨ — الدباغ: الجزء الأول، صفحة ٢٢٤.
- ٥٩ — الدباغ: الجزء الخامس، صفحة ٤٧١.
- ٦٠ — أخذت هذه المعلومات عن مقالة نشرت في مجلة: التراث الشعبي، العدد
الخامس — السنة الثامنة، بغداد ١٩٧٧. (عدد خاص حول التراث والفلكلور الفلسطيني).
- الأسواق الشعبية ونداءات الباعة (صفحة ١٨٣-١٨٤).
- انظر أيضاً حول موضوعة الأسواق الشعبية ونداءات الباعة، مجلة المشرق — المطبعة
الكاثوليكية — بيروت ١٩١٠. صفحة ٣٣.
- ٦١ — Thomson W.M. the Land and the book. London 1893.
- أنظر أيضاً: الدباغ: الجزء السادس صفحة ٤١٢ — ٤١٣.



شكل ١ خريطة تبيين مواقع الخانات بفلسطين

Palestine Archaeological Center



Studies in the History and Archaeology of Palestine

(Proceedings of the First International Symposium on Palestine Antiquities)

2001

